



بريان ستيفنسون

Bryan Stevenson

مُجَرَّد رَحْمَةٌ

J u s t M e r c y

قصة العدالة والفداء

ترجمة: ناهد رطروط



مجرد رحمة

الكتاب: مجرد رحمة

المؤلف: بريان ستيفنسون

ترجمة: ناهد رطروط

التصنيف: رواية

الناشر: دار مدارك للنشر

الطبعة الأولى: يونيو (حزيران) 2021

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: 8 - 743 - 429 - 614 - 978 ISBN:

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لمدارك. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي من مدارك.



Madarek مدارك
Madarek Publishing House دار مدارك للنشر

8470 طريق عثمان بن عفان، حي التعاون، الرياض، المملكة العربية السعودية
8470 Othman Bin Affan St, Al Taawun Dist, Riyadh, Saudi Arabia
Zip Code: 3844 - 12478 Riyadh, Saudi Arabia Tel: +966 114541148

mdrek.com

read@mdrek.com

DarMadarek

"مضرون" ... غلب الإنتاج مواد مترجمة تقدمها مدارك
مجهود الزملاء، من خلال الفاعل، الذي اختار أن يكون
الذكاء والفهم، هدية لأمة، منزة رحمة الله، حيث كانت ترفع
كالسحابة، وتغيب كالطير، وتخب العالم بشغف.

ترقي الدخيل

٢٠١١/٩/٢٥

شكر وتقدير

أود أن أتقدم بجزيل شكري وعرفاني لكل من ساندني أو قدم لي العون أو المشورة لإخراج هذا العمل، وأول من أتقدم لهم بخالص الشكر والعرفان والذي رحمه الله الذي طالما أمسك بيدي الصغيرتين منذ نعومة أظفاري، ليذهب بي إلى المكتبة لأقتني ما شئت من الكتب ليعمق في داخلي حب الأدب ويساعد تلك القدرة على الكتابة على النمو في أعماقي، وقد جاءت هذه الخطوة بعدما ألفت والدتي الغالية حفظها الله بذرة حب الأدب وعشق القراءة في داخلي، فلطالما رأيتها تقرأ وتقرأ في أوقات فراغها مما جعلني أسعى لتقليدها والقراءة مثلها، فكانت البداية، فشكراً يا غاليتي شكراً من أعماق قلبي وإن كان الشكر لا يوفيك حقك وشكراً لك أبي وليرحمك الله ويجزيك عني خير الجزاء.

وأود أن أقدم شكري الكبير لعائلتي الصغيرة زوجي الحبيب وأبنائي الأعزاء على وقوفهم إلى جانبي وإيمانهم بي منذ البداية، فلولاً دعم زوجي لي وتشجيعي على دخول الجامعة بعدما كبر أبنائنا، وتوفير الوقت اللازم للدراسة، ومن ثم الكتابة ما كنت لأصل إلى هنا، فشكراً زوجي الحبيب وشكراً أبنائي على دعمكم الدائم.

أرغب أيضاً في تقديم شكري العميق لأستاذتي الرائعة نورة الرشيد التي لولاها ما كنت لأجلس الآن هنا لأكتب تلك الكلمات، شكراً لأنك آمنتم بموهبتي ومنحتني ذلك الاستثناء لترجمة جزء من هذه الرواية العظيمة كمشروع تخرجي، شكراً لتحفيزك ولكلماتك الجميلة خلال فترة المشروع والتي حمستني لأسعى حقاً للبحث عن دار نشر تدعمني ليرى عملي النور.

وهنا حق علي تقديم الشكر الجزيل لدار مدارك التي فتحت لي الباب على مصراعيه لتحقيق هذا الحلم.

وأخيراً شكراً لأخواتي الحبيبات وصديقاتي الغاليات على كل ما قدمتن لي من دعم وتشجيع وتحفيز لأكمل هذا المشوار.

النشأ على رواية (مجرد رحمة)

«مذكرات قاتلة ومؤثرة ومثيرة للغضب... قد يكون بريان ستيفنسون، بالفعل مانديلا أمريكا، فهو من قاتل القضاة والمدعين العامين والشرطة لعقود من الزمن نيابة عن أولئك الفقراء والسود أو كليهما... من السهل عدم ملاحظة الظلم عندما يؤثر على أشخاص غيرنا؛ هذا يساعد على تفسير غفلة جيلنا عن الظلم اليوم. نحن بحاجة إلى الاستيقاظ. ولهذا نحتاج إلى مانديلا في هذا البلد».

نيكولاس كريستوف، نيويورك تايمز



«إن الظلم في نظام العدالة هو موضوع رئيسي في عصرنا... هذا الكتاب يجلب حياة جديدة للقصة من خلال وضعها في سياقين مؤثرين:

عمل ستيفنسون في الحياة والتوتر العميق جراء الظلم العنصري في الحياة الأمريكية. لست مضطراً للقراءة وقتاً طويلاً كي تبدأ الهتاف لهذا الرجل.

على الرغم من الصعوبات الهائلة، عمل ستيفنسون على تحرير عشرات الأشخاص من العقاب غير المشروع أو المفرط، المجادلة خمس مرات أمام المحكمة العليا... الكتاب لا يثني على نبلة، بل على نبل القضية، ويقرأ مثل دعوة للعمل لكل ما تبقى القيام به. رسالة هذا الكتاب -التي تتطرق إلى الهدف من خلال أمثلة درامية لرفض أحد الرجال الجلوس بهدوء وتحمل الرعب- هي أنه يمكن التغلب على الشر، ويمكن إحداث فرق. مجرد رحمة ستجعلك مستاءً وستجعلك متقائلاً... كان بريان ستيفنسون غاضباً بشأن [نظام العدالة الجنائية] لسنوات، وإذا كنا اليوم جميعاً بحال أفضل فالفضل يعود له».

تيد كونوفر، نيويورك تايمز مراجعة الكتاب



«سرد مفعم بالحيوية ومثير للصدمة... طوال الوقت، على الرغم من أن ستيفنسون أبقى على لحظات صغيرة من النعمة والتسامح والتشجيع والطف».

بوسطن جلوب



«متألق... إن تجارب (ستيفنسون) التي شاركنا إياها عالمية».

فيلادلفيا إنكوايرر

«قيمة ومقنعة... يجب أن تدرس في كلية الحقوق».

سياتل تايمز

«لا يوجد أحد في أمريكا وفقه الله للقيام بهذا العمل أكثر من بريان ستيفنسون... إنه يتعامل مع عدم الكفاءة والظلم، والبساطة الخاطئة والمربكة لنظام يعمل فوق طاقته والذي يطحن الكثير من الناس ويقدم أقل بكثير جدًا مما يفترض أن يقدمه، سواء للأشخاص الذين وقعوا فيه، أو للبلد الذي يفخر به ستيفنسون، لفترة من الوقت على أي حال، إن ما يبرر هذا الفخر، هو أنه إذا استطاع النظام إنتاج أشخاص مثله، فيمكن أن يكون عادلاً ورحيماً».

استقصر (أهم ٥ كتب لعام ٢٠١٤)

«يقدم أستاذ القانون المتميز بجامعة نيويورك ومستلم منحة ماك آرثر، قصة مقنعة للممارسة القانونية التي أسسها لحماية حقوق الناس على هامش المجتمع الأمريكي. فقد عملت منظمتها بلا كلل نيابة عن الرجال والنساء والأطفال رغم نقص التمويل والمتنل بشكل مزمن بسبب طلبات المساعدة. في هذه الأثناء، سيختبر ستيفنسون أيضاً أزماته الشخصية. ويكتب: «لا يمكنك محاربة السلطة المسيئة، أو الفقر أو عدم المساواة أو المرض أو الظلم بشكل فعال، دون أن تكسرك». ومع ذلك يخرج من اليأس، معتقداً أنه فقط من خلال الاعتراف بالانكسار يمكن للأفراد أن يبدأوا في فهمهم لأهمية التخفيف من العدالة الناقصة بالرحمة والشفقة. إن هذا الكتاب يقدم قراءة عميقة وضرورية عاطفية».

Kirkus مراجعات (مراجعة مميزة بنجمة)

«سرد متحمس للطرق التي تحبط بها أمتنا العدالة وتعاقب الفقراء والمحرومين بشكل غير إنساني».

قائمة كتب (مراجعة مميزة بنجمة)

«برايان ستيفنسون هذا الشاب الأمريكي نيلسون مانديلا، إنه محام بارع يقاتل الإدامة بشجاعة لضمان العدالة للجميع».

ديزموند توتو، الحائز على جائزة نوبل للسلام



«من الخطوط الأمامية للعدالة الاجتماعية يأتي واحد من أكثر أصوات عصرنا إلحاحاً، برايان ستيفنسون هو أنيكوس واقعي وعصري فينش الذي، من خلال عمله في تخليص الأبرياء المحكوم عليهم بالإعدام، سعى إلى تخليص البلاد نفسها. هذا كتاب ذو قوة وشجاعة عظيمة. إنها ملهمة ومثيرة للتشويق والوحي».

إيزابيل ويلكرسون، مؤلفة كتاب The Warmth of Other Suns



لقد أصبح نظام العدالة الجنائية الأمريكية أداة شريرة، وقد بذل براين ستيفنسون جهداً كبيراً وشاقاً وبمهارة كبيرة وعاطفة معتدلة، لتصحيح الأمور. قد تكون كلمات مثل مهمة ومقنعة قد فقدت قوتها من خلال الإفراط في الاستخدام، ولكن قراءة هذا الكتاب ستعيد لها معناها، إلى جانب آمال المرء في الإنسانية».

تريسي كيدر، مؤلف كتاب «جبال ما وراء الجبال»



في ذكرى أليس جولدن ستيفنسون

أمي

الحب هو الدافع، لكن العدالة هي الأداة.

رينهولد نيبور

مقدمة المترجم

العدل الحرية المساواة من أهم قيم الحياة والتي يفقدها يختل نظام الكون، ليسود الظلم والعنصرية البغضاء والتي أراها شخصياً أن يرى الإنسان نفسه زرافة في حين يرى الآخرين ذباباً، وهذا مبدأ فيه من إهانة الإنسانية وتحقير مشاعر البشر ما لا يستوعبه عقل أو يحتمله قلب، قد تكون هذه أحد أهم الأسباب التي جعلتني أختار هذه الرواية التي تتحدث عن فترة مظلمة من تاريخ أمريكا، أو تظهر الوجه الآخر للحلم الأمريكي، حلم المساواة والعدالة هذا

الحلم الذي لم يكن فيه أي لمحة من وجه أمريكا المظلم، أمريكا التي نهضت وارتفعت على جثث الهنود الحمر وازداد ارتفاع قامتها على آلام ومشاعر وأنقاض الأمريكيين السود من أصل أفريقي، الذين عاشوا الذل والقهر والحرمان على أراضي الحلم. هؤلاء الناس الذين انتقبت عنهم الحساء الأمريكية وكل ما أظهرته لهم هو وجه الساحرة العجوز التي لم تطعمهم سوى من التفاح المسموم، الذي قتل أحلامهم وأطفأ مستقبل أبنائهم وشرذ نساءهم، هذا ليس تجنيًا على الفاتنة الأمريكية التي سحرت قلوب الشباب وأبهرت عيونهم وإنما هو أحد الخيوط التي نسجت منها هذه الرواية بكل شخصياتها وما عانته من ألم وما ذرفته من دموع، حاولت أن تروي بها عطشها للحرية وللمستقبل مشرق طالما حلمت به. أكاد أجزم أنني مسحت بيدي دموع النساء ورأيت بعيني آثار هذا الظلم في عيون السجناء وسمعت أهاتهم، واجتاحني رعب اقتراب لحظات الإعدام، حتى إنني شممت رائحة جلد الفقراء المحروق جراء الإعدام بالكروسي الكهربائي.

نعم فهذه الرواية واقعية وشخصياتها من لحم ودم عاش معهم الكاتب ولمس بيده معاناتهم، فالكاتب بريان ستيفنسون Bryan Stevenson، كان محامياً أمريكياً وناشطاً في مجال العدالة الاجتماعية ومؤسساً ومديرًا تنفيذي لمبادرة المساواة في العدالة، وأستاذًا مقيمًا في كلية الحقوق بجامعة نيويورك.

وأخيرا أحب أن أنوه عن أن الرواية تضرب أعماق الإنسانية وتستحق القراءة من قبل الجمهور العربي الذواق، الذي يقدر قيمة الأدب الهادف ذي الرسالة، وما أروعها من رسالة تلك التي تدعو لنبذ العنصرية والدفاع عن حقوق المستضعفين.

مقدمة المؤلف

الأرض المرتفعة

لم أكن مستعداً لمقابلة شخص محكوم عليه بالإعدام .

بدأت حكايتي في عام ١٩٨٣م حيث كنت في الثالثة والعشرين من العمر، وكنت عندها طالباً في كلية الحقوق في جامعة هارفرد، وتلقيت تدريبي في فرع الجامعة في جورجيا، كنت حينها متوجساً وعديم الخبرة، وقلقاً من تمرد بنات أفكاري على عقلي، لم أكن قد رأيت ما بداخل سجن مشدد الحراسة من قبل وبصراحة لم أستطع مقاومة الذعر الذي بدأ يجتاحني، عندما علمت أنني سأزور رجلاً ينتظر تنفيذ حكم الإعدام في جورجيا في سجن خارج جاكسون -وهي بلدة نائية في الجزء الريفي من الولاية- وحدي دون مرافقة محام لي، فاضطرت للقيادة بنفسني متجهاً إلى الطريق ١٧٥ جنوب أتلانتا. كانت نبضات قلبي تزداد عنفاً كلما اقتربت حتى شعرت أنها ستكسر ضلوعي لتحلق بعيداً، في الحقيقة لم أكن أعلم شيئاً عن عقوبة الإعدام، حيث إنني لم أكن قد درست الإجراءات الجنائية بعد، كما أنه لم يكن لدي الفهم الأساسي لمتطلبات الاستئناف المعقدة، التي تشكل الدعوى القضائية بشأن عقوبة الإعدام، والتي ستصبح في وقتها مألوفة لي كباطن كفي.

حقيقةً عندما سجلت في هذا التدريب لم أعطه الكثير من الأهمية، فكرت كيف سأكون مع هؤلاء السجناء المدانين، ياإلهي... لأكن صادقاً لم أكن أعرف إذا ما كنت أريد أن أكون محامياً حتى.

بصراحة كان يقيني بخيبة أمل هذا الرجل حين يراني كيقيني بزرقة ماء البحر، وسرحت بخيالي قليلاً في بدايات دراستي الفلسفة وكيف أنني حتى سنة التخرج لم أكن أعلم بأن أحداً لن يدفع لي مقابل فلسفتي، عندما أخرج لذا وجب علي أن أعيد ترتيب أوراقى وقادني بحثي المحموم عن خطة بديلة للطريق الذي يجب علي أن أسلكه بعد التخرج إلى كلية الحقوق، حيث إن جميع الدراسات العليا الأخرى تحتاج إلى أن تعرف شيئاً عنها خلال دراستك، لكن كلية الحقوق على ما يبدو لا تحتاج لأي معرفة حيث بإمكانك دراسة الحقوق في هارفرد بينما تتابع دراستك العليا في السياسة في مدرسة كينيدي الحكومية. في الواقع لم أكن واثقاً مما أريده من هذه الحياة بعد، كل ما أعرفه أن ما أريده له علاقة بحياة الفقراء في أمريكا، ذات التاريخ العريق في العنصرية، والنضال من أجل القضاء على التمييز العرقي وتحقيق المساواة بين كل أفراد الشعب وحصول جميع الأمريكيين على حقوق متساوية. كل هذا كان له علاقة بما رأيت وسمعت في حياتي إلا أنني لم أتمكن من رسم صورة متكاملة وواضحة الملامح في ذهني ضمن إطار المجال الوظيفي الذي أود العمل فيه بعد .

بعد فترة قصيرة من بدء دراستي في هارفرد بدأ القلق يلقي بظلاله القاتمة على رأسي حول مدى صحة اختياري لدراسة القانون. نعم، فقد قدمت من كلية صغيرة في ولاية بنسلفانيا وكنت أعتقد أنني ارتديت ثوب الحظ عند قبولي في هارفرد، ولكن مع نهاية العام شعرت بخيبة الأمل، فكلية الحقوق في هارفرد في ذلك الوقت كانت مكاناً تعشش أشباح الرعب في زواياه، لاسيما بالنسبة لطالب في الحادية والعشرين من العمر، حيث كان الأساتذة يعمدون لاستخدام الطريقة السقراطية؛ طريقة

الاستجواب المباشر والتكراري والعدائي والتأثير العرضي لإهانة الطلاب غير المؤهلين، والدورات التي بدت مقتصرة على فئة معينة والانفصال عن القضايا العرقية ومرارة الفقر التي يتجرعها الفقراء، كل هذا دفعني للنظر إلى القانون في المقام الأول.

لقد حصل العديد من الطلاب على درجات علمية متقدمة أو عملوا كمساعدين قانونيين في شركات قانونية مرموقة، أما أنا فلم أكن أملك أيًا من تلك الوثائق، ما أشعرنني بالدونية وأنني أقل خبرة من باقي زملائي .

عندما بدأت الشركات القانونية تجري المقابلات في الحرم الجامعي بعد بداية الدراسة بشهر واحد، وكُل زملائي بالدعاوى باهظة الثمن ووقعوا لكي يحصلوا على تذاكر الطيران إلى نيويورك ولوس أنجلوس وسان فرانسيسكو، أو إلى واشنطن العاصمة.

بالنسبة لي كان الغموض يغلف ذلك الحماس الذي كان يسيطر علي أثناء تحضير نفسي للقيام بكل هذا، وهذا طبيعي فأنا لم ألتق بمحام قبل التحاقني بكلية الحقوق. قضيت الصيف الذي تلا سنتي الأولى في كلية الحقوق في العمل على مشروع قضاء الأحداث في فيلادلفيا.

بدأت دراسة السياسة في سبتمبر ومع ذلك مازلت أشعر بعدم القدرة على التواصل، ومن جهة أخرى أخذت دورات ليلية في التفاضل والتكامل استعداداً للسنة القادمة في مدرسة كينيدي، كان المنهج مكثفاً للغاية وكان يركز على زيادة الفوائد وتقليل التكاليف دون القلق بشأن تلك الفوائد، بينما يحفز فكرياً نظرية القرار والاقتصاد القياسي ودورات مماثلة دغدغت روحي بشعور رائع، ولكن فجأة حدث ما قلب الموازين عندي، حيث اكتشفت أن كلية الحقوق ستقيم دورة استثنائية مكثفة لمدة شهر واحد حول العرق والتفاضل بشأن الفقر، يدرسها بيتسي بارتولت، أستاذ القانون الذي عمل محامياً مع صندوق الدفاع القانوني. NAACP

وعلى عكس معظم الدورات جرت هذه الدورة خارج الحرم الجامعي حيث تطلبت العمل لمدة شهر مع منظمات تطبق العدالة الاجتماعية. سجلت في هذه الدورة وانتظرت بدء الدراسة بفارغ الصبر، لأجد نفسي فجأة في ديسمبر / ١٩٨٣م في الطائرة المتجهة إلى أتلانتا جورجيا حيث كان من المقرر أن أقضي بضعة أسابيع في العمل مع لجنة الدفاع عن السجناء في الجنوب (SPDC).

لم أتمكن من تحمل نفقات رحلة مباشرة إلى أتلانتا، لذلك اضطررت إلى النزول مؤقتاً في شارلوت كارولاينا الشمالية، وهذا هو المكان الذي جمعتني بستيف برايت، مدير الذي كان، SPDC، الأعياد. كان ستيف في منتصف الثلاثينيات وكان لديه الشغف يستقل الطائرة للعودة إلى أتلانتا بعد في كنتاكي وانتهى به الأمر الذي بدأ ينعكس مباشرة على ازدواجيتي. لقد كبر في مزرعة اليقطين من خلال من دراسته في كلية الحقوق. وقد أثبت أنه محام بارع في واشنطن العاصمة، بعد الانتهاء SPDC كولومبيا وكان قد عُين للتو لتولي مهمة عمله كمحام في خدمة الدفاع العام عن مقاطعة، التي كانت تعمل على مساعدة الأشخاص المحكوم عليهم بالإعدام في جورجيا.

كان يبحر في بحر القانون بانسجام تام بين عمله ومعتقداته، التي لمستها في الكثير من أساتذة

القانون.

عانقتي بحرارة عندما التقينا وغبنا معاً في حديث طويل، لم يوقظنا منه إلا صوت المضيفة وهي تطلب من ركاب الطائرة الالتزام بمقاعدهم وربط الأحزمة إيداناً بهبوط الطائرة. وقد قال لي في مرحلة ما من الرحلة

ستيف: «بريان أعرف ما معنى عقوبة الإعدام؟ إنها تعني أنه بدون رأس مال لن نستطيع الدفاع عن أولئك المحكوم عليهم بالإعدام، دون مساعدة أشخاص مثلك»

لقد فوجئت باعتقاده وتصريحه المباشر بأن لدي ما أقدمه، خصوصاً أنه كان منفِعلاً ومتأثراً جداً أثناء حديثه عن القضايا وعن عقوبة الإعدام، وقد تفاعلت مع حديثه وعلقت على كل كلمة قالها، ساعدني في ذلك التلقائية والجاذبية التي يتمتع بها.

ستيف: «كل ما أرجوه أن تأخذ ما يجري حولك على محمل الجد وألا تستهين بأي شيء تراه هنا» .

أنا: «بالتأكيد لا، فأنا ممتن جداً لأن الفرصة سنحت لي للعمل معك»

ستيف: «فرصة! حسناً قد لا تكون هذه الكلمة أول ما يلوح في أفق من يعمل معنا، فحياتنا بسيطة نوعاً ما كما أننا نمر بأوقاتٍ عصيبة» .

أنا : « هذه ليست مشكلة بالنسبة لي»

ستيف: « حسناً، في الواقع قد نوصف بأننا نعيش بأقل الإمكانيات، كالفقراء الذين يصارعون أقدارهم ويكافحون ليبقوا على قيد الحياة ويعيشون على عطف الغرباء وصدقاتهم التي تبدو كأموال البحر التي ترسو كل يوم على شاطئٍ مختلف دون أن تنعم بدفع الاستقرار».

قلت ساخراً: «يبدو أنني تخليت عن قلقي».

وضح: «إني أمزح فقط... نوعاً ما».

ثم تحدث في مواضيع مختلفة وكان عقله يدعم روحه طوال الوقت في تعاطفها ووقوفها بجانب المدانين الذين يعانون من المعاملة السيئة في السجون، وهذا يؤكد على روعة الالتقاء برجل حرك عمله دفة حياته.

عندما وصلت في فصل الشتاء كان هناك القليل من المحامين العاملين في SPDC، كان معظمهم محامي دفاع سابقين من واشنطن قدموا إلى جورجيا في محاولة منهم لوقف الأزمة المتنامية، حيث لم يتمكن سجناء الموت من توكيل محامين للدفاع عنهم. لقد كان الجميع هنا؛ الرجال والنساء البيض والسود يشعرون بالراحة للعمل معاً، فقد كانوا يتشاركون المهام والأمال كما يرزحون تحت نفس الضغوط الناتجة عن التحديات التي يواجهونها، فبعد سنوات من الحظر عادوا لتنفيذ أحكام الإعدام مرة أخرى في أعماق الجنوب، ومعظم المحتشدين بانتظار حكم الإعدام ليس لديهم محامون ولا يحق لهم الاستعانة بأحدهم، لقد كان خوفنا على أولئك الناس الذين سوف تنفذ فيهم أحكام الإعدام

دون أن يحظوا بفرصة ليتولى محام ماهر قضاياهم، يفرض هيئته وحضوره القوي على الجميع، حيث كنا نتلقى مكالمات محمومة يومياً من أولئك الذين ليس لديهم محام قانوني، ومواعيد تنفيذ أحكام الإعدام ضدهم تلتهم التقويم بشراسة لتهدد حياتهم ومستقبلهم وتقتل الأمل في قلوبهم نعم لقد سمعت أصواتاً شوه اليأس ملامح الحياة فيها.

عندما بدأت التدريب العملي أسرني الجميع بلطفهم فشعرت وكأنني في بيتي فعلاً.

يقع مبنى Healey في وسط مدينة أتلانتا في مبنى SPDC وهو مبنى مكون من ستة عشر طابقاً، بني على هيكل في أحياء القوطية في أوائل القرن التاسع عشر والذي كان يتكبد الخسائر بسبب الانخفاض الكبير في عدد المستأجرين.

عملت في دائرة مزدحمة بالمكاتب مع اثنين من المحامين وكنت أقوم بالأعمال الكتابية و الرد على الهاتف والبحث في المسائل القانونية للموظفين.

كنت أحاول الحصول على تسوية، وهي أحد الأعمال المكتبية الروتينية، عندما كلمني ستيف ليطلب مني الذهاب لملاقة السجين المحكوم عليه بالإعدام والذي لا يجد أحد غيري الوقت لزيارته، شرح لي ستيف وضع الرجل؛ فهو رجل حُكم عليه بالإعدام منذ أكثر من سنتين إلا أنه إلى الآن ليس لديه محام يتولى قضيته، أما بالنسبة لمهمتي فكانت تتلخص بأن أوصل للرجل رسالة مفادها: (لن) ينفذ حكم الإعدام بك في السنة القادمة).

انسابت سيارتي بين جنبات المزارع المحفوفة بأغصان الأشجار التي ارتدت حلة زاهية من الثمار لترصع الطرقات الريفية في جورجيا، ولم يقطع ترنم النسيم العليل إلا صوت بنات أفكارى، وهي تردد مراراً وتكراراً الكلمات التي سوف أقولها للرجل حين ألقاه

ورغم كل الحوارات والعبارات التي كانت تتصارع في رأسي، إلا أن واحدةً منها لم تستطع فرض سطوتها على الآخرين، وهنا قررت التدخل لفض النزاع فجربت

بريان: «مرحباً اسمي بريان، أنا طالب في.....». لا لا لا

- «اسمي بريان ستيفنسون،

متدرب قانوني في لجنة الدفاع عن السجناء الجنوبيين. وأنا هنا اليوم لأخبرك بأنه لن يتم تنفيذ حكم الإعدام بك قريباً».

- «لن تُعدم قريباً» لا... لا من الأفضل «اطمنن عزيزي فلست معرضاً لخطر تنفيذ حكم الإعدام قريباً» لا... يا إلهي، وواصلت المحاولة حتى وصلت إلى سياج من الأسلاك الشائكة التي تتوعد بالويل والثبور كل من يحاول الإقتراب منها وبرج الحراسة الأبيض في مركز جورجيا للتشخيص والتصنيف، الذي يقف شامخاً كأنه يراقب تلك الأسلاك ليتأكد من أنها تقوم بعملها على أكمل وجه، وبأن أشواكها لا تزال شابة فتاكة ولم تهرم أوتفقد حدتها بعد. كنا في المكتب قد أطلقنا عليه اسم (جاكسون) لذا كانت رؤية الاسم الحقيقي للمرفق يحتل اللافتة أمراً مزعجاً لي.

أوقفت سيارتي ووجدت طريقي لدخول السجن، سرت داخل المبنى الرئيسي والذي يضم بين جنباته، أولئك الذين هجرهم حظهم وتخلت عنهم دنياهم لتلقي بهم في براثن تلك الممرات المظلمة المسورة، التي بدت وكأنها ستطبق عليهم بقضبانها المعدنية لتحجب، لو استطاعت وصول الضوء والهواء لهم، مما يثبت أقدام اليقين في نفس الزائر بصعوبة العيش وكم الألم الذي يحتل قلوب ساكني هذا المكان. مررت خلال نفق للوصول لمنطقة الزيارة القانونية، إلا أن خطواتي على أرضية السيراميك الناصع كانت قاسية بما يكفي لتصرخ هذه الأخيرة بصدى مشؤوم، وعندما أخبرت الضابط المسؤول عن الزيارة وأني مرسل بشكل شبه قانوني للقاء سجين محكوم عليه بالإعدام، نظر إلي بطريقة أثارت الريبة في نفسي وكأنه ينتقم للأرض التي تثبت أقدامه، وداسها أقدامى بقسوة منذ لحظات.

كنت أرتمي البدلة الوحيدة التي أملكها والتي من المؤكد أنها شهدت أياماً أفضل من هذا اليوم. مال الضابط برأسه جانباً وكأن هذا الرأس أصيب بالتحمة فلم يعد قادراً على البقاء مستقيماً، من شراهة عينيه التي كانت تلتهم رخصة قيادتي بقسوة، قبل أن يقول: «يبدو أنك لست من هذه المنطقة». كان تقريراً أكثر من كونه سؤالاً

أنا: «كلا سيدي، حسناً أنا أعمل في أتلانتا»

بعدما اتصل بمكتب السجن لتأكيد هذه المعلومات، أكرمني باعترافه بي .

لقد قاموا بجدولة زيارتي بشكل صحيح، وأخيراً قام الضابط بإرشادي إلى غرفة صغيرة حيث ستتم المقابلة.

قال لي الضابط محذراً وساخراً : «لا تَضِع هنا، فأنا لا أعدك بأننا سنأتي للعثور عليك» .

كانت تلك الغرفة عبارة عن عشرين قدماً مربعاً من الذل، جدرانها جُبلت بالقهر أرضيتها لُونت بالشقاء بعدما نُثرت عليها القليل من المقاعد المبتورة بلا ظهر أو ذراعين- وكانت تتلوى أمام تلك المقاعد شبكة سلكية وكأنها أفعى تتوعد من يدخل هذه الغرفة، حيث تمتد من حافة صغيرة إلى ارتفاع اثني عشر قدماً وصولاً للسقف الذي يقطر ألماً.

كل ما في هذه الغرفة صُنع من المعدن عديم الإحساس، القادر على خنق من يوجد فيها بمنتهى البرود. كانت الغرفة مجرد قفص فارغ قبل أن أخطو داخلها وكانت مخصصة لتشهد فرحة لقاء السجناء بعائلاتهم كما تشهد على ألم فراقهم، وكانت رغم قسوتها تتحول للحظات إلى حضنٍ دافئ يربت على القلوب التي أنهكها البعد وكسرها القلق والخوف من مصير مجهول لا يعلم نهايته إلا الله. كان السجناء والزائرون يجلسون على مقاعد متقابلة داخل جدران الشبكة السلكية ويتحدثون إلى بعضهم من خلال أسلاكها.

أما الزيارات القانونية، فكانت زيارات اتصال حيث كان كل منا يجلس في نفس الجانب للسماح بمزيد من الخصوصية. كانت الغرفة صغيرة وكأن جدرانها ستعانق بعضها، وعلى الرغم من علمي بأن الشعور الذي يعتريني كاذب، إلا أنني شعرت أن هذا الجزء أصغر من الجزء الثاني. بدأت أشعر

بأن القلق عاد ليغزو عقلي ويفرض سطوته على مشاعري حول عدم استعدادي لهذه المهمة.

كان من المقرر أن يمتد لقائي مع العميل لساعة واحدة، إلا أنني لم أكن أعلم ماهية شعوري خلال الخمس عشرة دقيقة القادمة . جلست على أحد المقاعد وانتظرت خمس عشرة دقيقة، إلا أن قلقي رفض أن يهدأ ولعب معي دور الطفل الشقي، الذي بعثر روحي ونثر ما تبقى داخلي من هدوء في كل مكان كما ينثر ألعبه في أرجاء غرفته.

أخيراً استقبلت أذناي أصوات زمجرة تشابك السلاسل التي شعرت أنها تقيد روح هذا الرجل قبل قدميه وكأنها تعلن أنه ما من قوة قادرة على إعتاق روحه أو فك أسره، انفتح الباب عن رجل على ما يبدو أنه أكثر قلقاً مني، فقد شعرت أن قلقه لم يبعثر روحه فقط وإنما بعثر حياته أيضاً، فترك بصماته على وجهه الثمل، ولم تكن نظراته النათة أفضل حالاً حيث تجنب النظر إلي.

تسمر الرجل عند مدخل غرفة الزيارة وكأن أغلاله ثبتت أقدامه على عتبتها فلم يتحرك، كان شاباً أمريكياً من أصول إفريقية، متوسط البنية أنيق المظهر، ذا شعر قصير وذقن حليقة ناعمة، كأن الشعر لم يجد طريقاً له بين مسامها، أما ملابسه فكانت أكثر بياضاً من أيامه في هذا السجن الذي كسا لحظاتها بالسواد. لقد بدا على الفور مألوفاً لي، وكأنه أحد أصدقائي الذين تقاسمت معهم لحظات طفولتي في المدرسة أو أحد أولئك الذين مارست معهم الرياضة أو عزفت معهم الموسيقى، أو كأني شخص قد أراه في الشارع وأتكلم معه عن حالة الطقس. قام الحارس بفك أغلاله ببطء وكأنه ينزع عن نفسه ثوب الحياة، ثم أزال قيود يديه والأغلال حول كاحليه، بعدها ركز نظره علي وكأنني كائن أسطوري، خرج من كتاب ألف ليلة وليلة، أما أنا فشعرت أن جفوني استجابت لاشمئزاز نفسي من هذا الحارس فأغلقت على عيني كي تحجب عنها ظله البغيض، حتى قال لي بصوته الأجش:

-«لديك ساعة واحدة». لقد بدا الاستمتاع جلياً على وجه الضابط لشعوره بالتوتر وعدم الارتياح الذي فرض سيطرته علي وعلى السجنين، ثم ابتسم لي ابتسامة بغیضة يسكنها اللؤم قبل أن يستدير ضارباً الأرض بكعبه ليترك الغرفة. أغلق الباب خلفه بقسوة جعلت الباب المعدني يصرخ ليتردد صداه في المساحة الصغيرة .

لم يقترب الرجل المحكوم بالإعدام مني أبداً، وعن نفسي لم أكن أعلم ما الذي يتعين علي فعله فتوجهت إليه ومددت له يدي فهزها بحذر، ثم جلسنا وبدأ هو بالحديث أولاً .

-«أنا هنري»

رغم الصراع الفظيع بين الكلمات التي اتخذت من رأسي أرضاً لمعركتها إلا أن من فاجأتني بانتصارها وفرضت قوتها وخرجت من بين شفتي كانت كلمة

«أنا آسف» «أنا آسف حقاً، آه... يا إلهي... أنا حقاً آسف، أعرف أنك تنتظر أن تسمع مني الكثير ولكنني لا أستطيع أن أقول لك ما تود سماعه، لأنني ببساطة لا أعرف الكثير.

ثم نظر إلي بعينيه التي أطفاً الخوف بريقهما، نظرة سكنها القلق وقال لي:

«هل تسير قضيتي على ما يرام؟»

كان صوته يعزف لحن الترجي بأن لا يسمع مني ما يفتت مابقي في قلبه من ذرات الأمل.

أنا : «نعم، نعم يا سيدي، لقد أرسلني محامو الـ SDPC إليك لأخبرك بأنه لم يستلم قضيتك أي محام إلى الآن، لكن النبا السار هو أنك في مأمن من تنفيذ حكم الإعدام خلال العام القادم، وربتُ على كَتفه وقلت مطمئناً إياه :

- «نحن لم ننس قضيتك ونعمل بكل قوتنا لإيجاد محام (محام حقيقي) لك، ونأمل أن يكون هنا خلال أشهر قليلة للتواصل معك». وأكملت

- «أنا مجرد طالب في كلية الحقوق، يسعدني أن أقدم لك أي مساعدة، أعني إذا كان هناك ما أستطيع فعله».

قاطع الرجل ثرثرتي عندما أمسك بيدي بسرعة ولهفة، وكأنها طوق النجاة من الغرق في بحر اليأس، والخروج من غياهب الموت المحقق الذي ينتظره في كل زاوية من هذا السجن

هنري بصوتٍ يضج بخليط غريب من مشاعر الفرح والخوف واللهفة وعدم التصديق والتعجب، التي بعثت الكلمات على لسانه لتندفع في كل اتجاه وبتلعثم قال :

- «لن ينفذ بي حكم الإعدام في أي وقت من السنة القادمة؟؟؟!!»

- « لا يا سيدي، لقد قالوا إنهم يحتاجون لسنةٍ على الأقل قبل تنفيذ حكم الإعدام بك». لم تكن تلك الكلمات كافية لتبعث على الراحة بالنسبة لي، لكن بالنسبة لهنري فقد كان لها وقع مغاير تماماً، فقد ضغط علي يدي بقوة أكبر وأحكم قبضته عليها، وكأنه يخشى من ضياع طوق النجاة الذي سيوصله إلى بر الأمان وقال بنفس التلعثم والسرعة وشبح ابتسامةٍ مترددةٍ يلوح على شفثيه:

- «شكراً لك!! أعني شكراً لك حقاً هذه أخبارٌ عظيمة يا رجل». لقد كانت كتفا الرجل مستديرتين، وكأنهما تبرأتا من ظهره وأعلنتا أنهما لم تعودا قادرتين على تحمل المزيد من الذل والقهر، ثم فجأة قال لي بشروءٍ وخنوعٍ وأسى أراح شبح تلك الابتسامة عن شفثيه :

هنري: «أتعلم؟؟ أنت أول شخص أقابله منذ عامين أي منذ صدور حكم الإعدام ضدي، عدا حراس السجن أو أشخاص آخرين حكم عليهم بالإعدام»

وعاد شبح الابتسامة للظهور على شفثيه عندما قال :

-«أنا سعيدٌ جداً لأنك هنا، فأنت بشرى الخير التي أرسلها الله لي، وبريق الأمل الذي أضاء عتمة هذا القبر الذي دُفنت فيه قبل أن يُنفذ بي حكم الإعدام » وخرجت من صدره زفرة طمأنته بقوة أنها ستأخذ معها ما في هذا الصدر من نيران لتتركه ينعم بجنة الأمان ولو لفترة قصيرة.

هنري: «لقد تحدثت إلى زوجتي هاتفياً، ولكني لم أرغب في أن تأتي لزيارتي مع الأولاد لأنني كنت أخشى أن يباغتهم نبا تنفيذ الحكم، ولم أكن أرغب في أن يكونوا هنا عندما تقرر الحياة تخليها

عني وعدم رغبتها في أن أبقى على قيدها. لم أكن أريد لأطفالي أن يروا الموت يُنشب مخالبه في جسدي بقسوة. لكن الآن سوف أقول لهم أن يأتوا لزيارتي فقلبي عَطَشٌ ويحلم بأن يرتوي برؤيتهم . شكرًا لك !».

كنت مندهشاً من السعادة التي رفرت بجناحيها عليه، إلا أنني شعرت بالراحة والاسترخاء أنا أيضاً، ثم بدأ الحديث يرسم خطأ يصل بين كل منا واتضح لي أنني وهنري الذي أخذ أحداً يسأل الآخر عن حياته، في نفس العمر بالضبط. وخلال هذه الساعة انفصلنا عن الواقع لنذهب بعيداً في حديث خضنا من خلاله في كل شيء تقريباً، حدثني عن عائلته وعن محاكمته وسألني عن عائلتي وعن دراستي للحقوق، تحدثنا عن الموسيقى وعن السجن وعن ماهو مهم في الحياة وماهو غير مهم، لقد كنت غارقاً تماماً في الحديث معه، ورأيت عينيه تشعان عندما كنا نضحك معاً ورأيت أنه عندما تحكمت فيه مشاعره وقادته للحزن.

كنا مستغرقين بالأحاديث عندما سمعنا صوت انفجارٍ مدمٍ عند الباب، عندها أدركت أنني سأبقى بعد الوقت المخصص للزيارة القانونية.

نظرت إلى ساعتني، لقد قضيت ثلاث ساعاتٍ هنا .

دخل الحارس إلى الغرفة وذكرني دخوله بأسطورة التنانين التي كانت تقذف النيران من أفواهها لتحرق كل ما يصادفها من الغضب، ولسوء حظنا كنا نحن كل ما واجهه، فألقى نيران كلماته في وجهي وهو يقول : « كان من المفترض أن تنتهي هذه الزيارة منذ وقتٍ طويل ويجب أن تغادر الآن». ولم يكن نصيب هنري من حممه بأقل من نصيبي، حيث كان في قمة غضبه وكأن الشيطان سكن روحه وجسده لينتقم من كل أبناء آدم في هنري المسكين، فقام بتكبير يديه وقدميه بشدة وأحكم إقفال الأغلال حول خصره حتى كاد أن يكسره، وقد ألمني منظر هنري وهو يتلوى من الألم فقلت له:

- «إن هذه الأغلال مشدودة بشكل قاس، هل لك بتخفيفها قليلاً؟»

الحارس: «أظن أنني أمرتك بالمغادرة من هنا، كما أنني لا أحتاج من يعلمني كيف أقوم بعملتي»

هنري: «لا تقلق يا بريان هذا لا يهم فقط عد لزيارتي مرة أخرى»

لقد كنت مذهولاً من الوحشية التي تعامل بها السجناء مع هنري وبدأت أهمهم

- «أنا آسف، صدقني أنا أعا....».

فقاطعني قائلاً: «لا تقلق أنا بخير فقط عد مرة أخرى لتراني، اتفقنا؟»

نظرت إليه وجاهدت لأقول له شيئاً مناسباً، شيئاً مطمئناً، شيئاً يعبر عن امتناني لصبره معي لكنني لم أستطع، فالقسوة التي يعامل بها هنري قيدت لساني كما قيدت يديه وروحه الجميلة التي رسمت على وجهه ابتسامة هادئة، كان الحارس يدفعه نحو الباب لكن هنري استمر بالابتسام لي عل وعسى أن تطفئ ابتسامته البركان الذي يغلي في صدري من تلك المعاملة التي يتلقاها، واستمر

الحارس بدفعه حتى خرج من الغرفة، إلا أن هنري غرس قدميه في الأرض في محاولة منه لمقاومة الحارس ورغم ذلك كان يبدو هادئاً، وفجأة قام بما لم يخطر لي على بال رأيتُه يغلق عينيه ويرجع برأسه للخلف، لقد كنت مشوشاً فلم أكن أعلم ما ينوي فعله ولكنه بعد ذلك فتح فمه وكأنه يستنشق الحرية وعندها فهمت لقد بدأ بالغناء!! لقد كان يملك صوتاً جهورياً رائعاً، كان صوته أقوى من تلك القضبان التي تحاصر حريته، وأوضح من الشمس التي على ما يبدو أنها قررت أن تقتحم هذا السجن المظلم المحظور عليها دخوله من بين شفتيه، مما أذهلني والحارس الذي توقف عن دفعه.

«أنا أقف على الطريق الصاعد

آفاق جديدة أصل لها كل يوم

لازال أصلي كما أنا

يارب ازرع قدمي في الأراضي المرتفعة».

إنها ترنيلة قديمة كانوا يغنونها في الكنيسة حيث ترعرعت، ولكني لم أفعل ذلك يوماً سمعت ذلك منذ سنوات، لقد غنى هنري ببطء وبمنتهى الإخلاص والإيمان.

وماهي إلا لحظة قبل أن يتدارك الحارس نفسه ويستأنف دفعه للخارج ويكبل يديه إلى ظهره ثم يربطهما عبر سلسلة بكاحليه، كاد هنري أن يتعثر عندما دفعه الحارس، لذلك كان عليه أن يتمهل كي لا يقع ومع ذلك استمر في الغناء. لقد ملأ صوته أرجاء المكان حتى شعرت أنه طرد أشباح الخوف التي تعشش في زواياه فقد كنت مازلت أسمع صوته رغم جلوسي في القاعة:

يا رب ارفعني، ودعني أقف

بالإيمان على أرض السماء

طائرة أعلى، التي وجدت

يا رب، ازرع قدمي في أرض مرتفعة».

فاجأتني الرغبة التي ملأت صوت هنري، واستقبلت أغنيته كهدية ثمينة فعندما جئت إلى السجن كان يقودني الخوف والقلق من استعداده لتحمل تقصير بلدي في حقه كمواطن.

لقد كان كريماً وعطوفاً على عكس توقعاتي، في الحقيقة لم يكن لدي الحق في توقع أي شيء من رجل محكوم عليه بالإعدام إلا أنه أدهشني بمدى إنسانيته التي قد تشفي جروح المظلومين في العالم، في هذه اللحظة فقط استطاع هنري أن يغير فهمي للإمكانات الإنسانية كالفداء والأمل.

لقد أنهيت فترة عملي التي ألزمتني بمساعدة السجناء المحكوم عليهم بالإعدام في هذا الشهر. إن قربي من السجناء والمدانين جعلني أشعر تجاههم بعاطفة، هزت كياني وولدت في داخلي إحساساً بأن مسألة كل منهم الإنسانية أكثر إلحاحاً ولها مغزى أكبر مما كنت أظن.

عدت إلى كلية الحقوق مدفوعاً برغبة محمومة زلزلت روحي وجعلتني أسعى لفهم القوانين

والمذاهب التي فرضت بناءً عليها عقوبة شديدة كعقوبة الإعدام. قمت بتجميع المقررات الدراسية حول القانون الدستوري والتقاضي وإجراءات الاستئناف والمحاكم الفيدرالية وسبل الإنصاف الجانبية.

لقد ضاعفت جهودي لتوسيع أفقي ومداركي، لأتمكن من فهم النظرية الدستورية وأشكال الإجراءات الإجرامية.

لقد غرقت حتى أدني في القانون وعلم اجتماع العرق والفقر والسلطة. فيما سبق كانت كلية الحقوق تبدو مجردة وخالية من أي معنى ومنفصلة عني، ولكن بعد زيارة السجن وإحساسي باليأس، اختلف كل شيء حيث أصبحت دراستي للقانون أكثر أهمية وهمزة وصل لمستقبلي، حتى دراستي في مدرسة كنيدي اتخذت منحى جديداً، حيث أصبحت مهارات تحديد وتحطيم التمييز وعدم المساواة، حاجة ملحة ولها معان عميقة حُفرت في ذاكرتي وشكلت فرقاً في نظرتي للحياة، وارتبطت بما رأيته وعاشته في تلك الفترة، لقد كشف وقتي القصير مع ذلك الشخص المحكوم عليه بالإعدام، أن ثمة شيئاً مفقوداً في الطريقة التي نتعامل بها مع الناس في نظامنا القضائي، بل ربما نطلق أحكاماً ظالمة على بعض الناس، لقد عشت طوال حياتي أكافح لحل اللغز المتمحور حول أسباب وكيفية إطلاق أحكام ظالمة على الناس، في الواقع قد تنعكس تلك التجربة علي أكثر من غيري، حيث نشأت في مستوطنة فقيرة وريفية معزولة عرقياً على الساحل الشرقي من دلمارفا؛ وهي شبه جزيرة في ولاية ديلاوير، حيث يلقي التاريخ العرقي لهذا البلد بظلاله على المجتمعات الساحلية، التي امتدت من ولاية فرجينيا وشرق ولاية ماريلاند إلى ولاية ديلاوير، أصر الكثير من الناس في المنطقة على التسلسل الهرمي العنصري الذي يتطلب استخدام الرموز والعلامات والتعزيز المستمر ويرجع ذلك جزئياً إلى المنطقة القريبة من الشمال، حيث عُرضت الأعلام الكونفدرالية بفخر في جميع أنحاء المنطقة، بجرأة وتحدياً لتحديد المشهد الثقافي والاجتماعي والسياسي.

عاش الأمريكيون من أصل أفريقي في أحياء اليهود المعزولة عنصرياً، التي كانت تُعزل بإحاطتها بالسكة الحديد داخل المدن الصغيرة أو المقاطعات الملونة في المدن.

لقد ترعرعت في مستوطنة في بلدة حيث يعيش بعض الناس في أكواخ أصغر من أحلامهم بكثير، وهناك كان على العائلات التي لا تتوفر السباكة في منازلهم استخدام المكنن، مازلت أذكر كيف تقاسمنا مساحات اللعب الخارجية مع الدجاج والخنازير.

كنت محاطاً بسود يكتسون بالقوة ويتزينون بالحزم إلا أنهم كانوا مهمشين كذرات رمال تتطاير في الهواء، مازالت حافلة مصنع الدواجن التي كانت تأتي يومياً لنقل البالغين إلى المصنع وكأنهم دجاج، تداعب ذاكرتي إلى اليوم حيث كانوا يقومون بجمع الدجاج ومعالجته ومنتف ريشه كما تنتف العنصرية أحلامهم بمستقبل مشرق.

لقد غادر والدي البلدة مراهقاً فلم يكن هناك مدرسة ثانوية محلية في البلدة وعاد إليها مع والدتي، حيث عثر على عمل في مصنع للأغذية وفي عطلات نهاية الأسبوع كان يقوم بعمل منزلي على

الشاطي، أما والدتي فكانت موظفة مدنية في قاعدة سلاح الجو، ويبدو أنهم كانوا يرتدون ملابس لم ترق للفرق العسكرية التي كانت تقيدهم وتحاصر آمالهم حتى تكاد تخنق طموحهم فرغم عمل أقاربي بجد إلا أنهم لم يتقدموا في وظائفهم أبداً، فقد قُتل جدي عندما كنت مرافقاً إلا أن قتله لم يحرك أحداً خارج نطاق عائلتنا وكأنه نملة داستها أقدام العنصرية الظالمة فلم يشعر به أحد.

أما جدتي فقد ولدت عام ١٨٨٠م كابنة لعائلة استعبدت في مقاطعة كاليفورنيا في ولاية فرجينيا لأب ولد عام ١٨٤٠م. كان والدها يزرع داخلها طوال الوقت كره العبودية الذي كان يرويه نموها بحديثه المتواصل عما يعانونه من العبودية وقهرها، كما أن عبوديته لم تنسه أن يطرد ظلام الجهل بإبارة عقلها بتعلم القراءة والكتابة، إلا أنه أبقى هذا الأمر سراً احتفظ به مع الكثير من الأسرار، التي لم يحررها من صدره إلا بعد كسر قيود العبودية بتحرره منها.

لقد أثرت بي جدتي كثيراً، بل أقول بكل فخر إن طريقتها في تربية أبنائها التسعة وطريقة تعاملها معي شكلتني، نعم لقد أثرت بي طريقتها في التحدث معي وإشعاري أنها قريبة مني دائماً حتى إنني كنت أشعر بها في مجرى دمي تسمع نبض قلبي وفي عقلي تزين بنات أفكارني، وعندما كنت أزورها كانت تعانقني بشدة تشعرني معها أنها تريد أن تدخلني تحت جلدتها ثم تقول لي: «برلين هل مازلت تشعر أنني أعانقك؟ إذا أحببت بنعم، تبقيني حيث أنا، أما إذا قلت لا، تعود لتعانقني مرة أخرى، وكثيراً ما كنت أقول لا، كي أنعم بالسعادة بين ذراعيها الحانيتين. إنها لم تتعب يوماً من شدي إليها لأستقر في أحضانها، كثيراً ما كانت

تقول لي: «المسافات البعيدة تعيق فهم الأشياء المهمة، لذا يجب أن تكون قريباً».

عانيت في السنة الأولى في كلية الحقوق من الشعور بالضيق على طريق مجهول حيث تهت في منتصف المسافة، فلم أعرف طريقي إلى أن أرشدني قربي من المدانين والمحكوم عليهم بالإعدام ظلماً حتى شعرت وكأنني في منزلي.

يقترّب هذا الكتاب من السجن الجماعي والعقاب الشديد في أمريكا، كما أنه يتعلق بإدانة الناس التي باتت بسهولة استنشاق الهواء في هذا البلد، والظلم الذي خلقناه وجعلنا منه أيدي تطبق على رقاب المظلومين، لتسرق الحرية من أرواحهم والشعور بالحياة من مآقيهم وكيف صنعنا من الخوف والغضب والمسافات التي تفصل بين خلايا مجتمعاتنا وحشاً يدوس الأضعف بيننا بلا رحمة.

إنه أيضاً يدور حول دقائق وثنائي تلك الفترة المثيرة من تاريخنا الحديث، الفترة التي شكلت حياة ملايين الأمريكيين، على اختلاف أعمارهم وأعراقهم وأجناسهم، والنفس الأمريكية ككل بشكل لن يمحي من الذاكرة.

عندما ذهب لأشاهد تنفيذ حكم الإعدام لأول مرة، في ديسمبر عام ١٩٨٣ كانت أمريكا تقف على أعتاب مرحلة، تقودها إلى تحول جذري من شأنه أن يحولنا إلى أمة قاسية انتزعت الرحمة من قلبها، لتحولها لأداة تفرض بواسطتها عقوبات غير مسبوقة، كان من نتائجها السجن الجماعي الذي لم يوجد في التاريخ ما يوازيه.

وها نحن اليوم لدينا أعلى معدلات السجون في العالم، حيث ازداد عدد السجناء من ٣٠٠.٠٠٠ شخص في أوائل ١٩٧٠ إلى ٢.٣ مليون شخص اليوم تحت المراقبة أو الإفراج المشروط.

تشير التوقعات إلى أن واحداً من بين خمسة عشر مولوداً من مواليد الولايات المتحدة في عام ٢٠٠١ معرض للسجن أو الاعتقال، وتشير نفس تلك التوقعات إلى أن واحداً من بين كل ثلاثة مواليد ذكور من السود ممن ولدوا في هذا العصر سوف يسجن.

لقد تقفنا في إبداع طرقٍ للموت لم تخطر على بال بشر، أطلقنا النار على أشخاص وشنقنا آخرين وسممنا بالغاز غيرهم وصعقنا بالكهرباء غيرهم وغيرهم وقتلنا المئات سواهم بالحقن. تنفيذ حكم الإعدام بأمر من القانون، يا له من إجراء مقيت يقف بالمرصاد لآلاف من الناس. كثيراً ما سألت نفسي ماهو شعور الإنسان الذي يعرف أن الموت سيقوم بزيارته ليقطف ما تبقى من عمره؟ ما شعوره وهو يتوقع الإعلان عن هذه الزيارة مع كل طريقة باب؟ وهل تكون تلك الطرقات على باب زنزانية حبست جسده فقط أم تكون طرقات على نبض قلبه لتترزل عقله بالفرع؟

أما بالنسبة للأطفال، لم تتمكن طفولتهم التي مزقناها ودمرناها وحولناها إلى أشلاء تطايرت في سماء الظلم الذي اتخذته أمريكا رداءً لها لسنوات، من حمايتهم، حيث لا يوجد حد أدنى لسن القوانين التي تقاضي الأطفال كبالغين، في معظم الولايات الأمريكية، نعم فقد أرسلنا ربع مليون طفل إلى سجون البالغين حيث قضوا مدد عقوباتهم التي بلغت فترات طويلة وكان معظمهم تحت سن ١٢ سنة.

صدق أو لا تصدق لقد كنا البلد الوحيد الذي يحكم على الأطفال بقضاء حياتهم في غياهب السجون دون إفراج مشروط.

إضافة إلى ثلاثة آلاف طفل حكم عليهم بالموت داخل السجن . لا أستطيع نسيان مئات الآلاف من المدانين المذعنين الذين قضوا عقوداً في السجن لارتكابهم أفعالاً لا ترتقي لمستوى الجرائم بحيث يمكن تسميتها (جُنح)، ناهيك عن القوانين التي أنشأناها لجعل كتابة الشيكات أو ارتكاب السرقات التافهة أو جرائم الملكية البسيطة، جرائم عظمى تصل عقوباتها للسجن مدى الحياة، كما أعلننا حروباً مكلفة على أولئك الذين يعانون من مشكلات تعاطي المخدرات والنتيجة هي وجود أكثر من نصف مليون شخص اليوم في سجون الولايات أو السجون الفيدرالية بسبب جرائم المخدرات، في حين كانت ٤١.٠٠٠ فقط في عام ١٩٨٠.

إضافة لكل ما سبق قمنا بإلغاء الإفراج المشروط في العديد من الولايات، وكخطوة على طريق صلابتنا وزيادة قسوتنا اخترعنا ألقاباً أطلقناها على السجناء كانت بمثابة الرصاصات التي قتلت الكثير فيهم مثل (ثلاث ضربات،، وأنت خارج) كما تخلينا عن التعليم والتأهيل وتقديم الخدمات للسجناء، على اعتبار أنها نوع من الرحمة والرفقة. فوق كل ذلك قمنا بوضع سياسات مؤسسية قلصت الأشخاص واختزلتهم ووصمتهم بأسوأ أعمالهم مثل «إجرامي» و«قاتل» و«مغتصب» و«لص» و«تاجر مخدرات» و«جنس الجاني» و«مجرم» وكلها وصمات من العار التصفت بالحالات والأشخاص، التي أطلقت عليهم وكأئما التحمت بهم، ولا سبيل للخلاص منها، بغض النظر

عن الظروف التي ارتكبوا في ظلها تلك الجرائم ومهما حاولوا تحسين حياتهم أو أنفسهم.

كانت للسجن الجماعي آثار عميقة حيث قمنا بحرمان النساء وبالتالي أطفالهن من تلقي طرود الغذاء، في حال كانت لديهن سوابق في قضايا المخدرات. لقد أنشأنا نظاماً طبقياً جديداً يشرد آلاف الناس ويحرمهم العيش مع عائلاتهم وأن يشكلوا حبكة في النسيج الاجتماعي، مما يجعلهم مساهمين فاعلين في زيادة البطالة.

بعض الولايات كانت تجرد المدانين جنائياً من حق التصويت إلى الأبد، ونتيجة لذلك وصل حرمان الرجال الأمريكيين من أصل أفريقي من حقوقهم لأعلى مستوياته حتى بات بإمكان الأعمى أن يرى ذلك، فقد وصل لدرجة لم يصل لها يوماً من قبل.

سن قانون حقوق التصويت في عام ٢٠١٥.

يا إلهي كم هي فظيعة تلك الأخطاء التي ارتكبتها لقد ثبتت براءة العشرات بعد قطف أرواحهم بالإعدام أو بعدما أصبحوا على شفير هاوية الموت، كما ظهرت براءة المئات من الجرائم الرأسمالية، عن طريق اختبار الحمض النووي، بعد ضياع سنوات عمرهم في سجون الظلم وبعدها أطفالاً ظلام السجون نور أحلامهم.

لقد أفسحنا المجال أمام العديد من المسميات مثل افتراضات الذنب والفقر والانحياز العنصري ومجموعة من الديناميات الاجتماعية والهيكلية والسياسية الأخرى التي خلقت نظاماً تم تعريفه عن طريق الخطأ، وهو نظام يقع بسببه الآلاف من الأبرياء الآن في السجن. أخيراً وبعد كل هذا نقوم بإهدار الكثير من الأموال للإنفاق على سجون الولايات والسجون الفيدرالية، حيث رفعت الحكومات ميزانية السجون من ٦.٩ مليار دولار في عام ١٩٨٠ إلى ما يقرب من ٨٠ مليار دولار اليوم.

إن المطامع والرغبة في زيادة الربح الخاص أفسدت الدوافع لتحسين السلامة العامة والحد من تكاليف السجن الجماعي والأهم من ذلك، تعزيز الرغبة في إعادة تأهيل السجناء مما اضطر حكومة الولايات للتحويل من إنفاق الأموال على الخدمات العامة والتعليم والصحة والرفاهية إلى الإنفاق على السجون، وبالتالي مواجهة أزمات اقتصادية غير مسبقة نتيجة لذلك، كما شكلت خصخصة الرعاية الصحية في السجن وتجارة السجن ومجموعة الخدمات المقدمة في السجن الشامل مفاجأة من حيث مدى الربح المادي الذي أصبح كابوساً مكلفاً لمن تبقى منا.

بعد التخرج من كلية الحقوق، عدت إلى أعماق الجنوب لتمثيل الفقراء والمساجين والمدانين والدفاع عنهم. في الثلاثين سنة الأخيرة اقتربت من الناس الذين أدينوا وحُكم عليهم بالإعدام خطأ مثل والتر ماكميلان.

الذي سوف تعرفون قصته في هذا الكتاب والتي علمتني الكثير عن نظامنا المزعج واللامبالاة في الأحكام غير الدقيقة وغير الموثوقة وراحتنا التي وجدناها في التحيز وتسامحنا مع المحاكمات والإدانات الجائرة، لقد علمتني تجربة والتر كيف يصيب نظامنا الناس ويؤذيهم عندما يفرض بشكل تعسفي وغير مسؤول وكيف أن أذيتنا لا تنحصر في شخص المدانين فقط وإنما تمتد جذورها

لتزلزل الأرض تحت أقدام أسرهم ومجتمعاتهم وحتى ضحايا تلك الجرائم. علمتني قضية والتر ماهو أهم من كل هذا ألا وهو أنه من أعماق الظلام يتولد النور.

قصة والتر هي إحدى القصص التي سأخبركم بها في الفصول التالية التي تتسج أحداث هذه الرواية.

لقد مثلت الأطفال الذين حوكموا كبالغين مما عرضهم لمزيد من العنف وسوء المعاملة والإهمال بعد وضعهم في مرافق الكبار.

كما مثلت النساء اللاتي فاقت أعدادهن في السجن ٦٤٠٪ خلال السنوات الثلاثين الماضية وشهدت عيني تأثير هستيريا عداء الفقراء والخوف من الأدمان ومساهمتها في التحريض واللهث لتجريم ومقاضاة الفقيرات اللواتي حملن من علاقات غير شرعية. لم أستطع أن أنسى أولئك المعاقين ذهنيًا الذين مثلتهم والذين قادتهم تلك الأمراض للغرق في وحل السجن عقوداً، كما اقتربت من ضحايا جرائم العنف وأسرههم، الذين شهدوا على كم من حراس وموظفي السجن الذين تحولوا إلى آلات، ذات قلوب متحجرة تضج بالعنف وتفتقر للرحمة والعدل، ناهيك عن التدهور الصحي الذي سيطر على أجسادهم. كذلك مثلت أشخاصاً ارتكبوا جرائم فظيعة لكنهم رغم ذلك كافحوا لاستعادة إنسانيتهم والتكفير عن ذنوبهم. نعم لا تتعجبوا فقد اكتشفت أن في أعماق قلوب الكثير من المدانين والسجناء، آثاراً مبعثرة لإنسانية مرت بتلك القلوب يوماً، كما لمست بذوراً تصارع للنمو ليثمر ذلك الأمل الذي يقدم لهم دعوة للحياة المدهشة عندما تغذيها تدخلات بسيطة للغاية. علمني القرب بعض الحقائق الأساسية المتواضعة، لاسيما هذا الدرس الحيوي: (أننا أكبر بكثير من أسوأ أفعالنا إطلاقاً).

إن عملي مع الفقراء والمحتجزين أفنّني بأن الغنى ليس عكس الفقر، إنما العدالة هي التي تعاكسه على طول الخط.

أخيراً، أعتقد أن المقياس الحقيقي لالتزامنا بالعدالة هو طابع مجتمعنا وتقيدنا بسيادة القانون والعدالة والمساواة الذي يتحول فجأة لعين عمياء، تعمى عن الكثير عند تعاملنا مع عليّة القوم من الأثرياء والأقوياء والتميزين والمحترمين بيننا.

أما المقياس الحقيقي لشخصيتنا هو كيفية تعاملنا مع الفقراء والمتهمين والمساجين والمدانين

فعندما يسود صمتنا، تاركاً للإساءة للآخرين الفرصة لتصرخ بعلو صوتها فإننا جميعنا متورطون. إن دخول الرحمة التي تسكن قلوبنا في غيبوبة يمكن أن يفسد حشمة المجتمع والدولة والأمة، كما أن الخوف والغضب يمكن يخلق في بنية مجتمعنا فجوات قد تسمح بانتشار روح الانتقام فيتحوّل الكثير منا إلى مسيئون وظالمون وهكذا حتى نعاني جميعاً من غياب الرحمة وبينما ندّين أنفسنا يتساقط الآخرون ضحايا لنا. كلما اقتربت من مجتمعات السجن الجماعي والعقوبات القصوى، يترسخ اعتقادي أنه من الضروري الاعتراف بأننا جميعاً بحاجة إلى الرحمة و بحاجة إلى العدالة، وربما بحاجة إلى مهلة كافية.

الفصل الأول:

ممثلو الطائر المحاكي

كان موظف الاستقبال المؤقت امرأة أمريكية من أصل أفريقي، تتوج الأناقة مظهرها حيث كانت ترتدي بدلة رسمية غامقة باهظة الثمن تمثل استثناء جيد التصميم عن الأزياء المعتادة هنا في الجنوب في مكتب لجنة الدفاع عن السجناء (SPDC) في أتلانتا، حيث عدت بعد التخرج إلى العمل بدوام كامل. في أول يوم لها، ارتدت زياً جذاباً من الجينز وحذاء رياضياً، تطوّعت للإجابة على أي أسئلة قد تساعد على التأقلم، لكنها نظرت إلي ببرود ولوحت لي بيدها بعدما ذكرتني بحقيقة أنها سكرتير قانوني من ذوي الخبرة.

في صباح اليوم التالي، عندما وصلت إلى العمل كانت ترتدي جينز آخر وحذاء رياضياً، لقد أدهشتني فعلاً وكأن أحد المتشردين الغربيين دخلوا بشكل خاطئ إلى المكتب. ثم ضربت بيدها على جبينها كما لو أنها تستجمع نفسها ثم غمرت لي بعينها كما لو أنها تؤكد علي لأثق بها. لقد كانت تغادر خلال الأسبوع للعمل في «مكتب قانوني حقيقي». كم تمنيت حظها. بعد ساعة اتصلت بمكتبي لتخبرني أن «روبرت إي لي» كان على الهاتف. ابتسمت سعيد لأنني أسأت فهمها فقد كانت تتمتع بروح الدعابة.

أنا: «هذا مضحك فعلاً».

هي: «أنا لا أمزح. هذا ما قاله، كان صوتها ملولاً وهي تقول: «الخط الثاني».

التقطت الخط.

أنا: «مرحباً هذا بريان ستيفنسون كيف يمكن أن أخدمك؟»

روبرت: «بريان، هذا روبرت إي لي كي. بالله عليك أخبرني لماذا وأنت في هذا الجحيم تريد تمثيل شخص مثل والتر مكميلان؟ ألا تعلم أنه يعد أحد أكبر تجار المخدرات على الإطلاق في جنوب ألاباما؟ لقد تلقيت إشعاراً منك لكن ليس بيدك ما تفعله في هذه القضية».

أنا: «سيدي»..

روبرت: «هذا هو جدج كي، ولا تريد أن تكون له أي علاقة بقضية مكميلان، يا إلهي بريان افهم، لا يدرك المرء حقاً مدى فساد هذا الموقف، بمن فيهم أنا، لكن كل ما أعرفه كم هؤلاء الرجال بشعون بمن فيهم (ديكسي مافيا)

تركنتي نبرة المحاضرة والعبارات المحيرة من قاضٍ لم أقابله أبداً مشوش. «ديكسي المافيا»؟ التقيت بوالتر مكميلان قبل أسبوعين، بعد قضاء يوم مع هؤلاء المحكوم عليهم بالإعدام لبدء العمل على خمس حالات إعدام ولم أراجع النسخة التجريبية بعد، لكنني تذكرت أن اسم القاضي الأخير كان كي، لكن لم يخبرني أحد بجزء روبرت إي لي. لا أكذب إن قلت أنني ناضلت لأتخيل أي تطابق

بين صورة ديكسي المافيا ووالتر ماكميلان.

أنا: «ديكسي المافيا؟!».

روبرت: «نعم ولا يوجد شيء آخر الآن يا بني، لن أقوم بتعيين بعض المحامين الخارجيين الذين ليسوا أعضاء في نقابة المحامين في ألاباما لتولي إحدى قضايا عقوبة الإعدام هذه، لذا عليك المضي قدماً والانسحاب».

أنا: «أنا عضو في بار ألاباما، لقد عشت في أتلانتا جورجيا، لكنني قدمت إلى ألاباما منذ عام للعمل على بعض الحالات المتعلقة بالسجن وظروفه في ولاية ألاباما».

روبرت: «حسناً، أنا متواجد حالياً في موبيل فقد غادرت مونروفيل، لكن إذا كان لدينا جلسة استماع حول تحركاتك سيتحتم عليك القدوم من أتلانتا إلى موبيل، علماً أنني لا أجد طريقة لاستضافتك».

- «حسناً، سيدي فهمتك، لا تقلق أستطيع القدوم إلى موبيل إذا تطلب الأمر».

روبرت: «حسناً، لن أقوم بتعيينك لأنني لا أعتقد أنه معوز، فقد أثبتت التحريات أنه دفن الأموال في جميع أنحاء مقاطعة مونرو».

بريان: «سيدي القاضي، أنا لا أبحث عن موعد، لقد أخبرت السيد ماكميلان أننا سوف».

قاطعت النغمة انقطاع المكالمات أول بيان إيجابي لي في هذه المكالمات الهاتفية، لقد قضيت عدة دقائق معتقداً أن اتصالنا قد قطع عن طريق الخطأ قبل أن أدرك أخيراً أن القاضي قد فعل للتو لقد قطع المكالمات.

كنت في أواخر العشرينيات من عمري وعلى وشك البدء بسنتي الرابعة في SPDC عندما قابلت والتر ماكميلان، و كانت قضيته نقطة في بحر الحالات التي وجدت نفسي أبحر بها بشكل محموم بعد ذلك وقد تعلمت من الأزمة المتزايدة في ألاباما، أن الدولة لديها ما يقرب من مائة شخص ينتظرون تنفيذ حكم الإعدام عدا عن السكان المدانين الأسرع نمواً في البلاد، لكن لم يكن لديها جمهور أيضاً.

إن نظام الدفاع، يعني أن أعداداً كبيرة من السجناء المحكوم عليهم بالإعدام ليس لديهم تمثيل قانوني من أي نوع.

أدارت صديقتي إيفا أنسلي مشروع سجن ألاباما، حيث كانت تعمل على تعقب القضايا ومطابقتها مع محامي الرجال المدانين، وفي عام ١٩٨٨ أتاحت لنا فرصة للحصول على تمويل اتحادي لإنشاء منظمة قانونية، حيث يمكننا من خلالها تمثيل الناس المحكوم عليهم بالإعدام. كانت الخطة هي استخدام هذا التمويل لإنشاء منظمة جديدة غير ربحية، وكنا نأمل بإنشائها في توسكالوسا وأن نبداً العمل من خلالها على القضايا في العام المقبل و كنت قد عملت بالفعل على الكثير من الحالات التي كان جزاؤها الموت في عدة ولايات جنوبية، وفي بعض الأحيان كان يقف الحظ إلى جانبنا فيمكننا من إيقاف التنفيذ قبل دقائق فقط من موعد الصعق بالكهرباء، و رغم ذلك لم أكن أعتقد أنني مستعد

لتحمل مسؤوليات إدارة مكتب محاماة غير ربحي، لذلك خططت للمساعدة في إقامة المنظمة على أرض الواقع والعتور على مدير لها ثم العودة إلى أتلانتا.

عندما زرت الرجال المحكومين بالإعدام قبل أسابيع قليلة من مكالمتي مع روبرت إي كي التقيت خمسة من الرجال المدانين، الذين تقنن اليأس في نحت آثاره على وجوههم و عقولهم وهم: ويلي تاب و فيرنون ماديسون وجيسي موريسون وهاري نيكس و والتر مكميلان.

لقد كان ذاك اليوم مرهقاً جسدياً وعاطفياً حيث قرر العملاء مرافقتي في طريق العودة الطويل إلى أتلانتا، فاحتلوا ذهني بما فيه من أفكار و حالات وكان أولهم والتر مكميلان الذي اتخذ له مكان واسع في ذاكرتي، لقد كان أكبر مني بخمس عشرة سنة على الأقل، ولم يكن يتمتع بقسط كافٍ من التعليم، و قد جاء من مجتمع ريفي صغير، أما ما عجزت عن نسيانه هو مدى إصراره على أنه مظلوم.

و كما هو حبيب زنزانته كان صوته حبيب رأسي فمازلت أسمعته منذ كنا في غرفة الاجتماعات وقت الزيارة حيث قال لي

والتر: «سيد بريان، أعلم أن هذا قد لا يهملك، ولكن من المهم بالنسبة لي أن تعرف أنني بريء ولم أفعل ما يتهمونني به، لم أقم بذلك بأي طريقة كانت».

كان صوته أحادي النبرة إلا أنه صاحب العاطفة.

أومأت إليه، بنعم لقد تعلمت تصديق ما يقوله لي العملاء حتى توحى الحقائق بشيء آخر.

بريان: «بالطبع، أفهمك على كل حال عندما أراجع السجل سيكون لدي فكرة أفضل عن الدليل الذي بحوزتهم، و عندها نستطيع التحدث عنه».

والتر بتلعثم : «لكن ... أأنظر، أنا متأكد من أنني لست أول شخص من أولئك المصطفين في سجن الإعدام يخبرك بأنه بريء، لكنني أريدك أن تصدقني حقاً، لقد دمرت هذه الكذبة حياتي! وأثقلت كاهلي بما لا أستطيع تحمله وإذا لم أحصل على مساعدة شخص يصدقني- »

شد على قبضتيه لمنع نفسه من البكاء، وبدأت شفتاه بالإرتجاف كما لو كانت ورقة في مهب الريح وكأنها تشعر أن مصير صاحبها كمصير تلك الأوراق التي تعصف بها الريح دون أن تعرف إلى أين ستودي بها. جلست بهدوء بينما أجبر نفسه على العودة إلى رباطة الجأش.

قال بصوت أهدأ: «أنا آسف، أعلم أنك ستفعل كل ما في وسعك لمساعدتي».

بدا ألمه صادقا جدا وكنت أحاول تعزيته بشكل غريزي ولكن لم يكن بيدي حيلة.

وبعد الحديث لساعات متواصلة مع الكثير من الناس، لم يكن باستطاعتي سوى بذل ما يكفي من الطاقة لطمأننتهم والتأكيد بأنني سأتابع كل ما يخص قضاياهم بعناية.

لقد تراكت العديد من النصوص في مكتبي الصغير في أتلانتا دفعة واحدة، استعداد للانتقال إلى

توسكالوسا.

لقد قمنا بافتتاح المكتب. رغم استمرار تعليقات القاضي روبرت لي كي الغريبة، المتهاوية على رأسي، إلا أنني راجعت مجموعة السجلات حتى عثرت على نسخ لها من محاكمة والتر ماكميلان. لقد كان هناك أربعة مجلدات فقط من إجراءات المحاكمة، مما يعني أن المحاكمة كانت قصيرة. إن تحذيرات القاضي المثيرة جعلت ادعاء السيد مكميلان العاطفي بالبراءة مثير للاهتمام للغاية بحيث يصعب تأجيله لفترة أطول، و بدأت القراءة.

عاش والتر ماكملان في مقاطعة مونرو طوال حياته، و مع ذلك لم يسمع عن هربس لي أو عن كتابها لقتل الطائر المحاكي أبداً. أما مونروفيل ألاباما، فقد احتقلت بابنتها الأصلية لي، بلا خجل بعد أن أصبح كتابها الحائز على العديد من الجوائز من أكثر الكتب مبيعاً على الصعيد الوطني في الستينيات، و رغم أن لي عادت إلى مقاطعة مونرو إلا أنها عزلت نفسها ونادراً ما شوهدت في الأماكن العامة.

لقد أثبتت عزلتها أنها لم تشكل عائقاً أمام جهود المقاطعة المستمرة لتسويق كلاسيكيتها الأدبية أو للتسويق لنفسها باستخدام المشاهير في الكتاب حيث استطاع منتج الفيلم التكيف، فنجح في جلب النجم غريغوري بيك الفائز بجائزة الأوسكار عن دوره في الفيلم إلى المدينة لمشاهدة المحكمة القديمة سيئة السمعة، والتي حولها القادة المحليون فيما بعد إلى متحف «الطائر المحاكي» كما قامت مجموعة من السكان المحليين بتشكيل فرقة «The Mockingbird Players of Monroeville» لتقديم نسخة مسرحية من القصة، وقد كان الإنتاج شائعاً جداً لدرجة أن شركات السياحة نظمت جولات محلية ودولية لمشاهدة العروض الحية للقصة الخيالية التي عرضت للجمهور في كل مكان. لقد أحاط الناس قصة لي بمشاعرهم التي نمت حولها، رغم إخفاء الوجه الأبعث وعدم البوح بالحقائق الأصعب في الكتاب.

لقد فتنت قصة الرجل الأسود البريء الذي دافع عنه بشجاعة محام أبيض في الثلاثينيات الملايين من القراء، على الرغم من كشفه المزعم لكذب الاتهامات التي وجهت للشاب الأسود باغتصاب امرأة بيضاء.

لقد فشل أتيكوس في القصة في الدفاع عن رجل أسود متهم زوراً، حيث أُدين روبنسون المتهم خطأً، فرافقه اليأس الذي أعمى عينيه وأمات قلبه، قبل أن يقتل بإطلاق النار عليه سبع عشرة مرة، في الظاهر من قبل سجنائه أثناء محاولته اليائسة للهروب من السجن.

إلا أن شخصيات لي المحبوبة- أتيكوس فينش وإينته البكر سكاوت- أسرت القراء أثناء مواجهتهم لبعض الحقائق عن قضايا العرق والعدالة في الجنوب، وتغلغل في عروق جيل بأكمله من محامي المستقبل، ليغدو أملهم في الحياة أن يصبحوا مثل أتيكوس الشجاع، الذي سخر نفسه في وقت ما لحماية المشتبه به الأسود الأعزل من حشد غاضب من الرجال البيض الذين يتطلعون لإعدامه. ولم يتوقف تأثير رواية لي عند هذا الحد ولم يقتصر على فترة زمنية معينة بل تجاوز هذا التأثير حدود

المكان وقفز عبر السنين ليثبت نفسه حتى اليوم، حيث تقدم عشرات المنظمات القانونية جوائز باسم المحامي الأسطوري كاحتفال بنموذج شريف للدفاع عن الحق والنضال من أجل تحقيق العدالة الموصوف في رواية لي، متجاهلين حقيقة فشل إتيكوس. ومصير روبنسون المؤلم، الذي كان ضحية العنصرية في حياته وحتى في موته الذي لم يكن لائقاً ولم يكن قانونياً أيضاً.

نشأ والتر ماكميلان، مثل توم روبنسون في واحدة من المستوطنات السوداء الفقيرة الملقاة خارج مونروفييل، حيث كان يعمل في الحقول مع عائلته، وهناك في جنوب ألاباما بمجرد أن يكبر أطفال المزارعين ويصبحوا عناصر فعالة ومفيدة يعرفونهم ب

(حرث) و(قاطف) وغيرها من الألقاب و قد استمر والتر في هذا العمل إلى أن بلغ السن القانونية لدخول المدرسة ومع أن الفرص التعليمية للأطفال السود في الخمسينيات كانت محدودة، إلا أن والده والترحالت بكل قوتها إلى أن أدخلته إلى «المدرسة الملونة» المتداعية لبضع سنوات. لقد كان من مزايا دخول والتر المدرسة أنه برع للغاية في اختيار القطن و توجيه جهاز التحكم عن بُعد عندما كان في الثامنة أو التاسعة، وعندما بلغ الحادية عشر كان قادراً على تشغيل المحراث و العمل عليه كإخوته الأكبر سناً.

كانت الأوقات تبحر ما بين مد و جزر، في مقاطعة مونرو ففي القرن التاسع عشر صنفت كمنتج رئيسي للقطن من قبل أصحاب المزارع وهي تقع في سهل ساحلي جنوب غرب ألاباما في المنطقة البيضاء، حيث التربة استقت لونها من بشرة أولئك الذين يعتنون بها ويروون تربتها بعرقهم ويزيدون خصوبتها باهتمامهم ويغنونها برعايتهم، و قد عمر مستوطنو ولاية كارولينا المنطقة البيضاء فضموا لهم مزارع ناجحة للغاية، وتضخم عددهم، أما أعداد الأمريكيين من أصل أفريقي فظلت تتزايد بشكل كبير لعمود بعد الحرب الأهلية، وانتشروا في حقول (الحزام الأسود) كمزارعين ومزارعين مستأجرين، يعتمدون على البيض من أصحاب الأراضي من أجل البقاء.

شهدت أربعينيات القرن العشرين، أحداث الهجرة الكبرى حيث غادر آلاف الأمريكيين الأفارقة المنطقة وتوجهوا في الغالب إلى الغرب الأوسط والساحل الغربي، للحصول على الوظائف، ورغم استمرار قلة منهم في العمل في الزراعة والأراضي الزراعية، إلا أن الهجرة الجماعية للأفارقة الأمريكيين بالإضافة إلى عوامل أخرى حولت الزراعة التقليدية إلى قاعدة اقتصادية هشة للمنطقة وبحلول الخمسينيات، تدهورت زراعة القطن وقلت نسبة الأرباح بشكل كارثي، حتى مع الأجور المنخفضة التي يحصل عليها المزارعون والمستأجرون السود في ولاية ألاباما، مما دفع الحكومة لمساعدة أصحاب الأراضي البيض في المنطقة بالموافقة على انتقالهم إلى زراعة الغابات ومنتجات الأخشاب من خلال تقديم حوافز ضريبية استثنائية لمصانع اللب والورق. شهدت الولاية افتتاح ثلاثة عشر مصنعاً من مصانع اللب والورق الستة عشر خلال هذه الفترة.

حولت المزيد والمزيد من الأفدنة إلى زراعة أشجار الصنوبر عبر الحزام الأسود لمصانع الورق و المنتجات الصناعية، وعندها وجد الأمريكيون الأفارقة - المستبعدين إلى حد كبير من هذه الصناعة الجديدة - أنفسهم في مهب الريح من خلال مواجهة تحديات اقتصادية جديدة، حتى عندما

فازوا بالحقوق المدنية الأساسية، تلفتوا حولهم ليجدوا أنفسهم وقد سقطوا في براثن العصر الوحشي، حيث زراعة المحاصيل تحتضر كما أن قوانين جيم كرو- يشير المصطلح إلى شخصية سوداء البشرة في أغنية شعبية - الداعية للفصل العنصري بين الأعراق في الأماكن العامة توأد، ولكن ماذا حصل؟! استمر مسلسل قامت البطالة فيه بدور البطولة أما الإخراج فكان من نصيب تقايم الفقر. وبالتالي فازت مقاطعات المنطقة بلقب أفقر المناطق في أمريكا بجدارة.

كان والتر ذكي ولديه نظرة ثاقبة جعلته يرى الاتجاه السائد، فبدأ أعماله الخاصة من الباب حيث ساندته الحظ فتطورت تلك الأعمال، مع صناعة الأخشاب، وفي ١٩٧٠ اقترض بعض المال بجرأة وشجاعة، لشراء منشار كهربائي وجرار وشاحنة لب الخشب، وبحلول ١٩٨٠ كان قد طور نشاطاً تجارياً قوياً، صحيح أنه لم يدر عليه الكثير من المال الإضافي لكنه جعله يغرس قدميه في أرض صلبة منحته الاستقلال الذي يحتاجه، ففي تلك الفترة كان عمل الشخص مرهون بما إذا كان قد عمل في مصنع أو كان لديه بعض المهارات المتواضعة التي بالكاد تضمن له وظيفة بسيطة - من النوع الذي يعمل به معظم السود الفقراء في جنوب ألاباما- ستضمن وظيفة دائمة وهذا يعني أن الأعمال المستقلة لأصحاب الأعمال البيض وكل مايتبقى، للسود الفقراء هو التعامل مع كل الضغوط العنصرية التي فرضت سطوتها في ألاباما في السبعينيات والثمانينيات.

تجاوز والتر كل هذا إلا أنه لم يستطع الإفلات من قبضة العنصرية، فبالرغم من أن امتلاكه لشركة خاصة في قطاع متنام من الاقتصاد، أعطاه مساحة لم يتمتع بها الأمريكيون من أصل أفريقي، إضافة إلى أن هذا الاستقلال أعطى والتر قدراً من الاحترام والإعجاب، لكنه أيضاً زرع حوله أشواك الازدراء والشك، خاصة خارج مجتمع السود في مونروفييل.

كانت حرية والتر، بالنسبة لبعض سكان المدينة البيض، ترمي إلى ما هو أبعد بكثير من كونه أفريقي، فالأمريكيون ذوو التعليم المحدود قادرين على إثبات ذلك من خلال الوسائل المشروعة، وذلك لأن والتر كان محبوباً من الجميع سواء من السود أو البيض، فالمال لم يغير شيئاً من طباع والتر وأخلاقه فقد كان لطيفاً ومحترماً وكريماً وطيباً مع الجميع.

ولكن هذا لا يعني أنه كان مثالياً أيضاً بل كانت لديه عيوبه وأخطرها، شهرته الواسعة بأنه زير نساء مع أنه رب أسرة مكونة من ثلاثة أطفال من زوجته ميني، فقد تزوج عندما كان شاباً لكن كان واضحاً للجميع أنه متورطاً في علاقات عاطفية مع نساء أخريات، لعل صعوبة العمل في مجال الأخشاب و الأشجار وخطورته، إضافة لافتقار حياته إلى وسائل الراحة العادية أعيت مقاومته للجنس اللطيف، ومن جهة أخرى فقد كان هناك شيء ما في مظهره الخارجي القاسي - مثل طوله الفارع وشعره المبعثر ولحيته العشوائية غير المنتظمة - إلى جانب طبيعته الكريمة والساحرة جعلت النساء ينجذبن إليه كما ينجذب النحل إلى رحيق الزهور.

نشأ والتر وهو مدرك تماماً لاستحالة وجود أي علاقة حميمة بين رجل أسود وامرأة بيضاء فهذا من المحرمات في مجتمعه، ولكنه سمح لخياله أن يجمع به بعيداً لدرجة تصور أن مثل هذه النظرة المقيتة للأمور قد تغيرت ولما لا !! فنحن في الثمانينيات ولكن مهلاً، هل كان سيضع في اعتباره

باستمرار تلك الخطوط العرقية التي لا يمكن تجاوزها والتي التقت حول حياته كما الأفعى لو كان بالكاد يكسب قوت يومه؟؟ أم أن نجاحه في تحقيق ذاته في عمله جعله يقدم بجرأة على اللعب مع تلك الأفعى لمحاولة قطع رأسها؟ لم يلتقت والتر في البداية كثيراً لمغازلة كارين كيلى، الشابة البيضاء التي التقى بها في وافل هاوس حيث تناول الفطور لقد سحرته بجاذبيتها لكنه لم يجرؤ على أخذها على محمل الجد، حتى عندما أصبحت مغازلاتها أكثر وضوحاً، تردد نوعاً ما ثم ما لبث أن أقنع نفسه بأن أحداً لن يعرف شيئاً فحياة هذه العلاقات في كتمانها، و بعد بضعة أسابيع، اتضح لوالتر أن علاقته مع كارين كانت غلطة فادحة و مشكلة كبرى، فهي في الخامسة والعشرين من عمرها أي أنها أصغر منه بثمانية عشر عاماً، فضلاً عن أنها متزوجة. لكن الطامة الكبرى وقعت على رأسه حيث انتشرت الشائعات حول وجود علاقة صداقة بينهما، إلا أنها بدت وكأنها تفخر بعلاقة حميمة مع والتر. وبالطبع اكتشف زوجها الأمر، مما جعل الأمور تبدو قبيحة جداً.

كانت حياة كارين مع زوجها جو، تقعب في نفق مظلم محفوف بالتعاسة منذ فترة طويلة و

كانت تخطط بالفعل للحصول على الطلاق، لكن فضيحة تورطها مع رجل أسود أثارت عاصفة من الغضب حولها فثارت ثائرة زوجها وعائلته بأكملها. بعد ذلك بدأ بالإجراءات القانونية للحصول على حضانة أطفالهما، وعزم على فضحها علناً أمام الجميع بالكشف عن علاقتها مع رجل أسود لإلحاق العار به من جانبه، ظل والتر دائماً بعيداً عن المحاكم و عن القانون إلى أن تلقى أمر استدعاء من زوج كارين كيلى للإدلاء بشهادته في جلسة استماع وقد كان كل من كيلى و زوجها يقاتلان بعضهما للحصول على حضانة أطفالهما، كان يعلم أنه سيسبب لهما مشاكل خطيرة.

عندها أخذته ذاكرته لما قبل سنوات مضت، حيث كان قد انجذب إلى قتال حانات أدى إلى إدانته بارتكاب جنحة وأمضى ليلته تلك في السجن، وكانت هذه المرة الوحيدة التي يقع فيها في مشكلة ومنذ تلك الحادثة، لم يقم بأي عملٍ يجعل منه مطلوباً لنظام العدالة الجنائية. كان والتر يتمنى لو يستطيع استشارة زوجته ميني، التي كان عقلها يعمل بشكل أفضل في هذا النوع من الأزمات ولكن ماذا سيقول لها؟ ذهب إلى المحكمة والعصبية تجتاح كل ذرة في كيانه. دعاه محامي جو زوج كيلى إلى المنصة، وكان قد قرر الاعتراف بأنه مجرد (صديق) لكارين. قام محامي جو بالضغط على والتر من خلال توجيه الأسئلة الفجة له حول طبيعة صداقته بكيلى مما دعا محامي كيلى للاعتراض على الأسئلة، وبالتالي لم يتمكن من تقديم أي تفاصيل، وعندما غادر قاعة المحكمة شعر والتر بأن القاعة ستفجر في وجهه وتمزقه أشلاءً من الغضب والعداء تجاهه. حاول والتر أن ينسى المحنة بأكملها ويكمل حياته بشكل طبيعي، لكن الأخبار انتشرت بسرعة، وتأثرت سمعته وتغيرت نظرة الناس إليه فلم يعد رجل اللباب المجتهد، المعروف للسكان البيض بمهارته وبما يمكن لمنشاره أن يفعله في أشجار الصنوبر، بل بات يمثل تهديداً ومصدراً للقلق.

إن المخاوف من ممارسة الجنس والزواج بين الأعراق لها جذورها الضاربة في عمق الثقافة الأمريكية، حيث كان لالتقاء العرق والجنس قوة مؤثرة في عرقلة إعادة الإعمار بعد الحرب الأهلية، كما كان لهذا الالتقاء أثر فعال في الحفاظ على قوانين جيم كرو لقرن، ناهيك عن تأجيج الخلافات السياسات العرقية طوال القرن العشرين.

تأسس نظام التسلسل الهرمي والعزل العنصري في أعقاب العبودية وكان بمثابة يد من حديد تضرب بكل قوتها، لمنع العلاقات الحميمة مثل علاقة والتر وكارين - العلاقات التي تم حظرها فعلياً من قبل «قوانين مكافحة التحسس»، وبناءً عليه استحدثت بعض المصطلحات مثل (سوء التوليد) ولد هذا المصطلح في ستينيات القرن التاسع عشر، على يد أنصار العبودية لتعزيز الخوف من ممارسة الجنس بين الأعراق والحد من الزواج وخطط العرق الذي قد يفرض وجوده في المجتمع إذا ما ألغيت العبودية. استمر هذا الحال لأكثر من قرن حيث نصب رجال القانون في العديد من المجتمعات الجنوبية، أنفسهم سجانين على قلوب الناس وظنوا أنهم يستطيعون إخماد نيران المشاعر في القلوب ووأد الأنفاس في الصدور، حيث اعتبروا القبض على الرجال السود الذين كانوا على علاقات حميمة مع النساء البيض والتحقيق معهم ومعاقبتهم، جزءاً من واجبهم.

على الرغم من وعود الحكومة الفيدرالية بالمساواة العرقية للعبيد المحررين خلال فترة إعادة الإعمار القصيرة، إلا أن سيادة البيض والتبعية العرقية عادت بسرعة لتبسّط نفوذها بعد مغادرة القوات الفيدرالية لألاباما في سبعينيات القرن التاسع عشر، فشقت حقوق التصويت طريقها متتاسية الأمريكيين الأفارقة تماماً، ثم بدأ مسلسل القوانين المقيدة عنصرياً بفرض التسلسل الهرمي العرقي، والحلقة الثانية كانت قوانين «النزاهة العنصرية» التي لم تكن إلا جزءاً من خطة لتكرار التسلسل العرقي للعبودية وإعادة تأسيس تبعية الأمريكيين الأفارقة، وتوالى الحلقات من تجريم الجنس و الزواج بين الأعراق، إلى أن شرعت الولايات في جميع أنحاء الجنوب بسن القوانين لتبرير التعقيم القسري للنساء الفقيرات ونساء الأقليات. ولعب حظر ممارسة الجنس بين النساء البيض والرجال السود دوره في إثارة القلق الشديد في جميع أنحاء الجنوب.

في ثمانينيات القرن التاسع عشر، قبل أن يصبح الإعدام خارج نطاق القانون هو الرد الطبيعي على الرومانسية بين الأعراق بسنوات قليلة وقبل قرن من بدء علاقة والتر وكارين كايلى، وقع توني بيس الأمريكي من أصل أفريقي، وماري كوكس البيضاء، في الحب في ألاباما، فقبض عليهما وأدينوا، وحكم على كليهما بالسجن لمدة عامين لانتهاكهما قوانين السلامة العرقية في ولاية ألاباما. وافق جون تومبكينز - وهو محام وواحد من قلة قليلة من المهنيين البيض الذين اعتبروا قوانين السلامة العرقية غير دستورية - على تمثيل توني وماري لاستئناف الحكم في قضيتهم. استعرضت المحكمة العليا في ألاباما القضية في عام ١٨٨٢، مع الخطاب الذي سيتم اقتباسه مراراً وتكراراً على مدى العقود القليلة القادمة، أكدت أعلى محكمة في ولاية ألاباما إدانتهم باستخدام لغة قطع حروفها ازدراء فكرة الرومانسية بين الأعراق:

تزداد فظاعة الميل الشرير للجريمة (الزنا أو الفحشاء) عندما يرتكب بين أشخاص من العرقين. قد تكون نتيجتها اندماج العرقين، وتنتج سكاناً همجيين وحضارة متدهورة، وبالتالي توجب منعها من خلال سياسة سليمة لا تؤثر على المصالح العليا للمجتمع والحكومة.

استعرضت المحكمة العليا الأمريكية قرار محكمة ألاباما.

باستخدام لغة «منفصلة لكن متساوية» استعرضت المحكمة القرارات الشائنة في قضية بيس

وكوكس بعد عشرين عامًا، وأيدت بالإجماع قيود ألاباما على الجنس والزواج بين الأعراق، كما أكدت أحكام السجن المفروضة على توني بيس وماري كوكس.

بعد قرار المحكمة، أقرت المزيد من الولايات، قوانين السلامة العرقية التي جعلت زواج الأمريكيين من أصل أفريقي، وأحيانًا من السكان الأصليين الأمريكيين والآسيويين الأمريكيين، أو ممارسة الجنس مع البيض غير قانوني في حين فرضت القيود بقوة في الجنوب، عام ١٩٢١ انتشرت شائعة في الغرب الأوسط والغرب أيضاً تقول إن ولاية أيداهو حظرت الزواج بين الأعراق وممارسة الجنس بين البيض والسود، على الرغم من أن ٩٩.٨٪ من سكان الولاية كانوا من غير السود. في عام ١٩٦٧ صدر القرار التاريخي من المحكمة العليا في الولايات المتحدة، حيث ألغت أخيرًا قوانين مكافحة التجانس في لافينج وفرجينيا، لكن القيود استمرت تكبل الزواج بين الأعراق حتى بعد هذا القرار التاريخي، ولا يزال دستور ولاية ألاباما يحظر هذه الممارسة حتى عام ١٩٨٦ عندما التقى والتر وكارين كيلي. تنص المادة ١٠٢ من دستور الولاية على ما يلي:

(لا يجوز للسلطة التشريعية إصدار أي قانون يسمح أو يشرع أي زواج بين أي شخص أبيض وزنحي أو سليل زنحي.)

لم يكن أحدًا يتوقع أن رجلاً ناجحًا ومستقلًا نسبيًا مثل والتر يتبع القانون بحذافيره، قد يقدم على خرق القانون من هذه الناحية، فهو نادرًا ما يشرب كثيرًا، أو يتدخل في شجار، وحتى علاقاته العاطفية وخياناته لزوجته كانت مجرد علاقات عابرة، فلم تسيطر أي منها على عقله أو تقطر قلبه للحد الذي يحولها إلى هوس كبير قادر، على تدمير سمعة ومكانة رجل أسود صادق وجاد وموثوق به وبعمله الجيد، إلا أن المواعدة بين الأعراق خاصة إذا كانت تلك البيضاء متزوجة، لم تكن عملاً معقولاً بالنسبة لبعض البيض. في الجنوب كما في باقي أنحاء العالم، قد تزعج بك جرائم مثل القتل أو الاعتداء في السجن، لكن ممارسة الجنس بين الأعراق كانت قد تجاوزت تلك الجرائم واتخذت لها مكانة مرموقة من حيث خطورتها وعقوباتها الجائرة. فقد وصلت لمرحلة تنفيذ حكم الإعدام في مئات الرجال السود بسبب إشاعات لا أساس لها من الصحة حول تلك العلاقات الحميمة.

على الرغم من أنه لا يمكن فرض التقييد بموجب القانون الفيدرالي، فقد استمر حظر الدولة على الزواج بين الأعراق في ألاباما حتى القرن الحادي والعشرين، ففي عام ٢٠٠٠ حصل المصلحون في النهاية، على ما يكفي من الأصوات لإدراج القضية في الاقتراع على مستوى الولاية، حيث اختار غالبية الناخبين إلغاء الحظر، على الرغم من أن ٤١٪ صوتوا لإبقائه، أما في ولاية مسيسيبي فقد أظهر استطلاع للرأي أجراه الجمهوريون في عام ٢٠١١ أن ٤٦٪ يؤيدون الحظر القانوني على الزواج بين الأعراق، كما عارضه ٤٠٪، و ١٤٪ لم يقرروا بعد.

لم يعرف والتر التاريخ القانوني، ولكن مثل أي رجل أسود في ألاباما كان يعرف في أعماق نفسه مخاطر الرومانسية بين الأعراق، فقد أعدم ما يقرب من اثني عشر شخصًا في مقاطعة مونرو وحدها منذ تأسيسها. ناهيك عن عشرات عمليات الإعدام التي نُفذت خارج نطاق القانون في المقاطعات المجاورة - وتجاوزت الأعداد الحقيقية لعمليات الإعدام خارج نطاق القانون هذه العدد

بكثير - لا يوجد مصطلح يمكن تسمية هذه الأعمال به إلا أنها عمليات إرهاب أكثر من كونها أي شيء آخر، تهدف إلى بث الرعب في القلوب من أي لقاء مع شخص أبيض أو أي خطأ اجتماعي عرقي أو أي زلة طفيفة غير مقصودة، أو أي مظهر أو تعليق غير لائق لأن الثمن الذي سيدفع باهظاً فقد يكون رصاصة شنيعة تقف في طريق حياتك لنتيها.

سمع والتر والديه وأقاربه يتحدثون عن عمليات الإعدام الوحشي عندما كان طفلاً صغيراً. ولكنه لم يتخيل أنه سيراهما بعينه كما حصل عندما كان في الثانية عشرة من عمره، عندما عُثر على جثة راسل تشارلي، وهو رجل أسود من مقاطعة مونرو، حيث وجدوه معلقاً على شجرة في فريدينبرغ ألاباما، ويُعتقد أن إعدام تشارلي، الذي كانت تعرفه عائلة والتر، مدفوعاً برومانسية بين الأعراق. لم يغب عن بال والتر ولو للحظة واحدة الرعب الذي أصاب مجتمع السود في مقاطعة مونرو وكيف ارتجفت قلوبهم، عندما عثروا على جسد تشارلي الذي هجرته الحياة وتركته، ليسكن فيه الرصاص يتأرجح على شجرة.

كادت هذه القصة أن تصيب والتر بالجنون، حيث كان يبدو له أن كل شخص في مقاطعة مونرو كان يتحدث عن علاقته الخاصة مع كارين كيلي. لقد أقلق ذلك بطريقة جعلته يفقد السيطرة على الكثير من شؤون حياته.

بعد بضعة أسابيع، أصيبت مونروفيل بصدمة أوقفت الحياة في أطرافها حيث شهدت عملاً إجرامياً مروعاً، ففي وقت متأخر من صباح يوم ١ نوفمبر ١٩٨٦، عُثر على روندا موريسون، وهي ابنة شابة جميلة لإحدى العائلات المحلية المحترمة، ميتة على أرضية (مونرو كلينرز)، المتجر الذي كان يعمل فيه طالب جامعي يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً. أصيبت روندا بثلاث رصاصات في الظهر ولكن الغريب أن القتل لم يكن شائعاً في مونروفيل، وكذلك لم يكن من المألوف التعرض لأعمال السطو الظاهرة على شركة تجارية في وسط المدينة. لم تشبه جريمة قتل روندا مجتمع مونروفيل، فقد كانت تتمتع بشعبية كبيرة، وكما هو معروف أنها كانت طفلة وحيدة، وقد كانت خلوقة ولا تشوب أخلاقها شائبة حيث كانت بلا عيوب بكل مقاييس المجتمع. كانت من النوع الذي يحظى بحب الجميع بما فيهم البيض الذين قامت جماعة منهم باحتضانها كابنة لهم، اعتقدت الشرطة في البداية أنه ما من شخص في المجتمع قادر على ارتكاب جريمة بهذه البشاعة، أسود كان أم أبيض فمن القادر على ارتكاب عملاً مروعاً كهذا.

رصدت الشرطة رجلين لاتينيين في مونروفيل يبحثان عن عمل في اليوم الذي عُثر فيه على جثة روندا موريسون، وأصبحا أول المشتبه بهم لكن بعد تعقبهما من قبل الشرطة في فلوريدا قررت الشرطة براءة الرجلين من ارتكاب الجريمة، كذلك كان المالك السابق لمتجر المنظفات - وهو رجل أبيض كبير السن يدعى مايلز جاكسون - موضع شك ولكن لم يكن هناك دليل يدينه بتهمة القتل، استُجوب المالك الحالي لمتجر المنظفات، ريك بلير إلا أنه اعتبر مشتبهاً به غير محتمل أيضاً. في غضون أسابيع قليلة، حاولت الشرطة تجميع الخيوط للوصول إلى الجاني ولكن بلا فائدة.

بدأ همس الناس في مقاطعة مونرو حول عدم كفاءة الشرطة، وعندما فشلت قواتها في تحقيق أي

تقدم للوصول للجاني على مدى عدة أشهر، بدأت الهمسات تعلو حتى تحولت لانتقادات علنية للشرطة والمأمور والمدعي العام المحلي، في الصحف وعلى محطات الإذاعة المحلية وبدأ الناس يتساءلون، عما إذا كان توم تيت الذي انتخب كعمدة للمقاطعة بعد الحادثة بأيام قليلة على المستوى المطلوب للعمل.

عندما فشلت الشرطة المحلية استدعي مكتب التحقيق في ولاية ألاباما (ABI)، للتحقيق في جريمة القتل إلا أن الفشل كان حليفهم في حل لغز الجريمة، كما كان حليف المسؤولين المحليين، وعندها ساد القلق مدينة مونرو فيل و لذلك أعلنت الشركات المحلية عن مكافآت بآلاف الدولارات لمن يدلي بمعلومات عن الحادث وتؤدي لاعتقال الجاني. ونظرا لعدم إحساس الناس بالأمان فقد زادت مبيعات الأسلحة التي كانت دائما مرتفعة أساساً.

في هذه الأثناء، كان والتر يصارع مشكلاته الخاصة، حيث كان يحاول إنهاء علاقته مع كارين كيلبي منذ أسابيع، لأن علاقتهما وماتسببت به من فضيحة لكارين أثرت على إجراءات حضانة الأطفال، وعندها سارت كارين في طريق لا أحد يعلم كيف ستخرج منه حيث بدأت بتعاطي المخدرات مما جعلها تنهار تماماً، ووصلت إلى أدنى درجات الانحدار والتي تمثلت بارتباطها برالف مايرز، وهو رجل أبيض تركت صفعات النار آثارها على وجهه فشوهته للغاية كما أنه صاحب سجل إجرامي طويل. كان رالف نعمة على كارين فكان شريك غير عادي لها ومختلف عنها كلياً، لكنها كانت في حالة تدهور خطيرة لدرجة أنها لم تكن تعي ما تفعل فخرجت كل تصرفاتها مع عائلتها وأصدقائها عن المنطق، وأجرت في حق نفسها عندما تجاوزت فضيحة تعاطي المخدرات إلى الإتجار بها، وكان رالف هو المفتاح الذي فتح لها باب هذا العالم على مصرعيه، حتى أنهما تورطاً معاً في قتل فيكي لين بيتمان، وهي شابة من مقاطعة إسكامبيا المجاورة.

حققت الشرطة تقدماً ملحوظاً في التحقيق في مقتل بيتمان، وخلصت بسرعة إلى تورط رالف مايرز. وعند استجوابه، اكتشف المحققون أنهم يواجهون رجلاً معقداً نفسياً حيث كان يعاني من ندوب جسدية تركت آثاراً عميقة في نفسه، فكان عاطفياً وضعيفاً و يتوق إلى لفت الانتباه وبنى دفاعه الفعال الوحيد على مهارته في التلاعب والتضليل، فكان يؤمن بأن كل أقواله ملحمية و صادمة ومتقنة. ولو عدنا لطفولته سنجد أنه كان يعيش في الحضانة وهناك أصيب بحروق شديدة بسبب حادثة اشتعال النار.

تركت له تلك الحروق ذكريات لا يمكن أن ينساها فقد طبعت على وجهه ورقبته فتسببت في ندوبهما وتشوهمما، لدرجة أنه كان بحاجة إلى العديد من العمليات الجراحية لاستعادة وظائفه الأساسية، ونظراً لأن هذا التشوه رافقه منذ صغره أصبح معتاداً على تحديق الغرباء في ندوبه بينما تكتسي وجوههم بنظرات مؤلمة. كل هذا جعله يتخذ زاوية من الدنيا ينظر من خلالها على الحياة وهي تدوير له ظهرها و تهجره، فقد عاش على الهامش منبوذاً يعاني وضعاً مأساوياً، لكنه حاول التعويض عن كل هذا بالتظاهر بقدرته الفذة على حل جميع أنواع الألغاز ومعرفته بها. نفى مايرز في بداية التحقيقات أي تورط مباشر له في جريمة قتل بيتمان، إلا أنه اعترف بعد ذلك بأنه ربما لعب دوراً عرضياً وسرعان ما وضع اللوم في الجريمة نفسها على شخصيات محلية أكثر

إثارة للاهتمام، حيث اتهم في البداية رجلاً أسود سيئ السمعة اسمه إسحاق دايلي، لكن تحريات الشرطة اكتشفت بنفس السرعة أن دايلي قضى ليلة القتل في الزنزانة، ومن ثم اعترف أنه اختلق القصة لأن القاتل الحقيقي لم يكن سوى مأمور منتخب في مقاطعة مجاورة. اتخذ عملاء ABI القضية جدية توازي بشاعتها فحاصروه بالمزيد من الأسئلة، وبالتالي كلما زاد حديثه زداد توغله في وحل أكاذيبه حتى بدأ المسؤولون يشنّبون في أن مايرز هو القاتل الوحيد وكان يحاول يائساً توريط الآخرين لتخفيف عقوبته . لكن وفاة فيكي بيتمان كانت مجرد أخبار، وبالتالي فشلت المقارنة بين الجريمتين خاصة باستمرار الغموض الذي يلقي بظلاله القاتمة على وفاة روندا موريسون. فلو نظرنا في ملابس الجريمتين سنرى أن فيكي جاءت من عائلة بيضاء فقيرة حُبس العديد من أفرادها ؛ و لم تتمتع بالمكانة المرموقة التي تمتعت بها روندا موريسون، وعائلتها ما جعل مقتلها محط اهتمام الجميع لشهور.

كان رالف مايرز أمياً، لكنه كان يعلم جيداً أن جريمة موريسون هي الشغل الشاغل للمحققين والمسؤولين عن تطبيق القانون، وعندما اكتشف أن ادعاءاته ضد المأمور لم تجد آذاناً صاغية، قام بتغيير قصته مرة أخرى ليخبر المحققين أنه ليس الوحيد المتورط في قتل فيكي بيتمان، بل كان كلاً من كارين كيلى وصديقها الأسود والتر ماكميلان شريكان له في تنفيذ الجريمة، لكنه لم يتوقف عند ذلك الحد، بل أطلق العنان لجبروته ليكمل نسج روايته فأخبر الشرطة أن ماكميلان كان مسؤولاً عن مقتل روندا موريسون أيضاً. وبهذا نجح في جذب كامل اهتمام المسؤولين. سرعان ما اتضح أن والتر ماكميلان لم يلتق أبداً برالف مايرز، ناهيك عن ارتكاب جريمتي قتل معه. لإثبات جهل كلاً منهما بالآخر طلب أحد عملاء ABI من مايرز مقابلة والتر ماكميلان في أحد المتاجر، بينما يراقب العملاء التفاعل بينهما، عندما دخل مايرز إلى المتجر، عجز عن تحديد والتر ماكميلان من بين العديد من الرجال السود الذين أرسلوا مسبقاً (كان عليه أن يطلب من صاحب المتجر أن يشير إلى ماكميلان) ثم سلمه رسالة زعم أنها من كارين كيلى ووفقاً للشهود، بدا والتر مرتبكاً من لقائه بمايرز الذي لم يره من قبل، ومن الرسالة نفسها. حيث ألقاها بعيداً وعاد إلى ما كان يفعله ولم يسترعي انتباهه كثيراً مدى غرابة اللقاء.

لم يضع عملاء المراقبة في ABI أيديهم على ما يشير إلى أي علاقة تربط مايرز وماكميلان وعلى العكس من ذلك كانت الأدلة تشير بالبنان إلى عدم النقاء الرجلين من قبل ومع ذلك، استمروا في السير خلف نظرية ماكميلان، حيث كان الوقت يمر - سبعة أشهر حتى هذا الوقت - وكان الخوف يحرك مجتمع مونرو فيل و الغضب يخنقه والنقد يفرض وجوده على أحاديث الناس، كل هذا شكل ضغط هائلاً على المحققين الذين كانوا بحاجة ماسة إلى اعتقال أحد ما. لقد كان مدير مقاطعة مونرو توم تيت قليل الخبرة في تطبيق القانون. ولو بحثنا عن وصف خاص له سنجد أنه محلياً بجدارة حتى لتظن عندما تراه أنه تمثال يتحرك بلا حياة، فلو نظرت في عينيه لن ترى سوى قطعتي زجاج براق بلا نور وعقله كان يابساً صلباً و كأنه جبل من صخور الالباما أما قلبه فلم يكن أفضل حالاً فقد كان قاسياً أسوداً و كأنه اقتطع من الإسفلت الذي يغطي شوارع ألاباما لقد كان مجرد كائن حي يتحرك لكن بلا حياة، ترى هل يموت الإنسان عندما تغادر روحه جسده فقط، أظن أنه قد يموت أيضاً إذا

غادرت الرحمة روحه. لقد كان فخورًا للغاية لأنه لم يعيش أي مغامرة بعيداً عن ألاباما إلى الآن و بعد أربعة أشهر من ولايته كمأمور، وجد نفسه في مواجهة جريمة قتل معقدة غير قابلة للحل إضافة إلى ضغط شعبي مكثف.

عندما أخبر ماييرز الشرطة عن علاقة ماكميلان و كارين كيللي، سيئة السمعة لم يستغرب تيت فقد كانت هذه العلاقة المختلطة الأعراق معروفة لديه، بسبب جلسات حضانة كيللي لأطفالها التي ولدت الكثير من الشائعات. ولكن المشكلة أنه لم يكن هناك أي دليل ضد ماكميلان - باستثناء أنه كان رجلاً أمريكياً من أصل أفريقي متورط في علاقة زنا بين الأعراق، مما يعني أنه كان متهوراً وربما خطيراً، ربما كان هذا دليلاً كافياً فلن تشفع له سمعته الجيدة أو خلو ملفات الشرطة من أي سجل إجرامي له .

الفصل الثاني:

قف

لقد أمضيت السنة ونصف السنة الأولى من حياتي المهنية في النوم على أريكة غرفة المعيشة في منزل ستيف برايت في أتلانتا، والآن حان الوقت للعثور على شقة خاصة بي فعندما بدأت العمل في أتلانتا، كان الموظفون يستميتون في التعامل مع أزمة تلو الأخرى. و وكلت إلي على الفور مهمة تولي قضايا ذات مواعيد نهائية ملحة، فلم يسعفني الوقت للعثور على مكان للعيش فيه -ومن جهة أخرى فإن راتبي السنوي البالغ ١٤٠٠٠ دولار لم يترك لي الكثير من المال للإيجار- لذا اقترح علي ستيف العيش معه كمنحة صغيرة. لقد استقبل بارك أسئلتي واستفساراتي المتواصلة حول القضايا والتحديات المعقدة لحالاتنا وعمالنا بصدر رحب. كنا نقضي يومنا بأكمله من الصباح وحتى منتصف الليل، في العمل على حل القضايا الكبيرة والصغيرة. وأحببت هذ العمل وانغمست به حتى أدني ونسيت موضوع البحث عن سكن خاص بي، إلى أن انتقل زميلي في كلية الحقوق، تشارلز بليس إلى أتلانتا للعمل في جمعية أتلانتا للمساعدة القانونية، واتفقنا على تجميع رواتبنا الضئيلة كي نتمكن من إيجاد شقة منخفضة الإيجار. بدأنا أنا وتشارلي معاً في كلية الحقوق بجامعة هارفارد وعشنا في نفس المسكن الذي يعيش فيه طلاب السنة الأولى. كان تشارلي شاباً أبيضاً من ولاية كارولينا الشمالية، كانت شراكتنا في ارتباكنا مما كنا نعانيه في كلية الحقوق واضحة، فكثيراً ما كنا نرجع إلى صالة الألعاب الرياضية في المدرسة للعب كرة السلة ومحاولة فهم الأمور من حولنا.

لقد عثرت أنا وتشارلي على شقة بالقرب من أتلانتا إيمان بارك. بعد عام، أجبرتنا زيادة الإيجار على الانتقال إلى قسم فرجينيا هايلاندز في المدينة، حيث بقينا لمدة عام قبل أن ترسلنا زيادة أخرى في الإيجار إلى ميدتاون أتلانتا. كانت الشقة ذات الغرفتين التي شاركناها هناك أروع شقة في أروع حي وجدناه حتى الآن. إلا أنني لم أتمكن من الاستمتاع وقضاء الكثير من الوقت فيها بسبب تزايد عدد الحالات في ألاباما.

بدأت خطتي لمشروع قانون جديد لتمثيل الأشخاص المحكوم عليهم بالإعدام في ألاباما تتبلور، كنت أحلم بإرساء قواعد المشروع على أرض الواقع في ألاباما والعودة في النهاية للعيش في أتلانتا. كان جدول أعمال قضايا الإعدام الجديدة في ألاباما يدفعني للعمل بجنون، حيث كنت أقود السيارة ذهاباً وإياباً من أتلانتا إلى ألاباما وأحاول في الوقت نفسه العمل على حل العديد من قضايا وحالات السجن التي قمت برفعها في ولايات جنوبية مختلفة.

ساعت ظروف السجناء في السجون في كل مكان، مما اضطر بعضهم للانتفاض واتخاذ موقف حاسم، يصرخون من خلاله في وجه الظلم والجور الذي أذاقهم ألواناً من العذاب متمثلاً في سجانهم ليقولوا لهم «إننا بشر»، فقام السجناء في سجن أتيكا بأعمال شغب للفت الانتباه الوطني إلى الانتهاكات الفظيعة في السجون في السبعينيات، حيث أشعل استيلاء السجناء على سجن أتيكا الضوء، ليفتح جميع من في البلاد أعينهم ليروا ويتعرفوا على الممارسات القاسية داخل السجون مثل الحبس الانفرادي، حيث يعزل السجناء في مكان ضيق صغير لمدة أسابيع أو شهور، كما

يوضع السجناء في بعض المرافق في «صندوق للعرق»، أو حفرة في صندوق أو صندوق يقع، فيشعر السجين أنه وقع في جهنم من شدة الحرارة التي كانت تكوي روحه وجسده على حد سواء لأيام أو أسابيع، فضلاً عن تعرض بعض السجناء للتعذيب باستخدام هزّات الماشية الكهربائية، كعقاب على انتهاكات قواعد السجن كذلك يُقيد السجناء في بعض المرافق بـ «مواقع الربط»، فتثبت أذرعهم فوق رؤوسهم في وضع مؤلم حيث يضطرون للوقوف لساعات، كانت بالنسبة لهم أياماً ولم تكن هذه الممارسات التي لم يُعلن حتى عام ٢٠٠٢ أنها ليست دستورية، هي الوحيدة المتبعة لتعذيب السجناء بل كان هناك العديد من العقوبات المهينة والخطيرة المفروضة عليهم فحتى طعامهم كان حلقة من حلقات سلاسل التعذيب التي قيدت أرواحهم و آدميتهم، فقدم لهم الطعام الرهيب ووضعوا في ظروف معيشية قاسية تأنفها حتى الحيوانات.

كشفت وفاة إثنين وأربعين شخصاً في نهاية أزمة أتيكا عن مدى خطورة الاعتداء على السجناء والظروف اللاإنسانية التي يعيشونها، مما أدى إلى الاهتمام المتزايد الذي كان وراء صدور العديد من أحكام المحكمة العليا، بتوفير الحماية الأساسية كإجراءات قانونية واجبة للسجناء.

قامت عدة ولايات ببعض الإصلاحات للقضاء على أكثر الممارسات التعسفية، خوفاً من العنف المحتمل، ولكن بعد عقدٍ من الزمن عادت ظروف السجناء للتدهور بسبب تزايد أعداد السجناء بسرعة كبيرة، فقد كنا نتلقى عشرات الرسائل من السجناء الذين يشتكون من الظروف الرهيبة التي يعيشونها إلى الآن، وأفادوا بأنهم ما زالوا يتعرضون للضرب من قبل موظفي الإصلاحات فضلاً عن إذلالهم في الحظائر والعقوبات المهينة الأخرى، وأكثر ما أثار قلقنا وصول عدد لا يستهان به من حالات السجناء الذين تم العثور عليهم ميتين في زنازينهم.

كنت أعمل على العديد من هذه الحالات، بما في ذلك حالة في غادسدن ألاباما، حيث ادعى مسؤولو السجن أن رجلاً أسود يبلغ من العمر تسعة وثلاثين عاماً توفي لأسباب طبيعية بعد اعتقاله بتهمة مخالفات المرور، لكن عائلته أكدت أنه تعرض للضرب على أيدي الشرطة ومسؤولي السجن الذين حرموه من جهاز استنشاق الربو كما منعه من أخذ أدويته على الرغم من توسله.

قضيت الكثير من الوقت مع عائلة لوريديا روفين المنغمسة بالحزن، وقالوا لي كم كان أباً حنوناً ولطيفاً، وكيف أطلق الناس عليه أحكاماً خاطئة بسبب هيئته الضخمة، فقد يبدو الأمر مخيفاً عند رؤية رجل ذي ستة أقدام وخمس بوصات وأكثر من ٢٥٠ رطلاً، رغم ذلك أكدت زوجته ووالدته أنه كان لطيفاً ودوداً.

أوقفت شرطة جادسدن السيد روفين لأن سيارته انحرفت حسب زعمهم، ومن ثم اكتشفت الشرطة أن صلاحية رخصته انتهت منذ بضعة أسابيع، وعليه قاموا باحتجازه.

عندما وصل إلى سجن المدينة كان يعاني من كدمات ونزيف شديد، حيث أخبر السيد روفين زملائه الآخرين في السجن أنه تعرض للضرب المبرح وأنه بحاجة ماسة إلى أدوية الاستنشاق والربو. عندما بدأت التحقيق في القضية، أخبرني نزلآء السجن أنهم رأوا الضباط يضربون السيد روفين قبل نقله إلى زنزانه العزل. بعد عدة ساعات رأوا أفراد الطاقم الطبي ينقلونه على نقالة.

على الرغم من كل محاولات الإصلاح في السبعينيات وأوائل الثمانينيات، إلا أن موت السجناء في السجون لا يزال يشكل كابوساً حقيقياً، حيث أدى الانتحار وعنف السجناء وعدم كفاية الرعاية الطبية، وإساءة معاملة الموظفين وعنف الحراس إلى مقتل مئات السجناء كل عام.

تلقيت شكاوى أخرى من الناس في جادسدن منذ وقت قريب ومن ضمنها شكاوى من والدَي مراهق أسود أطلقت الشرطة عليه النار وقتلته، حيث أخبراني أن الشرطة أوقفت إيهما بسبب مخالفة مرورية بسيطة فهو لم يتوقف بعد تشغيل الضوء الأحمر - وشرحا لي أن إيهما الصغير قد بدأ للتو في القيادة فتوتر للغاية عندما اقترب منه ضابط الشرطة. وأكدت عائلته أنه حاول الوصول إلى أرضية السيارة حيث احتفظ بحقيبته الرياضية لإبراز رخصة قيادته الصادرة حديثاً، لكن كان للشرطة قصة مختلفة حيث زعموا أنه كان يحاول الوصول إلى سلاح - ولكن وكما هو متوقع لم يتم العثور على أي سلاح إطلاقاً - ولكن رصاصة الشرطي لم تصبر لتعرف ماذا كان يحاول أن يخرج من حقيبته، فقد كانت مثلهمة لتمزيق أحشاء ذلك الفتى، فانطلقت مسرعة من السلاح لتتوغل في جسده الغض فقتلته بينما كان يجلس في سيارته. قال الضابط الذي أطلق النار على الصبي إنه لم يكن مستقراً مما أثار شكوكه وإنه كان يتحرك بطريقة هوجاء مهددة، ولكن والدا الطفل أكدا أن أبسط الأشياء قد تثير مخاوف ولدهما مما يجعله متوتراً ولكنه من جهة أخرى كان مطيعاً ولا يستطيع إيذاء أي شخص، وكيف له أن يفعل وهو المتدين و الطالب المجتهد، وكان لسمعة الفتى دوراً فعالاً في إقناع رئيس الحقوق المدنية بالضغط من أجل التحقيق في وفاته. وصلت مناشداتهم إلى مكتبنا، وتوليت تلك القضية إلى جانب قضايا السجن الأخرى.

إن معرفة القانون المدني والجنائي في ولاية ألاباما والبحث فيه أثناء إدارة قضايا عقوبة الإعدام في عدة ولايات أخرى استولت على معظم وقتي وكأني أسيرها، ناهيك عن الدعاوى والقضايا الإضافية المقامة ضد ظروف السجن التي تعني أنه لا بد وأن أقضي المزيد من الوقت ولمسافات طويلة مع سيارتي الهوندا التي أنتجت عام ١٩٧٥ والتي تكافح للصمود معي في وجه تلك الظروف، أما الراديو رغم أنه توفي تقنياً قبل عام ولا يعود للحياة إلا إذا تعرضت السيارة لعنف يززعها كأن تتعثر بحفرة أو تتوقف فجأة أو تصدم صدمة تعادل قوة الصدمات الكهربائية في غرف الإنعاش.

بعد قيادة السيارة لمدة ثلاث ساعات على طريق العودة من جادسدن، كنت قد توجهت في وقت سابق من اليوم إلى المكتب مباشرة، وكالعادة أمضيت اليوم هناك دون أن أشعر بنفسى، حتى التقى عقربا الساعة ببعضهما كعاشقين يعلنان للعالم أن منتصف الليل لهما وأن الذين يعملون مثلي عليهم أن يعودوا لبيوتهم، ضحكت عندما جاء في بالي أنني مثل سندريلا التي عليها العودة للمنزل في تمام الثانية عشرة ليلاً، فما كان مني إلا أن امتثلت للأوامر فغادرت المكتب متجهاً إلى المنزل، وقد فوجئت بأن الراديو عمل بمجرد إدارة محرك السيارة وكأن مشاعر الفرح التي كنت أشعر بها تحولت إلى موجات لاسلكية دبت الحياة في أسلاك الراديو.

بعد ما يزيد قليلاً على ثلاث سنوات من ممارسة القانون، أصبحت أحد هؤلاء الأشخاص الذين يمكن لمثل هذه التفاصيل الصغيرة أن تحدث فرقاً كبيراً في إثارة مشاعر الفرح في داخلهم، وكان

هذا الوقت المتأخر من تلك الليلة قرر أن يكافئني بإدخال المزيد من السعادة على قلبي فتعدت مكافأته عمل الراديو، إلى بث المحطة التي كانت تقدم إعادة عرض لموسيقى Family و Sly التي كبرت على موسيقاها، ووجدت نفسي أتجول و أتمايل بفرح في شوارع أتلانتا على أنغام موسيقي المفضلة مثل «الرقص على الموسيقى» و«كل شخص نجم» و«شؤون العائلة».

كانت شقتنا تتربع في وسط مدينة أتلانتا في شارع سكني مزدحم، مما اضطرني في بعض الليالي إلى إيقاف السيارة في منتصف الطريق أسفل المبنى أو حتى في الجوار للعثور على مساحة. لكن يبدو أن الحظ كان سعيداً برافتي الليلة فلم يفارقني، فقدت أوقفت سيارتي ال سي في الساحة على بعد خطوات من بابنا الأمامي الجديد، وعندها بدأ «Hot Fun in the Summer» Sly. كان الوقت متأخراً، وكان جسدي يصرخ طلباً للنوم، لكن اللحظة كانت أروع من أن أتركها تفلت مني ببساطة، لذلك بقيت في السيارة أستمع للموسيقى. وكنت عند بدأ كل أغنية أقول في نفسي سأنزل بمجرد انتهائها إلا أن أغنية، أخرى لا تقاوم تبدأ بعدها، وأجد نفسي عاجزة عن مطاوعة جسدي المتعب فأبقى جالساً. كنت مندمجاً في الغناء مع الفرقة بصوت مرتفع أغنية «قف!» النشيد الوطني في نهاية الإنجيل العظيم، عندما رأيت أضواء سيارة الشرطة تقترب مني، ولأنني كنت متوقفاً على بعد بضعة أبواب من شقتنا، افترضت أن الضباط مكلفون بالقيام ببعض المهام العاجلة لذلك سيتخطونني، لكن عندما توقفوا على بعد عشرين قدماً مني، تساءلت عما يحدث.

يسير شارعنا باتجاه واحد فقط، وأنا لم أخالف هذا الاتجاه فقد كانت سيارتي متوقفة في الاتجاه الصحيح ؛ لكن سيارة الشرطة سارت عكس اتجاه الشارع . في هذه اللحظة فقط لاحظت أنها لم تكن سيارة شرطة عادية بل واحدة من سيارات أتلانتا (Special Weapons And SWAT) (SWAT). و (الخاصة SWAT والتكتيكات الخاصة أو فرقة التدخل السريع - ولاحظت أن - والكلمة اختصار لفرقة الأسلحة)tactics هنا من أجلي، لكنني لم أضواء سيارتهم نحوي. عندها فقط تبين لي أنهم قد يكونون الضباط يوجهون اكتفى الحظ من رافتي لهذه الليلة فذهب لينام وتركني لأنني أستطيع تخيل السبب، وتساءلت هل SLYتوقفت في الشارع لمدة ١٥ دقيقة تقريباً أستمع إلى ؟! أما بالنسبة لمكبرات الصوت في سيارتي فقد عملت واحدة منها فقط وليس بشكل جيد للغاية، كنت على ثقة من أنه لا يمكن سماع الموسيقى من خارج السيارة.

جلس الضباط هناك مع توجيه النور إلي لمدة دقيقة أو نحوها. أوقفت الراديو قبل انتهاء أغنية «قف!»، كان يوجد على مقعد سيارتي ملفي حالة قضيتي كل من لوريدا روفين والشاب الذي أصيب برصاصة في غادسدن. في النهاية خرج شرطيان من السيارة و لاحظت على الفور أنهما لا يرتديان الزي الرسمي لشرطة أتلانتا بل كانا يرتديان بدلاً منه، ملابس تنذر بالسوء على الطراز العسكري، فبدأ كأن سواد الليل التف حول جسديهما حيث الأحذية السوداء مع السراويل والصديريات السوداء أيضاً .

قررت الخروج من سيارتي والعودة إلى المنزل، على الرغم من تحديقهم بي بشدة و كأنني الكائن الحي الوحيد على الكوكب، كنت ما أزال متمسكاً ببقايا أمل بأن يكونوا في المنطقة لأي سبب

آخر غيري. أو أن قلّقا ساورهم من حدوث شيء مالي، و كنت سأطمئنهم أن كل شيء على ما يرام. بالتأكيد لم يخطر ببالي ولو للحظة أن الخروج من سيارتي كان خطأ أو خطير، و بمجرد فتحي لباب سيارتي وخروجي منها، قام ضابط الشرطة الذي بدأ يسير باتجاه سيارتي بسحب سلاحه والإشارة إلي، ولم أستطع إخفاء الحيرة التي كست ملامحي عندها. كانت غريزة البقاء تدفعني للركض كردة فعل أولى، لكن الذكاء كبل قدمي وقررت أن هذا التصرف سيكون بمنتهى الغباء، ثم فكرت للحظة هل يعقل ألا يكون هؤلاء ضباط شرطة حقيقيين؟!

صاح الضابط : «تحرك وسأفجر رأسك!»، لكنني لم أستطع أن أفهم ما قصده. حاولت أن أبقى هادئا، يا إلهي هذه أول مرة في حياتي يوجه فيها أحد مسدساً إلي.

الضابط: «ارفع يديك عاليا!» كان الضابط رجلاً أبيض بنفس طولي تقريباً في الظلام لم يكن بإمكانني ملاحظة شيء سوى الزي الأسود والسلاح المدبب.

رفعت يدي ولاحظت توتره. لا أتذكر أنني قررت التحدث، تذكرت فقط الكلمات التي تدافعت على لساني : «كل شيء على ما يرام. إنه بخير. «أنا متأكد من أنني كنت خائفاً لأن

الخوف عانقني حتى كاد يسحق عظامي . ظللت أقول الكلمات مرارا وتكرارا. «لا بأس، لا بأس». وأخيرا قلت: «أنا أعيش هنا، هذه شقتي». نظر إلى الضابط الذي كان يوجه البندقية إلى رأسي على بعد أقل من خمسة عشر قدماً. اعتقدت أنني رأيت يديه ترتعش. ظللت أقول بهدوء قدر استطاعتي: «لا بأس، لا بأس»، أما الضابط الثاني، الذي لم يسحب سلاحه، توجه نحوي بحذر. صعد على الرصيف، ودار خلف سيارتي المتوقفة، ووقف ورائي بينما واصل الضابط الآخر توجيه البندقية نحوي، ثم أمسك بي من ذراعي ودفعني إلى أعلى سيارتي، عندها قام الضابط الآخر بإنزال سلاحه.

قال الضابط الثاني : «ماذا تفعل هنا؟»، و قد بدا أكبر سنّاً من الضابط الذي سحب سلاحه، بدا غاضباً.

أنا : «أنا أعيش هنا. انتقلت إلى ذلك المنزل في الشارع قبل بضعة أشهر فقط. زميلي في الداخل. يمكنك أن تسأله».

كرهت خوفي من الصوت، كما كرهت اهتزاز صوتي المرتعب.

قال الضابط: «ماذا تفعل في الشارع؟»

أنا: «كنت أسمع الراديو».

ثم وضع يدي على السيارة وأحنى جسدي على الجزء الخلفي منها. كان الضوء الساطع لسيارة SWAT لا يزال متركزاً علي، ثم لاحظت أن السكان بدأوا يشعلون أنوار منازلهم وينظرون من أبوابهم الأمامية. وجاء دور المنزل المجاور لمنزلنا لتدب به الحياة، وخرج رجل وامرأة أبيضان متوسطا الطول في منتصف العمر، وأخذا يحدقان بي وأنا مستلقٍ على السيارة.

طلب مني الضابط الذي يقيدني رخصة قيادتي، لكنه لم يسمح لي بتحريك ذراعي لإخراجها فأخبرته أنها في جيبي الخلفي، فأخرج محفظتي من بنطالي. كان الضابط الآخر ينحني الآن ليدخل سيارتي ويعبث في أوراقتي. كنت أعلم أنه ليس لديه سبب واقعي لدخول سيارتي وأن تفتيشه غير قانوني، أوشكت كلمات الاحتجاج على الخروج من شفتي ولكن عندما رأيته يفتح صندوق القفازات -كان فتح الأشياء في سيارة متوقفة أمرًا غير قانوني للغاية- أدركت أنه لا يولي أي اهتمام للقواعد، لذلك عدت وأغلقت شفتي على كلماتي فقد أدركت أن الكلام سيكون غير مجدٍ.

لم يكن في سيارتي ما يثير الاهتمام، فلا مخدرات ولا كحول ولا حتى تبغ. فقط حقيبة عملاقة من الفول السوداني حجرة القفازات، لإسكات الجوع الذي كنت أحتفظ بها في Bazooka و M & Ms لم يبق سوى عدد قليل وقت العمل الذي لا يدع لي مجالاً لسده بوجبة دسمة، قد يشن هجوماً علي في جيد أنه ألقاه التي تفقدها الضابط بعناية، وختم جولته بدس أنفه في الكيس، في الحقيبة M & M من M & Ms بعيداً فلن أكل هؤلاء الـ .

لم يكن عنواني الجديد هذا هو نفسه المذكور في رخصة القيادة، حيث انتقلنا للبيت منذ فترة وجيزة ولم أجد الوقت لتجديد الرخصة بعد، إضافة إلى أنه لم يكن هناك أي شرط قانوني لتحديث رخصة القيادة بدافع تغيير موقع السكن، إلا أن هذه النقطة أعطت الضابط ذريعةً لاحتجازي هناك لعشر دقائق أخرى حتى عودته إلى سيارته لإجراء عملية تفتيش ذاتي لي. أصبح جيراني أكثر جرأة مع استمرار اللقاء، فبالرغم من تأخر الوقت إلا أن الناس خرجوا من منازلهم للمشاهدة، وكنت أسمعهم يتحدثون عن كل عمليات السطو في الحي. وشعرت مع حديثهم أنني تحولت إلى علي بابا و الأربعين حرامي في آي واحد، وكان أبرزهم امرأة بيضاء مسنة طالبت بصوت عالٍ بأن يتم استجوابي حول الأشياء التي فقدتها.

المرأة: «اسأله عن الراديو الخاص بي وعن مكنستي الكهربائية!»

امرأة أخرى: «اسأله عن قطتي المسكينة فهي مختفية منذ ثلاثة أيام»

بقيت أنتظر أن يضاء ضوء شقتنا ويخرج تشارلي للخارج كما خرج نصف سكان الشارع ويساعدني، ولكن ما طال انتظاري ظننت أنه قد لا يكون في المنزل، فقد كان يواعد امرأة عملت أيضاً في المساعدة القانونية، حيث يقضي الكثير من الوقت في منزلها.

وأخيراً، عاد الضابط وتحدث إلى شريكه:

بإحباط كبير : «ليس لدينا أي شيء عليه». أمسكت أعصابي بصعوبة بالغة وكأني أمسك جمرًا وأبعدت يدي عن السيارة.

قلت: «ما جرى عبثٌ لا معنى له، أنا أعيش هنا ما كان عليك فعل هذا! لماذا فعلت هذا؟»

عبس الضابط الأكبر.

قائلاً: «اتصل شخص يشتبه بعملية سطو، كما تعلم كان هناك الكثير من عمليات السطو في هذا

الحي». ثم ابتسم.

قائلاً: «سوف ندعك تذهب، هيا يارجل يجب أن تكون سعيداً». ثم صعدوا إلى سيارتهم، وغادروا. نظر إلي الجيران مرة أخيرة قبل أن يتراجعوا إلى منازلهم. لم أستطع أن أقرر ما إذا كان يجب أن أسابقهم إلى بابي حتى يتمكنوا من رؤية أنني أعيش في الحي، أو أن أنتظر حتى يذهبوا جميعاً كي لا يعرف أحد أين يعيش «المجرم المشتبه فيه» وقررت الانتظار.

لملمت أوراقتي، التي نثرها الشرطي في جميع أنحاء السيارة وعلى الرصيف و كأنني ألملم كرامتي التي تبعثرت على ذات الرصيف على مرأى ومسمع الجيران، ثم ألقيت M & M في سلة المهملات في الشارع بكل أسف ثم مشيت إلى شقتي. ويزيد شعوري العظيم بالرضى، كان تشارلي موجوداً في المنزل أيقظته لأخبره القصة ظلت

أقول: «يا إلهي تصور لم يعتذروا أبداً». لم يقل غضب تشارلي عن غضبي ولكن سرعان ما عاد إلى النوم في حين أنني لم أستطع النوم على الإطلاق. في صباح اليوم التالي أخبرت ستيف عن الحادث، فغضب وحتني على تقديم شكوى إلى قسم شرطة أتلانتا، كما أشار علي بعض الأشخاص في المكتب بضرورة توضيح أنني محام مدني يعمل على قضايا سوء سلوك الشرطة في شكواي، وشرعت في كتابة الشكوى ثم نظرت إلى الأوراق التي أمامي وفكرت أنه لا ينبغي لأحد أن يحتاج، إلى هذه الأنواع من أوراق الاعتماد للشكوى من سوء سلوك ضباط الشرطة. بدأت بكتابة شكواي مصمماً على الاحتفاظ بمعلومة أنني محام لنفسي. وبدأت استرجاع الحادثة بأكملها في ذهني، كان أكثر ما أزعجني هو أنني فكرت في الهرب في اللحظة التي وجه فيها الضابط سلاحه إلي.

كنت محامياً في الثامنة والعشرين من العمر وأحد الذين عملوا في قضايا سوء سلوك الشرطة، وحمدت الله الذي ألهمني الحكمة للتحديث بهدوء إلى الضابط عندما هدد بإطلاق النار علي. عندها تذكرت كيف كان تفكيري وما كنت أخطط له عندما كنت في السادسة عشرة أو التاسعة عشرة أو حتى في الرابعة والعشرين من عمري، وما أنا عليه الآن وكيف اختلف تفكيري، أستشعر نعم الله علي لكن أرفهني كثيراً خوفي من التفكير ماذا لو كنت هربت فعلاً، وهنا سيطر علي لفترة هاجس القلق على جميع الشباب والرجال السود في ذلك الحي. هل يمكنهم الثبات؟ هل يستطيعون ألا يركضوا؟ هل تعلموا كيف يظلون هادئين ويقولون «لا بأس»؟

لقد فصلت كل مخاوفي، بعدما وجدت أن إحصاءات مكتب العدل تفيد بأن نسبة تعرض الرجال السود للقتل من قبل الشرطة أكثر بثمانية أضعاف من البيض، كما تفيد بأنه بحلول نهاية القرن العشرين سيتحسن معدل إطلاق النار من قبل الشرطة بحيث ستخفض النسبة فيكون الرجال الملونين «هم فقط» أكثر عرضة للقتل بأربع مرات تطبيقاً للقانون، إلا أن ماسيزيد من سوء المشكلة هو إقرار بعض الولايات «قوانين قفوا على الأرض» وهي قوانين تمكين المواطنين المسلحين من استخدام القوة المميتة كذلك.

ظلت أكتب مذكرتي إلى قسم شرطة أتلانتا، وقد كتبت ما يقرب من تسع صفحات توضح كل الأشياء التي اعتقدت أنها سارت بشكل خاطئ، حيث قمت بتفصيل البحث غير القانوني تماماً للمركبة

وغياب سبب محتمل على امتداد صفحتين حتى أنني استشهدت بحوالي نصف دزينة من حالات الفوز. ثم قرأت الشكوى وأدركت أنني فعلت كل شيء ولكن لن أقول «أنا محام»!!

لقد قدمت شكواي إلى قسم الشرطة وحاولت نسيان الحادث إلا أنه كان أعند من أن يخرج من ذاكرتي بسهولة، واستمر التفكير فيما حدث يورقني، لأنني كنت أشعر بالحرع من فكرة أنني لم أسيطر بما فيه الكفاية خلال اللقاء، كان يجب أن أخبر الضباط بأنني محامي أو أن تصرفاتهم خارجة عن القانون، ترى هل كان علي أن أقول لهم المزيد؟ و على الرغم من العمل الذي قمت به لمساعدة الناس في سجن الإعدام، إلا أنني رحمت أسأل نفسي عن مدى استعدادي للقيام بأشياء صعبة حقاً. حتى أنني فتحت الطريق لأفكار أخرى مثل الذهاب إلى ألاباما لفتح مكتب محاماة، ثم سيطرت على رأسي فكرة أخرى حول مدى الخطورة التي قد يتعرض لها الأطفال الصغار إذا ما أوقفتم الشرطة.

قام قسم شرطة أتلانتا بمراجعة شكواي، والنتيجة إرسال رسالة كل بضعة أسابيع مفادها أن ضباط الشرطة لم يرتكبوا أي خطأ وأن عمل الشرطة صعب للغاية. لم أياأس واستأنفت تقديم شكواي على مستويات قيادية مختلفة ولكن من دون جدوى في السلسلة القيادية. وأخيراً طلبت لقاء رئيس وضباط الشرطة الذين أوقفوني، إلا أن طلبي قوبل بالرفض لكنني التقيت بنائب الرئيس، و طلبت اعتذاراً واقترحت تدريباً لمنع وقوع حوادث مماثلة. كان نائب الرئيس يومئذ لي بأدب خلال شرعي الحادث وما فعله الضباط معي وانتهت المقابلة باعتذار نائب الرئيس و وعد منه بأنه سيوجه الضباط للقيام ببعض «الواجبات المنزلية الإضافية على العلاقات المجتمعية، لم أخرج راضياً تماماً من هذا اللقاء، فقد شعرت أن كل ما قاله النائب مجرد مسابرة لي كي أغادر فقط.

ازداد عدد الحالات التي توليتها بشكل جنوني، و مما أسعدني إقرار المحامون المدافعون عن سجن مدينة جادسدن أخيراً بأن حقوق السيد روفين قد انتهكت وأنه حرم بشكل غير قانوني من دواء الربو، وبالتالي فزنا بتسوية لائقة لعائلة السيد روفين، حتى يتلقوا على الأقل بعض المساعدة المالية.

لم أكن لأتخلى عن عملائي الذين يواجهون عقوبة الإعدام لأشن حرباً على شرطة أتلانتا، فقد كان جدول قضايا عقوبة الإعدام الخاص بي ممتلئاً تماماً، لذلك حولت حالات سوء سلوك الشرطة الأخرى إلى محامين آخرين ومع ذلك، لم أستطع التوقف عن التفكير في مدى خطورة الوضع و مدى الظلم الذي يحيط بنا حتى كاد أن يطبق علينا، وكيف تعرضت لموقف كهذا رغم أنني لم أرتكب أي خطأ، وماذا لو كان لدي مخدرات في سيارتي؟ كنت سأعتقل ثم سأحتاج لإقناع محامي بتصديقي عندما أوضح له أن الشرطة دخلت السيارة بشكل غير قانوني. هل أحصل على محام يأخذ مطالبة كهذه على محمل الجد؟ هل يعتقد القاضي أنني لم أرتكب أي خطأ؟ هل سيصدقون شخصاً يشبهني تماماً ولكنه ليس محامياً؟ شخص مثلي إلا أن الحظ كثر له عن أنيابه فبقي عاطل عن العمل؟ ومالذي سيحصل لو أن شبيهي هذا كان لديه سجل إجرامي سابق؟ يا إلهي!!

رفضت شراء البوشار والجلوس على مقعد لمشاهدة ما يحدث فأنا لا أصلح لأكون مجرد مشاهدٍ للأحداث، فقررت التحدث إلى مجموعات الشباب والكنائس والمنظمات المجتمعية حول التحديات التي يواجهها الفقراء والملونين لمجرد افتراض الذنب والشك بهم كما تحدثت في اجتماعات محلية

وحاولت توعية الناس بضرورة الإصرار على المساواة عند التعسف في تطبيق القانون. جادلت حول إمكانية قيام الشرطة بواجبها في الحفاظ على الأمن وتحسين السلامة العامة دون الإساءة إلى الناس، و لم أكتف بهذا فحتى عندما كنت في ألاباما، كنت أخصص وقتاً لإجراء المحادثات في المناسبات المجتمعية كلما سأل أي شخص.

في يوم ما وعندما كنت في مقاطعة ريفية فقيرة في ألاباما بعد رحلة أخرى لسحب سجلات إحدى قضايا عقوبة الإعدام، دُعيت للتحدث في كنيسة أميريكية أفريقية صغيرة حيث حضر حوالي ٢٤ شخصاً فقط.

قدمني للحضور أحد وجهاء المجتمع، ثم توجهت إلى مقدمة الكنيسة وبدأت حديثي عن عقوبة الإعدام وزيادة معدلات الحبس وإساءة استخدام السلطة داخل السجون وتطبيق القانون التمييزي والحاجة إلى الإصلاح في مرحلة ما، وقررت التحدث عن لقائي مع الشرطة في أتلانتا، وأدركت من رجفة صوتي أن مشاعري بدأت تغلف كلماتي، مما دعاني إلى إجبار نفسي على إنهاء الحديث عن هذا الموقف. لاحظت أثناء الحديث، وجود رجل أسود طاعن في السن يجلس على كرسي متحرك جاء قبل بدء البرنامج مباشرة؛ كان في السبعينيات من عمره و يرتدي بدلة بنية يبدو أن بينهما عشرة طويلة ؛ أما شعره الرمادي فكان مقصوفاً مع بعض الخصلات الجامعة هنا وهناك وقد ظل ينظر إلي بشكل مكثف طوال عرضي التقديمي لكنه لم يظهر أي عاطفة أو رد فعل خلال معظم الحديث، حقيقةً أثار تحديقه المركز بي قلقي، جاء الرجل مع ولد صغير يبلغ من العمر ١٢ عاماً تقريباً ربما يكون حفيده أو أحد أقاربه. ولفت نظري أن الرجل يوجه الصبي من حين لآخر لجلب الأشياء له. كان يومئ برأسه بدون كلام، وبدأ أن الصبي يعرف أنه يريد مروحة أو كتاب الترانيم.

بعد انتهاء كلامي، غنت المجموعة ترنيمة لإنهاء الجلسة، إلا أن الرجل الأكبر سناً لم يغن وإنما أغلق عينيه وجلس على كرسيه بعد البرنامج جاء الناس إلي، و كان معظمهم لطفاء للغاية وأعربوا عن تقديرهم للوقت الذي بذلته في القدوم إليهم والتحدث معهم، كما جاء العديد من الصبية السود الصغار لمصافحتي يداً بيد، وشعرت أن قلبي يركب موجة من السعادة ولدتها مشاعر الناس تجاهي وتقديرهم للمعلومات التي شاركهم بها . كان الرجل على الكرسي المتحرك ينتظر في الجزء الخلفي من الكنيسة، وكان لا يزال يحدق بي وعندما غادر الجميع، أوماً برأسه إلى الصبي الصغير الذي دفعه إلي بسرعة.

لم تتغير تعابير الرجل أبداً عندما اقترب مني، وكأنه تمثال نُحت على هذه الهيئة و توقف أمامي ثم انحنى للأمام على كرسيه المتحرك، وقال بقوة وحزم : «هل تعرف ماذا تفعل؟» كانت نظراته جادة للغاية، ووجهه متجهم وكأنه يخشى أن يتحطم التمثال إذا ابتسم، في الواقع شعرت أن سؤاله طرحني أرضاً بالضربة القاضية، لدرجة أنني لم أستطع أن أضمن ماهية سؤاله هل كان سؤالاً حقاً أو هجمة معادية؟! وبالطبع لم أكن أعرف ماذا أقول وعندما رأى ردة فعلي لوح بإصبعه في وجهي، وسأل مرة أخرى. «هل تعرف ماذا تفعل؟»

حاولت أن أبتسم لنزع فتيل الموقف، لكنني كنت في حيرة من أمري. «أعتقد...». قاطعني وقال بصوت عالٍ: «سأخبرك ما الذي تفعله. أنت تقرر طبول الحرب من أجل العدالة!» «كان وجهه يكتسي بالحماس الذي بات يشع من عينيه ليشعل نظراته، ثم كررها بشكل قاطع، «عليك أن تقرر طبول الحرب من أجل العدالة» واسترخى في كرسيه، وتوقفت عن الابتسام. شيء ما أذهلني فيما قاله أجبت بهدوء :

«نعم يا سيدي».

انحنى إلى الأمام مرة أخرى وقال بصوت عالٍ:

«عليك الاستمرار في قرع طبول الحرب من أجل العدالة». التفت بعد ذلك، وبعد فترة صمت طويلة قال مرة أخرى :

«فز بقرع الطبول من أجل العدالة» ثم انحنى إلى الوراء، وفي لحظة بدا متعباً حيث كان يتنفس بصعوبة، نظر إلي بتعاطف ولوح لي عن قرب، ففعلت مثله وسحبني من ذراعي وانحنى إلى الأمام ثم تحدث بهدوء شديد يقترب من الهمس إلا أنه همساً ضارياً لدرجة أنه يصعب على الذاكرة التخلي عنه:

«هل ترى هذه الندبة في أعلى رأسي؟» مال برأسه ليريني.

«كانت تلك الندبة عقاباً لي لأنني كنت أحاول التسجيل للإدلاء بصوتي في انتخابات عام ١٩٦٤ في مقاطعة غرين ألاباما»

ثم أدار رأسه لليسار ورأيت ندبة بقياس أربعة بوصات فوق أذنه اليمنى مباشرة :

«هل ترى هذه الندبة على جانبي رأسي؟ كانوا يظنونها ستكون الجزاء الرادع لي لأنني كنت أطالب بالحقوق المدنية، في ولاية ميسيسيبي». ازداد صوته قوة وشد قبضته على ذراعي وخفض رأسه أكثر.

«هل ترى هذه العلامة؟» كانت هناك دائرة مظلمة في قاعدة جمجمته.

« تلك الكدمة كانت الثمن الذي دفعته في برمنغهام بعد حملة الأطفال الصليبية».

أسند ظهره للخلف ونظر إلي مطولاً.

«يعتقد الناس أن هذه هي الندبات والجروح والكدمات». لأول مرة لمحت الدموع في تطوف في عينيه ثم وضع يديه على رأسه.

«هذه ليست ندوب وجروح وكدمات. هذه أوسمة الشرف». حدّق في وجهي للحظاتٍ طويلة ثم مسح عينيه وأوماً إلى الصبي الذي دفعه بعيداً. وقفت هناك مع غصة في حلقي كادت أن تخنقني وأخذت أحدق في الفراغ بعده، وعندها أدركت أن الوقت قد حان لفتح مكتب ألاباما.

الفصل الثالث

المحاكمات والمعاناة

بعد أشهر من الإحباط والفشل والازدراء العام المتزايد، قرر المأمور توماس تيت والمحقق الرئيسي في ABI سيمون بنسون ومحقق المدعي العام لاري إيكير، اعتقال والتر ماكميلان بناءً على ادعاء رالف مايرز، رغم أنهم لم يجروا الكثير من التحقيقات مع ماكميلان حتى الآن، إلا أنهم فكروا في اتخاذ اتهمته بالقتل ذريعة للقبض عليه أثناء بناء قضيتهم عندها ادعى مايرز أنه خائف من ماكميلان، بعدها اقترح أحد الضباط على مايرز أن يقول إن ماكميلان اعتدى عليه جنسياً؛ كانت الفكرة قاهرة وحارقة لدرجة أن مايرز أدرك فائدتها على الفور واعترف بشكل صريح بأنها صحيحة، وبما أن قانون ألاباما حظر ممارسة الجنس بين المثليين، خطط المسؤولون للقبض على ماكميلان بتهمة اللواط.

في ٧ يونيو ١٩٨٧، قاد المأمور تيت جيشاً مكون من أكثر من اثني عشر ضابطاً إلى طريق ريفي كان والتر يستخدمه عند عودته من عمله، حيث أوقف الضباط شاحنة والتر وسحبوا أسلحتهم، كما أجبروه على النزول من سيارته وحاصروه، ثم أخبره تيت أنه قيد الاعتقال، وعندها جن جنون والتر وسأل المأمور عما فعله، فأخبره المأمور أنه متهم باللواط، أربكه المصطلح، وأخبر المأمور أنه لم يفهم معنى الكلمة، لكن عندما شرح العمدة التهمة بعبارات بدائية، أصيب والتر بالذهول وانفجر ضاحكاً بشكل هستيري على الفكرة، عندها ثارت ثائرة تيت، الذي صار يصرخ ويزبد مطلقاً العنان للسانه الذي أغرقه بسيل من الافتراءات والتهديدات العنصرية. لقد ظل والتر يروي أنه طوال فترة اعتقاله كانت كلمة زنجي هي كل ما كان يسمعه كل يوم مراراً وتكراراً «هذا الزنجي، وذاك الزنجي»، تليها الشتائم والتهديدات بالإعدام.

- «سنمنع كل الزوج من الركض خلف تلك الفتيات البيضات».

تيت: «يجب علي أن أضربك وأعلقك كما فعلنا مع ذلك الزنجي في موبيل»، كان المأمور يشير إلى إعدام شاب أمريكي من أصل أفريقي يدعى مايكل دونالد في موبيل، التي تبعد ستين ميلاً جنوباً. هناك حيث كان كل ذنب دونالد أنه في مساء أحد الأيام فكر في أنه من حقه أن يسير في الشارع كأني إنسان طبيعي عائد من المتجر إلى بيته، إلا أن حظه العاثر قاد قدميه للمشى بعد ساعات من إعلان محاكمة رجل أسود متهم بإطلاق النار على ضابط شرطة أبيض، ولأن الحكم لم يرض الكثير من البيض الذين صُدموا به، ألقوا باللوم على القضاء الذي سمح للأمريكيين الأفارقة، بالخدمة في هيئة المحلفين.

بعد حرقهم صليباً في حديقة المحكمة، خرجت مجموعة من الرجال البيض الغاضبين الذين كانوا أعضاء في كو كلوكس كلان بحثاً عن شخص للانتقام ليغذوا غرورهم وحقدهم بلذة انتصار جائرة، فكان دونالد فريستهم الذي فجروا فيه غضبهم الذي يعبر عن بشاعتهم وبعدهم ضربوا الشاب الأسود ضرباً مبرحاً، شنقوه على شجرة قريبة، حيث تم اكتشاف جثته بعد أن فارقتها الحياة بعدة ساعات.

كالعادة تجاهلت الشرطة المحلية الدليل الواضح على أن الوفاة كانت جريمة كراهية وافترضت أن دونالد لا بد أن يكون متورطاً في تجارة المخدرات، وهو ما نفتته والدته بشدة. عندها اشتعلت الجالية السوداء ونشطاء الحقوق المدنية غضباً من عدم اهتمام سلطات تطبيق القانون المحلية بالقضية، وأقنعوا وزارة العدل الأمريكية بالتدخل. مما أسفر عنه اعتقال ثلاثة رجال بيض، بعد ذلك بعامين كما أعلنوا عن تفاصيل الإعدام بلا محاكمة لقد مرت أكثر من ثلاث سنوات على الاعتقالات، ورغم ذلك عندما بدأ تيت والضباط الآخرون بالتهديد بالإعدام، شعر والتر بالخوف كما كان مرتبكاً، قالوا له أنه قبض عليه بتهمة اغتصاب رجل آخر، و مع ذلك كانوا يطرحون عليه أسئلة حول مقتل روندا موريسون لكن والتر نفى هذه الادعاءات بشدة، وعندما اتضح للضباط أنهم لن يحصلوا من والتر على أي معلومة أو دليل يمكنهم من رفع قضية ضده، قرروا الشروع في التحقيق معه بعد سجنه.

أصيب المدعي العام لمقاطعة مونرو تيد بيرسون بخيبة أمل عندما سمع أدلة محققيه ضد والتر ماكميلان لأول مرة، فقصة رالف مايرز عن الجريمة كانت تعانق الأحلام، كما أن موهبته في التزييف الدرامي عقدت المزاعم الأساسية دون أي داع.

إليك رواية مايرز عن مقتل روندا موريسون، حيث حاول إخفاء وجهه الحقيقي الذي جبل على اللؤم والخبث ونقب وجهه بملامح مبتئسة وحزينة، كما حاول أن يعري صوته من فجره جبروته ليفه برداء كاذب من الخضوع والضعف وهو يذكر تفاصيل ذاك اليوم قائلاً :

« في يوم القتل كنت أملاً خزان سيارتي بالوقود عندما رأيت والتر ماكميلان في محطة الوقود لأول مرة في حياتي، حينها أجبرني تحت تهديد السلاح على ركوب شاحنته والقيادة إلى مونروفيل، وبمجرد دخولي إلى الشاحنة، أخبرني أنه بحاجة إلي للقيادة بسبب إصابة ذراعه، لقد رفضت في البداية ولكنه لم يدع لي خيار، وجهني والتر لأقود به إلى جاكسون كلينرز في وسط مدينة مونرو فيل وعند وصولنا، نزل من الشاحنة وأمرني بالانتظار بينما ذهب هو وحده، وبعد الانتظار لفترة طويلة عبرت الشارع إلى متجر بقالة لشراء السجائر عدت بعد عشر دقائق إلا أن والتر لم يعد وبعد الانتظار لمزيد من الوقت مر علي وكأنه سنة، رأيت أخيراً ماكميلان يخرج من المتجر ويعود إلى الشاحنة. عند دخوله الشاحنة، اعترف لي بأنه قتل كاتب المتجر، ثم عدنا إلى محطة الوقود حتى أتمكن من استعادة سيارتي، ولكن قبل مغادرتي هددني والتر بأنه سيقفلني إذا أخبرت أي شخص بما شاهدته أو بما فعله».

باختصار، رجل أمريكي من أصل أفريقي يخطط لعملية قتل وسطو في قلب مونرو فيل في منتصف النهار بيد مصابة!! فيتوقف في محطة وقود ويختار رجلاً أبيض بشكل عشوائي ليكون شريكاً له في جريمته، حيث طلب منه أن يقوده به من وإلى مسرح الجريمة لأن ذراعه مصابة، على الرغم من أنه كان قادراً على القيادة بنفسه إلى محطة الوقود حيث وجد مايرز ثم عادت له القدرة ليقود شاحنته إلى المنزل بعد إعادة مايرز إلى محطة الوقود.

يا للهول! عرف ضباط تطبيق القانون أنه سيكون من الصعب للغاية إثبات قصة مايرز، لذلك

اعتقلوا والتر بتهمة اللواط، مما أصاب المجتمع بصدمة أدت إلى تشويه صورة ماكميلان أكثر وأكثر، فأصبح في نظر المجتمع أحد شياطين الإنس التي تعيث في الأرض فساداً، فقد كان المجتمع وقتها لا يزال على الفطرة التي تأنف هذه الأفعال وترفضها، كما أعطى الشرطة فرصة لجلب شاحنة والتر إلى السجن ليراها بيل هوكس مخبر السجن.

كان بيل هوكس شاباً أسوداً يتمتع بسمعة جيدة كمخبر أو لنقل جاسوس سجن، وعندما قبض على ماكميلان كان هوكس في سجن المقاطعة يقضي عقوبته لاتهامه بجريمة السطو ووعد هوكس بالإفراج عنه والحصول على مكافأة مالية، إذا تمكن من ربط شاحنة ماكميلان بجريمة قتل موريسون، وراح هوكس يخبر المحققين بلهفة أنه في نفس توقيت الجريمة، كان يقود سيارته بالقرب من متجر منظفات جاكسون ورأى شاحنة عمال النظافة تعبر من جانب المتجر وكان فيها رجلين، وأنه رأى هذين الرجلين في السجن، وبالطبع فإنه وصف وبشكل واضح شاحنة والتر على أنها الشاحنة التي رآها أمام متجر المنظفات قبل ستة أشهر تقريباً. قدم هذا الشاهد باعتباره الشاهد الثاني لمسؤولي تطبيق القانون كل ما يحتاجونه لتوجيه الاتهام إلى والتر ماكميلان بارتكاب جريمة قتل روندا موريسون بالرصاص.

شاع الفرح والارتياح في المجتمع مع الإعلان عن لائحة الاتهام، وتوجيه الاتهام إلى شخص ما، وابتهج المأمور تيت ومحامي المقاطعة وغيرهم من ضباط تطبيق القانون الذين أصبحوا أهدافاً للنقد، وأصبح فشلهم حديث البلدة، وهذا طبيعي فقد أدى عدم اعتقال الجاني إلى إصابة الحياة في مونروفييل بالشلل، لكن الآن من الممكن استقرار الأمور وعودة الحياة الطبيعية للبلدة. أما بالنسبة لأولئك الذين يعرفون والتر فقد وجدوا صعوبة في تصديق أنه يمكن أن يكون مسؤولاً عن جريمة قتل مثيرة، فتاريخه أبيض تماماً ولم يتلوث يوماً بنقطة سوداء تتوسد الإجرام أو العنف، حتى السرقة ليست منطقية بالنسبة لرجل كافح وعمل بجد مثل والتر.

أخبر السكان السود المأمور تيت أنه اعتقل الرجل الخطأ، وللعلم فإن تيت لم يقم بالتحقيق مع ماكميلان بنفسه، ولم يجر تحريات عن حياته ولم يعلم أي شيء عن خلفيته حتى أنه لم يتحرر عن مكان وجوده في يوم القتل، كل ما كان يعرفه علاقة والتر مع كارين كيللي إضافة لما أثير حوله من شكوك وما سمعه من شائعات، حول أوضاع والتر المادية واستقلاليته التي لا بد أن تعني أنه كان يتاجر في المخدرات، وقد كان هذا كافياً من وجهة نظر تيت لاعتقاله نظراً لحماسه لاعتقال أيًا كان حتى لو كان المعتقل بريئاً، فقد كان تيت بحاجة لشماعة يعلق عليها الاتهام ليحجب فشله عن الأهالي أكثر من حاجته لاعتقال المجرم الحقيقي و بالتالي بدا أن هذا كافٍ بالنسبة لـ تيت لقبول اتهامات مايرز. اتضح فيما بعد أنه في يوم القتل وضعت زريعة السمك في منزل والتر، الذي أمضى اليوم مع أفراد عائلته خارج المنزل يبيعون الطعام للمارة برفقة إيفلين سميث أخت والتر التي كانت وزيرة محلية، وقد قامت هي وعائلتها بجمع الأموال من أجل الكنيسة من خلال بيع الطعام على جانب الطريق، و لأن منزل والتر كان أقرب إلى الطريق الرئيسي اتخذوه مقراً للبيع وكانوا غالباً ما يبيعون من فناء منزله الأمامي. في ذلك اليوم (أي يوم قتل روندا موريسون) كان هناك ما لا يقل عن اثني عشر شخصاً من رعايا الكنيسة في المنزل طوال فترة الصباح مع والتر وعائلته.

لم يكن لدى والتر في ذلك اليوم عمل في قطع الأشجار، لذا قرر استبدال ناقل الحركة في شاحنته واستدعى صديقه الميكانيكي جيمي هانتر ليساعده، وبحلول الساعة ٩:٣٠ صباحاً قام الرجلان بتفكيك الشاحنة، وإزالة ناقل الحركة بالكامل، وبحلول الساعة ١١:٠٠ وصل أقارب والتر وبدأوا في قلي الأسماك وغيرها من الأطعمة لبيعها. تأخر بعض أعضاء الكنيسة ولم يصلوا إلى المنزل حتى وقت لاحق.

« نعتذر يا أختي، من المفترض أن نكون هنا منذ وقت طويل، لكن حركة المرور في مونروفيل كانت معطلةً بالكامل». وتذكرت إيفلين سميث أحد الأعضاء قائلاً:

« على ما يبدو فقد حصلت مصيبة ما في متجر المنظفات، فقد كانت هناك الكثير من سيارات الشرطة وسيارات الإسعاف».

ذكرت الشرطة أن جريمة قتل موريسون وقعت حوالى الساعة ١٠:١٥ صباحاً، على بعد أحد عشر ميلاً أو نحو ذلك من منزل ماكميلان، أي في نفس الوقت الذي كان فيه حوالي إثني عشر شخصاً من أعضاء الكنيسة في منزل والتر لبيع الطعام، بينما كان والتر وجيمي يعملان على إصلاح شاحنته، ولا يمكن أن نغفل وصول إرنست ولش في وقت مبكر من بعد الظهر، وهو رجل أبيض يدعوه السكان السود «رجل الأثاث» لأنه كان يعمل في متجر أثاث محلي، وقد جاء لتحصيل المال من والدته والتم مقابل عملية شراء قامت بها عن طريق بطاقة الائتمان.

أخبر ولش الناس الذين تجمعوا في منزل والتر أن ابنة أخته قتلت في متجر جاكسون كلينرز في ذلك الصباح، مما استدعى الدخول في نقاش مطول حول تلك الأخبار المروعة مع ولش لبعض الوقت.

لا بد من الأخذ في عين الاعتبار أعضاء الكنيسة وعائلة والتر والأشخاص الذين كانوا يتوقفون باستمرار أمام المنزل لشراء الشطائر، كل هؤلاء الأشخاص بإمكانهم إثبات وجود والتر في المنزل وقت وقوع الجريمة وبالتالي التأكيد على أن والتر لا يمكن أن يكون قد ارتكبها، إضافةً إلى ذلك فقد ضمت تلك المجموعة ضابط شرطة توقف عند المنزل لشراء شطيرة، وقد أثبت في سجل الشرطة أنه اشترى طعاماً من منزل ماكميلان حيث كان والتر وحشد من أعضاء الكنيسة.

بناءً على معرفتهم الشخصية بمكان وجود والتر في وقت ارتكاب جريمة قتل موريسون التمس أفراد الأسرة وأعضاء الكنيسة والقساوسة السود وغيرهم من المأمور تيت إطلاق سراح ماكميلان، لكن تيت لم يستجب لهم فقد كان الاعتقال طويلاً جداً للاعتراف بفشل آخر، وبعد العديد من المناقشات تمسك كل من وكيل المقاطعة ومأمور الشرطة ومحقق ABI باتهام مكميلان، حيث رفضوا إسقاط التهمة عنه لكن هذا القانون الجائر وجد في طريق تطبيقه العديد من العقوبات فلم تكن حجة غياب والتر عن موقع الجريمة هي المشكلة الوحيدة لأن رالف مايرز بدأ في التفكير ثانية حول مزاعمه ضد ماكميلان. فهو أيضاً يواجه لائحة اتهام في جريمة قتل موريسون. رغم أنه وُعد بأنه لن يعاقب بالإعدام وأنه سيحصل على معاملة لائقة مقابل شهادته، ولكنه بدأ يفكر في أن الاعتراف بالتورط في جريمة قتل لا علاقة له بها قد لا يكون تصرفاً ذكياً في الواقع .

قبل أيام قليلة من إعلان تهمة القتل العمد ضد ماكميلان، استدعى ماييرز محققي الشرطة وأخبرهم بأن ادعاءاته ضد ماكميلان كاذبة، لكن في هذه المرحلة لم يهتم تيت ومحققوه كثيراً بتراجع ماييرز، بل على العكس قرروا الضغط على ماييرز للإدلاء بتفاصيل أكثر دموية وعندما رفض ماييرز واحتج بأنه ليس لديه المزيد من التفاصيل الإجرامية، لأن القصة كاذبة ولم يكن لدى المحققين أصلاً لها. لم يكن واضحاً من الذي قرر وضع كلاً من ماييرز وماكميلان في سجن الإعدام قبل المحاكمة لتشكيل ضغط إضافي عليهما، وقد أثبتت هذه المناورة المبتكرة فعاليتها. إن إخضاع المعتقلين مثل والتر ومايرز إلى الحبس الذي يشكل عقوبة قبل المحاكمة هو إجراء غير قانوني، ففي الوضع الطبيعي يُحتجز المعتقلون رهن المحاكمة بشكل عام في السجون المحلية، حيث يتمتعون بامتيازات و مساحة أكبر من المجرمين المدانين الذين يُرسلون إلى السجن، في الواقع من المستبعد إدخال شخص لم يحاكم بعد إلى سجن مخصص للجناة المدانين. كما أنه من المستحيلات وضع متهم لم تثبت إدانته بعد بجريمة ما على قوائم المحكوم عليهم بالإعدام. لقد كان هذا الوضع صادمًا للجميع بما فيهم السجناء الآخرين المحكوم عليهم بالإعدام. لو تكلمنا عن سجون المحكوم عليهم بالإعدام لا يسعنا سوى أن نقول، أنها سجون تخضع لأقصى و أصعب درجات العقاب المسموح بها، حتى لتشعر بأن القضبان لم تكتف بأجساد السجناء بل إنها تكاد تحبس أنفاسهم خلفها، كما تشعر بأن الأراضيات صنعت من حمم بركانية تحرق أرواحهم بلهيبها وتدمي قلوبهم بحمها، ففي تلك السجون يُحبس السجناء في زنزانة صغيرة حبساً إنفرادياً لمدة ثلاث وعشرين ساعة في اليوم، كما أنهم يتمتعون بفرصة محدودة لممارسة الرياضة أو الزيارة فضلاً عن احتجازهم بالقرب من الكرسي الكهربائي بشكل يثير القلق و يدب الرعب في النفوس.

قاد المأمور تيت والتر إلى مرفق هولمان الإصلاح الذي يعتبر الطريق إليه رحلة قصيرة في أتمور ألاباما، وقبل الرحلة عاد المأمور إلى تهديد والتر مرة أخرى بالافتراءات العرقية والخطأ المرعبة. لم يكن واضحاً كيف تمكن تيت من إقناع مأمور هولمان بإيواء اثنين من المحتجزين في وحدة تنفيذ حكم الإعدام قبل محاكمتهم، ولأن تيت كان يعرف العديد من الأشخاص في السجن منذ كان ضابط مراقبة لم يكن من الصعب نقل ماييرز وماكميلان من سجن المقاطعة إلى وحدة الإعدام في ١ أغسطس ١٩٨٧، أي قبل أقل من شهر من التنفيذ المقرر لواين ريتير.

عندما وصل والتر وماكميلان إلى وحدة الإعدام في ألاباما - بعد عشر سنوات فقط من إعادة تشكيل عقوبة الإعدام الحديثة- وجد بانتظاره مجتمع كامل من المدانين، فمنذ رجوع عقوبة الإعدام في عام ١٩٧٥ حتى وصول ماكميلان كان معظم السجناء المحكوم عليهم بالإعدام أو ما يقرب من مائة منهم من السود في ألاباما، ورغم ذلك فقد وجد ماكميلان أمامه ما أشعل دهشته، فلم يصدق في البداية أن ما يقرب من ٤٠٪ من المحكوم عليهم كانوا من البيض، لكن كان هناك شيئان ربطا بين الجميع دون استثناء، الفقر و سؤال ماكميلان عن سبب وجوده بينهم. كان المدانون المسجونين في وحدة الإعدام في ألاباما يمضون أيامهم -أقول يمضون لأن ما كانوا يمرون به لا يرق لكلمة العيش ولا يمت للحياة بصلة- في مبان خرسانية بلا نوافذ، فلا راحة تزورهم ولا ضوء شمس يطل عليهم فكل ماكان يصلهم من الشمس لهيبها الذي لا يطاق، لدرجة أن من يصل هناك يشعر أنه فعلاً ذهب

وراء الشمس. على ما يبدو أنهم هناك قرروا أن يدربوا السجناء على التأقلم على النعوش، التي سيوضعون فيها عقب تنفيذ حكم الإعدام بهم فيضعونهم فيما يسمونه زنزانة و هي عبارة؛ عن خمس أقدام وباب معدني وصوان وسرير من الصلب، هناك وراء الشمس دائماً ما تصل درجات الحرارة في أغسطس إلى أكثر من ١٠٠ درجة وتستمر الحرارة لأيام وأحياناً لأسابيع. كان الملل من الزوار المرحب بهم دائماً هناك فهو بمثابة عميل للزنازين والحرارة التي اتفقت جميعها على قتل السجناء قبل تنفيذ حكم الإعدام بهم وللتغلب عليه كان المعتقلون يحتجزون الفئران والعناكب السامة والثعابين التي يجدونها داخل السجن لتمضية الوقت، فمعظم هؤلاء السجناء المعزولين على بعد أميال و أميال من الحياة والناس، قل ماكانوا يتمتعون بزيارات أو امتيازات.

ركز الكيان الحكومي في تطبيق حكم الإعدام في هولمان في ألاباما على الكرسي الكهربائي، حيث بُني الكرسي الخشبي الكبير في ثلاثينيات القرن العشرين وقام النزلاء بتلوينه باللون الأصفر قبل ربط أحزمة الجلد وتثبيت الأقطاب الكهربائية و أسموه «ماما الصفراء»، وقد استؤنفت عمليات الإعدام في هولمان قبل سنوات قليلة من وصول والتر، حيث كان جون إيفانز وأرثر جونز قد جربا ذلك الكرسي، فعليه نفذ فيهما حكم الإعدام صعقا بالكهرباء في غرفة إعدام هولمان. لو جينا جنوب أتلانتا سنجد روس كانان، المحامي في لجنة الدفاع عن السجناء الجنوبيين في أتلانتا الذي تطوع لتمثيل إيفانز الذي قام بإنشاء ما أصبح مدرسة ما بعد المدرسة الخاصة للأطفال حيث شارك قصة حياته مع أطفال المدارس وحثهم على تجنب الأخطاء التي ارتكبتها.

بعد أن رفضت المحاكم كل الاستئنافات التي قُدمت لإيقاف تنفيذ حكم الإعدام في إيفانز وجد كانان نفسه مضطراً للذهاب إلى السجن ليشهد الإعدام بناء على طلب إيفانز. لقد كانت عملية الأعدام أسوأ بكثير مما قد يصل إليه خيال روس، الذي قدم لاحقاً إفادة خطية استُعرضت مراراً وتكراراً وصف فيها العملية المروعة بأكملها:

في تمام الساعة ٨:٣٠ مساءً احترقت أول دفعة من ١٩٠٠ فولت من الكهرباء جسد السيد إيفانز و استمرت تعيث فيه فساداً لمدة ثلاثين ثانية، عندها اندلع الشرر واللهب من القطب المرتبط بساق السيد إيفانز اليسرى. انتفض جسده من بين الأشرطة التي كانت تمسك به على الكرسي الكهربائي وقبضته مثبتة بشكل دائم وكأنها تتمسك ببريق أمل ما، يبدو أن القطب انفجر من الشريط الذي يثبته في مكانه، فقد تسلل الكثير من الدخان الرمادي والشرر الأحمر من تحت غطاء المحرك الذي غطى وجه السيد إيفانز. وبدأت رائحة احتراق اللحم والملابس تتغلغل بقوة في غرفة الشهود، حتى كادت تخنق كل من في الغرفة بما فيها تلك الجدران التي تشهد على كل هذا، فحص طبيبان السيد إيفانز وأعلنوا أنه لم يمت، ومن ثم أعيد تركيب القطب على الساق اليسرى، وفي تمام الساعة ٨:٣٥ مساءً صُعق السيد إيفانز بالكهرباء مرة أخرى لمدة ثلاثين ثانية، ولكن هذه المرة كانت رائحة اللحم المحترق تنثر الغثيان، ولا تحتمل وانبعث المزيد من الدخان من ساقه ورأسه. فحص الأطباء السيد إيفانز للمرة الثانية وأفادوا أن قلبه ما زال ينبض، وأنه لا يزال على قيد الحياة. عندها سألت مفوض السجن، إن كان من الممكن التواصل مع الحاكم جورج والاس عبر خط هاتف مفتوح، لمنح الرأفة للسيد إيفانز على أساس أنه كان يتعرض لعقوبة قاسية وغير عادية. إلا أن طلب الرأفة قد رُفض وفي

الساعة ٨:٤٠ مساءً انتهكت شحنة الثالثة من الكهرباء جسد السيد إيفانز لمدة ثلاثون ثانية أخيرة، كانت كفيلة بالقضاء عليه هذه المرة، حيث أعلن الأطباء وفاة السيد إيفانز في الساعة ٨:٤٤ وبهذا يكون إعدامه قد استغرق أربعة عشر دقيقة. لم يكن والتر ماكميلان يعرف شيئاً عن كل هذا قبل أن يصل إلى هولمان. ولكن صادف وصوله مع اقتراب موعد تنفيذ حكم إعدام آخر سريع، وهكذا سيطر الكرسي الكهربائي على حديث السجناء المدانين طوال الوقت، وبالإخص إعدام إيفانز جون المروع الذي فتح الباب للرعب ليدخل إلى قلب السجن بمن فيه ومن ضمنهم والتر، الذي لم يسمع إلا هذا الحديث الذي يعيش الخوف في حروفه وكلماته خلال الأسابيع الثلاثة الأولى له في سجن هولمان لتنفيذ الإعدام في ألاباما. كانت الزوبعة السريالية التي عصفت بالتر في الأسابيع السابقة قد دمرت أعصابه وحطمته بالكامل، وأخذ ينظر إلى نفسه وأين وصل به الحال فبعدما عاش حياته كلها حراً كالخيل الجامح دون أن يقدر أي شخص أو أي شيء على تقييده أو ترويضه، وجد نفسه محصوراً ومهدداً بطريقة لم تكن لتخطر له على بال حتى في أسوأ كوابيسه. لقد صدم بالغضب الشديد والتهكم العنصري والتهديدات من قبل ضباط الشرطة الذين لم يكونوا يعرفونه حتى، فمنذ كان في المحكمة وحتى وصوله للسجن وجد ازدراءً واحتقاراً لم يشهده من قبل، بدأ بالضباط الذين اعتقلوه وطريقة تعاملهم معه في المحكمة وصولاً للسجناء الذين معه في السجن، فلطالما كان محبوباً جداً و على وفاق مع الجميع تقريباً. كان مؤمناً بأن الاتهامات الموجهة إليه لا تعدو كونها سوء فهم خطير، وأنه بمجرد إدلاء أفراد عائلته بشهاداتهم التي تثبت مكان وجوده وقت الحادث و تؤكد حجة غيابه عن موقع الحادث، سيتم إطلاق سراحه في غضون يومين، حيث أكدت له عائلته أن الشرطة ستسمح له بالرحيل قريباً، ولكن لم يحدث شيء. بل على العكس تحولت الأيام إلى أسابيع، وبدأ والتر يغرق في بئر عميق من اليأس. استجاب جسده للصدمة التي يعيشها، فبقي عدة أيام دون طعام لأنه لم يستطع تذوق أي شيء وحاول أن ينفس عن غضبه، بالتدخين عله ينفث همومه مع دخان سجائره لكن تجربة التدخين في هولمان، كانت مقرفة مما سبب له الغثيان على الفور وهو الذي قضى عمره في التدخين، و شعر أنه يفقد السيطرة على نفسه فلم يستطع توجيه نفسه أو تهدئتها. عندما كان يستيقظ كل صباح، كان يشعر لدقائق أن كل شيء على مايرام لكنه لا يلبث أن يتذكر أين هو وكيف تغيرت حياته في يوم و ليله ليغرق في بحر من الرعب تتقاذفه أمواجه من كل اتجاه، حتى جاء اليوم الذي نظر فيه إلى المرأة ولم يعرف نفسه وذلك بعدما قام مسؤولو السجن بحلق رأسه وكل شعرة في وجهه. كانت سجون المقاطعة حيث حُجز والتر قبل نقله فظيعة. لكن زنزانة السجن الصغيرة الحارة في وحدة تنفيذ حكم الإعدام في هولمان كانت أسوأ بكثير، فبالنسبة لشخص مثل والتر اعتاد على العمل في الخارج بين الأشجار، حيث تتنفس رئتيه رائحة الصنوبر الطازج ويداعب جسده النسيم البارد و تحلق روحه مع الطيور، التي تطرب الدنيا بتغريدها كل يوم، ثم وجد نفسه فجأة يحرق في الجدران المظلمة في وحدة الإعدام، التي امتدت ظلمتها إلى أعماقه لتطفأ روحه، فمن الطبيعي أن يكره الخوف والألم الذي استقر في حياته و الذي كان على عكس أي شيء واجهه في حياته على الإطلاق. لطالما نصحه زملاؤه السجناء المحكوم عليهم بالإعدام، لكنه كان ضائعاً لم يكن يعرف يصدق من و يكذب من، وكان القاضي قد عين له في وقت سابق محامياً لتمثيله، إلا أن والتر ما كان ليثق في رجل أبيض، لذا جمعت عائلته المال

لتوظيف أحد المحامين السود فقط المختصين بالقضايا الجنائية في المنطقة، مثل إل جي و شست نت و بروس بوينتون من سلمى. كان شست نت يشتغل حماساً وقام بعمل الكثير كي يحصل السود على كامل الحقوق المدنية. أما بوينتون فكانت والدته، أميليا بوينتون روبنسون ناشطة أسطورية، حتى بوينتون نفسه كانت لديه أوراق اعتماد قوية في مجال الحقوق المدنية أيضاً.

على الرغم من تجربتهما الجماعية، فشل شست نت و بوينتون في إقناع المسؤولين المحليين بإطلاق سراح والتر ولم يتمكنوا من إيقاف نقله إلى هولمان. على ما يبدو أنه لا يوجد ما يستقر مسؤولي مقاطعة مونرو أكثر من توكيل المحامين من خارج المقاطعة. وهو مظهر بوضوح على تيت خلال الرحلة إلى هولمان، فقد كان غاضباً من مكميلان لأنه فعل ذلك، وكانت تسليته الوحيدة طوال الطريق هي السخرية من مكميلان لاعتقاده أن هذا الشيء سيحدث فارقاً. على الرغم من أن عائلة مكميلان جمعت الأموال اللازمة لتوكيل شست نت و بوينتون من تبرعات الكنيسة وبيع ممتلكاتهم الضئيلة، إلا أن سلطات تطبيق القانون المحلية اعتبرت ذلك دليل على أن والتر يكنز الأموال سرّاً، وكان هذا بالنسبة لهم تأكيد على أنه لم يكن الرجل الأسود البريء كما يتظاهر. حاول والتر التكيف في سجن هولمان، إلا أن الأمور كانت تسوء ببساطة، فمع اقتراب موعد تنفيذ حكم الإعدام، كان جميع من في السجن مضطربين و غاضبين، من جهة أخرى نصحه بعض السجناء باتخاذ إجراء ما، كتقديم شكوى اتحادية لأنه قانونياً لا يمكن احتجازه في وحدة الإعدام، لكن والتر الذي بالكاد يستطيع القراءة أو الكتابة، فشل في تقديم المرافعات المختلفة والخطابات والطلبات والدعاوى القضائية التي نصحه السجناء الآخرون بتقديمها، وعندها ألقى الجميع باللوم عليه في محنته.

- «حارب من أجل نفسك»

- «لا تتق بمحاميك»

- «لا يمكنهم وضعك في وحدة الإعدام دون إدانة»

هذا ماكان والتر يسمعه باستمرار، لكنه لا يستطيع أن يتخيل كيف يترافع عن نفسه بنفسه في المحكمة. يتذكر والتر في وقت لاحق كيف كان حاله في السجن

قائلاً: «كانت هناك أيام لم أتمكن فيها من التنفس». «لم أواجه أي شيء مثل هذا من قبل في حياتي. كان حولي كل هؤلاء القتلة، ومع ذلك شعرت في بعض الأحيان أنهم الوحيدون الذين يحاولون مساعدتي، صليت و قرأت الكتاب المقدس وأعلم أنني أكذب إذا لم أخبرك أنني كنت خائفاً، بل تعديت الخوف لقد كان قلبي على وشك التوقف من الرعب في كل يوم يمر علي هنا».

لم يكن رالف مايرز في حال أفضل، فهو أيضاً متهم بارتكاب جريمة قتل روندا موريسون، ومهما كانت الميزة التي اعتقد أنه كسبها بقوله أنه يعرف شيئاً عن مقتل موريسون، فقد ذهبت أدراج الرياح مع إصراره على عدم التعاون مع السلطات مما أوصله سريعاً لصفوف المحكوم عليهم بالإعدام، كما أنه وُضع في قسم مختلف لمنع أي اتصال بينه وبين مكميلان، هذا بخلاف وضع السجن المزري الذي أصابه بالإكتئاب وأغرقه حتى أذنيه في مشاعره التي سيطرت عليها ذكريات

حرقه وهو صغير، فمنذ تلك الحادثة، أصبحت النار والحرارة والمساحات الصغيرة مثلث رعب بالنسبة له، ومازاد الطين بلة حديث السجناء الذي لا ينتهي عن تفاصيل إعدام إيفانز وإعدام واين ريتز الوشيك، مما جعل مايرز يصاب بحالة من الذهول لا نهاية لها. في ليلة إعدام ريتز وفي منتصف الليل وبينما كان جميع السجناء يندفعون ليقرعوا أبواب زنازينهم بالأكواب كاحتجاج، وهو التقليد المتبع في وحدة تنفيذ أحكام الإعدام في ألاباما، كان مايرز متكوراً على نفسه في زاوية زنزانة ينتحب حتى كاد صوت نحيبه يعلو أصوات الأكواب التي تفرع الأبواب، كأنها تنتقم منها وكان يجفل مع كل رنة يسمعها وكأنها تطرق قلبه وعندما اندلعت رائحة اللحم المحروق التي ادعى كثيرون في السجن، أنها تصل زنازينهم خلال عملية الإعدام شعر مايرز أنها لم تصل زنزانته فحسب، وأما اخترقت رنتاه حتى كادت تحرقه مع ريتز عندها أصبح يتنفس بسرعة وكأنه يريد ادخار ما تبقى من الهواء النقي. لا يعرف مايرز كيف انتهت تلك الليلة الحالكة ولا كيف بقي حياً حتى الصباح ولكن كل ما يعرفه، أنه لا يريد أن يستنشق كل من في هذا السجن رائحة لحمه المحترق ولا أن يكون آخر ما يسمعه من هذا العالم صوت الأبواب التي تفرع كإعلان عن موته لذلك، اتصل بتيت وأخبره أنه سيقول كل ما يريده إذا كان سيخرجه من هذا الجحيم المسمى بوحدة الإعدام. برر تيت في البداية إبقاء مايرز وماكميلان في وحدة الإعدام بالضرورة الأمنية. ورغم ذلك فقد أعاد مايرز إلى سجن المقاطعة في اليوم التالي لإعدام ريتز بكل بساطة ودون مناقشة قراره هذا مع أي شخص، عادةً ليس من صلاحيات إدارة السجن في ألاباما إدخال الأشخاص المحكوم عليهم بالإعدام أو تركهم في السجن، بدون أوامر محكمة أو وجود ملفات قانونية لهم - وبالتأكيد لا يمكن لمدير السجن أن يفعل ذلك بمفرده. ولكن لا يجب أن ننسى أن محاكمة والتر ماكميلان كانت خارجة عن كل المألوف في كل تفاصيلها. بمجرد خروجه من سجن الإعدام وعودته إلى سجن مقاطعة مونرو، أكد مايرز اتهاماته الأولية ضد ماكميلان. ومع تسليط الأضواء عليه كشاهد أساسي قدم بيل هوكس هو الآخر خدماته، باستعداده للشهادة بأنه رأى شاحنة والتر في مسرح الجريمة، بهذا قدم هذين الإثنين لوكيل المقاطعة مقومات الادعاء على ماكميلان على طبق من ذهب. وكان من المقرر النظر في القضية في فبراير ١٩٨٨. كان تيد بيرسون مدعياً عاماً لما يقرب من عشرين عاماً، وقد عاش هو وعائلته في جنوب ألاباما لأجيال. مما جعله على معرفة تامة بالعادات والقيم والتقاليد المحلية جيداً، وكان من الذكاء بحيث عرف كيف يستخدمها جيداً في قاعة المحكمة لصالحه. كان جسده يودع الشباب ووجهه يستقبل التجاعيد، وعقله يخطط لتقاعدته القريب، لكنه كره أن يختم حياته العملية بالفشل في حل جريمة قتل موريسون بالسرعة اللازمة الذي عرض مكتبه للانتقادات. كان بيرسون عازماً على ترك منصبه بانتصار قانوني مدوٍ، فهو يرى أن محاكمة والتر ماكميلان واحدة من أهم القضايا في حياته المهنية. على الرغم من وجود ستة عشر مقاطعة ذات أغلبية سوداء في الولاية في عام ١٩٨٧، إلا أن جميع محامي المقاطعات الأربعين المنتخبون في ألاباما كانوا من البيض، وعندما بدأ الأمريكيون من أصل أفريقي في ممارسة حقهم في التصويت في السبعينيات، سيطر قلق كبير على العديد من المدعين والقضاة من مدى تأثير التركيبة السكانية العرقية في بعض المقاطعات على إعادة انتخابهم وما إذا كان سيؤدي هذا الشيء إلى تعقيدات، لذلك قام المشرعون بمحاذاة المقاطعات، للحفاظ على الأغلبية البيضاء في الدوائر القضائية التي تضم مقاطعة ذات

أغلبية سوداء ومع ذلك، كان على بيرسون أن يكون أكثر وعياً بمخاوف السكان السود مما كان عليه في بداية حياته المهنية - حتى لو لم يترجم ذلك الوعي إلى أي تغييرات جوهرية خلال فترة ولايته.

كان بيرسون مثله مثل نيت قد سمع كلٍ منهما بإيمان العديد من السكان السود ببراءة والتر ماكميلان، لكن بيرسون لم يهتم فقد كان واثقاً من قدرته على الفوز بحكم إدانة ضده، على الرغم من شهادة رالف مايرز وبيل هوكس المشبوهتين والشكوك القوية في مجتمع السود. فهو لم يشعر يوماً بتأنيب الضمير ولو لثواني من فكرة أنه قد يقضي على حياة رجلٍ بريء وأسرته، ربما كان مصدر قلقه الوحيد هو تهديد المحكمة الأمريكية العليا الأخيرة، بإعطاء المحاكمات الجنائية البارزة في الجنوب ميزة المحاكمات طويلة الأمد : هيئة المحلفين البيض. عندما قدمت قضية جنائية خطيرة للمحاكمة في مقاطعة سوداء بنسبة ٤٠ ٪ مثل مقاطعة مونرو، لم يكن غريباً أن يستبعد المدعون الأمريكيين الأفارقة من الخدمة في هيئة المحلفين. في الواقع، بعد عشرين عاماً من ثورة الحقوق المدنية، ظلت هيئة المحلفين متمسكة بأغلب المتطلبات القانونية للتكامل العرقي والتنوع.

منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر، حكمت المحكمة العليا في قضية سترادير ضد وست فرجينيا بأن استبعاد السود من خدمة هيئة المحلفين لم يكن دستورياً، لكن هيئات المحلفين ظلت بيضاء طوال عقود بعد ذلك.

في عام ١٩٤٥، أيدت المحكمة العليا قانون ولاية تكساس الذي حدد عدد المحلفين السود إلى واحد فقط لكل قضية، أما في الولايات الجنوبية العميقة، سحبت قوائم المحلفين التي استبعدت الأمريكيين الأفارقة من قوائم التصويت، رغم تمرير قانون حقوق التصويت، إلا أن كتاب المحكمة والقضاة مازالوا يحتفظون بقوائم هيئة المحلفين بيضاء في الغالب من خلال تكتيكات مختلفة تهدف إلى تفويض القانون. حيث تمسكت لجان المحلفين المحلية بالمتطلبات القانونية التي يؤكد على أن يكون المحلفين «أذكياء ومستقيمون» لاستبعاد الأمريكيين الأفارقة والنساء.

في السبعينيات، قضت المحكمة العليا بأنه من غير الدستوري انخفاض نسبة تمثيل الأقليات العرقية والنساء في مجموعات المحلفين، مما أدى في بعض المجتمعات إلى استدعاء السود إلى المحكمة على أمل اختيارهم في أحسن الأحوال (ما لم يقع عليهم الاختيار من قبل). رغم كل ذلك، أوضحت المحكمة مراراً أن الدستور لا يشترط أن تعمل الأقليات العرقية والنساء فعلياً في هيئات المحلفين، إنه يحظر فقط استبعاد المحلفين على أساس العرق أو الجنس.

بالنسبة للعديد من الأمريكيين الأفارقة، ظل استخدام الضربات القطعية الاختيارية بالكامل لاختيار هيئة محلفين، المكونة من اثني عشر حاجزاً يمنعهم من الخدمة في هيئة محلفين. رأت المحكمة في منتصف ستينيات القرن الماضي، أن استخدام الضربات القطعية بطريقة تمييزية عنصرية غير دستوري، لكن القضاة وضعوا معياراً إثباتياً لإثبات التحيز العنصري الذي كان مرتفعاً جداً لدرجة أن أحداً لم يستطع الطعن في تلك الضربات القطعية طوال عشرين عاماً. استمر ضرب جميع المحلفين الأمريكيين المحتملين من أصل أفريقي تقريباً دون تغيير يذكر حتى بعد قرار المحكمة.

حتى في المقاطعات التي كانت كرقعة الشطرنج يتعادل فيها السواد والبياض أو التي كانت نسبة السواد فيها ٤٠٪ يجد بعض المدعى عليهم مثل والتر ماكلان أنفسهم في كثير من الأحيان يحدقون في أعضاء هيئات المحلفين فلا يجدون سوى وجوه بيضاء بقلوب سوداء، خاصة في قضايا عقوبة الإعدام. وفي عام ١٩٨٦، قضت المحكمة العليا في قضية باتسون ضد كنتاكي بأنه يمكن تحدي المدعين بشكل مباشر أكثر حول استخدام الضربات القطعية بطريقة تمييزية عنصرية، وإعطاء الأمل للمتهمين السود وإجبار المدعين العامين على إيجاد طرق أكثر إبداعاً لاستبعاد المحلفين السود. كان والتر يتعلم بعضاً من هذا التاريخ بمرور الأشهر، فقد أراد كل من في وحدة الإعدام تقديم المشورة له، وكان كل شخص بطل لقصة أراد أن يرويها، بدأت أحداث الحكم في قضية باتسون في تحفيز السجناء الآخرين على الجلوس في أذن والتر كل يوم، وكان يحاول الاستماع بأدب، لكنه قرر ترك مهمة الدفاع لمحاميهِ فعلياً. هذا لا يعني أن القلق لم يكن يلحق بظلاله الثقيلة عليه، بعد ما كان يسمعه من الناس في السجن، خصوصاً حول العرق ونوع هيئة المحلفين التي ستكون في محاكمته.

لقد أقرت الأحكام على جميع الأشخاص المحكوم عليهم بالإعدام تقريباً، من قبل هيئة محلفين بيضاء بشكل كامل أو شبه كامل. وقال السجن المحكوم عليه بالإعدام جيسي موريسون لوالت إن المدعي العام في مقاطعة بربور استخدم واحد وعشرين من الضربات القطعية الاثنتين العشرين لاستبعاد جميع السود في مجموعة المحلفين. كما قال فيرنون ماديسون من موبيل إن المدعي العام ضرب جميع السود العشرة المؤهلين لخدمة هيئة المحلفين في قضيتهِ، كما كان ويلي تاب من مقاطعة لامار و ويلي ويليامز من مقاطعة هيوستن وكلود رينز من مقاطعة جيفرسون وغريغوري أكريس من مقاطعة مونتغمري ونيل أوينز من مقاطعة راسل، من بين العديد من الرجال السود المحكوم عليهم بالإعدام الذين حوكموا من قبل هيئة محلفين بيضاء بعد أن ضرب المدعون، جميع المحلفين المحتملين من أصل أفريقي ونفس القصة تكررت مع إيرل ماكجاي، الذي حوكم من قبل هيئة محلفين بيضاء في مقاطعة دالاس، على الرغم من أن ٦٠٪ من أهالي المقاطعة أمريكيين من أصل أفريقي، وفي قضية ألبرت جيفرسون، نظم المدعي العام قائمة المحلفين المحتملين الذين استدعوا إلى المحكمة في أربع مجموعات تضم كل منها تقريباً خمسة وعشرون شخصاً، قُسمت على أنها «قوية» و «متوسطة» و «ضعيفة» و «سوداء». يمكن العثور على جميع السود العشرين من هيئة المحلفين في القائمة «السوداء»، واستبعدهم الادعاء جميعهم، أما جو دنكان وجرادي بانكهد والعقيد غوثري من بين السجناء البيض المدانين الذين روا قصص مماثلة كان على المدعي المحلي تيد بيرسون أن يقلق بشأن القرار الجديد في قضية باتسون فهو على يقين أن محامياً حقوق مدنية محنكين مثل شيبست نت وبويتون لن يترددا في الاعتراض على الاختيار العنصري لهيئة المحلفين التمييزية، إلا أنه كان مطمئناً من ناحية القاضي روبرت إي لي كي، فهو يعلم أنه لن يأخذ هذه

الاعتراضات على محمل الجد. لكن الدعاية الاستثنائية المحيطة بجريمة قتل موريسون أعطت بيرسون فكرة أخرى في القضايا البارزة، من المعتاد نوعاً ما أن يقدم محامو الدفاع طلباً لتغيير المكان، لنقل القضية من المقاطعة التي وقعت فيها الجريمة إلى مقاطعة أخرى حيث تقل الدعاية قبل المحاكمة والشعور بالإدانة، إلا أن الطلبات نادراً ماتمنح، ولكن بين الحين والحين تجد محكمة

الاستئناف أن الجو في مقاطعة ما كان ضاراً للغاية لدرجة أنه لا مفر من نقل المحاكمة. في ألاباما، كان طلب تغيير المكان عملاً عقيماً أساساً، لأنه كان يقابل بالرفض دائماً و ابدأ.

عندما حددت المحكمة جلسة استماع في أكتوبر ١٩٨٧ بشأن طلبات ما قبل المحاكمة في قضية والتر، لم يتوقع شيبست نت وبوينتون الموافقة على أي من طلباتهم، لذلك ركزوا جهودهم على الاستعداد للمحاكمة، والتي كان من المقرر أن تبدأ في فبراير ١٩٨٨. جلسة الاستماع إلى المحاكمة التمهيدية لم تكن أكثر من جلسة شكلية. قدم شيبست نت وبوينتون طلب تغيير مكان المحاكمة، عندها وقف بيرسون وقال إنه يوافق على نقل المحاكمة إلى مقاطعة أخرى نظراً للتغطية الاستثنائية حول قضية مقتل موريسون أوماً القاضي برأسه بتعاطف مما أشعل يقين شيبست نت، الذي شق طريقه حول محاكم ألاباما بجدارة، بأن شيئاً سيئاً على وشك الحدوث، فهو على ثقة تامة بأن القاضي و بيرسون ينسجان خيوط مؤامرة ما . حكم القاضي بـ «طلب المدعى عليه تغيير المكان». عندما اقترح القاضي نقل المحاكمة إلى مقاطعة مجاورة حتى لا يضطر الشهود إلى السفر، ظل شيبست نت متقائلاً، فجميع المقاطعات المجاورة تقريباً نسبة السكان السود فيها عالية: كانت مقاطعة ويلكوكس سوداء بنسبة ٧٢٪ و كانت نسبة السود في كونشو ٤٦٪ و كانت مقاطعة كلارك سوداء بنسبة ٤٥٪. بتلر ٤٢٪ كانت إسكامبيا سوداء بنسبة ٣٢٪، أما مقاطعة بالدوين الثرية في الجنوب والمتفردة بشواطئها الجميلة في خليج المكسيك، كانت الوحيدة بين تلك المقاطعات التي يغلب فيها البيض على السواد فكان الأمريكيون السود فيها قلة حيث يبلغ عدد عددهم ٩٪ فقط ولم يحتج القاضي لوقتٍ طويل ليقرر مكان نقل المحاكمة.

- «سنذهب إلى مقاطعة بالدوين». اعترض شيبست نت وبوينتون على الفور، لكن القاضي ذكرهما بأن النقل جاء بناءً على اقتراحهما، عندما حاولا سحب الاقتراح، قال القاضي: « لا يمكن أن أذن بمحاكمة في مجتمع شكل أفراده آراء حول المتهم. ستتم محاكمة في باي مينيت، مقر مقاطعة بالدوين».

كان تغيير المكان بمثابة كارثة جديدة وقعت على رأس والتر. عرف شيبست نت وبوينتون أن المحلفين السود سيكونون قلة، إن وجدوا، لكنهما وجدا بريق أمل يضيء طريقهما إلى بالدوين، فقد أدركا أيضاً أن المحلفين من مقاطعة بالدوين قد لا يرتبطون بأي علاقة شخصية مع روندا موريسون وعائلتها، لكنها في نفس الوقت مقاطعة محافظة للغاية فكانت آخر المقاطعات الجنوبية التي تركت وراءها السياسات العرقية لجيم كرو. عرف القلق طريقه إلى قلب والتر أيضاً بسبب مكان المحاكمة، نظراً لما سمعه من سجناء آخرين محكومين بالإعدام حول جميع هيئات المحلفين البيض. لكنه ما زال يثق في هذه الحقيقة؛ لا يمكن لأحد أن يصدق أنه المجرم بعد سماع الأدلة، كما أن عقله رفض استيعاب أن أحداً في هيئة المحلفين سوداً كانوا أبيض ممكن أن يصدق الهراء الذي ألفه مايرزو رواه؛ ليس مع وجود إثني عشر شاهد عيان، قادرين على إثبات حجة غيابه عن مكان الجريمة، وبهذا يمكن للأعمى أن يرى أنه بريء من هذه الجريمة براءة الذنب من دم يوسف.

أجلت محاكمة فبراير للمرة الثانية، لكن رالف مايرز كانت لديه أفكاراً ثانية فبعد أشهر في سجن المقاطعة، بعيداً عن سجن تنفيذ حكم الإعدام وعن المحكومين بالإعدام، قرر مايرز مرة أخرى أنه

لا يريد توريط نفسه في جريمة قتل لم يرتكبها. انتظر حتى صباح اليوم السابق للمحاكمة ليخبر المحققين أنه لا يستطيع أن يشهد بما يريدوه لأنه غير صحيح. حاول أن يتشاجر للحصول على معاملة أفضل، لكنه قرر:

«مهما يكن لست على استعداد لقبول عقوبة عن جريمة لم أرتكبها مهما كانت الميزات».

أدى رفض مايرز التعاون إلى إعادته إلى وحدة الإعدام، وبالعودة إلى هولمان، مرة أخرى بدأت معاناته النفسية والعاطفية التي أخذت منحى أخطر من المرة السابقة، لدرجة أثارت قلق مسؤولي السجن مما اضطرهم إلى إرساله إلى مستشفى الدولة للمرضى العقليين، بعد أسبوعين من عودته. كان مركز تايلور هاردين الطبي الآمن في توسكالوسا، مسؤولاً عن جميع أعمال تشخيص وتقييم الأشخاص المتهمين بارتكاب جرائم، والذين قد يكونوا غير مؤهلين للمحاكمة بسبب مرض عقلي. وكثيراً ما انتقده محامو الدفاع لأنهم لم يعثروا أبداً على إعاقات عقلية خطيرة تمنع هؤلاء المتهمين من الذهاب إلى المحاكمة.

الوقت الذي قضاه مايرز في مركز تايلور هاردين لم يكن فعالاً في إخراجه من مأزقه. كان يأمل أن يعيدوه إلى سجن المقاطعة بعد الثلاثين يوماً التي قضاه في المركز، ولكنهم بدلاً من ذلك أعادوه إلى وحدة الإعدام.

أدرك المحققون أن مايرز لا يستطيع الهروب من الوضع الذي وضع نفسه به، فقد قال لهم إنه مستعد للإدلاء بشهادته ضد ماكميلان. وكان من المقرر أن تعقد المحاكمة التالية في أغسطس/ آب ١٩٨٨، وكان والتر ينتظر في سجن تنفيذ حكم الإعدام منذ أكثر من عام. كان يحاول خلاله التكيف بصعوبة، فهو لم يستطع قبول الجاثوم الذي أثقل حياته، وحولها إلى عذاب لا ينتهي، ومع كل التوتر الذي دمر أعصابه فقد كان مقتنعا أن هذا الجاثوم سينتهي وسيعود إلى منزله في فبراير، في حين قررت المحاكمة الأولى، كانت معاناة مايرز سبب في سعادة محامو والتر حيث أخبروه أنه يرفض الشهادة وهذه علامة جيدة، لكن ذلك يعني بقاء ستة أشهر أخرى في وحدة الإعدام، وهذا كافٍ كي لا يرى شيئاً مشجعاً في خبر كهذا. عندما نقلوه أخيراً إلى سجن مقاطعة بالدوين في باي مينيت لمحاكمة في أغسطس، غادر والتر وحدة الإعدام وكله ثقة بأنه لن يعود ثانية. لكنه فوجئ بمدى تضارب مشاعره بشأن تركه الرجال الذين أصبح صديقاً لهم، فهو يعلم جيداً ما المصير الذي سيواجهونه قريباً. ومع ذلك عندما اتصلوا بخصوصه من مكتب النقل، لم يضيع وقته فقد قام بجمع أغراضه وركوب الشاحنة بسرعة للمغادرة، وكأنه يهرب من شبح الموت المحيط به في كل زاوية من زوايا المقبرة المسماة بوحدة الإعدام. بعد ذلك بأسبوع، كان والتر يجلس في الشاحنة مع أصفاد تضغط على كاحليه وسلاسل تطوق وسطه بإحكام. كان يشعر أن قدميه بدأت تنتفخ لأن المعدن الذي حفر جلده تسبب في انقطاع الدورة الدموية، فالأصفاد كانت ضيقة للغاية، وكأنها سلسلة أخرى من سلاسل جحيم وحدة الإعدام، مما أثار غضبه بشكل غير معهود.

«لماذا قيدتماني بسلاسل بهذا الضيق؟ إنني أشعر وكأنها تقيد روحي ليس قدمي فقط».

ولم يكن نائباً إقليم بالدوين الذين كانا قد اصطحاباه قبل أسبوع، ودودين في الرحلة من السجن إلى

المحكمة، فما بالك الآن بعد أن أدين بارتكاب جريمة قتل؟ كانا عدوانيين بكل ماتحمله الكلمة من معنى. بدأ أحدهما بضحكة صفراء بغیضة رداً على سؤال والتر.

«السلاسل هي نفسها لم تتغير عما كانت عليه عندما أخذناك. إنت تشعر بشدتها فقط لأنك خارج أسوار السجن».

«عليك أن تخفف هذا يا رجل، لا يمكنني البقاء هكذا».

«هذا لن يحدث، لذلك أخرج من رأسي وتعلم أن تستريح بها كما هي».

فجأة تذكر والتر الرجل في نهاية المحاكمة عندما وجدت هيئة المحلفين أن والتر مذنب، كانت عائلته والعديد من السود الذين حضروا المحاكمة في حالة صدمة شديدة، وعندها زعم المأمور تيت أن جوني، ابن والتر البالغ من العمر أربع وعشرين عاماً، قال:

«سيدفع شخص ما مقابل ما فعلتموه بوالدي».

ثم طلب تيت من النواب اعتقال جوني، وعندها حدث شجار، و رأى والتر الضباط يصارعون طفله ويلقونه على الأرض واضعين الأصفاة في يديه . فكلما نظر إلى النابيين الذين أخذاه من السجن، زاد اقتناعه بأن أحدهما من ضرب ابنه ووضع الأصفاة في يديه.

بدأت الشاحنة بالتحرك، دون يخبروا والتر إلى أين كان ذاهباً ولكن بمجرد وصولهم إلى الطريق، كان من الواضح أنهم سوف يعيدونه إلى المقبرة المسماة بوحدة الإعدام، لقد كان منزجاً ومضطرباً في يوم اعتقاله لكنه كان متأكداً من أنه سيطلق سراحه خلال أيام، لكنه أصيب بالإحباط عندما تحولت الأيام إلى أسابيع في سجن المقاطعة، ومن ثم داهمه الاكتئاب والرعب عندما اقتادوه إلى وحدة الإعدام قبل محاكمته و حتى قبل إدانته بأي جريمة، ثم طالت الأسابيع لتصبح أشهر. ولكن عندما أدانته هيئة المحلفين البيضاء و أقرت بأنه مذنب، بعد خمسة عشر شهراً من انتظار البراءة، أصيب بالصدمة التي شلت كل أمل له. الآن وبعد استنشاق القليل من الهواء النقي الذي استطاع التسلل من نافذة السيارة شعر بنفسه أنه عاد إلى الحياة، لكنه لم يعد والتر السابق بل كان والتر آخر، والتر الذي ذابت كل مشاعره في حمم غضبه، وكان النواب يدفعونه إلى وحدة الإعدام ويتحدثون عن عرض بندقية كانوا يخططون لحضوره، عندها أدرك والتر كم كان أحماً لإعطاء الجميع فرصة الشك به، كان يعلم أن تيت شريراً ولم تمر الطيبة بطباعه يوماً، كما افترض أن الآخرين ينفذون ما يؤمرون به. كان يشعر أنه في وسط بحر هائج والأمواج تتقاذفه في كل اتجاه ولا يمكن تسمية هذا البحر إلا (بالغضب)

«سأقاضيك جميعاً!»

«سأقاضيك جميعاً!»

«اخلع هذه السلاسل. اخلع هذه السلاسل». كان يصرخ ويصرخ من شدة ألم الإحساس بالظلم، رغم أنه يعلم أنه لن يحدث فرقاً. ورغم أن الضابط لم يأبه لصراخه أو ألمه أو تهديداته، التي تبخرت

في جو تلك المقبرة اللعينة التي لا يعرف ماهو السبيل للخلاص منها. لم يتذكر متى فقد السيطرة آخر مرة، لكن كل ما شعر به أنه ينهار وكأنه جبل دكه زلزال. وبعد مصارعة نفسه وإجبارها صمت وتدفقت أحداث المحاكمة في ذهنه. لقد كانت قصيرة ومنهجية ومرضية، فاختيار هيئة المحلفين لم يستغرق سوى بضع ساعات فقط، وهناك أظهر بيرسون براعته باستخدام الضربات القطعية لاستبعاد كل الأمريكيين الأفارقة الذين قاموا باستدعائهم للخدمة في هيئة المحلفين باستثناء واحد منهم. وبطبيعة الحال اعترض محاموه، وبطبيعة الحال وباختصار رفض القاضي اعتراضهم. طلب من ماييرز التوجه إلى المنصة ليروي قصته العبثية حول والتر الذي أجبره على القيادة إلى جاكسون كلينرز لأن ذراعه تؤلمه. وقد احتوى هذا الإصدار على إضافات جديدة، حيث جعل ماييرز يذهب إلى متجر مواد النظافة، وهناك رأى والتر واقفاً إلى جانب جثة روندا موريسون. ومن الغريب أنه ادعى أيضاً أن شخصاً ثالثاً كان موجوداً ومتورطاً في القتل، وهو رجل أبيض غامض بملامح غريبة وشعر أجدد، وأنه كان المسؤول الأول عن الجريمة حيث أنه أمر والتر بقتل ماييرز أيضاً، لكن والتر لم يستطع لأن الذخيرة نفذت من سلاحه. اعتقد والتر أن الشهادة كانت بلا معنى لدرجة أنه لا يصدق أن الناس يأخذونها على محمل الجد. لماذا لا يضحكون؟! أوضح استجواب شيبستنت الدقيق لمايرز أنه يكذب، وعندما انتهى شيبستنت، كان والتر متأكداً من أن الولاية ستعلن أنها ارتكبت خطأ ببساطة، لكن بدلاً من ذلك دعا المدعي العام ماييرز مرة أخرى إلى المنصة لتكرار اتهاماته كما لو كان المنطق والتناقضات، التي غلفت شهادته لا وجود لها، أو كما لو كان تردد أكاذيبه كالصدى مرات كافية في هذه الغرفة الميتة سيجعلها صحيحة. شهد بيل هوكس أنه رأى شاحنة والتر وهي تتحرك من أمام متجر المنظفات في وقت ارتكاب الجريمة، وأنه تعرف على الشاحنة لأنها معدلة على أنها «رايدر». همس والتر على الفور لمحامييه بأنه لم يحول شاحنته إلى «رايدر» إلا بعد عدة أشهر من مقتل موريسون، لكن المحامون لم يفعلوا الكثير بهذه المعلومات، مما أحبط والتر. ثم نزل إلى الساحة رجل أبيض آخر لم يسمع به والتر، هو جو هتاور الذي قال هو الآخر أنه رأى الشاحنة أمام متجر المنظفات. كان هناك اثني عشر شخصاً، يمكنهم التحدث عن زريعة السمك ويصرون على أن والتر كان في المنزل عندما قُتلت روندا موريسون، لكن محاموه دعوا ثلاثة منهم فقط. ثم اتصلت الولاية بإرنست ولش الرجل الأبيض، الذي لُقّب بـ«رجل الأثاث» والذي قال، أنه جاء إلى منزل ماكملان لتحصيل المال في اليوم الذي كانوا يقلون فيه السمك، ولكن هذا اليوم لم يكن في نفس اليوم الذي قُتلت فيه روندا موريسون، وقال إنه أفضل من يتذكر يوم قتلها لأنه كان خالها، كما قال إنه كان مدمراً لدرجة أنه لم يستطع الذهاب في هذا اليوم إلى منزل ماكملان بل ذهب في يوم آخر لتحصيل المال. هناك شيء غريب يعجز والتر عن فهمه، بدا أن الجميع متلهفون لإنهاء هذه المحاكمة، لماذا؟! قدم المحامون حججهم وتقاعدت هيئة المحلفين وبعد أقل من ثلاث ساعات عادوا مرة أخرى إلى قاعة المحكمة بوجوه كالصخر وأعلنوا واحداً تلو الآخر، والتر ماكملان مذنب.

الفصل الرابع

الصليب المتين القديم

افتتحت أنا وإيفا أنسلي مركزنا القانوني الجديد غير الربحي في توسكالوسا في فبراير ١٩٨٩، والمكرس لتقديم خدمات قانونية مجانية عالية الجودة للمدانيين المحكوم عليهم بالإعدام في ألاباما. لم نعتقد أبداً أن الأمر سيكون سهلاً، ولكن لم نتوقع أنه سيكون بهذه الصعوبة أيضاً، ففي الأشهر القليلة الأولى من الافتتاح، استقال أول مدير لنا، وكلية الحقوق بجامعة ألاباما حيث أنشأنا المكتب، سحبوا دعمهم وتراجعوا عن تقديم المكان الذي وعدونا به واكتشفنا مدى صعوبة العثور على محامين مستعدين للقدوم إلى ألاباما، لتولي قضايا عقوبة الإعدام بدوام كامل بأقل من ٢٥٠٠٠ دولار سنوياً.

كانت العوائق تنتثر نثراً في طريقنا، حيث حرمانا المجلس التشريعي للولاية من التمويل، والذي كنا بحاجة إليه للحصول على الدعم المالي الفدرالي المطابق له و بعد عدة اجتماعات مثبطة مع مجلسنا، اتضح أننا لن نحصل على دعم الولاية للمشروع. كان قادة المحامين في الدولة ملتزمين بإثبات نجاح مشروعنا مع اختلاف الدوافع، فالبعض أيدوا المشروع لأنهم شعروا أنه من غير المقبول ألا يحصل السجناء المدانين على مساعدة قانونية، والبعض الآخر لأنهم أرادوا رفع وتيرة عمليات الإعدام والإسراع بتنفيذها، وشعروا أن غياب المحامي يعرقل سيرهم في هذا الطريق، ومع ذلك أدركنا الآن أنه سيتعين علينا القيام بذلك بمفردنا وجمع المال بأنفسنا. قمت أنا وإيفا بإعادة ترتيب صفوفنا وقررنا البدء من جديد في مونتغمري عاصمة الولاية. وأخيراً قررنا أن نطلق على المشروع اسم مبادرة العدالة المتساوية (EJI).

لقد وجدت مبنى صغير بالقرب من وسط مدينة مونتغمري، وفي صيف ١٩٨٩ وقعنا عقد الإيجار، وقد كان المبنى بداية جيدة؛ فهو منزل من طابقين في حي يوناني مستأجر بُني في عام ١٨٨٢، بالقرب من المنطقة التاريخية المسماة «مدينة ألاباما القديمة». كان ذو جدران صفراء وله شرفة ساحرة تستقبل من يدخله بالترحيب فيشعر بالارتياح، ويا له من تناقض جميل بين هذه الشرفة الرائعة بأبوابها المفتوحة على الدنيا وكأنها تأخذ الشمس في أحضانها، وتستقبل الهواء النقي بين ذراعيها و بين قاعات المحكمة المخيفة التي يسكنها الظلم وغرف انتظار المؤسسة المختنقة والتي حظرت دخول الهواء إليها وجدران السجون القاتمة التي غيرت شكل حياة الكثير من عملائنا وعائلاتهم. كان المكتب بارداً في الشتاء، ويكاد يكون من المستحيل إبعاد السناجب التي احتلت العلية، ولكن لم يكن هناك ما يكفي من الكهرباء لتشغيل آلة النسخ والقهوة في نفس الوقت دون نفخ الصمامات، ومنذ البداية شعرت وكأن تلك الشقة منزل ومكان للعمل في آن واحد، وكنت حزينا لقلّة الساعات التي سأقضيها في هذا المكان الجميل سواء كمنزل أو مكان للعمل. حاولنا أنا وإيفا معا بكل الطرق وكنا مستعدين للحفر في الصخر من أجل الاستمرار والبقاء رغم كل الظروف، فتولت إيفا المهام الإدارية لمشروعنا الجديد، والتي كانت صعبة للغاية بالنظر إلى الدعم المالي الفيدرالي الذي تطلب جميع أنواع التقارير المعقدة وقوائم المحاسبة، ولم تدخل كلمة الخوف قاموس إيفا، قد يكون الذكاء احتل مكان تلك الكلمة في حياتها، وقد قامت بفرز كل البيانات والتقارير المطلوبة كي تتمكن

من الحصول على بعض الدعم المالي، كما أنها وظفت موظف استقبال. أما أنا فقد عملت على جمع الأموال للجنة الدفاع عن السجناء الجنوبيين بمجرد أن بدأت هناك، لذلك كان لدي بعض الخبرة حول كيفية طلب الدعم المالي لعملنا. كنت على يقين من أنه لا بد أن تكون هناك طريقة ما، لجمع ما يكفي لمكتب ألاباما الجديد لتلبية على الأقل الحد الأدنى من متطلبات المطابقة الفيدرالية. التي احتجنا بعض الوقت، لندرك أننا لن نحصل عليها على الإطلاق، كما اتضح فيما بعد.

كان ينتظرنا سيل من تواريخ الإعدام، علماً أنه بين تمرير قانون ولاية ألاباما الجديد لعقوبة الإعدام في عام ١٩٧٥ ونهاية عام ١٩٨٨، لم يكن هناك سوى ثلاثة عمليات إعدام في ألاباما. ولكن في عام ١٩٨٩، وبدافع تغيير المعاملة في المحكمة العليا لاستئناف عقوبة الإعدام حيث سارت رياح السياسية بما لاتنتهي سفن السجناء، بدأ مكتب المدعي العام يعمل على قدم وساق لإعدام السجناء المدانين، ومع الأسف بحلول نهاية عام ١٩٨٩، سيتضاعف عدد الأشخاص الذين سوف تعدمهم ولاية ألاباما.

قبل افتتاح مركزنا بأشهر، بدأت في زيارة مركز ألاباما لتنفيذ حكم الإعدام كل شهر، والسفر من أتلانتا لمشاهدة عدد قليل من العملاء الجدد، بما فيهم والتر ماكملان، كانوا جميعاً ممتنين للمساعدة، ولكن مع اقتراب ربيع عام ١٩٨٩، قدموا جميعاً نفس الطلب في نهاية اجتماعاتنا: ساعد مايكل ليندسي، كان من المقرر إعدام ليندسي في مايو ١٩٨٩. وفي وقت لاحق، طلبوا مني مساعدة هوراس دانكنز، الذي كان موعد إعدامه في يوليو ١٩٨٩. كان يعتصر قلبي الألم وأنا أشرح لهم القيود المفروضة على الموارد والوقت، وأخبرتهم بمدى حماسنا لتأسيس المكتب الجديد وتشغيله، وعلى الرغم من أنهم قالوا إنهم فهموا، إلا أنهم لم يستطيعوا إخفاء مشاعر الحزن التي بدت على وجوههم، لحصولهم على المساعدة القانونية التي هي أضغاث أحلام لرجال آخرين يطرق كابوس الإعدام بابهم كل ليلة.

كان لكل من ليندسي ودنكنز محامين متطوعين تواصلوا معي للحصول على المساعدة لأنهما كانا غارقين. كان محامي ليندسي، ديفيد باغويل محامي مدني محترم من موبيل، و كان قد عمل على قضية واين ريتز، الذي أعدم قبل عام. تركت تلك التجربة باغويل غاضباً و محطماً، مما جعله يكتب رسالة لاذعة نشرت في مجلة نقابة المحامين بالولاية تعهد فيها «بعدم قبول قضية عقوبة إعدام أخرى، حتى لو قاموا بفصلي جراء هذا الرفض» كما حث المحامين المدنيين الآخرين على عدم قبول قضايا عقوبة الإعدام. صعبت شكاوى باغويل العامة على المحاكم تعيين محامين مدنيين آخرين في المراحل الأخيرة من الاستئناف في قضايا عقوبة الإعدام، ليس لأنهم يميلون بشكل خاص إلى القيام بذلك. ولكن لأن لها تأثير آخر كذلك. وصل للسجناء كلمة من الرسالة وصارت محور حديثهم الدائم، خاصةً حول تعليق مرعب مدفون في جريدة باغويل: «أنا أؤيد عقوبة الإعدام بشكل عام لأن الكلاب المجنونة يجب أن تموت». قضت تلك العبارة تقريباً على ثقة السجناء بالمحامين، حتى أولئك الذين زعموا أنهم سيساعدونهم.

بعد الكثير من مناشدة السجناء الآخرين، قررنا أن نفعل ما بوسعنا من أجل مايكل ليندسي، الذي كان تاريخ إعدامه يجري به مسرعاً نحو الكرسي الكهربائي، وحاولنا تقديم الحجج والبراهين حول

حدوث تطور مثير للاهتمام في هذه القضية؛ أبدأً لم تقرر هيئة المحلفين إعدام مايكل ليندسي، الذي حكم عليه بالسجن مدى الحياة دون إفراج مشروط من قبل هيئة المحلفين، لكن القاضي «تجاوز» هذا الحكم وفرض عقوبة الإعدام.

حتى عام ١٩٨٩، كانت أحكام الإعدام الناتجة عن «تجاوز القضاة» حالات شاذة، رغم وجودها في كل ولاية تقريباً، فحكم هيئة المحلفين بالموت أو رفضه، كان حكماً نهائياً في كل الولايات ماعدا فلوريدا وألاباما، اللتان سمحتا بإلغاء قرار هيئة المحلفين من قبل القضاة لكن فلوريدا وضعت فيما بعد قيوداً على ممارسة تجاوز أحكام هيئة المحلفين بشدة. وهكذا تكون ألاباما قد انفردت بإعطاء القضاة الحق في استخدام سلطة تحويل أحكام السجن المؤبد إلى أحكام بالإعدام، على الرغم من أنهم مفوضون أيضاً لتخفيض أحكام الإعدام إلى أحكام بالسجن مدى الحياة إذا ارتأوا ذلك. منذ عام ١٩٧٦، أبطأ قضاة ولاية ألاباما الأحكام الصادرة عن هيئة المحلفين في قضايا الإعدام ١١١ مرة في ٩١٪ من هذه القضايا، استبدل القضاة أحكام السجن مدى الحياة من المحلفين بأحكام الإعدام.

لقد ازدادت هذه الممارسة تعقيداً بسبب الطبيعة التنافسية المتزايدة للانتخابات القضائية في الولاية، فألاباما تنتخب جميع قضاتها عن طريق انتخابات حزبية تنافسية للغاية، وهي واحدة من ست ولايات فقط تقوم بذلك (ثلاثون ولاية تتخذ عملية الانتخابات القضائية فيها أشكالاً غير حزبية). تحصل الانتخابات على مساهمات الحملات من المصالح التجارية التي تسعى إلى إصلاح الضرر أو من محامي المحاكمات الذين يرغبون في حماية الأحكام المدنية في القضايا الكبيرة، ولكن بما أن معظم الناخبين في هذه المناطق من غير المتعلمين، فإن الحملات تركز دائماً على الجريمة والعقاب، حيث تشهد ساحات المحاكم تنافساً بين القضاة في الصرامة في العقوبات التي يوقعونها على المتهمين في قضايا الجرائم. الناس الذين يمولون هذه الانتخابات لا يهتمون إلى حد كبير بالاختلافات المتواضعة بين المرشحين بشأن الجريمة، و مع ذلك فإن العقوبة تخضع للتصويت، فتجاوز القضاة أداة سياسية فعالة بشكل مبهر . لا يوجد قاض يريد التعرض للإعلانات الهجومية التي تسلط الضوء على التفاصيل المروعة، لقضية قتل فشل فيها القاضي في فرض أشد العقوبات. في ضوء ذلك، ليس من المستغرب أن تميل تجاوزات القضاة لبلوغ الحد الأقصى في فترات الانتخابات.

كتبنا رسالة إلى حاكم ولاية ألاباما، غي هانت نطلب منه إيقاف إعدام ليندسي على أساس أن هيئة المحلفين المخولة سلطة إصدار الحكم عليه قررت عدم إعدامه، لكن الحاكم هانت لم يأخذ وقتاً طويلاً لرفض طلب الرأفة المقدم من قبلنا، معلناً أنه لن «يتعارض مع رغبات المجتمع التي عبرت عنها هيئة المحلفين بإعدام السيد ليندسي»، على الرغم من أننا شددنا على أن ممثلي المجتمع - هيئة المحلفين - قد فعلوا العكس. انتخبت بوضوح لتجنب إعدام ليندسي، لكن من يهتم، وعلى الرغم من كونها ممارسة غريبة، فقد أيدت المحكمة الأمريكية العليا الإلغاء القضائي في قضية سابقة في فلوريدا، الأمر الذي تركنا معلقين في الهواء بدون أساس دستوري يحول دون إعدام مايكل ليندسي، ومع الأسف أعدم صعقاً بالكهرباء في ٢٦ مايو ١٩٨٩.

كرر تاريخ التنفيذ نفسه مرة أخرى، و كررنا نحن محاولة المساعدة بأي طريقة ممكنة مرة

أخرى أيضاً، على الرغم من أن الوقت ينفد بسرعة لكن كان هناك القليل من الأمل، فقد حاولنا التركيز على معاناة السيد دانكنز من إعاقات ذهنية، ووجد قاضي المحاكمة أنه يعاني من «تخلف عقلي» بناءً على سجلاته المدرسية واختباراته السابقة، ولكن مع الأسف غدر به الحظ، فقبل بضعة أشهر فقط من الموعد المقرر لإعدامه، أيدت المحكمة العليا إعدام «المتخلفين عقلياً»، ولسخرية القدر اعترفت المحكمة بأن إعدام الأشخاص ذوي الإعاقات الذهنية هو عقوبة وحشية وغير عادية وأمرت بحظر هذه الممارسة باعتبارها غير دستورية، ولكن بعد إعدام هوراس دانكنز بثلاثة عشر عاماً في قضية أتكنز ضد فرجينيا، ولكن بالنسبة للعديد من الأشخاص المدانين والمعوقين مثل هوراس دانكنز، والذين كان كل ذنبهم أنهم عاشوا في نفس الزمن الذي ولد فيه التوأم المقيت (العنصرية والظلم) جاء الحظر متأخراً.

كانت عائلة دانكنز تتصل مراراً وتكراراً، في محاولة منهم لمعرفة إذا ما كان هناك ما يمكن القيام به في تلك الأيام القليلة التي تسبق موعد إعدامه، ولكن للأسف الشديد كانت الخيارات قليلة جداً، وعندما تأكدوا من عدم وجود طريقة تحول دون هذا الإعدام، وجهت الأسرة انتباهها إلى جثته وما سيفعلون بها بعد وفاته، حيث بدوا مهتمين بشكل خاص ولأسباب دينية، بمنع الدولة من تشريح جثة ابنهم. وصل تاريخ الإعدام، وقتل هوراس دانكنز في إعدام فاشل نشرت أخباره على المستوى الوطني، حيث قام مسؤولو الإصلاحات بتوصيل الأقطاب الكهربائية في الكرسي بشكل خاطيء، لذلك مرت شحنة كهربائية جزئية فقط بجسد السيد دانكنز، وكأن تلك الشحنات الكهربائية أشفقت عليه فوصلته جزئياً ثم قاموا بتنشيط الكرسي الكهربائي ولكن بعد عدة دقائق مؤلمة، حيث قاموا بإيقاف تشغيل الكرسي لكن السيد دانكنز كان لا يزال على قيد الحياة، فاقداً للوعي ولكنه يتنفس. انتظر المسؤولون عدة دقائق أخرى «حتى يبرد الجسم» قبل أن يدركوا أن الأقطاب الكهربائية لم تُوصل بشكل صحيح، ثم قاموا بتعديل الوصلات الكهربائية التي سرت في جسد السيد دانكنز مرة أخرى، ولكنها لم تشفق عليه هذه المرة بل قتلته أو لعلها أشفقت، فقتلته. بعد هذا الإعدام الوحشي الذي أسأوا فيه التعامل مع دانكنز، والذي لم يلق أي تعامل إنساني في حياته أو خلال إعدامه، ولا حتى بعد مماته، فقد استمرت الولاية بتعاملها اللإنساني معه فقامت بتشريح الجثة، رغم مطالبات عائلته المتكررة.

تلقيت مكالمة من والد السيد دانكنز المضطرب بعد الإعدام،

قال: «يمكنهم أن يأخذوا حياته على الرغم من أنه لم يحصل على محاكمة عادلة ولم يكن يستحق ذلك، ولكن ليس لديهم الحق في العبث بجسده وروحه أيضاً. نريد مقاضاتهم». قدمنا بعض المساعدة للمحامي المتطوع في القضية ورُفعت الدعوى، على الرغم من عدم وجود أمل كبير، فلم يكن هناك عدد كاف من الشهادات ولا الأحكام المنصفة. فشلت الدعوى المدنية في إيقاف ولاية ألاباما، التي تفوقت بقوة في زيادة أحكام الإعدام، التي تسارع لقطف أرواح السجناء.

انتقلنا إلى مكتبنا الجديد في مونتغمري في ظل تلك الأيام الثقيلة لهذين الإعدامين. الرجال الذين ينتظرون تنفيذ حكم الإعدام كانوا أكثر اضطراباً وقلقاً من أي وقت مضى. عندما تلقى هربرت ريتشاردسون إشعاراً في يوليو / تموز يفيد بأنه من المقرر إعدامه في ١٨ أغسطس / آب، اتصل بي

مع جمع من المحكوم عليهم بالإعدام:

- «سيد ستيفنسون، أنا هربرت ريتشاردسون، وقد تلقيت للتو إشعاراً بأن الولاية تخطط لإعدامي في ١٨ أغسطس أنا بحاجة لمساعدتك لا يمكنك أن ترفض، أعلم أنك تساعد بعض الرجال وأنكم تقتحون مكتباً، لذا أرجو مساعدتي».

أجبت: «أنا آسف حقاً لمعرفة تاريخ إعدامك. يبدو أنه صيفاً صعباً للغاية. ماذا يقول محاميك المتطوع؟» كنت لا أزال أعمل على إيجاد أفضل طريقة للتحدث مع الأشخاص المدانين حول كيفية الرد على أخبار مواعيد التنفيذ. أردت أن أقول شيئاً مطمئناً مثل، «لا تقلق»، لكن بالطبع سيكون ذلك طلباً غيبياً من أي شخص اقترب موعد تنفيذ حكم إعدامه - فأنباء تنفيذ الإعدام المقرر إن لم تكن شيئاً، فهي قلقاً يصل حد الموت قبل الإعدام و كلمة آسف لا تبدو «آسف» صحيحةً أيضاً، ولكنها تبدو أفضل ما يمكن أن تجود به بنات أفكاري التي ما تزال تتصارع حول هذا الموضوع.

فال: «ليس لدي محام متطوع، سيد ستيفنسون ليس لدي أي أحد. قال محامي المتطوع أنه لا يستطيع فعل المزيد لمساعدتي منذ أكثر من عام، أنا بحاجة إلى مساعدتك».

ما زلنا لا نمتلك أجهزة كمبيوتر أو كتب قانونية، ولم يكن لدي محامون آخرون في فريق العمل، لذا وظفت زميل لي من جامعة هارفارد.

المدرس الذي وافق على الانضمام إلى موظفينا وانتقل إلى ولاية ألاباما من منزله في بوسطن، مما أشعرنى بسعادة غامرة فأخيراً حصلت على بعض المساعدة، وقد بقي في مونتغمري لبضعة أيام في حين اضطررت لمغادرة المدينة في رحلة لجمع التبرعات. عندما عدت لم أجده، لقد رحل تاركاً ملاحظة، يوضح فيها أنه لم يدرك مدى صعوبة العيش في ألاباما. لم يمض على وجوده هناك أسبوع.

محاولة إيقاف تنفيذ الإعدام تعني العمل بدون توقف لثمانى عشرة ساعة في اليوم لمدة شهر، في محاولة يائسة للحصول على أمر إقامة من المحكمة. لن ينجز هذا الأمر سوى جهد كبير جداً، مع معرفتنا بمدى صعوبة نجاحنا في وقف التنفيذ. عندما كنت أفكر في قول أي شيء لملاً الصمت، تابع ريتشاردسون:

«سيد ستيفنسن، لم يتبق لي سواك أنت و ثلاثون يوماً. من فضلك قل إنك سوف تساعدني».

لم أكن أعرف ماذا أفعل غير أن أكون صادقاً.

«سيد ريتشاردسون، أنا آسف للغاية، لكن ليس لدينا ما يُمكننا من تقديم المساعدة، فليس لدينا كتب أو طاقم عمل أو أجهزة كمبيوتر أو أي شيء مما نحتاجه للتعامل مع الحالات الجديدة حتى الآن، حتى إننا لم نقم بتعيين محامين، فنحن مازلنا نحاول إعداد الأشياء»

قال: «لكن لدي تاريخ تنفيذ إعدام، يجب أن تمثلي ما الفائدة من كل هذه الأشياء الأخرى إذا كنت لن تساعد أشخاصاً مثلي؟» كنت أسمع أنفاسه تنفجر و هو يقول:

«سوف يقتلونني».

قلت: «أفهم ما تقوله، وأنا أحاول إيجاد طريقة لمساعدتك. لكننا تجاوزنا الحدود كثيراً - لم أكن أعرف ماذا أقول، وعقد الصمت ألسنتنا لوقت طويل، كنت أشعر بنيران الغضب التي تحرق أنفاسه، ونبضات الخوف التي تخفق في قلبه ويمكنني أن أتخيل مدى إحباطه. كنت أهني نفسي لسماع كلمات غاضبة أو مريرة تتراقص ألسنة اللهب بين حروفها، وأقوي نفسي لاستيعاب غضبه المفهوم. ولكن بعد ذلك سكت الهاتف فجأة. لقد أغلق الخط.

شعرت بالقلق من المكالمات لبقية اليوم ولم يزرني النوم في تلك الليلة. لقد طاردتني معاناتي البيروقراطية البائسة في وجه اليأس وضعت في صمت رده. في اليوم التالي اتصل مرة أخرى، ليريحني. «سيد ستيفنسون، أنا آسف لكن عليك أن تمثلني. لا أريدك أن تخبرني أنه يمكنك إيقاف هذا الإعدام، لا أريدك أن تقول أنهم سيمنحونني البقاء، لكن بقي لدي تسعة وعشرون يوماً، ولا أعتقد أنني أستطيع عيشها إذا لم يكن هناك أمل على الإطلاق. فقط قل أنك ستفعل شيئاً ودعني أتمتع ببعض الأمل».

كان من المستحيل أن أقول له لا، فقلت نعم و كنت صريحا جدا :

«و لكن بصراحة لست متأكدا إذا ما كان هناك ما يمكننا القيام به لمنع هذا، بالنظر إلى الوضع الحالي. لكننا سنحاول».

- «حسناً، سأكون ممتناً جداً، لأي شيء تستطيع القيام به... إذا كنت تستطيع أن تفعل شيء، أي شيء...».

كان هربرت ريتشاردسون من قدامى المحاربين في حرب فيتنام، تلك الحرب التي تركته غارقاً في تجارب أشبه بالكوابيس في ظل ظروف الحرب القاسية وما سببته له من صدمة نفسية. التحق ريتشاردسون بالجيش عام ١٩٦٤ وهو في سن الثامنة عشر، وفي ذلك الوقت كانت أمريكا متورطة بشدة في القتال. تم تعيينه في مجموعة الطيران الحادية عشر، فرقة الفرسان الأولى، وأُرسل إلى معسكر راديكليف في أنكي في فيتنام، كان المخيم بالقرب من بليكو؛ وهي منطقة عُرفت بالقتال الشديد في منتصف الستينيات وهناك أوكل هربرت بمهمات خطيرة لطالما عانى منها حيث رأى الأصدقاء يقتلون أو يصابون بجروح خطيرة، وقد جاء دوره في إحدى المهام، حيث قتل فصيله بأكمله في كمين، وأصيب هو بجروح خطيرة جعلته يغيب عن الدنيا، وعندما استعاد وعيه المغلف بدماء رفاقه الجنود؛ كان مرتبكاً وغير قادر على الحركة. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً قبل أن يتعرض لانهايار عقلي كامل، فقد حاول الانتحار بعد تعرضه لصداع شديد، على الرغم من تعدد الإحالات من الضباط القيايين للتقييم النفسي، وظل في القتال لمدة سبعة أشهر قبل أن تؤدي (انفجاراته الصاخبة) و (انسحابه غير المترابط) إلى خروج مشرف في ديسمبر ١٩٦٦. ولاعجب أن ويلات تلك الصدمة لحقته إلى بيته في بروكلين حيث حطمت الكوابيس، ومزقه الصداع الشديد، حتى أنه في بعض الأحيان كان يهرب من منزله يصرخ «قادمة». كان متزوجاً ولديه أطفال، لكن اضطراب الإجهاد اللاحق للصدمة استمر في تفويض قدرته على إدارة سلوكه و التحكم في

تصرفاته، فانتهى به المطاف في مستشفى قدامى المحاربين في مدينة نيويورك، حيث كان يعاني من انتعاش بطيء وصعب من آلام الرأس الشديدة المرتبطة بإصاباته في الحرب. أصبح هربرت واحداً من آلاف المحاربين القدماء الذين انتهى بهم المطاف في السجون والزنازين بعد إكمال خدمتهم العسكرية. إحدى المشاكل التي لم يلق لها بالاً في البلاد بعد الحرب، هي مدى تكرار تعرض المحاربين القدماء لصدمات الحرب وسجنهم بعد عودتهم إلى مجتمعاتهم، و بحلول منتصف الثمانينيات من القرن الماضي، كان ما يقرب من ٢٠٪ من السجناء في سجون وزنازين الولايات المتحدة ممن قد خدموا في الجيش، في حين انخفض المعدل في التسعينات مع بدء انحسار الظلال التي ألقتها حرب فيتنام، فقد انتعش مرة أخرى نتيجة للصراعات العسكرية في العراق وأفغانستان.

ساعدت الرعاية الجيدة في مستشفى قدامى المحاربين في مدينة نيويورك هربرت على التعافي ببطء، وكان قد التقى بمرضة هناك، امرأة من دوثة ألاباما والتي أولته اهتماماً ورعاية، كثيراً ما افتقدهما في حياته مما ولد في نفسه شعوراً بالراحة والأمل للمرة الأولى، ربما في حياته كلها. وجودها بجانبه، أعطاه شعوراً بأنه ما يزال على قيد الحياة وأن تلك الحياة فيها ما يستحق العيش واعتقد أن كل شيء سيكون على ما يرام، لقد أنقذت حياته. و هو تعلق بها لدرجة أنه تبعها إلى منزلها في ولاية ألاباما، وحاول مواعدها حتى أنه عرض عليها الزواج، لكنها قاومت في البداية لأنها عرفت أن هربرت كان لا يزال يعاني من آثار الفترة التي قضاها في القتال، إلا أنها استسلمت لإلحاح مشاعره في النهاية. نشأت بينهما علاقة حميمة لفترة وجيزة، ولم يكن هربرت في أسعد حالاته، حيث أفقده التشديد على كل تحركات صديقه السعادة التي كان يبحث عنها في هذه العلاقة، بينما بدأت هي تشعر بالاختناق من حمايته الشديدة لها والتي طوق بها تفاصيل حياتها، مما لفت انتباهها إلى أن تركيزه اليأس والمتواصل عليها أقرب إلى الحاجة الهوسية منه إلى الحب فحاولت إنهاء هذه العلاقة، وبعد أشهر من المحاولات الفاشلة لوضع مسافة بينهما أصرت أخيراً على الابتعاد عنه. وبدلاً من ذلك، صار هربرت يحوم حول منزلها في دوثة، مما أثار مخاوفها، و وصل الأمر إلى حد أنها رفضت السماح له برؤيتها أو التحدث إليها أو الاقتراب منها، لكن هربرت من جهته كان مقتنعاً بأنها في حيرة من أمرها وستعود إليه في النهاية، فقد خدعه الهوس. مما ساقه إلى عتبات الجنون فأضحى منطقته فاسداً وتفكيره غير عقلائي، وخطيراً بشكل متزايد. لم يكن هربرت غبي بل على العكس، كان في غاية الذكاء، ولديه قدرات خاصة في الإلكترونيات والميكانيكا، بالإضافة إلى القلب الكبير الذي يخفق بين جنباته. لكنه كان لا يزال يحاول التعافي من صدمة الحرب و بعض الصدمات الخطيرة التي سبقت تجربته العسكرية، حيث توفيت والدته عندما كان عمره ثلاث سنوات فقط، وكان يعاني من إدمان المخدرات والكحول قبل أن يقرر الانضمام للجيش، حيث أضافت أهوال الحرب كرباً آخر أدى إلى دمار جديد في النفس المتضررة أصلاً.

أخذ يفكر في طريقة تمكنه من استعادة صديقه حتى لمعت في رأسه فكرة و وجد أن الخوف أفضل طريقة لاستعادتها فإذا شعرت بالخطر، ستلجأ إليه لحمايتها، وعليه ابتدع خطة مضللة بشكل مأساوي؛ فقرر أن يركب قنبلة صغيرة ويضعها على رواق منزلها الأمامي، وكانت الخطة أن يفجر القنبلة ثم يركض لإنقاذها وبعد ذلك سيعيشون في سعادة دائمة. كان ذلك تهوراً لا معنى له في

استخدام المتفجرات في منطقة آمنة و مأهولة بالسكان، فكيف إذا كانت المنطقة حي أسود فقير في دوثنان ألاباما. ذات صباح، وعندما أنهى هربرت تركيب القنبلة، ذهب ووضعها على شرفة صديقته السابقة، لكن ماكل ما يتمنى المرأ يدركه، فقد جاءت ابنة أختها وفتاة صغيرة أخرى بدلاً منها وشاهدتا شيئاً غريباً. وبفضول الأطفال انجذبت ابنة أختها ذات العشر سنوات إلى الحقيبة الملقاة على الشرفة مع ساعة عليها والتقطت الجهاز، وهزت الساعة لمعرفة ما إذا كانت ستدق، مما أدى إلى انفجار عنيف، قتل الطفلة على الفور، وأصيب صديقته البالغة من العمر اثني عشر عاماً، والتي كانت تقف بجانبها، بصدمة نفسية لقد عرف هربرت كلا الطفلتين. في هذا المجتمع، كان الأطفال يجوبون الشوارع دائماً بحثاً عن شيء يفعلونه. أحب هربرت الأطفال وكان يتحدث معهم يدعوهم إلى ساحته ويدفع لهم للقيام بالمهمات، كما كان يصنع الحبوب ويطهو للأطفال المتجولون، وقد جاءت الفتاتان إلى منزله سابقاً لتناول الإفطار.

تدمر هربرت الذي كان يراقب المنزل عبر الشارع فلم تكن هذه خطته، كان يخطط للركض لمساعدة صديقته عند انفجار القنبلة ليؤكد لها استعدادها لحمايتها والحفاظ على سلامتها، وعندما التقطت الطفلة القنبلة وانفجرت، ركض هربرت عبر الشارع ليجد نفسه في دائرة من الجيران الحزاني و المصدومين. لم تلبث الشرطة أن قامت باعتقال هربرت، حيث وجدوا أنابيب ومواد أخرى لصنع القنابل في سيارته وفي مسرح الجريمة، ولكن لأن الضحايا كانوا من السود والفقراء، لم يكن القانون ليهتم بتلك الجريمة لدرجة محاكمة مرتكبها على أساس أنها جريمة قتل، لكن هربرت لم يكن من البلدة، بل كان شخصاً غريباً عنها ومن سكان الشمال كما أثبتت هويته، ناهيك عن طبيعة الجريمة التي ولدت احتقاراً متزايداً من من قبل الجهات القانونية. إن وضع قنبلة في أي مكان في دوثنان، حتى في قسم فقير من المدينة، شكل نوعاً من التهديد يختلف عن العنف المنزلي «النموذجي». جادل المدعي العام بأن هربرت لم يكن مجرد مضلاً ومتهوراً بطريقة مأساوية بل كان شريراً أيضاً. طالبت الولاية بتطبيق عقوبة الإعدام، وبعد ضرب جميع المحلفين المحتملين السود في مقاطعة سوداء بنسبة ٢٨٪، قال المدعي العام لهيئة المحلفين البيض في مرافعته الختامية إن الإدانة كانت في محلها لأن هربرت «مرتبط بمسلمين سود من مدينة نيويورك» ولا يستحق النظر إليه بعين رحمة أبداً.

يقتضي قانون ولاية ألاباما أن تكون الجريمة متعمدة لتستحق عقوبة الإعدام، وبما أنه كان من الواضح أن هربرت لم يكن لديه نية لقتل الطفلة، قررت الولاية التذرع بنظرية غير مسبوقة عن (النية المنقولة) لجعل الجريمة مؤهلة لعقوبة الإعدام، لكن هربرت لم يكن لديه نية لقتل أي شخص، ولذلك نصح هربرت بإنكار أي ذنب لكنه احتج خلال التحقيقات بأنها جريمة قتل متهورة، وليس جريمة قتل عمد، وبالتالي تكون العقوبة عليها بالسجن مدى الحياة ولكن ليس عقوبة الإعدام.

خلال المحاكمة لم يقدم محامي الدفاع المعين من قبل المحكمة أي معلومات عن خلفية هربرت وخدمته العسكرية، كما أنه لم يقدم أي دليل على صدماته من الحرب وعلاقته بالضحية، وهوسه بالصدقة لا شيء، يرجع هذا إلى أن قانون ولاية ألاباما في ذلك الوقت حدد مبلغ زهيدا لمحامي الدفاع مقابل توليهم القضايا وترافعهم في المحكمة الخارجية، لا يزيد عن ١٠٠٠ دولار، لذلك لم

يفضل المحامي تضييع أي وقت في العمل على القضية، استمرت المحاكمة أكثر من يوم، وسرعان ما أدان القاضي هربرت وحكم عليه بالإعدام.

بعد فرض عقوبة الإعدام، قام محامي هربرت المعين، والذي حُرم من العمل في قضايا الإعدام بسبب ضعف مرافعاته وتهاوله في قضايا أخرى، بإخباره أنه لا يرى أي سبب للطعن بإدانته أو بالعقوبة المفروضة عليه، لأن المحاكمة كانت عادلة كما توقع، عندها انفل هربرت وذكره بأنه حُكم عليه بالإعدام. أراد الاستئناف مهما كانت النتائج، لكن محاميه لم يقدم مذكرة. حُبس هربرت في سجن تنفيذ حكم الإعدام لمدة أحد عشر عامًا، حتى حان الوقت للجلوس في أحضان «Yellow Mama» «ماما الصفراء»، وقد طعن محام متطوع في أسئلة المدعي العام حول النية في محاولة يائسة باءت بالفشل. لقد تحدد موعد إعدام هربرت في ١٨ أغسطس، أي على بعد ثلاثة أسابيع فقط.

بعد مكالمتي مع هربرت، قدمت مجموعة من طلبات الإقامة في محاكم مختلفة مع علمي بضعف الاحتمالات في قدرتنا على إيقاف تنفيذ أحكام الإعدام. بحلول أواخر الثمانينيات، نفذ صبر المحكمة الأمريكية العليا على تحديات عقوبة الإعدام وبررت المحكمة إعادة إقرار عقوبة الإعدام في منتصف السبعينيات من القرن الماضي بقطع الوعود بأن تخضع الإجراءات لتدقيق شديد وامتنال دقيق للقانون، لكنها بدأت بعد ذلك في التراجع عن إجراءات المراجعة الحالية. ازدادت أحكام المحكمة عداوة للسجناء المحكوم عليهم بالإعدام و بدت أقل التزامًا بمفهوم (الموت مختلف)، الأمر الذي تطلب الكثير من التدقيق في المراجعة.

قررت المحكمة منع المطالبات بمراجعة أمر المثل أمام القضاء الفيدرالي ما لم تقدم في البداية إلى محاكم الولاية، ثم مُنعت المحاكم الفيدرالية من النظر في أدلة جديدة ما لم يتم تقديمها لأول مرة إلى محاكم الولاية، و بعد ذلك بدأت المحكمة في الإصرار على أن القضاء الفيدراليين يؤجلون معظم أحكام محاكم الولاية، والتي تميل إلى أن تكون أكثر تسامحاً في الأخطاء والعيوب المرتكبة في إجراءات الإعدام.

في الثمانينيات، رفضت المحكمة اعتراضًا دستوريًا على فرض عقوبة الإعدام على الأحداث، وأيدت عقوبة الإعدام للمعوقين الذين يعانون من (التخلف العقلي) وفي رأي مُدان على نطاق واسع، لم يوجد أي انتهاك دستوري في الفوارق العرقية المتطرفة التي يمكن رؤيتها في معظم الولايات القضائية لعقوبة الإعدام.

وبحلول نهاية العقد، أصبح بعض القضاة ينتقدون علناً المراجعة التي حدثت في قضايا عقوبة الإعدام. كما حث رئيس القضاة وليام رينكويسست على فرض قيود على استئنافات عقوبة الإعدام وجهود المحامين اللا متناهية لوقف عمليات الإعدام وكان قد أعلن عن نيته في إحدى فعاليات نقابة المحامين عام ١٩٨٨ بعبارة الشهيرة: «دعنا نمضي قدمًا». وأصبح التخلص من البشر وإنهاء قضاياهم، وليس إنصافهم أو معاقبة المجرم الحقيقي، هي الأولوية الجديدة في فقه عقوبة الإعدام.

بعد أسبوعين من محادثتي الأولى مع هربرت ريتشاردسون، كنت أحاول بشكل محموم وقف التنفيذ. على الرغم من أن الوقت كان متأخرًا جدًا على القيام بهذه الخطوة وعندما رأيت بعض

المشاكل الملحة في حالة هربرت انخفض سقف أحلامي للفوز بالإقامة، في حين أن إدانته لم تكن محل شك في حقيقة الأمر، إلا أنه كانت هناك أسباب مقنعة تفسر لم لا يجب أن تعتبر هذه القضية قضية قتل عمد وبالتالي لايتوجب الحكم فيها بالإعدام، قبل كل شيء عدم وجود نية محددة للقتل، وحتى إذا تجاهل القاضي هذا الجزء كان لايزال هناك دليل قوي آخر على أنه لا ينبغي فرض عقوبة الإعدام لعدة أسباب؛ مثل صدمة هربرت في الحرب والخدمة العسكرية وصعوبات الطفولة، لكن لم تُقدم أي من هذه الأدلة خلال المحاكمة، وكان ينبغي تقديمها. لا يمكن فرض عقوبة الإعدام إلا بعد النظر بعناية في جميع الملابسات والأسباب التي قد تجعل من الموت عقوبة جائرة، وهذا لم يحدث في حالة هربرت مع الأسف. زادت قناعتي بأن هربرت كان يواجه الإعدام لأنه كان هدفاً سهلاً، فقد ترك وحيداً دون مساعدة مما سهل إدانته من قبل نظام كان يتجاهل المتطلبات القانونية الدقيقة لعقوبة الإعدام. كنت منزعاً للغاية من فكرة أن هربرت ماكان لينتظرتنفيذ حكم الإعدام في أقل من أسبوعين، لو كان قد حصل على المساعدة المناسبة في الوقت المناسب.

لقد طلبت من عدة محاكم أن توقف إعدام هربرت بسبب محاميه المتخاذل والتحيز العنصري أثناء المحاكمة والتعليقات التحريضية التي أدلى بها المدعي العام، إضافةً إلى نقص أدلة التخفيف المقدمة، لكن كل المحاكم رفضت قائلةً «فات الأوان»، فقد أجرينا جلسة استماع مقررّة على عجل في مقر المحاكمة في دوثن، وكنت قد وجدت خبير مستعداً للشهادة بأن القنبلة التي صنعها هربرت كانت مصممة لتنفجر في وقت معين، ولم تكن قنبلة موقوتة وليس المقصود منها القتل عند الاتصال، وحاولت إرسال هذا الدليل، مع أنني كنت أعلم أن المحكمة ستخلص على الأرجح، إلى أنه كان ينبغي تقديم هذه الأدلة في المحاكمة أو في إجراءات سابقة، لكنني كنت أمل أن يقتنع القاضي.

كان هربرت معي في المحكمة، وأدرك كلانا على الفور عدم اهتمام القاضي الذي ظهر على وجهه، مما ضاعف من قلق هربرت الذي بدأ حواراً هامساً معي، وناشدني أن أحضر الخبير ليشهد بأشياء في نيته، كانت بعيدة تماماً عن معرفة الخبير. أصبح هربرت مشاكساً وبدأ في إبداء تعليقات مسموعة أمام القاضي، وفي الوقت نفسه، استمر القاضي في التأكيد على أن الأدلة لم تُكتشف حديثاً وكان يجب تقديمها في المحاكمة، مما دمر أساس وقف التنفيذ الذي كنا نعتمد عليه، فطلبت استراحة قصيرة لمحاولة تهدئة هربرت الذي بدا منهزماً تماماً وقال:

«إنه لا يقول ما أريده أن يقول!» كان تنفسه مضطرباً وقد سيطر الذعر عليه كما لو كان أمامه شبحاً، أمسك برأسه وأخبرني أنه يعاني من صدام شديد و أكمل:

«لم أكن أنوي قتل أي شخص وعليه أن يشرح ذلك!» ودخل في نوبة بكاء ومن يراه ممكن أن يدرك أن روحه هي من كانت تبكي وليست عيناه. حاولت تهدئته:

«سيد ريتشاردسون إسمعني جيداً، لقد تناولنا هذا ولا يُسمح للخبير بالتحدث عن حالتك العقلية، لقد شهد بأن القنبلة كانت مصممة ليتم تقجيرها في وقت معين، لكنه لا يستطيع بالفعل تفسير دوافعك، المحكمة لن تسمح بذلك ولا يمكنه التحدث عنه».

قال بحزن، وهو يفرك صدغيه: «إنهم لا ينتبهون حتى لما يقوله».

فقلت: «أعرف، ولكن تذكر، هذه مجرد خطوة أولى، ونحن لم نتوقع الكثير من هذا القاضي لكن هذا سيساعدنا في الاستئناف. أعلم أن هذا أمر محبط بالنسبة لك». نظر إلي بقلق قبل أن يتنهد باستسلام. جلس متشائماً، وظل ممسكاً برأسه خلال ما تبقى من الجلسة، وقد وجدته أكثر إرهاقاً مما كان عليه عندما كان مشاكساً و مضطرباً.

لم أقم بتعيين أي محامين حتى الآن، وبالتالي لم يكن لدي مستشار للجلوس معي والمساعدة في إدارة المستندات أو مساعدة المدعى عليه خلال جلسة الاستماع. في نهاية الجلسة، تم تقييد هربرت وإعادته إلى سجن تنفيذ الإعدام، كان متضايقاً ومحبطاً وتعييس و لم أكن أفضل حالاً منه فلم أشعر بتحسن كبير عندما حُزمت أشيائي وخرجت من قاعة المحكمة. كان من اللطيف استخلاص المعلومات من شخص ما، لتقييم ما قدم ومعرفة إذا ما كان قد يوفر أساساً للإقامة. لم أكن أتوقع أن يمنح القاضي المحلي إقامة، لكنني كنت أمل أن تدرك محكمة المراجعة أن هذا القتل لم يكن مقصوداً وأنه يجب منح الإقامة. كان هناك الكثير من الأمور التي لم أستطع تقييمها بشكل موضوعي، هل قدمنا أدلة كافية لتغيير صورة القضية؟ شعرت بالسوء، في الغالب لأنني تركت هربرت في هذه الحالة المضطربة.

في طريقي للخروج، بعد جلسة الاستماع التي انعقدت في وقت متأخر من بعد الظهر في وقتٍ لم تقرر فيه أي إجراءات، رأيت مجموعة من النساء والأطفال السود يتجمعون في الجزء الخلفي من قاعة المحكمة. كان سبعة أو ثمانية منهم يراقبونني عن كثب. أثار هؤلاء الأشخاص فضولي نوعاً ما، ولكن بصراحة تعبي غلب فضولي فلم أهتم فعلياً. ابتسمت وأومأت بتحية مرهقة للنساء الثلاث اللواتي بدأن أكثر تركيزاً عليّ، وكان ذلك بمثابة إشارة للاقتراب مني بينما كنت على وشك الخروج من الباب.

المرأة التي تحدثت معي بدت متوترة وخائفة إلى حد ما، فقد كانت تتحدثت بتردد:

«أنا والدة رينا ماي - والدة الضحية- قالوا إنهم سيساعدوننا، لكنهم لم يفعلوا ذلك قط، لا تستطيع ماريلين أن تسمع بشكل صحيح، ولم يكن سمعها جيداً منذ تلك القنبلة وأختها أيضاً تعاني من مشاكل عصبية، وكنا نأمل أن تساعدنا .

دفعت النظرة المذهلة على وجهي السيدة لقول المزيد: «أعلم أنك مشغول. كل مانطلبه منك بعض المساعدة فقط». أدركت أنها مدت يدها بحذر بينما كانت تتحدث، عندها أخذت يدها بين يدي، وقلت بلطفٍ قدر استطاعتي:

«أنا آسف للغاية لأنك لم تتلقي المساعدة التي وعدت بها. لكنني فعلياً أمثل هربرت ريتشاردسون في هذه القضية».

فأقلت: «نحن نعلم ذلك، أأعني إني أعلم أنك قد لا تتمكن من فعل أي شيء الآن، ولكن عندما ينتهي هذا، هل يمكنك مساعدتنا؟ قالوا أننا سنحصل على بعض المال للمساعدة الطبية ومساعدة ابنتي لمعالجة مشكلة السمع لديها».

اقتربت منها امرأة شابة بهدوء وهي تتحدث إليّ واحتضنتها. و قد بدت على الأرجح في أوائل العشرينيات من عمرها ألا أن تصرفاتها كانت لا تتجاوز تصرفات طفل صغير جداً من كل النواحي، حيث مالت برأسها إلى جانب والدتها كما لو كانت طفلة أصغر بكثير من عمرها ونظرت إلي بحزن. اقتربت امرأة أخرى وتحدثت إلي أيضاً. قالت:

«أنا عمتها ونحن لا نؤمن بقتل الناس».

لم أكن متأكد تماماً مما كانت تحاول قوله، لكنني نظرت إليها وأجبت:

«نعم، أنا لا أؤمن بقتل الناس أيضاً».

يبدو أن العمة بدأت تسترخي قليلاً:

« هذه المأساة مؤلمة جداً. لا يمكننا أن نحرض على ذاك الرجل الذي تحاول مساعدته ولكن لا يمكننا أن نشعر بالحزن عليه أيضاً. لا يجب أن يكون هناك المزيد من القتل جراء ذلك الحادث».

فقلت: «لا أعرف ما يمكنني فعله لمساعدتكم جميعاً لكنني صدقاً أريد المساعدة. أرجو أن تتصلوا بي بعد ١٨ أغسطس، وسأرى ما يمكنني اكتشافه». ثم سألتني العمة:

«هل يمكن لإبني أن يرأسك لأنه في السجن ويحتاج إلى محام».

«بلا شك».

تهددت بارتياح عندما أعطيتها بطاقتي. ودعنا بعضنا وداعاً رسمياً، عند مغادرتنا المحكمة.

قالت العمة وهي تغادر: «سنصلي من أجلك».

في الطريق إلى سيارتي، فكرت في أن أطلب منهم أن ينقلوا للمدعي العام ومحامي الدولة عدم رغبتهم في عدم إعدام السيد ريتشاردسون، على الرغم من أنه لا يخفى على أحد أن الولاية لم تكن تتصرف نيابة عن هؤلاء الضحايا. كانت قاعة المحكمة ممتلئة بمحاميين وحكوميين ومسؤولين آخرين يراقبون الجلسة، لكنهم غادروا منذ فترة طويلة من المحكمة دون أي كلمة إلى أي من الأرواح المعنفة، التي تقف في الجزء الخلفي من الغرفة، والتي كانت و مازلت معلقة بتلك الكلمة التي بخلوا بها. لقد أصبت بالسخرية المأساوية حيث شعروا أنني كنت أفضل أمل للمساعدة.

رفض قاضي المحاكمة طلبنا بوقف تنفيذ الإعدام في الوقت الذي عدت فيه إلى مونتغمري. واستبعد دليلنا بحجة أنه كان (غير مناسب) مما يعني أنه لا يستطيع النظر فيه، تضمنت الأيام القليلة التالية -حيث بقي أقل من أسبوع لتنفيذ حكم الإعدام - إيداعاً محمومًا تلو الآخر و أخيراً وفي اليوم السابق للإعدام، تمكنت من تقديم عريضة للمراجعة وطلب وقف التنفيذ في المحكمة الأمريكية العليا، حتى في قضايا عقوبة الإعدام، تمنح المحكمة حق المراجعة فقط بنسبة صغيرة من القضايا المرفوعة، و مع ذلك قدمت التماساً للحصول على شهادة طلب مراجعة حكم محكمة دنيا، وكنت أعرف أنه نادراً ما يقبل التماس للحصول على تلك الشهادة ولكن لم يكن لدينا فرصة لوقف التنفيذ سوى المحكمة العليا. حتى عندما تمنح المحاكم الدنيا الإقامة تستأنف الولاية، لذلك دوماً ما يكون

القرار النهائي في تنفيذ حكم الإعدام من عدمه عائداً للمحكمة العليا.

تقرر تنفيذ الإعدام في الساعة ١٢:٠١ صباحاً يوم ١٨ أغسطس، وفي وقت متأخر من ليلة ١٦ أغسطس / آب كنت قد انتهيت أخيراً من الالتماس وأرسلته بالفاكس إلى المحكمة وقضيت صباح اليوم التالي في مكنتي في مونتغمري، برفقة اثنين رفضا تركي وحدي في هذا اليوم، القلق والانتظار-انتظار قرار المحكمة- وقد حاولت أن أشغل نفسي عنهما بقراءة ملفات الحالات الأخرى، بما فيها ملف والتر ماكميلان، و لم أكن أتوقع أن أسمع أي خبر من المحكمة حتى بعد الظهر، ولكن هذا لم يمنعني من التحديق في الهاتف طوال الصباح، و كلما رن الهاتف، تسارعت نبضات قلبي . عرفت إيفا ودوريس، موظفة الاستقبال لدينا أنني أنتظر تلك المكالمات على أحر من الجمر. لقد قدمنا عريضة استرحام إلى المحافظ مع إفادات خطية من أفراد العائلة وصور ملونة، لكنني لم أتوقع أي رد. احتوى الالتماس على تفاصيل خدمة هربرت العسكرية وشرح أسباب استحقاق المحاربون القدامى، الذين يعانون من اضطراب ما بعد الصدمة الرحمة و الرأفة.

بصراحة لم أكن متفائلاً جداً، ولماذا أفعل فمايكِل ليندسي تلقى حكماً مدى الحياة من هيئة المحلفين ولكنهم أعدموه بدلاً من ذلك والإعاقة الفكرية لم تتمكن من إنقاذ هوراس دانكنز فلماذا أتأمل أن يتعاطفوا مع ريتشاردسون.

كنت أتحدث مع هربرت هاتفياً بانتظام طوال النهار لإخبره بعدم وجود أخبار، فلم أستطع الاعتماد على من في السجن ليوصلوا له حكم المحكمة، لذلك طلبت منه الاتصال بي كل ساعتين، فمهما كانت الأخبار أردت أن يسمعها من شخص يهتم لأمره

التقى هربرت بامرأة من موبيل منذ سنوات وبقياً على تواصل طوال تلك الأعوام وقبل الإعدام بأسبوع قررا الزواج، لم يكن لدى هربرت مال، ولم يكن لديه ما يقدمه لها إذا أعدم. لكنه كان عسكري قديم وناجي من الحرب، وقد كان يحق للناجين الحصول على علم أمريكي عند وفاتهم، وقد عين زوجته الجديدة لتستلم العلم في الأيام التي سبقت الإعدام، بدا هربرت مهتم بعلمه أكثر من إعدامه الوشيك، وظل يطلب مني أن أستقصر من الحكومة حول كيفية تسليم علمه، كما حثني على الحصول على التزام كتابي من قبلهم.

وافقت أسرة زوجته الجديدة على قضاء الساعات القليلة الباقية قبل الإعدام مع هربرت. سمحت إدارة السجن لأفراد الأسرة بالبقاء حتى الساعة ١٠:٠٠ مساءً.

عندما بدأوا في إعداد المحكوم عليهم بالإعدام، كنت لا أزال في مكنتي في انتظار تلقي قرار المحكمة العليا. عندما مرت الساعة ٥:٠٠ مساءً بدون أي أخبار، سمحت لنفسي بالقيام من التناول الحذر، فإذا كانت المحكمة منزعة من أي شيء قدمناه في العريضة، كانت ستصدر الحكم في وقت سابق على طلبنا بالبقاء. وتشجعت على التناول أكثر، ولكن عندما دقت الساعة ٦ مساءً كانت خطواتي تلتهم أرض مكنتي الصغير، وأنا أتخيل بعصبية لاحتمالات التي قد تناقشها المحكمة على بعد سويغات من موعد التنفيذ. انتظرت إيفا ومحققنا الجديدة، بريندا لويس معي. أخيراً، قبل الساعة السابعة مساءً بقليل، رن الهاتف. كاتب المحكمة كان على الخط.

- «سيد ستيفنسون، اتصل لإخبرك بأن المحكمة قد أدخلت للتو أمراً في القضية رقم ٨٩٥٣٩٥ ونخبركم أن طلبكم لوقف التنفيذ والتماس إصدار أمر الإحضار قد رفض. لاحقاً سنرسل نسخاً من الطلب بالفاكس إلى مكتبك». وبذلك انتهت المحادثة.

عندما أغلقت الخط، كل ما استطعت التفكير به هو، لماذا أحتاج إلى نسخة من الطلب؟ إلى من سأريها في اعتقاد الكاتب؟ في غضون ساعات، سيكون هربت ميتاً، ستفارق روحه جسده وستتفرق رائحة لحمه المحترق، أنوف السجناء الذين ينتظرون دورهم في احتراق أرواحهم قبل أجسادهم، عبر أبواب الزنازين التي تُطرق بالأكواب احتجاجاً، لن يكون هناك المزيد من الاستئنافات، ولا المزيد من السجلات للاحتفاظ بها. لست متأكداً من سبب دهشتي بهذه التفاصيل الغريبة. ربما كان التفكير في العبثية الإجرائية لأمر المحكمة أقل إرهافاً من التفكير في معناه. لقد وعدت هربت بأن أكون معه أثناء الإعدام، واستغرقت بضع دقائق لأدرك أنني كي أصل إلى السجن بعد ساعتين لا بد أن أتحرك الآن.

قفزت في سيارتي وتسابقت إلى أتمور، وبينما كنت أسير في الطريق السريع للوصول إلى السجن، لاحظت أن أشعة الشمس الطويلة تتراجع حتى مع استمرار حرارة صيف ألاباما. عندما وصلت إلى السجن، كان مظلماً تماماً وكأنه متشحاً بالسواد حداداً على روح ستقر من بين أنيابه حتى لو كان هذا الفرار بالموت، وخارج مدخل السجن كان هناك عشرات الرجال يحملون أسلحة ويجلسون على ظهور الشاحنات التي اصطفت على الطريق الطويل إلى منطقة وقوف السيارات في السجن. كانوا من جنود الدولة وضباط الشرطة المحلية ونواب رؤساء الشرطة، وما بدا أنه جزء من وحدة الحرس الوطني. فكرت كثيراً لأعرف سبب احتياج الدولة إلى ميليشيا لحراسة مدخل السجن ليلة الإعدام. كان من السريالي رؤية كل هؤلاء الرجال المسلحين يتجمعون قرب منتصف الليل، للتأكد من أن حياة شخص ما ستغادر هذا العالم بدون حوادث. لقد أدهشني اعتقاد شخص ما أنه قد تكون هناك بعض المقاومة العنيفة والمسلحة عند إعدام رجل أسود فقير.

دخلت السجن ورأيت، ضابط الإصلاح الذي أدار ساحة الزيارة، إنها امرأة بيضاء كبيرة السن، لقد أصبحت مألوفاً لهم في سجن تنفيذ الإعدام لأنني آتي للسجن لزيارة عملائي الجدد مرة واحدة في الشهر على الأقل، لذلك كثيراً ما رأيتني لكنها لم تكن ودودة أبداً، أما الليلة فحالها مختلف فقد اقتربت مني بدفء غير عادي وألفة عندما وصلت، حتى اعتقدت أنها ستعانقني.

حلق رجال يرتدون بدلات وربطات عنق في الردهة، وكانوا ينظرون إلي بشكل مريب عندما دخلت غرفة الزيارة قبل الساعة التاسعة صباحاً بقليل. منطقة الزيارة في هولمان عبارة عن غرفة دائرية كبيرة محاطة بالزجاج بحيث يمكن لعيون الضباط اختراقها من أي نقطة. نُثرت فيها عشرات الطاولات الصغيرة مع كراسي داخلية للأسر الزائرة التي تأتي في أيام الزيارة، وعادة ما تكون الزيارة مرتين أو ثلاث مرات في الشهر، أما خلال أسبوع الإعدام المقرر، فإن الزيارات العائلية متاحة فقط لعائلات السجناء الذين تقرر موعد جلوسهم في أحضان الأم الصفراء (الكرسي الكهربائي).

عندما دخلت إلى غرفة الزيارة، كان قد بقي للأسرة أقل من ساعة ليقضوها مع هربرت. كان أكثر هدوءًا من المعتاد. ابتسم لي عندما دخلت وحضنني:

«مرحبًا بكم جميعًا، هذا محامي». قالها بفخر فاجأني و أثر بي كثيرًا. قلت:

«مرحبًا بالجميع». كانت يد هربرت لاتزال ملقاة براحة حول كتفي، و حاولت أن أقول شيئًا مطمئنًا ولكن عجزت عن التفكير في أي شيء، قبل أن يقفز هربرت مرة أخرى:

«أخبرت السجناء أنني أريد توزيع كل ممتلكاتي، أو أن محامي سيقاضيكم حتى تضطرون جميعًا للعمل معه». ضحك، وضحكوا معه.

قابلت عروس هربرت وعائلتها وقضيت الدقائق الأربعين التالية وعيني معلقة على عقارب الساعة، كنا نعلم أن الساعة ١٠:٠٠ مساءً هي ساعة الفراق، حيث سيأخذ الحراس هربرت إلى الخلف، ولن نراه مرة أخرى و روحه ترتع في جسده. حاول هربرت تخفيف الأمور على الجميع، فأخبر عائلته كيف أفنعي بقبول قضيته وتفاخر بأنني مثال للأشخاص الأذكياء والساحرين.

قال بابتسامة: «صحيح إنه أصغر من أن يمثلني في المحاكمة، لكن لو كان هناك لما كنت الآن أنتظر تنفيذ حكم الإعدام»، لقد هز كلامه أعماقي و أدهشني حقًا كيف كان يبذل قصارى جهده ليجعل كل من حوله يشعرون بتحسن، وهو على بعد دقائق من إعدامه. لم يسبق لي أن رأيته مفعم بالحيوية والحنان هكذا. ابتسمت أنا وأسرتة وضحكنا، لكننا جميعًا شعرنا بضغط اللحظة. وكان بكاء زوجته يزداد بمرور الدقائق. وقبل الساعة العاشرة مساءً، قام مفوض إدارة السجون في ألاباما والسجان والعديد من الرجال الآخرين الذين يرتدون البدلات بإيماءة إلى ضابط الزيارة، ثم جاءت إلى الغرفة وهي تمشي بتواضع وقالت:

«للأسف لقد حان الوقت يا رفاق، علينا إنهاء الزيارة، ودّعوه».

شاهدت الرجال في الرواق. كان من الواضح أنهم كانوا يتوقعون من الضابط أن تكون أكثر حسماً وفعالية. أرادوا أن تسيّر الأمور في الموعد المحدد، وكأنهم يخشون أن يتراجع الموت فلا يقطع عمره، وكما هو واضح كانوا على استعداد للانتقال إلى المرحلة التالية للتحضير للتنفيذ. مشى أحد مسؤولي الدولة إلى الحارس عندما غادرت الغرفة وأشار إلى ساعته.

داخل الغرفة، بدأت زوجة هربرت تنتهد وضعت ذراعيها حول رقبتة ورفضت السماح له بالذهاب. بعد دقيقتين، تحول بكاءها إلى نحيبٍ محزن ويأس.

بدأ صبر المسؤولون المنتظرون في الردهة ينفد وكرروا إيماءاتهم لضابط الزيارة، التي عادت إلى الغرفة، و قالت بحزم قدر استطاعتها «أنا أسفة، لكن عليك المغادرة الآن». نظرت إلي، ونظرت بعيدًا. عندها بدأت زوجة هربرت تنتحب مرة أخرى، وكذلك أختها وأفراد أسرتها الآخرين انخرطوا هم أيضًا في البكاء، ثم أمسكت زوجته بقوة أكبر. لم أفكر في مدى صعوبة هذه اللحظة قبل الآن، لقد كانت سريرية بطريقة لم تخطر لي على بال، وفي لحظة تدفق سيل من الحزن اجتاحت قلوب الجميع التي اعتصرها الحزن، وبدأ الكل يغرق في المأساة، فيما بدأت أشعر بالقلق من أنه سيكون

من المستحيل لهذه العائلة ترك هربرت بسهولة.

بدا المسؤولون في حالة غضب. نظرتُ عبر النافذة ورأيت راديو السجن الذي انطلق منه صوت نداءٍ ليأتي المزيد من الضباط إلى المنطقة. وأشار شخص آخر إلى الضابط لتعود إلى الغرفة وتخرج أفراد الأسرة. سمعتهم يأمرونها ألا تخرج بدون العائلة. بدت الضابط غاضبة بشكل محموم، فعلى الرغم من زيتها الرسمي، بدت دائماً وكأنها لا تنتمي إلى السجن نوعاً ما، وبدأ أنها متضايقة خاصة الآن. أذكر أنها تطوعت ذات مرة لتخبرني بأن حفيدها يريد أن يكون محامياً وأنها تأمل بأن يحقق ذلك. نظرت حول الغرفة بعصبية ثم جاءت إلي. بدت الدموع واضحة في عينيها و كأن عينيها لا تتسعان لها ونظرت إلي بشدة، وقالت:

«أرجوك، ساعدني لإخراج هؤلاء الناس من هنا، من فضلك». بدأت أشعر بالقلق من البشاعة التي ستؤول إليها الأمور، لكنني لم أستطع معرفة ما علي فعله في تلك اللحظة، ولم أفهم كيف يمكنهم أن يتوقعوا من الناس أن يتخلوا بهدوء، عن شخص أحبوه ويسلموه لهم بسهولة لينهوا حياته ويسلبونه ماتبقى من سنين عمره، فيُحرمون من النظر إليه من لمسه من الشعور به، يحرمون من الكلام معه من سماعه، لماذا لا يفهمون أنهم يسرقونه من تفاصيل حياتهم من دقائق وقتهم من فرحتهم، ويمحونه من صورهم ومما تبقى لهم من أيام، ليصبح كل ما يتبقى لهم منه مجرد صور تمر بالذاكرة فتولد شوقاً يحرق القلوب كل يوم أكثر فأكثر. أردت منع الأمور من الخروج عن السيطرة، ولكنني شعرت بالعجز عن فعل أي شيء. وفي تلك اللحظة، بدأت زوجة هربرت تقول بصوت عالٍ «لن أتركك».

قدم هربرت طلباً غريباً قبل إعدامه بأسبوع. جاء فيه: (إذا أعدموني في الموعد المحدد، أريد أن يحصل محامي على إذن من السجن ليعزف و يسجل ترنيمة «الصليب القديم الوعر» بينما أمشي إلى الكرسي الكهربائي). لقد شعرت بالحرج قليلاً من مسؤولي السجن لأنني رفعت الطلب، لكن ما أثار دهشتي المطلقة موافقتهم على القيام بذلك.

تذكرت أنهم كانوا دائماً يغنون هذا الترنيمة في اللحظات الحزينة أثناء خدمات الكنيسة في أيام الأحد والجمعة العظيمة، عندما كنت طفلاً. لقد كانت حزينة مثل ترانيم أخرى سمعتها. لم أعرف السبب طلبه هذا بالضبط، لكنني بدأت أتفهم الأمر عندما رأيت المزيد من الضباط النظاميين يدخلون الدهليز خارج غرفة الزيارة. يبدو أن تلك الترانيم تساعد في شيء لكن في ماذا؟

بعد بضع دقائق، اقتربت الأسرة مني، وذهبت إلى زوجة هربرت وكانت متشبثةً به بإحكام وتبكي بهدوء، فهمست لها:

«علينا أن نتركه يذهب».

رأى هربرت الضباط يصطفون في الخارج، فابتعد عنها ببطء وأخبرني أن أخرجها من الغرفة، فتشبثت بي وبكت بشكل هستيري عندما أخرجتها من غرفة الزيارة مع عائلتها. كانت التجربة مفاجئة، وصارعت دموعي التي كادت تغلبنني وواصلت النحيب بدلاً من البكاء.

كانت إدارة السجن قد اتخذت الترتيبات اللازمة، للعودة إلى غرفة الموت في حوالي ساعة لأكون مع هربرت قبل الإعدام، في الحقيقة وعلى الرغم من أنني عملت في العديد من قضايا عقوبة الإعدام مع عملاء حددت تواريخ تنفيذ أحكام إعدامهم، لكن لم يسبق لي أن أرسلت من قبل لأتواجد أثناء تنفيذ هذا الحكم. في الحالات التي كنت فيها بالفعل محامياً للمدانين أثناء وجودي في جورجيا، كنا نفوز دائماً بوقف تنفيذ الإعدام، وشعرت بالقلق من مشاهدة رجل يصعق بالكهرباء ليحترق حتى الموت أمامي، فبصراحة عندما وصلت إلى السجن كان تركيزي منصّباً على الحصول على الإقامة، ثم على ما سأقول لهربرت لدرجة أن فكرة مشاهدة الإعدام غابت عن بالي كلياً. وشعرت أنني لا أريد أن أبقى هنا، تساورني رغبة جامحة في الركض بعيداً عن تلك الغرفة بكل بشاعتها، أريد أن أركض إلى حيث لا يمكن لرائحة اللحم المحترق أن تصل، أريد أن أبتعد إلى مكان لا يصل إليه صراخ هربرت، لا أريد لصورة الدخان المتصاعد من رأسه أن تعلق في رأسي، لكن عجزت عن التخلي عن هربرت جعلني أقاوم تلك الرغبة التي تمزق كياني، فكيف لي أن أتركه بمفرده في غرفة مع أناس كل ما أرادوه قتله، وأدركت أنني لا أستطيع التراجع، وفجأة شعرت بالحرارة بشكل لا يصدق، حيث لم يكن هناك هواء في أي مكان في تلك الغرفة. جاءت ضابط الزيارة إليّ بعد أن رافقت العائلة وهمست في أذني، «شكراً». شعرت بالضيق من تفكيرها بي كشريك ولم أعرف ماذا أقول. قبل الإعدام بحوالي ثلاثين دقيقة أو أقل، أعادوني إلى الزنزانة المجاورة لغرفة الإعدام في عمق السجن حيث كانوا يحتجزون هربرت، حتى حان الوقت لوضعه على الكرسي الكهربائي. لقد حلقوا الشعر من جسده لتسهيل الإعدام «النظيف»، ولكنهم لم يفعلوا أي شيء لتعديل الكرسي الكهربائي منذ إعدام إيفانز الكارثي، وتذكرت إعدام هوراس دانكنز الفاشل قبل شهر وشعرت بالضيق والانعراج أكثر فأكثر. لقد حاولت أن أقرأ عما يجب أن يحدث في الإعدام، وفي الحقيقة كانت لدي بعض الأفكار الخاطئة مثل أنه يمكنني التدخل إذا قاموا بشيء خاطيء.

فور دخولي شعرت أن هربرت أصبح عاطفياً أكثر عندما رأيته، مما كان عليه في غرفة الزيارة، لقد بدا مرتعشاً وكأن برد الدنيا كلها تسلل داخل جسده حتى تخيلت أن لاشيء يمكن أن يذفيء روحه، التي على وشك أن تغادر هذا العالم ولا حتى صعقات الكهرباء التي سوف تغزو جسده بعد قليل وكان من الواضح أنه قلقاً ومستاءً، فكم كان مهيباً أن يُحلق جسده استعداداً للإعدام، وعندما دخلت الغرفة أمسك بيدي وسألنا إذا كان بإمكاننا الصلاة، وقد فعلنا وعندما انتهينا، نظر نظرة بعيدة اخترقت تلك الجدران والأسوار، ثم التفت إليّ.

هربرت: «مرحباً يا رجل، شكراً لك. أعلم أن هذا الوضع صعب بالنسبة لك أيضاً، لكنني ممتن لك على وقوفك معي».

ابتسمت وعانقته، وقد لاحظت أن الحزن بدل وجهه إلى وجهٍ مترهل وكأن المصيبة زادت على عمره سنين وسنين أثقلت ملامحه، حتى أن جلده لم يعد يستطيع حملها .

هربرت: «لقد كان يوماً غريباً جداً يا بريان، غريب حقاً. معظم الناس يكونون بخير ويشعرون أنهم على ما يرام دون أن يخطر على بالهم أن هذا اليوم هو آخر يوم لهم على وجه الأرض مع أنهم على يقين من أنهم سيقتلون. أأه هذا مختلف عن التواجد في فينتام. . . غريب جداً. » أوماً برأسه إلى

جميع الضباط الذين كانوا يتجولون بعصبية.

هربرت: «لقد كان الأمر غريبًا بالنسبة لهم أيضًا. «طوال اليوم الناس يسألونني:

- «ماذا يمكنني أن أفعل لمساعدتك؟» عندما استيقظت هذا الصباح، استمروا في القدوم إلي -» هل يمكننا أن نحضر لك على بعض الفطور؟

- «هل يمكننا أن نحضر لك بعض الغداء؟» طوال اليوم :

- «ماذا يمكننا أن نفعل لمساعدتك؟» وفي المساء

- «ماذا تريد أن تأكل، كيف يمكننا مساعدتك؟

- «هل تحتاج طوابع لخطاباتك؟ تنهد هربرت ونظر بعيدًا:

- «هل تريد الماء؟» هل تريد قهوة؟

- «هل تريد أن نحضر لك الهاتف؟»

- «كيف يمكننا مساعدتك؟»

-«لقد كان الوضع غريبًا جدًا يا بريان. يابتسامة ساخرة وحزينة في نفس الوقت فقد سُئلت في الساعات الأربع والعشرين الأخيرة من حياتي عما أريده أكثر مما سُئلت طوال سنوات عمري الذي على وشك أن ينتهي».

نظر إليّ بنظراتٍ تائهة وشفاهٍ مرتجفة ووجه مرتبك .

عانقت هربرت عناقًا أخيرًا وطويلاً، لكنني كنت أفكر في ما قاله، فكرت في كل الأدلة التي لم تراجعها المحكمة عن طفولته، وفي كل الصدمات والصعوبة التي لاحقته من فيتنام إلى منزله، أعلم أنني لم أستطع المساعدة ولكني سألت نفسي، أين كان هؤلاء الناس عندما احتاجهم حقًا؟ أين كان كل هؤلاء الأشخاص الذين يرغبون في المساعدة عندما كان هربرت في الثالثة من عمره وماتت والدته؟ أين كانوا عندما كان في السابعة من عمره ويحاول التعافي من الاعتداء الجسدي؟ أين كانوا عندما كان في سن المراهقة يعاني من المخدرات والكحول؟ أين كانوا عندما عاد من فيتنام مصدومًا ومعوقًا؟

رأيت مسجل شرائط الكاسيت الذي تم تركيبه في الرواق وشاهدت ضابطًا يحضر شريطًا. بدأت النغمات الحزينة لترنيمة «الصليب القديم الوعر» تصدح في أرجاء السجن وكأنها تودعه عندما أبعدته عني.

شعرت بخجل من تجربة إعدام هربرت لم أستطع التخلص منه، وقد بدا أن سحابة من الندم وتأنيب الضمير تخيم على رأس كل من رأيته في السجن، و رغم أن ضباط السجن كانوا يشحنون أنفسهم لتنفيذ الإعدام بعزم وتصميم، إلا أنهم لم يستطيعوا إخفاء الانزعاج الشديد والإحساس بالعار، ربما كنت أتخيل ذلك ولكن يبدو أن الجميع أدركوا أن كل ما حدث كان خطأ. لم يختلف الغموض

حول عقوبة الإعدام في قضية هربرت عن غيرها، لكن تفاصيل القتل المنهجي لشخص لا يمثل تهديداً كانت مختلفة تماماً.

لم أستطع التوقف عن التفكير في الأمر طوال الطريق إلى المنزل. فكرت في هربرت، وفي مدى رغبته الشديدة في الحصول على العلم الأمريكي الذي حصل عليه من خلال خدمته العسكرية في فيتنام، فكرت في عائلته وعائلة الضحية والمأساة التي خلفتها الجريمة لهم، فكرت في ضابط الزيارة و مسؤولي إدارة الإصلاحات و الرجال الذين قبضوا المال لحلق جثة هربرت حتى تزداد كفاءة قتله، كما فكرت في الضباط الذين ربطوه بالكرسي. ظلت أفكر كيف يمكن لأحد أن يعتقد أن هذا شيء يجب القيام به أو أنه من الضروري للقيام به.

في اليوم التالي كانت المقالات حول عملية الإعدام تملأ الصحف، وأعرب بعض مسؤولي الدولة عن إثارتهم وسعادتهم للإعدام، لكنني علمت أن أياً منهم لم يعرف تفاصيل قتل هربرت. عندما أثير النقاش حول عقوبة الإعدام، بدأت الجدل بأننا لا نعتقد أبداً أنه من الإنساني اغتصاب أشخاص مدانين بالاغتصاب أو الاعتداء، أو إساءة معاملة المدانين بالاعتداء أو التهم. ومع ذلك، كنا مرتاحين لقتل القتلة، ويرجع ذلك جزئياً لاعتقادنا أنه يمكننا القيام بذلك دون توريط إنسانيتنا. لم أستطع التوقف عن التفكير في أننا لا نفكر كثيراً فيما تنطوي عليه تفاصيل قتل شخص ما بالفعل.

عدت إلى مكتبي في اليوم التالي بطاقة متجددة. لقد أخذت ملفات قضيتي الأخرى وعملت على تحديث الخطط لمساعدة كل عميل، أملاً في زيادة فرص إيقاف التنفيذ وفي النهاية، أدركت أن كل عزمي الجديد لم يتغير كثيراً عن السابق، كنت أحاول بكل قوتي التوفيق بين مشاعري وتفكيري من جهة وحقائق وفاة هربرت من جهة أخرى. لقد شعرت بالارتياح من تمرين نفسي بهذه الطريقة. ازداد تصميمي على توظيف فريق عمل مميز، إضافة للحصول على الموارد لمواجهة التحديات المتزايدة المتمثلة في تقديم المساعدة القانونية للمدانين. تحدثت أنا وإيفا عن بعض الأشخاص الذين أعربوا عن اهتمامهم بالانضمام إلى فريقنا. كما استطعنا الحصول على بعض الدعم المالي الجديد من مؤسسة ما، وبعد ظهر ذلك اليوم استلمنا المعدات المكتبية التي طلبناها أخيراً، و في نهاية اليوم كنت مقتنعاً بأن الأمور ستتحسن، مهما ساءت الأحوال ومهما ازداد ثقل الأعباء الجديدة.

الفصل الخامس

مجيء يوحنا

أرميليا هاند: «كان يمكن أن يكون أسهل بكثير لو أنه كان في الغابة يطارد نفسه عندما قتلت تلك الفتاة». توقفت أرميليا هاند، الأخت الكبرى لـ والتر ماكملان، بينما استدعي الحشد من المقطورة الصغيرة للتأكيد. جلست على أريكة ونظرت إلى ما يقرب من عشرين فرداً من أفراد الأسرة الذين كانوا يحدقون بي بينما كانت أرميليا تتحدث.

أرميليا هاند: «عندها على الأقل يمكننا أن نفهم كيف يمكن له أن يفعل ذلك». توقفت ونظرت إلى أرضية الغرفة التي اجتمعنا فيها. «ولكن لأننا كنا نقف بجانبه طوال ذلك الصباح. . . فنحن نعلم أين كان. . . و نعرف ما كان يفعل! » كان الناس متوافقون معها عندما ارتفع صوتها و أصبح أكثر اضطراباً، لقد كان ذلك نوعاً من الشهادات الصامتة عن النضال والألم التي لم يسمع بها أحد والتي طالما سمعتها أثناء نموي في تلك الكنيسة الريفية السوداء الصغيرة.

أرميليا: «كان الجميع هناك يقفون إلى جواره ويتحدثون إليه ويضحكون معه ويأكلون معه. ثم جاءت الشرطة بعد ذلك بأشهر، لتقول إنه قتل شخصاً في نفس الوقت الذي كنا نقف فيه بجواره وعلى بعد أميال من منزله الذي كنا فيه معه. ثم يأخذونه بعيداً، عندها تعلم أنها كذبة»

بدت الآن وكأنها تكافح للتحدث، حيث كانت يديها ترتعش وصوتها يضيع في عاصفة مشاعرها حتى أن كلماتها بالكاد خرجت من حنجرتها:

- «كنا معه طوال اليوم! ماذا يفترض بنا أن نفعل يا سيد ستيفنسون؟ أخبرنا، ماذا يفترض بنا أن نفعل بهذا؟» طغى الألم على ملامح وجهها.

- «أشعر أنني مدانة أيضاً». رد الحشد الصغير على كل تصريح بهتافات:

- «نعم!»

- «هذا صحيح!»

- «أشعر أنهم فعلوا ذلك بي ووضعوني في وحدة الإعدام أيضاً. يا إلهي كيف نشعر هؤلاء الأطفال بالأمان؟ كيف سنعلمهم الابتعاد عن الأذى؟ إذا كان الإنسان لا يستطيع حماية نفسه من الأذى، حتى عندما يكون في منزله الخاص ويقوم بعمله الخاص ويحيط به جميع أفراد أسرته، و رغم كل هذا يلقي اللوم عليه في جريمة قتل لا علاقة له بها ويرسلونه ببساطة للإعدام كما لو كان مجرد ذبابة؟»

جلست بينهم على الأريكة المزدحمة، أهدق في وجوههم التي تلونت بالكثير من الألم. لم أكن أتوقع مثل هذا الحضور المكثف عندما وصلت، غير أن جميعهم كانوا يائسين من الحصول على إجابات ويحاولون التوافق مع موقف لا معنى له، بينما كنت أكافح لاختيار كلمات مناسبة لأقولها

عندما تحدثت المرأة الشابة. وقالت:

«ليس بوسع جوني دي أن يفعل هذا بأي شكل من الأشكال، سواء كنا معه أم لا» وقالت ذلك باستخدام الاسم المستعار الذي أطلقتته على والتر عائلته وأصدقائه.
«إنه ليس هكذا».

كانت المرأة الصغرى هي ابنة أخت والتر، التي واصلت نقض فكرة أن والتر يحتاج إلى حجة غياب، والتي يبدو أنها تولد الدعم بين الحشد، ومما أشعرنى بالارتياح لتفادي الضغط للحظة، أن عائلة والتر الكبيرة كانت تتجه نحو نوع من الجدل حول ما إذا كانت شخصية والتر تجعل حجة الغياب غير ضرورية كما أنها مهيبة. . لقد كان ذلك اليوم طويلاً لدرجة أنني لم أعد متأكداً من الوقت، كل ما كنت أعلمه أن الوقت متأخر جداً، وقد بدأت تلك الملابس الرسمية تخنقني، حيث قضيت ساعات مكثفة في انتظار تنفيذ حكم الإعدام، في وقت سابق من اليوم مع مراجعة محاكمة والتر، وقبل لقائي معه، قضيت بعض الوقت مع عملاء جدد آخرين على التوالي، مع أن قضاياهم لم تكن نشطة، ولم تكن هناك مواعيد نهائية قريبة تلوح في الأفق، لكنني لم أرهم منذ إعدام ريتشاردسون وكانوا بحاجة ملحة للحديث.

الآن بعد أن اكتمل سجل قضية والتر، ستبدأ مرافعات الاستئناف قريباً، وبالتالي فقد كان الوقت حرجاً. كان يجب أن أعود إلى مونتغمري مباشرة من السجن، لكن رغبة عائلة والتر في مقابلتي غيرت خططي، واتجهت إلى مونرو فيل فقد وعدتهم بذلك بما أنهم على بعد ما يقل عن ساعة من السجن.

كانت زوجة والتر، ميني بيل ماكميلان وابنته جاكى تنتظران بفارغ الصبر عندما وصلت إلى منزل ماكميلان المتداعي في ريببتون، الذي كان على الطريق الرئيسي المؤدي إلى مونرو فيل، حيث أخبرني والتر أنني سأكون بالقرب من منزله عندما أمر بمجموعة من متاجر الخمر على خط المقاطعة بين مقاطعتي كونكوه ومونرو، فمقاطعة مونرو هي «مقاطعة جافة» أي لا يمكن بيع المشروبات الكحولية بها ومن أجل راحة مواطنيها المتعطشين، أنشأت العديد من المتاجر التي تميزت ببيع العبوات الكحولية على الحدود مع مقاطعة كونكوه. كان منزل والتر يقع على بعد أميال قليلة من خط المقاطعة.

عندما دخلت الممر فوجئت بأن المنزل بحاجة إلى ترميم عميق، حيث كان فقر العائلة يترك بصماته على المنزل، فقد دعمت الشرفة الأمامية ثلاث كتل مكدسة من الرماد بشكل غير مستقر تحت الأرضيات الخشبية التي ظهرت عليها علامات التعفن، وكانت ألواح النوافذ الزرقاء بحاجة ماسة إلى الطلاء، فضلاً عن مجموعة من السلالم المؤقتة التي لم تتصل بالهيكل والتي كانت همزة الوصل الوحيدة بالمنزل. كانت العديد من أجزاء السيارات المهجورة والإطارات وقطع الأثاث المكسورة وغيرها من المخلفات تتناثر في أرجاء الساحة.

قبل أن أخرج من سيارتي، قررت أن أرتمي سترتي البالية، على الرغم من أنني لاحظت في وقت سابق أنها تقتقد الأزرار على أكمام السترة.

خرجت ميني من الباب الأمامي واعتذرت عن مظهر الفناء، بينما خطوت بعناية على الشرفة، وقد دعتني إلى الداخل بينما بقيت امرأة في أوائل العشرينات من عمرها خلفها. قالت ميني: «دعني أحضر لك شيئاً لتتناوله، لقد كنت في السجن طوال اليوم».

بدت ميني متعبة ولكنها أظهرت عكس ذلك، تمامًا كما تخيلتها - صبورة وقوية - استنادًا إلى أوصاف والتر وتخميناتي الخاصة من محادثاتنا الهاتفية.

نظرًا لأن الدولة جعلت علاقة والتر مع كارين كيلى جزءًا من قضيته في المحكمة، فقد كانت المحاكمة صعبة للغاية على ميني. لكنها بدت قوية كما هي دومًا.

والتر: «أوه، لا، شكرًا لك. أنا أقدر ذلك، لكن لا بأس. أكلنا أنا والتر بعض الأشياء في ساحة الزيارة».

ميني: «إنهم لا يملكون أي شيء في ساحة السجن سوى رقائق البطاطس والمشروبات الغازية دعني أطهو لك شيئاً جيداً».

والتر: «هذا لطف منك أقدر ذلك، لكنني بخير حقًا، كما أنني أعلم أنك كنت تعملين طوال اليوم أيضًا».

ميني: «حسنًا، نعم لقد كنت في مناوبة طوال اثنتي عشرة ساعة عمل في المصنع. لا يريد هؤلاء الناس سماع أي شيء عن عملك أو مرضك أو أعصابك أو ضيوفك من خارج البلدة وبالتأكيد لا تعنيهم في شيء مشاكل عائلتك».

لم تبدو غاضبة ولم يطغى طعم المرارة على كلماتها، كانت حزينة فقط. اقتربت مني، رفعت ذراعيها برفق، ودفعتني ببطء إلى المنزل، حيث جلسنا على أريكة في غرفة المعيشة المزدحمة. وهناك كدست الكراسي غير المتطابقة مع بعضها، وعلى الأرض تبعثرت ألعاب أطفالها كما تبعثرت حياتها منذ بداية القضية. جلست ميني بالقرب مني، ومالت إلي بينما واصلت التحدث بهدوء:

«يقول لك العاملون أن تكون في العمل، وعليك أن تذهب. أحاول إيصالها إلى الكلية وهذا ليس سهلاً». أشارت إلى ابنتها جاكى، التي نظرت إلى والدتها بتعاطف. مشيت جاكى عبر الغرفة وجلست بالقرب منا. دائماً ما كان والتر وميني يذكران أطفالهما جاكى وجوني و «بوت». كان اسم جاكى متبوعاً دائماً بـ «إنها في الكلية». لقد بدأت أفكر في أن إسمها جاكى «إنها في الكلية» ماكميلان. كان جميع أبنائهم في العشرينات من عمرهم، لكنهم كانوا لا يزالون متواجدين بالقرب لحماية أمهم.

أخبرتهم عن زيارتي لوالتر، ولأن ميني لم تذهب إلى السجن منذ عدة أشهر بدت ممتنةً لأنني أمضيت بعض الوقت هناك. فيما بعد راجعت معهم عملية الاستئناف وتحدثت عن الخطوات التالية في القضية، وبدورهم أكدوا حجة والتر وأخبروني بكل الشائعات المتداولة في المدينة حالياً حول القضية. قالت ميني بشكل قاطع:

«أعتقد أن الرجل العجوز مايلز جاكسون هو من قام بذلك».

قالت جاكى: «أعتقد أنه المالك الجديد، ريك بلير». «الجميع يعرف أنهم وجدوا جلد رجل أبيض تحت أظافر تلك الفتاة حيث قاتلت من قتلها».

قلت وقد حاولت أن أبدو محتالاً: «حسناً، سوف نصل إلى الحقيقة».

لكن مما قرأته في محضر المحاكمة، اعتقد أنه من المستبعد أن تسلمني الشرطة أدلتهم أو تسمح لي برؤية الملفات والمواد التي جمعوها من مسرح الجريمة. حتى في المحضر، بدا ضباط تنفيذ القانون الذين حققوا مع والتر خارجين على القانون، فهم أنفسهم ضباط الشرطة الذين وضعوا والتر في وحدة تنفيذ الإعدام قبل المحاكمة وقبل أن تثبت إدانته بينما كان مجرد معتقلاً، لذلك كنت أخشى ألا يتبعوا المتطلبات القانونية بدقة والتي تقتضي تسليم جميع أدلة البراءة التي يمكن أن تساعدنا في إثبات براءته.

تحدثنا لأكثر من ساعة أو بالأحرى تحدثوا بينما كنت أستمع. يمكنك معرفة مدى الصدمة التي عانوا منها في الثمانية عشر شهراً الماضية، منذ اعتقال والتر في حديثهم الذي كان كل حرف فيه يصرخ بمرارة افتقادهم لوالتر.

قالت ميني: «كانت المحاكمة هي الأسوأ». لقد تجاهلوا ما قلناه لهم عن وجود جوني دي في المنزل، لم يشرح لي أحد لماذا فعلوا ذلك، لماذا فعلوا ذلك؟» نظرت إلي كما لو كانت تأمل بصدق أن أتمكن من إجابتها.

والتر: «لقد شُيدت هذه المحاكمة من الأكاذيب». كنت قلقاً بشأن التعبير عن مثل هذه الآراء القوية لعائلة والتر، لأنني لم أحقق في القضية بما يكفي للتأكد إذا ما كان هناك المزيد من الأدلة لإدانة والتر. لكن قراءة محضر محاكمته أثار غضبي، وتأجج هذا الغضب أكثر وأكثر ليس فقط بسبب الظلم الذي حدث لوالتر، ولكن أيضاً بسبب الطريقة التي أثقل بها المجتمع بأكمله عليه وعلى أسرته، فكل من في مجتمع السود الفقراء الذين تحدثوا معي عن القضية عبروا عن يأسهم المميت. لقد أوقع هذا الواد المقيت للعدالة المجتمع بأسره في بئر اليأس وصعب علي كثيراً أن أكون محايداً.

واصلت «كذبة تلو الأخرى لقد لقموا الناس الكثير من الأكاذيب وأهمها أنه في الوقت الذي بدأت تقول الحقيقة فيه، كان من الأسهل أن تصدق أنك كاذب. يحبطني حتى أن أقرأ هذا في السجل التجريبي، لذا يمكنني أن أتخيل شعورك جميعاً». رن الهاتف، وقفزت جاكى للتجيب عليه. عادت بعد بضع دقائق.

جاكى: «قال إيدي أن الناس بدأوا يشعرون بالقلق. يريدون أن يعرفوا متى سيكون السيد ستفنسون هناك». وقفت ميني وعدلت فستانها وقالت:

ميني: «حسناً، ربما يجب علينا الذهاب إلى هناك الآن، لقد كانوا بانتظارك طوال اليوم».

بدت ميني مرتبكة «عندما ابتسمت» وقالت:

«أوه آسفة، لكنني أخبرت بقية أفراد الأسرة أننا سنحضرك إلى هناك، لأنه من الصعب جدًا العثور على مكان إقامتهم إذا لم تزر المنطقة من قبل، وإخوانه وأبناءهم وأبناء أخته وغيرهم من الناس يريدون مقابلتك». حاولت عدم إظهار المنبه، لكنني كنت قلقًا بشأن الوقت، و تكسنا في سيارتي الكورولا ذات البابين، كما تكدست فيها الأوراق ونسخ المحاكمة وسجلات المحكمة. قالت جاكى مازحةً عندما ابتعدنا:

جاكى: «يجب أن تتفق أموالك على أشياء أخرى».

أجبتها: «نعم، فالدعوى الباهظة الثمن هي أولويتي في الإنفاق هذه الأيام».

قالت ميني مدافعة: «لا أرى عيبًا في بدلتك أو سيارتك»

اتبعت توجيهاتهم على طريق ترابي، طويل متعرج مليء بالمنعطفات المستحيلة عبر منطقة غابات كثيفة، وعندما حل الظلام بنا، انحرف الطريق عبر غابة كثيفة لعدة أميال حتى وصل إلى جسر قصير وضيق بمساحة بالكاد تكفي لسيارة واحدة فقط، و بدت هشة وغير مستقرة، لذلك أبطأت السيارة حتى توقفت.

قالت ميني: «حسنًا، إنها لم تمطر كثيرًا، لذلك تحول هذا الطريق إلى مشكلة حقيقية».

بريان: «ما نوع المشكلة؟» لم أكن أرغب أن أبدو خائفًا، لكننا كنا في وسط اللاشيء وفي ليلة حالكة الظلام، و لم أتمكن من معرفة ما إذا كان مستنقعًا أو خورًا أو نهرًا صغيرًا تحت الجسر. صرخت جاكى: «ستكون على ما يرام. كان الناس يقودون سياراتهم هنا كل يوم»، كان من المخرج للغاية أن أستدير عائداً، لذلك كنت أقود السيارة ببطء عبر الجسر وشعرت بالارتياح عندما وصلنا إلى الجانب الآخر. واصلت السير لمسافة أخرى حتى سمحت الغابة بإفساح المجال للمقطورات وبعض المنازل الصغيرة، وأخيرًا باحت بصر مجتمع كامل مختبئ في أحضان الغابة، بعيدًا عن كل الظلم الذي استشرى في الجانب الآخر من العالم والذي عصف بالكثير من السود لن يكون آخرهم والتر.

صعدنا تلاً حتى وصلنا إلى مقطورة كانت متوجهة في الظلام، تضيئها نيران مشتعلة في برميل في الساحة، حيث كان ستة أو سبعة أطفال صغار يلعبون، لكنهم اندفعوا إلى المقطورة عندما رأوا سيارتنا تسير باتجاههم. عندما خرجنا من السيارة، خرج رجل طويل من المقطورة، تقدم إلينا وعانق ميني وجاكى قبل أن يصافحني.

قال لي: «لقد كانوا بانتظارك»، وأشار بيده إلى المقطورة «أعلم أن لديك الكثير من العمل للقيام به، ولذلك نقدر أنك أتيت لمقابلتنا. أنا جايلز، ابن أخ والتر». قادني جايلز إلى المقطورة وفتح لي الباب لأدخل. كان المنزل الصغير يضيء بأكثر من ثلاثين شخصًا، تخلوا جميعًا عن ثرثرتهم عندما دخلت. شعرت بالدهشة من كم البشر، الذين كانوا يحدقون بنظراتٍ تتم عن التقدير، ثم بدأت وجوهم تضيء بالابتسام لي الواحد تلو الآخر. ليس هذا فقط بل أثار دهشتي، موجة عالية من التصفيق ضربت الغرفة، وحقيقة فقد ذهلت من هذه اللقطة. لم يسبق أن صفق لي أحد لمجرد

حضورى. كان هناك نساء كبيرات في السن وشابات ورجال في سن والتر، والعديد من الرجال الأكبر سناً، والذين جعدت وجوههم أصابع القلق .

عندما توقف التصفيق، بدأت أتكلم:

- «شكراً لكم، هذا لطيف جداً»، بدأت. «كم يسعدني أن ألتقي بكم جميعاً، لقد أخبرني السيد مكميلان أن لديه عائلة كبيرة، لكنني لم أتوقع أن يكون الكثير منكم هنا، رأيته اليوم وأوصاني أن أنقل شكره وامتنانه لكم جميعاً على تمسككم به. أتمنى أن تعرفوا كم يعني دعمكم بالنسبة له. عليه أن يستيقظ في سجن تنفيذ الإعدام كل صباح، وهذا ليس بالأمر السهل، لكن ما يهون عليه أنه يعلم بأنه ليس وحده، فهو يتحدث عنكم طوال الوقت».

صاح أحدهم: «اجلس يا سيد ستيفنسون». جلست على أريكة فارغة يبدو أنها مخصصة لي وجلست ميني بجانبى. وقف الجميع يواجهنى.

- «ليس لدينا أي أموال».

نادى أحد الرجال : «أعطينا كل ما نملك للمحامي الأول».

برايان: «أفهم ذلك، ولن أتقاضى فلساً واحداً. فأنا أعمل في مكتب محاماة تطوعي، ونقدم المساعدة القانونية مجاناً للأشخاص الذين نمثلهم.

سألت شابة : «حسناً، كيف تدفع الفواتير؟». ضحك الناس على السؤال.

برايان: «نحصل على تبرعات من المؤسسات والأشخاص الذين يدعمون عملنا». قالت امرأة أخرى بمكر: «حسناً، إذا أعدت جوني دي إلى المنزل، وسأقدم كل أنواع التبرعات». ضحك الناس وابتسمت.

تحدثت أرميليا هاند وهي الأكبر سناً: «ليس لدينا الكثير، سيد ستيفنسون ولكننا نضع بين يديك و في رعايتك شخص نحبه و كل ما نملك طوع أمرك»، تهتدت بحرقة ثم أكملت:

« لقد حطم هؤلاء الناس قلوبنا».

بدأت أجيب على أسئلتهم وأستمع إلى تعليقاتهم وشهاداتهم حول والتر والمدينة والعرق والشرطة والمحكمة والطريقة، التي بات يعامل بها أفراد العائلة من قبل المجتمع. بمرور الساعات، كان التعب قد نال مني وعلمت أنني ربما فقدت بعض المعلومات المفيدة التي يمكن الحصول عليها من عائلة والتر، و مع ذلك استمروا بالانصياع لرغبتهم الملحة في التحدث. فمن الواضح أن حديثهم معي عن مخاوفهم له مفعول السحر في علاج ما يشعرون به من قلق. وبعد حديثنا بفترة بدأت ألاحظ ملامح بعض الأمل في أسئلتهم وتعليقاتهم، وهذا شجعتني كثيراً فشرحت لهم خلال حديثي عملية الاستئناف وتحدثت عن نوع القضايا التي ظهرت بالفعل من السجل....ثم بدأنا بالمزاح، وشعرت من جلوسي بينهم باحتضانهم لي ومودتهم وهذا جعلني أشعر بنشاط وعزيمة.

أعطتني امرأة مسنة كوباً كبيراً من الشاي المثلج الحلو، حيث جلست هناك أستمع وأجيب على

أسئلتهم. شربت الكأس الأول بانفعال لأنني كنت عطشاً قليلاً (كان الشاي جيداً جداً). راقبتني المرأة وأنا أفرغ محتويات الكأس في جوفي الجاف وابتسمت لي برضى كبير ثم ملأت الكأس مرة أخرى بسرعة، وبغض النظر عن الكمية التي شربتها سواء قلت أو كثرت، فقد ظلت تراقب كأسى طوال المساء، و بعد أكثر من ثلاث ساعات، أمسكت ميني بيدي وأعلنت للجميع أنهم يجب أن يسمحوا لي بالرحيل، حيث كانت الساعة قد اقتربت من منتصف الليل، و الوصول إلى مونتغمري يستغرق ساعتين، فودعتهم وعانقت جميع من في الغرفة تقريباً قبل اختفائي في أحضان الليل المظلم.

نادرًا ما يكون شهر ديسمبر باردًا في جنوب ألاباما خلال النهار، ولكن في الليل يمكن أن تنخفض درجات الحرارة، في محاولة مثيرة من الشتاء لإثبات وجوده، حتى في الجنوب. لم أكن أرثدي معطف، ففمت بإشعال نظام التدفئة في السيارة لأشعر بالدفيء طوال الرحلة الطويلة بالسيارة إلى المنزل بعدما أوصلت ميني وجاكي إلى منزلهما. كان اللقاء مع العائلة ملهماً، فمن الواضح أن هناك الكثير من الأشخاص الذين يهتمون بصدق بوالتر وبالتالي يهتمون بما أفعله وكيف يمكنني مساعدته. ولكن كان من الواضح أيضاً أن الجميع صدموا بما حدث مع والتر، وما لفتني حقاً أن العديد من الأشخاص الذين قابلتهم لم يكونوا على صلة وطيدة بوالتر ولكنهم كانوا في منزله يوم قلي السمك عند وقوع الجريمة و قد انزعجوا بشدة لإيمانهم ببراءة والتر لذلك جاءوا عندما سمعوا أنني قادم، فقد كانوا بحاجة ماسة إلى مكان للتعبير عن صدمتهم وارتباكهم مما حدث.

في عام ١٩٠٣ أدرج دي بـويس في عمله الأساسي، (The Souls of Black Folk) وهي قصة قصيرة رائعة ولكنها مؤرقة، وقضيت طريق عودتي أفكر في (مجيء يوحنا)

وهي قصة دو بوا، التي تحكي عن شاب أسود في ساحل جورجيا يرسل على بعد مئات الأميال إلى مدرسة لتدريب المعلمين السود، حيث قرر مجتمع جون أن يستثمر فيه حتى يتمكن من العودة وتعليم الأطفال الأمريكيين من أصل أفريقي، والذين يُمنعون من الذهاب إلى المدرسة العامة. فيقوم المجتمع الأسود بأكمله حيث ولد بجمع الأموال لتعليمه، إلا أن جون يهرب تقريباً من مدرسته الجديدة، لكن في لحظة يفكر في الثقة التي منحه إياه أهله وخيبة أملهم والعار الذي سيلحقه إذا عاد دن تخرج. وعندها يعود إلى رشده ويصب كامل تركيزه على دراسته ويلتزم بها بشدة، فيحصد النجاح الذي حلم به هو وجميع أبناء بلده ليتخرج بمرتبة الشرف ويعود إلى مجتمعه عازماً على تغيير الأشياء.

عندما عاد جون إلى جورجيا أقنع القاضي الأبيض الذي يسيطر على المدينة بالسماح له بفتح مدرسة للأطفال السود، حيث كان تعليمه إحدى نقاط قوته، ولكن جون كانت له آراءه القوية حول الحرية العنصرية والمساواة التي وضعته ومجتمع السود في ورطة لا يحسدوا عليه. أغلق القاضي المدرسة عندما علم بما كان يعلمه جون للأطفال. عاد جون إلى المنزل بعد إغلاق المدرسة وقد أصابه الإحباط والذهول، وفي طريق عودته إلى المنزل، رأى ابن القاضي يتحرش بأخته الشيء الذي ولد عنده ردة فعل عنيفة، فضرب الرجل على رأسه بقطعة من الخشب، ثم أكمل جون طريقه إلى منزله ليودع والدته.

ينهي دوبويس القصة المأساوية عندما يلحق القاضي الغاضب بجون مع حشدٍ من الغوغاء الذين جمعهم ويحكم عليه بالإعدام.

قرأت القصة عدة مرات عندما كنت في الكلية لأنني اشتريت مع جون في كونه أمل مجتمَع بأكمله، فلم يتخرج أي من أوالي أو أعمامي من الكلية، كما أن الكثير منهم لم يتخرجوا حتى من المدرسة الثانوية، ولطالما شجعتي الناس في كنيسة دون أن يطلبوا مني شيئاً في المقابل لكنني شعرت بما كانوا يعانونه من تراكم الديون. أدرك دوبويس هذه الديناميكية بعمق وأعادها للحياة بطريقة أبهرتني تماماً. (كنت أتمنى أن يقف التشابه بين حكايتي وحكاية جون إلى هذا الحد، وألا يصل التشابه بيننا إلى نفس النهاية.)

في تلك الليلة وأثناء عودتي بعد لقاء عائلة والتر، فكرت في القصة بطريقة جديدة تماماً، حيث لم يسبق لي أن فكرت في مدى الدمار الذي حل بمشاعر مجتمَع جون بعد إعدامه فالأمور ستصبح أكثر صعوبة بالنسبة للأشخاص الذين قدموا كل ما لديهم للمساعدة في جعل جون مدرساً، أما بالنسبة لمجتمَع السود الناجي، فستزيد العقبات أمام الفرص وسيتعرقل التقدم ولا يمكن تجاهل وجع القلب، لم يحقق تعليم جون أحلامهم بالتحليق في عالم الحرية والتقدم بل دُفِنوا في غياهب العنف والمأساة، مما سيولد المزيد من الشك و العداء و الظلم.

كانت عائلة والتر ومعظم السود الفقراء في مجتمعه مثقلين بنفس الهموم بسبب إدانة والتر فحتى لو لم يكونوا في منزله يوم الجريمة، فإن معظم السود في مونرو فيل كانوا يعرفون شخصاً كان مع والتر في ذلك اليوم. كان الألم في تلك المقطورة ملموساً لدرجة أنني شعرت به، حتى أن المجتمَع الأسود بدا يائساً من أي أمل في العدالة. لقد زاد إدراكي لهذا الموقف من قلقي إلا أنه لم يقلل من عزمي.

لقد اعتدت على تلقي مكالمات من أشخاص كثر بخصوص قضية والتر. كان معظمهم فقراء وسود، حيث قاموا بتشجيعي ودعمي، وقد ولدت زيارتي مع العائلة المزيد من تلك المكالمات. ولكن هذه المرة جاء الاتصال من شخص أبيض، اسمه سام كروك كان والتر يعمل معه، ليدعنا وفي اتصال سام أصر على المجيء لرؤيته في المرة القادمة التي يعود فيها إلى البلدة. قال في نهاية المكالمة:

«أنا متمرد»، فأنا جزء من أفراد الفرقة ١١٧ من الجيش الكونفدرالي، سيدي المحترم لقد كان شعبي أبطال الكونفدرالية و قد ورثت أرضهم ولقبهم وكبريائهم، أنا أحب هذه المقاطعة لكنني أعرف أن اتهام والتر مكميلان باطلاً».

برايان: «حسناً، أنا أشكرك وأقدر اتصالك».

سام: «ستحتاج إلى بعض الدعم، شخص يعرف هؤلاء الأشخاص الذين تعارضهم، وأنا سأساعدك».

برايان: «سأكون ممتناً جداً لمساعدتك».

سام: «سأخبرك بشيء آخر». أخفض صوته. «هل تعتقد أن هاتفك مراقب؟»

بريان: «لا يا سيدي، أعتقد أن هاتفني نظيف». ارتفع صوته من جديد: «حسنًا، لقد قررت ألا أدعهم يربطونه بذلك الكرسي اللعين.. سوف أحضر بعض الرجال، ونقطع أغلاله لن أسمح لهم بأخذه حتى لو اختطفته، فأنا لن أقف مكتوف الأيدي وهم يعاقبون رجلاً صالحاً على شيء أعرف أنه لم يفعله». تحدث سام كروك في الإعلانات الكبرى. لقد ترددت في كيفية الرد: «حسنًا... شكرا لكم» كان هذا كل ما يمكنني قوله.

عندما سألت والتر في وقت لاحق عن سام كروك، ابتسم للتر، وأجاب:

«لقد أنجزت له الكثير من العمل. وكان جيدًا معي، وهو شخص مثير للاهتمام للغاية».

كنت أرى والتر كل أسبوعين تقريبًا في الأشهر القليلة الأولى، وتعلمت بعض عاداته. كان مصطلح (مثير للاهتمام) هو تعبير لفظي خاص بالتر لوصف الأشخاص الغربيين، ونظرًا لأنه عمل مع مئات الأشخاص في جميع أنحاء المقاطعة على مر السنين، مر عليه العديد من الأشخاص (المثيرين للاهتمام)، وكلما زاد الشخص غرابية، أصبح أكثر (إثارة) في لغة والتر، فمثلاً هناك (مثير للاهتمام للغاية) و (مثيرة للاهتمام حقًا) وأخيرًا (الآن)، إنه مثير للاهتمام) كانت هناك علامات تميز الشخصيات الغربية. دائماً ما كان والتر يتردد في قول أي شيء سيئ عن أي شخص، و كان يكتفي بالضحك إذا اعتقد أن شخصاً ما غريب.

لاحظت أن والتر أصبح أكثر استرخاءً خلال زيارتي له، وأن المسافة بيننا قلت حتى أصبحنا نشعر براحة أكبر عندما نكون مع بعضنا البعض، حيث كان ينحرف بنا الحديث في بعض الأحيان لمواضيع لا علاقة لها بالقضية. تحدثنا عن حراس السجن وخبراته في التعامل مع السجناء الآخرين، و تحدث عن أناس في الوطن كان يعتقد أنهم سيزورونه لكنهم خالفوا توقعاته و لم يرههم، وقد كان متعاطفًا جداً خلال تلك المحادثات، كما قضى الكثير من الوقت في تخيل ما يفكر فيه الآخرون وما يشعر أنه قد يغير من سلوكهم، حتى أنه خمن كم الإحباط الذي سيشعر به الحراس كونهم مضطرين لتبرير كل الأشياء الوقحة التي قالوها له، كذلك كان يدرك جيداً مدى صعوبة زيارة شخص ينتظر تنفيذ حكم الإعدام فيه.

تحدثنا عن الطعام الذي يعجبه والوظائف التي عمل بها عندما كان أصغر سنًا. تحدثنا عن العرق والسلطة، وعن أسياء أضحكنا وأخرى أحرزنا، مجرد إجراء محادثة عادية مع شخص لم يكن من ضمن الواقفين في طابور الإعدام أو من الحراس جعله يشعر بتحسن، وكنت دائماً أقضي معه وقتاً إضافياً للحديث عن أشياء لا علاقة لها بالقضية، ليس من أجله فقط ولكن من أجلي أنا أيضاً. كنت أحاول جاهداً إخراج المشروع إلى أرض الواقع حتى أصبح عملي حياتي، حتى أنني كنت أشعر بانتعاش في اللحظات التي قضيتها مع العملاء عندما لم يكن تواصلنا مع بعضنا البعض مقتصرًا على كوننا محام وعميل إنما كأصدقاء. أصبحت قضية والتر الأكثر تعقيداً واستهلاكاً للوقت بين كل القضايا التي عملت عليها، وكان قضاء الوقت معه مريحاً على الرغم من أنني شعرت بالضغط من جراء سوء معاملته الذي أصبح شخصياً أكثر فأكثر، وقد قال لي ذات مرة:

«يا رجل، كل هؤلاء الرجال يتحدثون عن كيفية تعاملك مع قضاياهم. لا يجب أن ترضى بأي حل سلمي».

بريان: «حسنًا، الجميع هنا بحاجة للمساعدة، لذلك نحن نحاول».

نظر إلي نظرة غريبة لم أرها من قبل. أعتقد أنه لم يكن متأكدًا مما إذا كان بإمكانه أن يقدم لي النصيحة، فهو لم يفعل ذلك بعد. أخيرًا، بدا أنه قال ما كان يفكر به.

والتر: «حسنًا، أنت تعرف أنه لا يمكنك مساعدة الجميع»، نظر إلي بجدية، وأكمل «ستقتل نفسك إذا حاولت القيام بذلك». استمر في النظر إلي بقلق. ابتسمت، وقال هو:

«أنا أعلم، أعني عليك مساعدتي». أكمل مبتسمًا:

«لا يجب أن تتراجع عن قضيتي، فأنا أتوقع منك أن تقاوم جميع القادمين لإخراجي من هنا. اقتلهم جميعًا، وإذا لزم الأمر قف أمام العمالقة، اذبح الوحوش البرية، صارع التماسيح. . وضحك قائلاً:

«لقد كنت أمزح، نعم.. نعم صحيح، وأحضر شخصاً آخر لتولي المعركة في حالة قطع رأسك، لأنني ما زلت بحاجة إلى المساعدة إذا قتلت».

كلما قضيت وقتاً أطول مع والتر، ازدادت قناعاتي بأنه رجل كريم ولطيف وسخي بطبعه. ضمن أحاديثنا المختلفة اعترف ذات مرة بحرية أنه اتخذ قرارات سيئة، لا سيما فيما يتعلق بالنساء ولكنه حاول بكل المقاييس أن يفعل الصواب فيما يتعلق بالأصدقاء والعائلة ومعارف العمل مثل سام كروك. لم أعتبر يوماً أن تمضية الوقت معه ممكن أن تكون مضيعة للوقت أو غير مجدية.

في جميع قضايا عقوبة الإعدام، من المهم قضاء الوقت مع العملاء، فتطوير ثقة العملاء ليس ضرورياً فقط لإدارة تعقيدات التقاضي والتعامل مع ضغوط التنفيذ المحتم، بل إنها أساسية للدعوة الفعالة، فغالباً ما تعتمد حياة العميل على قدرة محاميه على إنشاء سرد للتخفيف يضع في سياقه قرارات المتهم السيئة أو سلوكه العنيف، إلا إن كشف أمور عن خلفية شخص لم يكشفها لأحد من قبل - أشياء من الصعب مناقشتها ولكنها مهمة للغاية- يتطلب الثقة، فليس من السهل على أي شخص أن يصرح بأنه كان ضحية الاعتداء الجنسي على الأطفال أو أنه كان مهملًا أو أن أحد والديه تخلى عنه، فاعترافات بهذه الأهمية لن تأتي بدون نوع من الراحة الذي يولد من تعدد الزيارات التي تستغرق ساعات وساعات. إن الحديث عن الرياضة أو التلفاز أو الثقافة الشعبية أو أي شيء آخر يريد العميل مناقشته هو حجر أساس لبناء علاقة من شأنها تسهيل العمل الفعال، وهو أيضاً ينشئ اتصالات حقيقية مع العملاء وهذا بالتأكيد ما حدث مع والتر.

بعد وقت قصير من زيارتي الأولى لعائلة والتر، تلقيت مكالمة من شاب يدعى دارنيل هيوستن أخبرني أن بإمكانه إثبات براءة والتر. كان صوته يرتجف بعصبية لكنه كان مصمماً على التحدث إلي، لكنه لم يكن يرغب في التحدث عبر الهاتف، لذلك توجهت للقائه بعد ظهر أحد الأيام، في منطقة ريفية في مقاطعة مونرو في الأراضي الزراعية التي كانت عائلته تعمل بها منذ وقت العبودية،

حيث كان يعيش. كان دارنيل شابًا مخلصًا، ويمكنني القول أنه قضى الكثير من الوقت في مناقشة مع نفسه ليقرر إذا كان سيكلمني أم لا.

عندما وصلت إلى منزله، خرج لاستقبالي. كان شابًا أسود في العشرينات من عمره انضم إلى جنون (Jheri curl)، تلك الموضة التي لاحظت بالفعل أنها وصلت إلى مونرو فيل وانتشرت بها وهي؛ عملية شائعة في معالجة الشعر الأسود كيميائيًا ليصبح أكثر مرونة وأسهل في التصميم، فقد رأيت العديد من الرجال السود الصغار والكبار في المدينة، يتبعون هذه الموضة بكل فخر. يتعارض مظهر شعر دارنيل المبهج مع تصرفاته القلقة، فبمجرد جلوسنا، بدأ الكلام في موضوع والتر مباشرة ودون مقدمات فقال:

دارنيل: «سيد ستيفنسون، يمكنني أن أثبت أن والتر مكميلان بريء».

برايان: «حقاً؟»

دارنيل: «بيل هوكس يكذب، لم أكن أعلم أنه متورط في هذه القضية حتى أخبروني أنه جزء من الطريقة التي وضعوا بها والتر ماكميلان في وحدة الإعدام. أولاً، لم أكن أعتقد أن بيل كان يمكن أن يكون جزءاً من هذا، ولكن بعد ذلك اكتشفت أنه شهد أنه قاد سيارة والتر في ذلك اليوم الذي قتلت فيه الفتاة، وهذه كذبة».

برايان: «كيف علمت بذلك؟»

دارنيل: «كنا نعمل معاً طوال ذلك اليوم، فقد كنا نعمل في متجر NAPA لقطع غيار السيارات في نوفمبر الماضي، وأنا أتذكر ذلك السبت عندما قتلت تلك الفتاة لأن سيارات الإسعاف والشرطة كانت تتسابق في الشارع، مشكلة أزمة مرورية استمرت لمدة ثلاثين دقيقة، وما يجعلني أتذكر هذا بشكل جيد، أنني أعمل في المدينة منذ عامين ولم أر شيئاً مثل هذا من قبل»

برايان: «كنت تعمل صباح يوم السبت الذي قتلت فيه روندا موريسون؟»

دارنيل: «نعم سيدي، مع بيل هوكس من حوالي الساعة الثامنة صباحاً إلى أن أغلقنا أبوابنا بعد الغداء وبعد مرور جميع سيارات الإسعاف بمتجرنا، ربما كانت الساعة الحادية عشر تقريباً عندما بدأ إطلاق صافرات الإنذار، و كان بيل يعمل معي على سيارة في المتجر، ولا يوجد هناك سوى مخرج واحد للمتجر، وهو لم يغادر طوال فترة الصباح، فإذا قال أنه قاد سيارته في صباح اليوم الذي قتلت فيه تلك الفتاة، فهو كاذب».

أحد أكثر الأشياء المحبطة بشأن قراءة سجل محاكمة والتر كان أن كذب شهود الولاية - رالف مايرز و بيل هوكس وجو هايتور - كان واضحاً وضوح الشمس، كما أن شهادتهم تقتقر إلى التناقض بشكل مضحك وتفتقر إلى المصدقية تماماً.

رواية مايرز عن دوره في الجريمة - التي تدور حول اختطاف والتر له ليوصله إلى مسرح الجريمة ثم عاد وأنزله في محطة الوقود بعد ارتكاب الجريمة - لم يكن لها أي معنى على الإطلاق.

هوكس، الشاهد الحاسم ضد ماكميلان، لم يكن مقنعًا، حتى أقواله لم تكن محل ثقة - لقد كرر نفس القصة التي أخبر بها الشرطة حول القيادة من أمام محل النظافة وقت الجريمة. كان رده على كل سؤال في استجوابه هو إعادة نفس القصة مرارًا وتكرارًا وهي أنه رأى والتر ماكميلان يخرج من المتجر بحقيبة، ويدخل شاحنته «ذات المحرك المنخفض»، التي يقودها رجل أبيض، و لم يتمكن من الإجابة على أي من أسئلة شست نت، حول ما رآه في ذلك اليوم أو ما كان يفعله في المنطقة وقت وقوع الحادث، بل استمر في تكرار أنه رأى ماكميلان في متجر مواد التنظيف. لكن الولاية بحاجة إلى شهادة هوكس.

كانت خطتي هي الاستئناف الفوري لحكم الإدانة ضد والتر أمام محكمة الاستئناف الجنائية في ألاباما. لم تفعل الولاية الكثير لإثبات ذنب والتر، على أنه لم يكن هناك الكثير من القضايا القانونية للاستئناف، والأدلة ضده كانت غير مقنعة لدرجة أنني كنت أمل أن تلغي المحكمة الإدانة لمجرد أنها استندت على أدلة غير موثوقة. قدمت القضية مرة واحدة للاستئناف المباشر، و عليه لن يتم النظر في أي دليل جديد، فقد انتهى بالفعل وقت تقديم طلب لمحاكمة جديدة في المحكمة الابتدائية - الفرصة الأخيرة لتقديم حقائق جديدة كانت قبل بدء الاستئناف. كان كل من شست نت وبوينتون، محاميا والتر في المحاكمة الأولية، قد قدما طلبًا قبل الانسحاب، ولكن القاضي كي رفض ذلك بسرعة. قال لي دارنيل أنه أخبر محامي والتر السابق بما قاله لي وقد أثاراه في طلب محكمة جديدة، ولكن القاضي لم يأخذ هذه المعلومات بجدية.

في القضايا الكبرى، يتم تقديم طلب لمحاكمة جديدة بشكل روتيني ولكن نادرًا ما تمنح. لكن إذا ادعى المدعى عليه وجود أدلة جديدة، من شأنها أن تؤدي إلى نتيجة مختلفة في القضية - أو تقوض مصداقية المحاكمة - فهناك عادة جلسة استماع. بعد التحدث مع دارنيل، فكرت في إعادة طرح تأكيدات قبل أن تطرح القضية للاستئناف وربما، أقول ربما، نتمكن من إقناع المسؤولين المحليين بالتراجع عن القضية ضد والتر، و قد قدمت اقتراحًا لإعادة النظر في رفض إعادة محاكمة السيد مكميلان، حيث أنني حصلت على إفادة خطية على الفور من دارنيل تفيد أن شهادة هوكس محض كذبة، كما أنني جازفت بالتحدث إلى عدد قليل من المحامين المحليين في محاولة لمعرفة، ما إذا كان المدعي العام الجديد قد يعترف بأن الإدانة بُنيت على أدلة غير موثوقة ويؤيد محاكمة جديدة إذا كان هناك أدلة جديدة مقنعة.

لمح العديد من الأشخاص أن توم تشابمان، المحامي الجديد لمقاطعة مونرو ومحامي الدفاع الجنائي السابق، قد يكون أكثر عدلاً و تعاطفًا مع شخص أدين خطأً من المدعي العام لقرون تيد بيرسون. بعد استمرار بيرسون لفترة طويلة في منصبه، جاء انتخاب تشابمان ليفتح الباب على شيء من عصر جديد. كان تشابمان في الأربعينيات من عمره وتحدث عن تحديث تطبيق القانون في المنطقة، وقد قال البعض إنه كان طموحًا لدرجة أنه يرغب في الترشح لمنصب على مستوى الولاية يومًا ما، واكتشفت أيضًا أنه مثل كارين كيلي في إجراء سابق، أي أنه كان على دراية فعلية بالقضية، وهذا دعا الأمل لمداعبة مخيلتي.

كنت لا أزال أفكر في كيفية المضي قدمًا في قضية والتر عندما اتصل بي دارنيل في مكنتي:

«السيد. ستيفنسون، أنا بحاجة للمساعدة، فقد اعتقلوني هذا الصباح وأخذوني إلى السجن. لقد خرجت للتو بضمانات». «ماذا؟ سألتها ماذا فعلت. قالوا لي إنني متهم بالحنث باليمين» بدا خائفاً.

برايان: «شهادة زور؟ بناءً على ما قلته لمحامي السيد مكميلان قبل عام؟ هل أتوا لمقابلتك أو التحدث معك منذ أن حصلنا على بيانك؟ كان من المفترض أن تخبرني عندما كلموك».

دارنيل: «لا سيدي. لم يتحدث أي منهم معي. لقد أتوا للتو وألقوا القبض علي وقالوا لي إنني أواجه تهمة الحنث باليمين».

لقد علقت مع دارنيل، كنت مصدوماً وغازباً. حيث أنني لم أسمع من قبل بتوجيه الاتهام إلى شخص بتهمة الحنث باليمين دون أي تحقيق أو دليل دامغ لإثبات أن البيان المقدم كاذباً. لكن ما حدث هو أن الشرطة والمدعون اكتشفوا أن دارنيل كان يتحدث إلينا، لذا قرروا معاقبته على ذلك.

بعد بضعة أيام، اتصلت بمحامي المقاطعة الجديد للإعداد لاجتماع. في طريقي إلى مكتبه قررت أن أكون هادئاً ومنحه فرصة لشرح ما يجري، بدلاً من تقديم شكوى غاضبة من جنون اتهام شخص بالحنث باليمين لمجرد أنه ناقض شهادة أحد شهود الولاية. قررت الانتظار إلى ما بعد لقائي معه قبل تقديم مجموعة من الطلبات، و كان هذا أول لقاء لي مع أي شخص له علاقة بمحاكمة والتر، لذلك لم أرغب في البدء باتهام غاضب، فسمحت لنفسني تجاوزاً أن أصدق أن الأشخاص الذين حاكموا والتر كانوا مضللين، أوروبما غير أكفاء، مع أنني كنت أعلم أن بعضهم كان متعصباً ومسيئاً، ولكنني كنت أتمنى أن يتم إعادة توجيههم. اتهام دارنيل كان إشارة مقلقة على أنهم على استعداد لتهديد وترهيب الناس.

تقع محكمة مقاطعة مونرو في قلب وسط مدينة مونرو فيل. قددت سيارتي إلى المدينة، وتركت سيارتي في المواقف، ودخلت المحكمة للبحث عن مكتب المدعي العام للمنطقة، وتذكرت المرة الأخيرة التي كنت فيها في المحكمة قبل شهر، حيث ذهبت إلى مكتب الكاتب لأخذ الملفات وسألتني الموظفة من أين أتيت، وعندما قلت مونتغمري، بدأت في محاضرة حول شهرة مونرو فيل التي جاءت من هاربر لي وروايتها الشهيرة، مازلت أتذكر كيف تحدثت معي الكاتبة.

الكاتبة: «هل قرأت الكتاب؟ إنها قصة رائعة. هذا مكان مشهور لقد حولوا المحكمة القديمة إلى متحف، وعندما صنعوا الفيلم جاء غريغوري بيك إلى هناك. يجب عليك الذهاب إلى هناك والوقوف حيث يقف السيد بيك - أعني، حيث يقف أتيكوس فينش».

ضحكتُ بإثارة، بالرغم من أنني أتخيل أنها قالت الشيء نفسه لكل محام يتجول خارج المدينة، إلا أنها واصلت الحديث بحماس حول القصة حتى أنها وعدت بزيارة المتحف في أقرب وقت ممكن، قد امتنعت عن توضيح أنني كنت مشغولاً للغاية في العمل على قضية رجل أسود بريء كان المجتمع المحلي يحاول إعدامه بعد محاكمة عنصرية حتى النخاع.

خلال هذه الزيارة كنت في حالة ذهنية مختلفة. آخر ما كنت لأهتم به هو قصة خيالية عن العدالة. مشيت عبر المحكمة حتى وجدت مكتب المدعي العام للمنطقة. عرفت عن نفسي للسكرتيرة، التي

نظرت لي بشكل مثير للريبة قبل توجيهي إلى مكتب تشابمان، الذي سار لمصافحتي.
بدأ تشابمان بالقول:

«سيد ستيفنسون، الكثير من الناس يريدون مقابلتك، وقلت لهم على الرحب والسعة لكنني قررت بعد ذلك أنه يجب أن تحدث أنا وأنت فقط». لم يفاجئني هذا الكلام كما أنني لم أستغرب حديث الناس عن محامي والتر الجديد، فقد تحدثت إلى عدد كافٍ من الناس في المجتمع لأعرف أن الناس يريدون مناقشة جهودني نيابة عن والتر. كنت قد خمنت مسبقاً أن القاضي كي قدمني بصورة الرجل المضلل والمتعاس، ببساطة لأنني لم أتخل عن القضية حسب توجيهاته.

كان تشابمان متوسط البنية وذا شعر مجعد ونظارات، توحى بأنه يرحب في الظهور وكأنه قضى عمراً في القراءة والدراسة. قابلت المدعين العامين الذين ارتدوا ملابسهم وكأنهم خارجين مهزومين من معركة طاحنة مع الحياة، وليس كأنهم يديرون مكاتب محاماة من خلف مكاتبهم الأنيقة دون أدنى شعور بغيرهم من البشر وخصوصاً السود الذين كانوا يتعاملون معهم من منطلق أنهم زرافات وهؤلاء السود مجرد ذباب ينغص عيشهم، لكن تشابمان كان مهنيًا ومهذبًا وتقرب مني بأسلوب أنيق ولطيف. لقد كنت مؤمناً بأنه سيعطي صوته فوراً لمخاوف الآخرين، في تطبيق القانون وشجعني في البداية أنه طلب إجراء محادثة صريحة خالية من التشتت والوضعية.

قلت: «حسنًا، أنا أقدر ذلك، ولكنني قلق للغاية بشأن قضية مكملان، لقد قرأت السجل ولأكون صادقاً، لدي شكوك جدية بشأن إدانته وموثوقية هذا الاتهام».

تشابمان: «حسنًا، كانت هذه قضية كبيرة، لا شك في ذلك. أنت تفهم أن ليس لدي أي علاقة بهذا الادعاء، أليس كذلك؟»

برايان: «أجل أتفهم ذلك بالتأكيد».

تشابمان: «كانت هذه واحدة من أفظع الجرائم في تاريخ مقاطعة مونرو، وقد أثار عميلك غضب الكثير من الناس، الذين لا يزالون غاضبين بشدة، ومن وجهة نظرهم لا يمكن لأي سوء يصيب مكمملان أن يكون كافياً ليشفي غليلهم». كانت هذه بداية مخيبة للآمال - بدا أنه مقتنع تماماً بإدانة والتر. ولكن ضغطت عليه.

أجبت: «حسنًا، لقد كانت جريمة فظيعة ومأساوية، لذا فإن غضب المجتمع أمر مفهوم». «لكنه ليس مبرر لإدانة الشخص الخطأ، كما أن معرفة ما إذا كان السيد مكمملان قد ارتكب أي خطأ أم لا هو أمر من اختصاص المحكمة ولا بد أن يظهر من خلال المحاكمة، إلا أنه لا يمكن أن يتحقق إذا كانت المحاكمة ظالمة، أو إذا أدلى الشهود بشهادة زور».

تشابمان: «حسنًا، قد تكون الشخص الوحيد الآن الذي يعتقد أن المحاكمة كانت ظالمة، فكما قلت، لم أشارك في النيابة». كنت أشعر بالإحباط، الذي أشعل قهري وكأنني لهب يتراقص على الجمر، وربما رأي تشابمان أتحرّك في مقعدي، كنت أفكر بعشرات السود الذين قابلتهم و اشتكوا بمرارة من ملاحقة والتر، وبدأت أرى تشابمان إما ساذجاً أو غير مبالي عن قصد أو أسوأ. لقد حاولت أن

أخفي خيبة أمني لكن دون جدوى.

برايان: «أنا لست الشخص الوحيد الذي لديه علامات إستفهام حول هذه القضية، سيد تشابمان. هناك مجتمع كامل من الناس، يزعم بعضهم أنهم كانوا برفقة والتر ماكميلان على بعد أميال من مسرح الجريمة عندما قتلت الفتاة، وأولئك الناس يؤمنون ببراءته، و هناك أشخاص عملوا معه مقتنعون تمامًا بأنه لم يرتكب هذه الجريمة».

أجاب تشابمان: «لقد تحدثت إلى بعض هؤلاء الأشخاص، وليس لديهم سوى آراء لا ترق لأن تكون معلومة، ليس لديهم حقائق. انظر، يمكنني أن أخبرك الآن أنه لا أحد يهتم بإقامة علاقة مع كارين كيلى، إفهم يا سيد ستيفنسون هناك أدلة تشير إلى تورط والتر ماكميلان في هذه الجريمة، ومهمتي هي إثبات هذا الإدانة» لقد أصبح محاججاً، وأخذ صوته بالارتفاع و تحول المظهر الهادئ والفضولي الذي استقبلني به في البداية إلى الغضب والاشمئزاز.

بريان: «حسنًا، لقد اتهمت شخصًا بشهادة زور لتناقض كلامه مع موقف الولاية، فهل تنوي مقاضاة كل من يعترض على الأدلة في هذه القضية؟»

أصبح صوتي الآن يهدر بالطريقة التي أردت تجنبها بالضبط، ولكن موقفه استفزني وأكملت: «إن قانون السوابق القضائية في ألاباما واضح، إنه ينص على أنه لا يمكن تقديم تهمة الحنث باليمين في ظل غياب دليل واضح ومقنع على تقديم بيان كاذب، كما تبدو لائحة الاتهام بالحنث باليمين مصممًا تكتيكيًا لترهب الناس وتثنيهم عن التقدم بأدلة تناقض موقف الولاية. التهم الموجهة إلى السيد هيوستن تبدو غير ملائمة حقًا، سيد تشابمان، ولا يمكن الدفاع عنها قانونيًا».

كنت أعلم أنني ألقي عليه محاضرة وعرفت أن هذا لم يعجبه، لكنني أردت منه أن يعرف أننا لن نتهاون في الدفاع عن والتر وأنا سنفعل هذا بطريقة جادة.

تشابمان: «هل تمثل دارنيل هيوستن الآن أيضًا؟»

برايان: «نعم أمثله».

تشابمان: «حسنًا، إفعل إن كنت تستطيع وإن كنت أظن أن ليس بيدك حيلة، لذلك عليك أن تستعد بقدر استطاعتك للصراع الذي ينتظرك هناك»، ثم تحول صوته من الزمجرة إلى البلطجة:

«لكن لا تقلق، قد أسقطت تهمة الحنث باليمين ضد هيوستن، بعد أن رفض القاضي اقتراحك بإعادة فتح القضية، وبناءً عليه ليس لدي أي مصلحة في متابعة التهم ضد دارنيل هيوستن. لكنني قصدت أن يعرف الناس أن عاقبة الإدلاء بتصريحات كاذبة بشأن هذه القضية، ستكون وخيمة».

في تلك اللحظات وقعت فريسة للحيرة والذهول ولم أسمع شيئاً مما قال، فأجبت:

بريان: «ما الذي تتحدث عنه؟ رفض القاضي اقتراح إعادة النظر؟».

تشابمان: «نعم، لقد رفض القاضي اقتراحك بالفعل، قد لا تكون حصلت على نسختك من أمره، أنه في موبيل الآن، لكن كما تعلم قد تحدث بعض المشكلات في البريد».

حاولت إخفاء دهشتي من حكم المحكمة على الطلب دون حتى السماح بجلسة استماع. سألته: «إذن ليس لديك أي اهتمام بالتحقيق في ما يقوله دارنيل هيوستن حول احتمال أن يكون شاهد الدولة الرئيسي قد يكذب؟»

تشبمان: «رالف مايرز هو الشاهد الرئيسي للدولة»

كان من الواضح أن تشابمان درس القضية وتعمق فيها أكثر مما ادعى في البداية. فقلت: «بدون شهادة هوكس، لن تثبت الإدانة»، أخفضت صوتي:

«وفقاً لنظرية الولاية، يعد مايرز شريكاً، وقانون الولاية يتطلب تأكيد شهادة الشريك المتواطىء، والتي لا يمكن أن تأتي إلا من هوكس، والسيد هيوستن يقول أن هوكس كاذب، مما يجعل شهادته موضع شك ينبغي سماعها مرة أخرى في المحكمة».

كنت أعلم أنني على حق، فقد كان القانون واضحاً جداً بشأن هذه المسألة. لكنني كنت أعلم أيضاً أنني أتحدث إلى شخص لا يبالي بما ينص عليه القانون، كما كنت أعلم أن تشابمان لن يقتنع بما أقوله، لكنني شعرت بالحاجة لقول ذلك على أي حال. وقف تشابمان، أستطيع أن أقول أنه انزعج من محاضرتي والحجج القانونية التي طرحتها، وكنت واثقاً جداً أنه يعتقد أنني أشعر بالضغط.

تشابمان: «يبدو أنه يجب طرح هذه المسألة عند الاستئناف. سيد ستيفنسون، يمكنك إخبار السيد هيوستن بأن التهم الموجهة ضده أسقطت، يمكنني أن أفعل ذلك من أجلكم، لكن الأمر لا يتعلق بذلك».

كانت لهجته الراضية، واستدارته عني ليعطيني ظهره إشارة إلى إنهائه الاجتماع وحرصه على إخراجي من مكتبه. عندما تركت مكتبه كنت محبطاً للغاية. لم يكن تشابمان بغضباً أو عدائي، ومع ذلك كان من الصعب عليّ تقبل لامبالاته تجاه ادعاء براءة ماكميلان. لقد أظهرت لي قراءة السجل أن هناك أشخاصاً على استعداد لتجاهل الأدلة والمنطق والفطرة السليمة لإدانة شخص ما، وطمأننة المجتمع بأن لغز الجريمة اكتشف وأن الجاني عوقب، لكن الحديث وجه لوجه مع شخص ما حول القضية، يجعل التفكير الأرعن يلف ويدور حول تقبل فكرة براءة والتر.

لم يقم تشابمان بملاحقة القضية من البداية، وكنت أمل أنه قد لا يرغب في الدفاع عن شيء مشكوك به، ولكن كان من الواضح أنه توط في هذه الرواية تماماً مثل أي شخص آخر متورط فيها. لقد رأيت الكثير من حالات إساءة استخدام السلطة من قبل، ولكن كان في هذه القضية بالذات شيء مزعج، فالمجتمع بأكمله ضحية ما يجري وليس شخص واحد فقط من المدعى عليهم. لقد رفعت مجموعة من الاقتراحات فقط ليتأكدوا من أننا لن نقف مكتوفي الأيدي بل سنقاتل إذا لم يرفضوا التهم. عندما سرت في الردهة إلى سيارتي، رأيت منشوراً آخر حول الإنتاج التالي لـ قتل الطائر المحاكي، مما صب الوقود على غضبي فأشعله.

بقي دارنيل في المنزل بعد نشر السندات. توقفت عند منزله لمناقشة لقائي مع محامي المقاطعة، شعر بسعادة غامرة لسماع أنهم سيسقطون التهم الموجهة إليه، لكنه لا يزال يرتجف من التجربة

بأكملها، و رغم أنني أوضحت أن ما فعلته به الدولة لم يكن قانوني وأنه يمكننا رفع دعوى مدنية ضدهم، ولكنه لم يكن مهتمًا بذلك، وبصراحة لم أكن أعتقد أن الدعوى المدنية فكرة جيدة لأنها ستتركه عرضة لمزيد من المضايقات، لكنني كرهت أن يعتقد أنني لست مستعدًا للقتال نيابة عنه.

دارنيل: «سيد ستيفنسون، كل ما أردت فعله هو قول الحقيقة. لكنني لا أستطيع أن أذهب إلى السجن، ولأكون صادقًا لقد أخافني هؤلاء الأشخاص».

برايان: « أفهم لكن ما فعلوه غير قانوني وأريدك أن تعرف أنك لم ترتكب أي خطأ، هم من تصرفوا بشكل غير لائق للغاية. إنهم يحاولون تخويفك».

دارنيل : «حسنًا، و قد نجحوا، ما قلته لك صحيح وأنا أقف بجانبه، لكن لا يمكنني جعل هؤلاء الأشخاص يتتبعونني» .برايان : «حسنًا رفض القاضي اقتراحنا، لذا لا يتعين عليك الإدلاء بشهادة أو الحضور إلى المحكمة في هذه المرحلة. دعني أعرف إذا حصلت لك أي مشاكل أخرى معهم أو إذا جاءوا للحديث معك حول هذا الموضوع، ويمكنك إخبار هؤلاء الناس أنني محاميك وإحالتهم إلي، حسنًا؟»

دارنيل : «نعم حسنًا، ولكن هل هذا يعني أنك محامي؟»

برايان : «نعم، سوف أمثلك إذا قام أي شخص بإثارة أي مشاكل حول ما كشفت عنه».

بدا مرتاحًا قليلًا لكنه كان لا يزال ثائرًا جدًا عندما غادرت.

ركبت في سيارتي وقد أدركت أننا نغرق في بحر من الظلم الذي تقذفنا أمواجه مابين مد اليأس و جزر الأمل، فإذا تعرض كل من يحاول مساعدتنا في هذه القضية للتهديد، سيكون من الصعب جدًا إثبات براءة والتر. إذا لم يبطلوا قضيتهم في الاستئناف المباشر، فستكون لدينا فرصة لتقديم عريضة ما بعد الإدانة لاحقًا، وسنحتاج إلى أدلة جديدة وشهود جدد وحقائق جديدة لإثبات براءة والتر، واستنادًا إلى التجربة مع دارنيل، سيكون هذا صعبًا للغاية. قررت ألا أفلق بشأن هذا الأمر الآن وأن أركز انتباهي على الاستئناف. ومع رفض إعادة النظر، كان من المقرر تقديم مذكرة الاستئناف في غضون ثمانية وعشرين يومًا، لكنني لم أكن متأكدًا كم من الوقت قد مضى منذ صدور قرار القاضي، لأنني لم أتلّق أمر القاضي أبدًا.

غادرت إلى المنزل و أنا محبط وقلق، وكنت خلال رحلاتي بين مونرو فيل ومونتغومري قد اعتدت على النظر إلى الأراضي الزراعية الريفية وحقول القطن والريف الجبلي التي كانت تزين جنبات الطريق بألوانها الزاهية وتملاً هوائه بعبق روائحها الزكية التي تشرح الصدر و تفتح القلب للحياة، لكن ماكنت أشعر به من إحباط ويأس، أخذ من الطريق زينتها وعرّى المزارع من أشجارها وسرق من الحقول عبيرها، وكنت دائماً ما أفكر ترا كيف كانت الحياة هنا منذ عقود، لكن هذه المرة لم يكن عليّ أن أتخيل ذلك. إن إدراك دارنيل، أن بإمكانهم فعل كل ما يريدونه به دون عقاب، ولد داخله إحباطاً وحزناً ثبط همته تماماً ومما رأيت أنا أيضاً، استنتجت ببساطة أنه لم يكن هناك التزام بسيادة القانون ولا مساهلة ومع ذلك لم يخجلوا من أنفسهم التي لم تشعر ولو بقليل من العار. ما رأيك

بالقبض على شخص ما لتقديمه أدلة موثوقة تتحدى موثوقية إدانة جريمة قتل؟ وكأنهم يتشاورون في الذهاب للتنزه كلما فكرت في الأمر، ازددت تشوشاً وانتفضت استغزازاً، وكان هذا الواقع المرير حقيقة لا خيال، وكثيراً ما سألت نفسي إذا قاموا باعتقال أشخاص قالوا أشياء غير ملائمة لهم، فماذا سيكون رد فعلهم إذا واجهتهم تحديات أكبر؟

عندما غادرت البلدة، كانت الشمس تودعها وتتركها للظلام الذي هبط عليها عبر المناظر الطبيعية في المقاطعة كما هو الحال منذ قرون. سيعود الناس الآن إلى منازلهم، وسيمرّون من نفس الشوارع ولكنهم لن يسيروا في نفس الطرق، فالبعض سيسيرون في طرق معبدة بالرفاهية ومحفوفة بالدلال ليصلوا إلى منازل مريحة للغاية حيث يمكنهم الاسترخاء ببساطة بهدوء الليل والشعور بالأمان والفخر بمجتمعهم. ولكن البعض الآخر، مثل دارنيل وعائلة والتر سيسيرون في نفس الشوارع أيضاً، إلا أن طريقهم ستكون محفوفة بالظلام ومسورة بالخوف من الغد ومعقدة بالقلق على مصيرهم ومصير من يحبون ليصلوا إلى منازل أقل رفاهية، ولن يرتاحوا بهذه السهولة، فليس لديهم أسرة مرفهة مكسوة بأغطية من حرير ومخدرات من ريش النعام، ليناموا ملاً جفونهم ولن تكون لديهم القدرة ليفخروا بمجتمع لا يشعروا فيه بدفيء الأمان، كما أن الظلمة لا تمثل بالنسبة لهم، الراحة والهدوء بل تجلب قلقاً مألوفاً لهم، وشكاً مليئاً بالحذر، وخوفاً مستمراً قديماً قدم المقاطعة نفسها ؛ الانزعاج الذي طال أمده وثبت أقدامه في نفوسهم يستحق المناقشة ولكنه مرهق للغاية ولن ينسى. قدت السيارة بأسرع ما يمكن، فقد كنت أحاول الفرار من أفكارى وبناتها اللاتي أرهقنني وأتلفن أعصابي.

الفصل السادس

محكوم لا محالة

بريان : «إنه مجرد طفل صغير».

كان الوقت متأخراً، وقد أجبت على الهاتف بعد ساعات لأنه لم يكن هناك شخص غيري في المبنى، لقد أصبحت عادة سيئة، و كانت السيدة الأكبر سنا على الطرف الآخر تتوسل إلي بطريقة تقطع القلب بعد أن وصفت حفيدها، الذي كان قد سجن للتو بتهمة القتل وصفا قويا. السيدة: «إنه في السجن منذ ليلتين، وأنا لا أستطيع الوصول إليه، يا إلهي أنا في فرجينيا، وصحتي ليست على ما يرام، من فضلك قل لي أنك ستفعل شيئا»، وترددت قبل الرد عليها.

كانت الولايات المتحدة واحدة من الدول القليلة التي سمحت بتطبيق عقوبة الإعدام على الأطفال، و يؤسفني القول بأن العديد من عملائي في ألاباما، ينتظرون تنفيذ حكم الإعدام بسبب جرائم اتهموا بارتكابها عندما كانوا في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من العمر ولتسهيل محاكمة الأطفال كبالغين، غيرت العديد من الولايات قوانينها، وكنت ألاحظ أن أعمار عملائي تصبح أصغر فأصغر يوما بعد يوم، فعدد المحكوم عليهم بالإعدام من الأحداث في ألاباما أكثر منه في أي ولاية أو أي دولة أخرى في العالم. لقد عقدت العزم على إدارة وتنظيم الطلب المتزايد على خدماتنا بقبول الحالات الجديدة، فقط إذا كان العميل يواجه الإعدام أو محكوماً عليه رسمياً بالإعدام.

أخبرتني هذه المرأة أن حفيدها كان في الرابعة عشرة فقط، حين أيدت المحكمة العليا تطبيق عقوبة الإعدام على الأحداث في حكم عام ١٩٨٩، و قد منعت المحكمة عقوبة الإعدام للأطفال دون سن الخامسة عشرة قبلها بعام واحد فقط، ومهما كانت المخاطر التي يواجهها هذا الطفل، فلن تصل إلى إرساله إلى سجن الإعدام، كما قد يواجه حفيد هذه السيدة السجن مدى الحياة بدون إفراج مشروط، ورغم العدد الهائل من حالات عقوبة الإعدام على جدول أعمالنا، إلا أنني لم أستطع تجاهل قضيته تماماً.

بينما كنت أفكر في كيفية الرد على مناشدة هذه المرأة، بدأت تتحدث بسرعة، وبهمس: «يا رب، أرجوك ساعدنا. قم بتسخير هذا الرجل واحمنا من أي خيار مهلك. ساعدني في العثور على الكلمات يا رب أرشدني ماذا أقول، يا رب.

لم أكن أرغب في مقاطعة صلاتها، لذلك انتظرت حتى انتهت:

بريان : «سيدتي، لا يمكنني قبول القضية، لكنني سأذهب إلى السجن غداً وأرى حفيديك، سوف أرى ما يمكنني أن أفعله، إلا أننا قد لا نتمكن من تمثيله، لكن دعيني أعرف ما يجري وربما يمكننا مساعدتك في العثور على محام يمكنه مساعدتك». السيدة: «سيد ستيفنسون، أنا ممتنة للغاية».

كنت متعباً ومرهقاً بالفعل من الحالات التي أباشرها وأعاني معها ما تعانيه، خصوصاً مع الأحداث الذين لمست معاناتهم العاطفية بشدة، ومع ذلك كنت بحاجة للذهاب إلى محكمة بالقرب من

المقاطعة حيث كان هذا الصبي محتجزاً، لذا لن يكون التوقف لرؤيته أمراً شاقاً.

في صباح اليوم التالي قدت السيارة لأكثر من ساعة إلى المقاطعة، وعندما وصلت إلى المحكمة، راجعت ملف القضية ووجدت تقريراً مطولاً عن الحادثة، ولأنني كنت محامي التحقق في القضية نيابة عن الأسرة، سمحت لي الكاتبة بقراءة الملف، إلا أنها لم تعد لي نسخة أو تسمح لي بإخراجها من المكتب لأنها تتضمن معلومات عن قضية قاصر. كان مكتب الكاتب صغيراً، لكنه لم يكن مشغولاً بشكل خاص، لذلك جلست على كرسي معدني غير مريح في زاوية ضيقة من الغرفة لقراءة البيان، الذي أكد في الغالب كل ما أخبرتني به الجدة.

كان تشارلي في الرابعة عشر من عمره، و كان وزنه أقل من ١٠٠ رطل وطوله خمسة أقدام فقط، كما لم يكن لديه أي تاريخ إجرامي للأحداث فلا اعتقالات سابقة، أو سوء سلوك في المدرسة، أو جنوح أو مثول أمام المحكمة، على العكس كان طالباً جيداً و قد حصل على عدة شهادات لالتزامه بحضور مثالي في مدرسته، وقد وصفته والدته بأنه «طفل عظيم» كان يفعل دائماً ما تطلبه، لكن تشارلي وبتصرف أهوج منه، أطلق النار على رجل اسمه جورج وقتله.

كان جورج صديق والد تشارلي، التي أشارت إلى أن علاقتهما «خطأ»، فغالباً ما كان جورج يعود إلى المنزل في حالة سكر ويبدأ بالتصرف بعنف، و كانت هناك ثلاث مناسبات في العام والنصف السابقة لليلة إطلاق النار، عندما ضرب جورج والد تشارلي بلا رحمة لدرجة أنها احتاجت إلى علاج طبي، و مع كل هذا لم تترك جورج أبداً و لم تطلب منه الرحيل على الرغم من أنها أخبرت العديد من الأشخاص أنها تعرف أنه يجب عليها أن تفعل ذلك.

في ليلة إطلاق النار، عاد جورج إلى المنزل في حالة سكر شديد، وكان يترنح في وقفته وكأنه أرجوحة فارغة تحركها أبسط نسمة هواء، وعندما وصل كان تشارلي ووالدته يلعبان الورق، وشعرت والد تشارلي أن العاصفة دخلت المنزل مع دخوله حيث صاح جورج: «أين أنت؟»

لحقت والد تشارلي بصوته المترنح إلى المطبخ، و أخبرته أنها وتشارلي كانا يلعبان في المنزل، وكانا قد تجادلا في وقت سابق من المساء لأنها توسلت إليه ألا يخرج، خشية أن يعود إلى المنزل في هذه الحالة من السكر، الآن أخذت تنتظر إليه بغضب عندما رأته واقفاً هناك، و بادلها بنظرة، تفوح ازدراءً واشمئزازاً كما تفوح رائحة الكحول منه، و على حين غرة، لكمها بقوة في وجهها. لم تكن تتوقع أن يضربها بهذه السرعة أو العنف فهو لم يفعل ذلك من قبل. انهارت على الأرض كم لو أن زلزالاً ضرب روحها وكيانها كما زلزل جسدها، وعصف بتشارلي فأثار جنونه.

كان تشارلي يقف خلف والدته ورأى رأسها يصطدم، بعنف ببطولة المطبخ المعدنية أثناء سقوطها. رأى جورج تشارلي يقف هناك ويحدق في وجهه ببرود قبل أن يمر بجانبه نحو غرفة النوم، حيث رآه تشارلي يسقط على السرير كما لو كان ثوراً، خرج لتوه من مصارعة الثيران بينما كانت والد تشارلي مستلقية على الأرض، فاقدة للوعي وتترف بشدة. ركع تشارلي بجانب والدته وحاول وقف النزيف.

كان يوجد على وجهها بعض الدماء، التي انسكبت من جروح قبيحة في مؤخرة رأسها. حاول تشارلي إنعاشها بشكل محموم، ثم بدأ في البكاء، وسأل والدته عما يجب أن يفعله دون جدوى. نهض وأحضر مناديل ورقية ووضعها خلف رأسها لكنه لم يستطع وقف النزيف، فبحث بجنون عن منشفة المطبخ القماشية معتقداً أن ذلك سيعمل بشكل أفضل فوجدها ملفوفة حول قدر على الموقد، وكانت والدته قد طهت البازلاء السوداء على العشاء لأنه كان يحبها، وكانا قد تناولا الطعام معاً قبل أن يلعبا لعبة البينكل، وهي لعبة الورق المفضلة لديه.

قام تشارلي باستبدال المناشف الورقية بمنشفة القماش وذعر مرة أخرى عندما رأى كمية الدم التي نزلتها والدته، وأصبح يستجديها بهدوء لتستيقظ عندما بدا له أنها لا تتنفس، اعتقد أنه يجب أن يتصل بسيارة إسعاف، ولكن الهاتف كان في غرفة النوم مع جورج الذي لم يضرب تشارلي قط، لكنه أخافه بشدة، في مرة سابقة عندما كان طفلاً أصغر سناً، وكان تشارلي يرتعد ويرتجف كلما شعر بالخوف أو الفلق الشديد، وغالباً ما يكون ارتجاعه متبوعاً بنزيف في الأنف.

كان تشارلي يجلس على أرضية المطبخ غارقاً في بركة من دم والدته، الذي بدا وكأنه يغلي من فزعه عليها وعندها بدأ بالارتعاش، وفي غضون ثوان بدأ الدم يتدفق ببطء من أنفه، ودائماً ما كانت والدته تركز للحصول على شيء يعمل على إيقاف نزيف الأنف، لكنها الآن مجرد جسد ملقى على الأرض. مسح الدم من أنفه وركز على حقيقة أنه يجب عليه أن يفعل شيئاً، فتوقف ارتجاعه، وتوقفت معه الحركة التي كانت تضج في جسد والدته التي لم تتحرك لمدة خمس عشرة دقيقة. كان المنزل هادئاً وكأن الحياة ذعرت كما ذعر تشارلي وهربت من هذا المنزل، لكن كان هناك صوت واحد يقد مضجع الموت الذي بدا أنه احتل هذا البيت هو صوت تنفس جورج الذي سرعان ما تحول إلى خوار.

كان تشارلي يضغط بضعفٍ على شعر والدته، على أمل يائس بأن تفتح عينيها، كان الدم مازال ينزف من رأسها حتى روى المنشفة ولون سروال تشارلي باللون الأحمر، اعتقد تشارلي أن الموت يطوف حول والدته أو ربما أخذها بالفعل، وأدرك أن عليه استدعاء سيارة إسعاف فوقف وقد غمره الفلق، ثم شق طريقه بحذر إلى غرفة النوم، ورأى جورج على السرير نائماً وشعر بطفرة من الكراهية لهذا الرجل تحرق قلبه الغض البريء. لم يعجبه يوماً، ولم يفهم أبداً لماذا سمحت له والدته بمشاركته حياتهم التي دمرها.

جورج لم يكن يحب تشارلي أيضاً؛ فنادرا ما كان ودودا مع الصبي، حتى عندما لم يكن في حالة سكر، كان جورج غاضباً طوال الوقت. أخبرته والدته أن جورج يمكن أن يكون لطيفاً، لكن تشارلي لم ير هذا أبداً، وعلم تشارلي من والدته أن زوجة جورج الأولى وطفلها لقيا مصرعهما في حادث سيارة ولهذا السبب كان يشرب كثيراً. أما في الأشهر الثمانية عشر التي عاش فيها جورج معهم، لم يرى تشارلي منه سوى العنف والجدالات الصاخبة والتطاول والكره والتهديدات والاضطراب، ورأى كيف فارقت الابتسامة التي تعود عليها وجه والدته، فأصبحت عصبية وجامدة، والآن ميتة على أرضية المطبخ كما اعتقد.

سار تشارلي إلى الخزانة على الجدار الخلفي لغرفة النوم للوصول إلى الهاتف. كان قد اتصل برقم ٩١١ قبل عام من اليوم، بعد أن ضرب جورج والدته، لكنها في ذلك اليوم وجهته للقيام بذلك وأخبرته بما يقوله، وعندما وصل إلى الهاتف لم يكن يعرف لماذا لم يستقبل أحد اتصاله، لم يستطع أبدًا أن يشرح لماذا لم يعاود الاتصال بل فتح درج خزانة الملابس بدلاً من ذلك، ووضع يده تحت القميص الأبيض المطوي الذي غسلته والدته، وشعر بالمسدس الذي كان يعرفه أن جورج يخفيه هناك. لقد وجده هناك أول مرة عندما قال له جورج إن بإمكانه أن يرتدي أحد قمصان جامعة أوبورن التي أعطاها له، في لفطة رقيقة ونادرة منه لقد كانت صغيرة جدًا بالنسبة لجورج وكبيرة جدًا بالنسبة لتشارلي، ومع ذلك كان ممتنًا لامتلاكها، وفي هذه المرة لم يسحب يده خوفًا كما فعل من قبل، بل التقط المسدس لم يكن قد أطلق من مسدس من قبل، لكنه كان يعلم أنه يستطيع فعل ذلك.

تحول شخير جورج الآن إلى إيقاع كريح بدا كأنه يطرق على رأس تشارلي الذي سار إلى السرير ومد ذراعيه موجهًا البندقية إلى رأس جورج، وبينما كان تشارلي يحوم حوله توقف الشخير وتوقف معه الطرْق على رأس تشارلي، وعادت الشقة لهدوء الموت الذي خيم عليها لحظة سقوط والدته ولم يقطعه سوى شخير جورج، الذي لم يسكته سوى ضغط تشارلي على الزناد، لقد كان صوت إطلاق الرصاص أعلى بكثير مما توقعه تشارلي، و اهتزت البندقية ودفعت تشارلي خطوة إلى الوراء، ففقد توازنه وسقط. نظر إلى جورج وضيق عينيه، كان الأمر مريعًا وبدأ يرتجف مرة أخرى، عندما سمع والدته تنن في المطبخ، لم يصدق أنها كانت على قيد الحياة، ثم ركض إلى الهاتف واتصل برقم ٩١١، وجلس بجانب والدته حتى وصلت الشرطة.

بعد ما عرفت كل هذا، كنت على يقين من أنهم لن يحاكموا تشارلي كشخص بالغ، واصلت قراءة الملف والملاحظات من سجل المحاكمة ولم يعترض المدعي العام على القصة التي رواها تشارلي ووالدته، ولكن عندما واصلت القراءة اكتشفت أن جورج كان ضابط شرطة محليًا، وبالطبع بنى المدعي العام دفاعه ومناقشته حول عظمة جورج وكم أقضت وفاته مضجع أفراد المجتمع.

قال المدعي: «كان جورج ضابط تطبيق قانون خدم بشرف، وإنها لخسارة كبيرة للمقاطعة ومأساة إنسانية أن يقتل شخص صالح مثل جورج بدون رحمة على يد هذا الشاب». وأصر المدعي العام على محاكمة تشارلي كشخص بالغ، كما أعلن أنه ينوي المطالبة بأقصى عقوبة يسمح بها القانون، ووافق القاضي على أن هذه الجريمة هي جريمة قتل مع سبق الإصرار وأنه يجب محاكمة الصبي كشخص بالغ، وعليه فقد نقل تشارلي على الفور إلى سجن المقاطعة للبالغين.

كان سجن المقاطعة الصغير على بعد عبور شارع من المحكمة، ومثل العديد من المجتمعات الجنوبية، بُنيت المحكمة في الساحة التي تميز وسط المدينة، خرجت من المحكمة وعبرت الشارع إلى السجن لرؤية هذا الشاب، وبدأ واضحًا أن السجنانيين لم يستقبلوا الكثير من المحامين من خارج البلدة للزيارات القانونية. نظر النائب المناوب إلي بشكل مثير للريبة قبل أن يأخذني إلى السجن، حيث جلست في غرفة اجتماعات المحامين الصغيرة في انتظار تشارلي، لم أستطع التوقف عن التفكير في كم المأساوية في هذه الحالة فمنذ أن انتهيت من قراءة الملف، وبنات أفكاري الكئيبة لم تتوقف عن التذمر والاعتراضات والنواح إن صح التعبير، ولكن ما أسكتها وأوقف نواحها، دفع

الحارس بطفل صغير إلى غرفة الزيارة، في الواقع تسمرت عيناى عليه واتسعت وكأنها تبحث عن باقي المجرم الذي يريدون محاكمته، فهي لاتصدق ماتراه فقد بدا هذا الصبي قصيراً ونحياً جداً، وخائفاً جداً فهو مجرد طفل في الرابعة عشر، ونظرت إلى السجنان، الذي بدا وكأنه يشاطرني دهشتي من مدى صغر ورعب هذا الطفل، و طلبت منه إزالة الأصفاد وفي بعض الأحيان في سجون كهذه، يرفض الحراس فك قيود السجناء خلال الزيارة القانونية بحجة أن هذا خطر وممنوع، فهم يخشون من عنف المشتبه بهم إذا كانوا منزعجين من شيء ما، وفك القيود سيُصعب عملية إخضاعهم والسيطرة عليهم، لكن هذا الحارس لم يتردد في إزالة الأصفاد عن هذا الطفل قبل مغادرة الغرفة.

جلسنا إلى طاولة خشبية ربما كان طولها أربعة أو ستة أقدام. كان تشارلي يجلس إلى جانب الطاولة، بينما كنت أجلس إلى الجانب الآخر، لقد مرت ثلاثة أيام منذ اعتقاله. بدأت الحديث: «تشارلي أنا اسمي بريان، اتصلت بي جدتك وسألتني إن آتي لزيارتك، فأنا محام وأساعد الأشخاص الذين يقعون في مشاكل أو المتهمين بارتكاب جرائم، وأرغب في مساعدتك».

لم يتواصل تشارلي معي بالعين، لكنني ألقيت عليه نظرة ووجدت أن له وجهاً صغيراً وعينان كبيرتان وجميلتان، أما قصة شعره فقد كانت تلك القصة الشائعة بين الشباب والتي لا تحتاج إلى اهتمام، والتي جعلته يبدو أصغر سناً مما كان عليه، و للوهلة الأولى اعتقدت أنني رأيت وشماً أو رموزاً على رقبته، ولكن عندما نظرت عن كثب، أدركت أنها كدمات.

قلت له: «تشارلي، هل أنت بخير؟»

كان يحدق في يساري بشدة، و ينظر إلى الحائط كما لو أنه رأى شيئاً هناك قد يخرج من هذا المأزق، ربما كان يبحث ثقب يعيد الزمن إلى ما قبل ضغطه على الزناد أو إلى ما قبل أن يضرب جورج والدته وتفقد وعيها، أو ربما قبل ذلك بكثير فلا تتعرف أمه إلى جورج أصلاً. كان مظهره بشكل عام وهو يحدق مثيراً للقلق لدرجة أنني استدرت بالفعل لمعرفة ما إذا كان هناك شيء مثير للاهتمام خلفي، لكنه كان مجرد جدار أصم بلا معالم بلا حياة وبلا ثقب تعيد الزمن إلى الوراء، وكانت النظرة المنفصلة عن الواقع والحزن في وجهه وافتقاره التام للتواصل هي نفس الصفات التي تشارك بها مع الكثير من المراهقين الآخرين الذين عملت معهم وهي وحدها التي أفتعتني أنه كان في الرابعة عشر. جلست وانتظرت طويلاً على أمل أن يعطيني أي رد، لكن بلا جدوى فالغرفة ظلت غارقة في ذاك الصمت الكئيب المزعج. ثم نظر إلى معصميه، وقد لف يده اليمنى حول معصمه الأيسر وتحسس مكان الأصفاد وفرك الأثر الذي تركته قرصة المعدن.

بريان: «تشارلي، أريد أن أتأكد من أنك بخير، لذا أريدك فقط أن تجيب على بعض أسئلتني، حسناً؟»

كنت أعلم أنه يسمعني، فكلما تحدثت كان يرفع رأسه ويستمر في نظراته المُتفرّسة إلى البقعة على الحائط.

-«تشارلي لو كنت مكانك كنت سأشعر بالخوف والقلق حقاً الآن، لكنني أيضاً أريد أن يساعدني

أحد وأنا أود مساعدتك، حسنًا؟»

انتظرت الرد، ولكن لم يكن هناك أي رد وشيك.

- «تشارلي هل يمكنك التحدث؟ أنت بخير؟»

حدّق في الحائط عندما تكلمت ثم عاد للنظر إلى معصميه عندما انتهيت، لكنه لم ينبس ببنت شفة.

- «ليس علينا التحدث عن جورج، فلا داعي للحديث عما حدث، يمكننا التحدث عن ما تريد، هل هناك شيء تريد التحدث عنه؟».

كان يزيد انتظاري أكثر فأكثر بعد كل سؤال، وكنت آمل بشدة أن يقول شيئًا، لكنه لم يفعل. «حسنًا ما رأيك في التحدث عن والدتك؟ اطمئن ستكون بخير لقد تحققت من هذا، فعلى الرغم من أنها لا تستطيع زيارتك، إلا أنها ستكون على ما يرام، لكنها قلقة عليك». اعتقدت أن الحديث عن والدته سيوقظ شيئًا في عيني تشارلي، لكن ذلك لم يحدث فقد بدت عيناه بلا حياة، مما زاد من قلقي بشأن هذا الطفل.

لاحظت أن هناك كرسيًا ثانيًا إلى جانب تشارلي، وأدركت أنه من المفترض أن يجلس المحامون إلى هذا الجانب وأن العملاء إلى الجانب الذي اخترته، حيث لا يوجد سوى كرسي واحد، أي أنني جلست في المكان الخطأ، وأخفضت صوتي وتحدثت بهدوء أكبر.

- «تشارلي، عليك التحدث معي، فأنا لا أستطيع مساعدتك إذا لم تفعل، هل ستقول اسمك؟ قل شيئًا من فضلك» رغم كلما قلته لكنه واصل التحديق في الجدار، فلم يكن أمامي سوى الانتظار ثم وقفت وسرت حول الطاولة، ولكنه لم ينظر إلي بينما كنت أتحرك لكنه أعاد نظره إلى معصمه، و جلست على الكرسي بجانبه وانحنيت لأقول له بهدوء :

«تشارلي، أنا آسف حقًا إذا كنت منزعًا، ولكن أرجوك تحدث معي، لا يمكنني مساعدتك إذا لم نتحدث معي»، واستلقى على كرسيه لأول مرة، وكاد يضع رأسه على الحائط خلفنا. سحبت مقعدي بالقرب منه واتكأت على جهة الحائط المقابلة لي كما فعل بالضبط. وساد بيننا الصمت لفترة طويلة ثم بدأت بقول أشياء سخيفة، لأنني لم أكن أعرف ماذا أفعل.

- «حسنًا، لن تخبرني بما تفكر به لذا أعتقد أنه يجب علي أن أخبرك أنا بما أفكر به. قلت بمرح: «أراهن أنك تعتقد أنك تعرف ما أفكر به، ولكن في الواقع لا يمكنك تخيله حقًا، ربما تعتقد أنني أفكر في القانون أو القاضي أو الشرطة أو لماذا لا يتحدث هذا الشاب معي؟ ولكن حقيقةً ما أفكر فيه هو الطعام. نعم، هذا صحيح، تشارلي - واصلت مضايقته - أفكر في الدجاج المقلي و الكرنب الأخضر المطبوخ مع لحم الديك الرومي والبسكويت الحلو. . . هل سبق لك تناول بسكويت البطاطا الحلوة؟» لكن لم يصدر شيء منه «لم يكن لديك على الإطلاق بسكويت البطاطا الحلوة، وهذا عار» أيضًا لا شيء حتى الآن فواصلت:

- «أفكر في الحصول على سيارة جديدة لأن سيارتي قديمة جدًا». انتظرت، ولكن لا شيء أيضًا -

«تشارلي، من المفترض أن تقول: « كم عمر سيارتك برايان؟ ثم أقول إن سيارتي قديمة جدًا» لم يبتسم أو يستجب أبدًا، واستمر في النظر إلى البقعة على الحائط، وقد جمد الحزن وجهه. -«ما نوع السيارة التي تعتقد أنني يجب أن أحصل عليها؟» لقد مررت بمجموعة من التأملات السخيفة التي لم تسفر عن أي رد فعل من تشارلي. استمر في الاتكاء، ولكن بدا جسده أقل توترًا قليلًا، ولاحظت أن أكتافنا تلامست الآن، وبعد فترة حاولت مرة أخرى.

- «هيا، تشارلي، ما الذي يحدث؟ عليك التحدث معي يا بني»، وبدأت أتكى عليه إلى حد ما بمرح، حتى جلس إلى الأمام قليلًا، ثم شعرت أخيرًا أنه بدأ يميل إلي، فانتهزت الفرصة ووضعت ذراعي حوله، وبدأ على الفور بالارتجاف وزاد ارتجافه قبل أن يتكى علي في النهاية ويبدأ في البكاء، فوضعت رأسي على رأسه وقلت:

«لا بأس، لا بأس». كان ينتحب عندما نطق أخيرًا، ولم يستغرق مني الأمر وقتًا طويلاً لأدرك أنه لم يكن يتحدث عما حدث مع جورج أو مع والدته ولكن عما حدث في السجن.

تشارلي: «لقد أذاني ثلاثة رجال في الليلة الأولى، لقد تحرشوا بي وأجبروني على فعل أش.... وقطعت الدموع المنهمرة على وجهه كلامه، كان صوته عاليًا وأكمل بصوت أنهكه الألم : - «لقد عاودوا في الليلة التالية وألموني كثيرًا»، لقد كانت الهستيريا تسيطر على صوته أكثر فأكثر مع كل كلمة يقولها، ثم نظر في وجهي للمرة الأولى قبل أن يقول:

«لقد كانوا كثيرًا في الليلة الماضية، لا أعرف عددهم، لكنهم أذوني» ... كان يبكي بحرقة حتى إنه وجد صعوبة في إنهاء جملته، ثم تشبث بسترتي بقوة لم أكن أتصور أنه يملكها. أمسكت به وأخبرته بلطف، «سيكون الأمر على ما يرام. سيكون على ما يرام». لم أقم أبدًا بالتمسك بأي شخص يتمسك بي بتلك القوة مثل ذلك الطفل أو يبكي بشدة و لوقت طويل مثلما فعل، لقد كان يتمسك بي وكأنني طوق النجاة الذي سيخرجه من بئر العذاب الذي وقع به، تحولت دموعه إلى شلال من القهر والوجع لن يتوقف أبدًا، وكان انهياره يخنق الكلمات في صدره من شدة التعب والألم ثم يحاول أن يستنشق بعض الهواء ليبدأ مرة أخرى، و قررت أن أحتضنه حتى يشعر بالأمان فيتوقف عن البكاء. وبقينا هكذا حوالي ساعة قبل أن يهدأ ويستعيد أنفاسه التي سلبت منه كما سلبت طفولته وكرامته، ثم وعدته أنني سأحاول إخراجهم من هذا المكان على الفور، كم أمني توشله إلي كي لا أغادر، لكنني أكدت له أنني سأعود، في ذلك اليوم لم نتحدث قط عن الجريمة، وعندما غادرت السجن كان غضبي قد غلب حزني حتى شعرت أن نيران الغضب بداخلي حولتني إلى بركان يثور ويغلي و قد انفجر لتتطلق حممه فتحرق كل ما في العالم من عنصرية وظلم واضطهاد، وظللت أسأل نفسي ، «من هو المسؤول عن هذا؟ بل كيف يمكن أن نسمح بهذا؟» ذهبت مباشرة إلى مكتب مأمور الشرطة داخل السجن وشرحت للمأمور السمين الذي بدا أنه في متوسط العمر، ما قاله لي الطفل وصممت على وضعه فورًا في زنزانة منفردة و محمية بعيداً عن هؤلاء الأوباش، استمع المأمور لي لكن كان واضحًا على وجهه الشرود والتشتت، لكن عندما قلت أنني سأقابل القاضي وافق فوراً على نقل الطفل إلى منطقة محمية، ثم عدت وعبر الشارع رجوعاً إلى المحكمة ووجدت القاضي الذي اتصل بالمدعي.

عندما وصل المدعي العام إلى غرفة القاضي، أخبرتهم أن الطفل تعرض للاعتداء الجنسي والاعتصاب، فاتفقا على نقله إلى مرفق الأحداث القريب خلال الساعات القليلة القادمة.

قررت أن أتولى القضية، ووصلنا في نهاية المطاف إلى تحويل قضية تشارلي إلى محكمة الأحداث، حيث تم الحكم في قضية إطلاق النار باعتبارها جريمة أحداث، مما يعني أنه لن يتم إرسال تشارلي إلى سجن البالغين مرة أخرى، ومن المرجح أن يتم إطلاق سراحه قبل أن يبلغ الثامنة عشرة، أي في غضون بضعة سنوات فقط، ولم أنقطع عن زيارة تشارلي، ورافقته في الوقت الذي تعافى فيه، واتضح لي أنه كان طفلاً ذكياً وحساساً وتعذب بسبب ما فعله وما مر به.

في حديث ألقيناه في الكنيسة بعد ذلك بأشهر، تحدثت عن تشارلي و ما مر به من معاناة ومحنة الأطفال المسجونين. بعد ذلك، اقترب مني زوجان أكبر سناً وأصرّا على مساعدة تشارلي ورغم محاولتي لثني هؤلاء الناس الطيبين عن التفكير في قدرتهم على فعل أي شيء، إلا أنني أعطيتهم بطاقتي وأخبرتهم إن بإمكانهما الاتصال بي في أي وقت، وبصراحة لم أكن أتوقع أن أسمع منهما، ولكنهما خالفا ظني، فقد اتصلا بي في غضون أيام وكنا ماثربين، وفي النهاية اتفقنا على أن يكتبنا رسالة إلى تشارلي ويرسلانها لي لتمريرها إليه، وبالفعل تلقيت الرسالة بعد أسابيع، وقرأتها. كانا رائعين حتى في رسالتهما.

كان السيد والسيدة جينينغز زوجان أبيضان في منتصف العقد السابع من العمر وكانا من مجتمع صغير شمال شرق برمنغهام، كانا طيبين وسخيين ونشطين في كنيستهم الميثودية المتحدة المحلية. لم يفوتا خدمة الأحد أبداً وانجذبا بشكل خاص للأطفال الذين يعانون من أزمات، وقد كانا هادئين في حديثهما ورغم أن الابتسامة لم تغب عن محياهما أبداً إلا أن حزناً عميقاً كان يسكن عينيهما، لكنه لم يخف أصلهما ورحمتهم التي تحكم تصرفاتهما ومظهرهما، فقد كان الحنان الذي يعاملان به بعضهما به ظاهراً للجميع بطريقة يحسدان عليها، فقد كانت أيديهما لا تتفارقا وكثيراً ما يميلان إلى بعضهما. أما ملابسهما فقد كانت مثل ملابس المزارعين كما كانا يملكان عشرة أفدنة من الأرض، حيث يزرعان الخضار ويعيشان ببساطة، وقد كان لديهما حفيداً وحيداً ساعداً في تربيته و كان سبب الحزن الذي لا يفارقهما، فقد انتحر عندما كان في سن المراهقة، بسبب ما عاناه من مشاكل عقلية خلال حياته القصيرة، ورغم ذلك كان طفلاً ذكياً وكان الزوجان يدخران المال لإرساله إلى الكلية وأعربا من خلال رسالتهما عن سعادتهما بإرسال تلك الأموال لتشارلي لمساعدته.

في نهاية المطاف، بدأ تشارلي وهذان الزوجان بالتواصل مع بعضهما البعض من خلال الرسائل، إلى أن جاء اليوم الذي التقى جينينجز تشارلي في مرفق احتجاز الأحداث أخبراني لاحقاً أنهما «أحباه على الفور».

توفيت جدة تشارلي بعد بضعة أشهر من اتصالها الأول بي، وبالنسبة لوالدته فقد كانت لا تزال تكافح بعد مأساة إطلاق النار وسجن تشارلي، أما تشارلي فقد كان متخوفاً من لقاء آل جينينغز لأنه اعتقد أنهم لن يحبوه، لكنه أخبرني بعد مغادرتهم كم يبدو أنهما يهتمان به وكم شعرا بالراحة خلال الوقت الذي قضاه معهما، حتى شعر أن آل جينينجز عائلته.

في وقت مبكر في يوم ما، حاولت تحذيرهما من توقع الكثير من تشارلي بعد الإفراج عنه فقلت لهما

برايان: «كما تعلمان، لقد مر بالكثير ولست متأكدًا من قدرته على الاستمرار كما لو أن شيئًا لم يكن، كما أريدكما أن تفهما أنه قد لا يتمكن من القيام بكل ما تريده منه».

لكنهما لم يتقبلا تحذيراتي قط، لم تكن السيدة جينينغز منفرة أو جدلية إلا فيما ندر، لكنني لاحظت أنها تتأخر إذا قال شخص ما شيئًا لا تقبله تمامًا، وقالت لي :

- «لقد مررنا جميعًا بالكثير يا برايان. وأنا أعلم أن بعضنا كانت معاناته وألمه أكبر من غيره ولكن إذا لم نتوقع ونتأمل الكثير من بعضنا البعض، وإذا لم ندأ جراح بعضنا ونساند من يقع منا حتى يقف على قدميه مرة أخرى، فسنسقط واحد تلو الآخر كما لو كنا حبات عقد منفرط تتناثر في كل مكان حتى نتوه من بعضنا وعندها لن نجد خيطًا يجمعنا مرة أخرى» ساعد آل جينينجز تشارلي في الحصول على شهادة معادلة عامة في الاحتجاز وأصرأ على تمويل تعليمه الجامعي وعندما أطلق سراحه كانوا هناك مع والدته ليأخذوه إلى المنزل.

الفصل السابع

إنكار العدالة

رفضت المحكمة استئناف والتر، وأصدرت محكمة الاستئناف الجنائي في ألاباما حكماً مدمراً بإدانته وإعدامه، وقد قدمت موجزاً مطولاً يوثق عدم كفاية الأدلة ويثير كل ما عرفت من نقص قانوني في المحاكمة. كما احتجبت بعدم موثوقية شهادة مايرز وأنه بموجب قانون ولاية ألاباما لا يمكن للدولة الاعتماد حصرياً على شهادة شريك، كما برهنت على سوء سلوك في النيابة واختيار هيئة تمييزية عنصرية وتغيير غير صحيح للمكان، حتى أنني اعترضت على تجاوز القاضي روبرت إي لي كي لعقوبة السجن مدى الحياة الصادرة عن هيئة المحلفين، على الرغم من أنني أعرف أن اختزال حكم الإعدام إلى السجن مدى الحياة بدون إفراج مشروط على رجل بريء، هو عجز للعدالة عن مجابهة الظلم الذي وأداه بأيدي العنصرية المقيتة، ورغم ذلك رفضت المحكمة كل البراهين التي قدمتها.

لم أكن أعتقد أن القضية ستتحول بهذه الطريقة، ففي المرافعة الشفوية التي سبقت ذلك، كان لدي بقايا أمل، عندما دخلت إلى مبنى ألاباما القضائي الفخم ووقفت في قاعة الاستئناف الكبرى التي كانت في السابق معبداً للماسونية الاسكتلندية، شيد في العشرينيات من القرن الماضي، وقد قاموا بتجديد المبنى لتحويله إلى محكمة كهفية في أربعينيات القرن العشرين، حيث تغطت الأرضيات بقطع رخامية باردة كخطوات كل المظلومين الذين ساروا عليها وميتة كآمالهم بالعدالة المؤودة وسقف مقبب مثير للإعجاب من الخارج لكنه فارغ وبلا قلب من الداخل، وكانت تقف في نهاية شارع ديكستر في مونتغمري، لتطل على كنيسة ديكستر أفينيو المعمدانية التاريخية، من خلال الشارع حيث قام الدكتور مارتن لوتر كينغ جونيور برعايتها خلال مقاطعة مونتغمري للحافلات، وذاك المبنى البعيد هناك هو مبنى الكابيتول، الذي تزين بثلاث لافتات: العلم الأمريكي وعلم ولاية ألاباما الأبيض والأحمر وعلم معركة الكونفدرالية، حيث يعتبر أول مبنى كونفيدرالي تاريخياً.

كانت قاعة محكمة ألاباما للاستئنافات الجنائية في الطابق الثاني وكان رئيس المحكمة هو الحاكم السابق جون باترسون. الذي كان حديث الأخبار الوطنية في الستينيات كخصم شرس للحقوق المدنية والاندماج العنصري. في عام ١٩٥٨، بدعم من كو كلوكس كلان، هزم جورج والاس في انتخابات حاكم ولاية ألاباما. كانت مواقفه من الفصل العنصري أكثر تشدداً من مواقف والاس (الذي بعد أن تعلم درسه، أصبح أشهر من أيد الفصل العنصري في أمريكا حيث عُرف بـ(أخطر عنصري في أمريكا))، فقد أعلن في خطاب تنصيبه عام ١٩٦٣ «أنه يمثل الفصل الآن، الفصل غداً، الفصل إلى الأبد» على بعد مبنى واحد فقط من هذه المحكمة). عندما كان مدعيًا عامًا قبل أن يصبح حاكمًا، منع منظمة باترسون NAACP (وهي منظمة حقوق مدنية للأمريكيين من أصول أفريقية) من العمل في ألاباما ومنع مقاطعة الحقوق المدنية والاحتجاجات في توسكيجي ومونتغمري، وكمحافظ استخدم سلطته لحجب حماية تطبيق القانون لراكبي الحرية - طلاب الكلية من البيض والسود والناشطين الذين سافروا جنوباً في أوائل الستينيات (حيث لم يكن مسموحاً حينها للسود بالجلوس في الحافلات

إلى جانب البيض) لتحدي الفصل في المنشآت العامة اعترافاً بالقوانين الفيدرالية الجديدة، فعندما سافرت حافلة ركاب الحرية عبر ألاباما، تخلت عنها الشرطة، وتعرض الطلاب للضرب وقصفت حافلتهم بدون توفير أي حماية.

مع ذلك، أجبرت نفسي على أن تأمل خيراً، فحدثتها لأقنعها قائلاً: «كان ذلك منذ زمن طويل». و أثناء مرافعتي، كان قضاة المحكمة الخمسة ينظرون إلي بفضول حتى شعرت أنهم يحاولون الوصل إلى أعماقي ثم طرحوا بعض الأسئلة، اخترت تفسير صمتهم على أنه موافقة على ماقلت. كنت أمل أن ألقى دعمهم لسماح مرافعتي، لدرجة أنهم لا يعتقدون أن هناك الكثير لمناقشته ثم جاءت ملاحظة القاضي باترسون الوحيدة بعد انتهاء المرافعة الشفوية، عندما سألت ببطء ولكن بحزم سؤالاً واحداً تردد صده في قاعة المحكمة الفارغة وكأن جدرانها تردده خلفه كالمجاميع التي تقف خلف مؤدي الأوبرا:

- «من أين أنت؟»

كان سؤاله كصفعة على وجهي طرحتي أرضاً وترددت قبل الإجابة!
«أعيش في مونتغمري، سيدي».

لقد كنت أحمق حين أحبطت محاولة عائلة ماكميلان لحضور المرافعة الشفهية، لكنني فعلت ذلك لأنني كنت أعلم أن القضية غامضة إلى حد ما وأنه لن يكون هناك الكثير من النقاش حول الحقائق، كما سيتعين على المؤيدين طلب إجازة من العمل والقيام برحلة طويلة إلى مونتغمري لحضور المرافعة في الصباح الباكر، ونظرًا لأن كل جانب لم يكن أمامه سوى ثلاثين دقيقة لتقديم البراهين وسماح المرافعة، فلم أعتقد أنه يستحق هذا الجهد، إلا أنني عندما جلست بعد المرافعة، ندمت على هذا القرار، فقد كنت سأقدر وجود بعض الوجوه المتعاطفة في قاعة المحكمة ليعرف القضاة بأن هذه القضية مختلفة، ولكن لم يكن هناك أحد. ثم عرض مساعد المدعي العام أدلة الدولة، حيث كان المدعي العام، وليس المدعي العام المحلي، هو من يدير قضايا الاستئناف. وترافع محامي الدولة بأن القضية قضية قتل روتينية وأن عقوبة الإعدام التي حكمت بها المحكمة مناسبة للجرم المرتكب، ورغم كل هذا وبعد المرافعات الشفوية والجدل المتبادل، كان لا يزال لدي أمل في أن تلغي المحكمة الإدانة والحكم لعدم كفاية الأدلة المدعومة بالحقائق الموثوقة، فقانون الولاية يتطلب إثباتاً موثقاً لشهادة شريك في قضية قتل ولم يكن هذا الركن متوفرًا في قضية والتر. اعتقدت أن المحكمة سوف تجد صعوبة في تأكيد الإدانة مع عدم كفاية الأدلة. حسنًا لقد كنت مخطئًا.

قدت سيارتي ذاهبًا إلى السجن لأخبر والتر بما حدث، لكنه لم يقل شيئاً عندما شرحت له الموقف، لكن نظرة غريبة وياأس ارتسمت على وجهه. لقد حاولت تحذيره لاحتمال أن يتحول الحكم إلى السجن بدلاً من الإعدام، لكن اليأس أفقده آماله، فقال بتشاؤم

والتر: «لن يعترفوا أبداً أنهم ارتكبوا خطأ، فهم يعرفون أنني لم أفعل ذلك، إنهم فقط لا يستطيعون الاعتراف بأنهم مخطئون، وأن يبدوا فاشلين وظالمين أمام الجميع».

أجبتة: «لقد بدأنا للتو، لانتقل أمامنا الكثير لننفعه، و سنواجههم». كنت أقول الحقيقة، كنا نستطيع الضغط عليهم، وكانت خطتنا هي أن نطلب من محكمة الاستئناف الجنائي إعادة النظر في قرارها وإذا تبين أن ذلك طريق مسدود، فسوف نسعى إلى المراجعة في المحكمة العليا في ألاباما كما أننا كشفنا المزيد من الأدلة على براءة والتر.

بعد تقديم مذكرة الاستئناف، واصلت التحقيق المكثف في القضية، فإذا لم نتوصل إلى الكثير من الأدلة الجديدة لإثبات براءة والتر، أعتقد أن حكم المحكمة كان سيكون مبهمًا. أخبرت والتر قبل أن أغادر السجن:

«إنهم لا يعرفون ما نعرفه الآن عن براءتك، فبمجرد أن نقدم لهم الأدلة الجديدة، سيفكرون بشكل مختلف»، على الرغم من كل ما حدث بالفعل، إلا أن أمني كان حقيقيًا، ولكن علي الاعتراف بأنني كنت أستخف بما سنواجهه من مقاومة.

تمكنت أخيرًا من تعيين بعض المحامين الإضافيين للمنظمة، الأمر الذي منحني المزيد من الوقت للتحقيق في قضية والتر، وكان مايكل أوكونور أحد الموظفين الجدد، وهو خريج حديث في كلية الحقوق بجامعة بيل ولديه شغف لمساعدة أولئك الذين يواجهون مشاكل أعتقد أن صراعاته الخاصة في وقت سابق من حياته هي ما أجج هذا الشغف، حيث نشأ مايكل وهو ابن مهاجرين أيرلنديين، خارج فيلادلفيا في حي الطبقة العاملة الكادحة، ولكن عندما بدأ أصدقائه في المدرسة الثانوية بتعاطي المخدرات القوية، شاركهم مايكل التجربة، وسرعان ما تطور إلى إدمان الهيروين، الذي حول حياته إلى كابوس من الاعتماد على المخدرات والفوضى الكاملة، مع تزايد خطر الموت بسبب جرعة زائدة، وقضى عدة سنوات في متاهة من الأزمات التي كان يخرج من إحداها ليدخل في الأخرى إلى أن اختطف الموت أحد الأصدقاء المقربين، فكان هذا الموت نقطة تحول في حياته، حيث كان بمثابة صدمة فتحت عينيه وأيقظت عقله ليعود إلى الطريق الصحيح والفضل الكبير لعائلته التي لم تتركه طوال فترة وجع القلب هذه أبدًا، فقد ساعده حتى استقرت حياته وعثر على طريق بناء مستقبله فعاد إلى الكلية، في ولاية بنسلفانيا وهناك اكتشف أن في داخله طالب رائع، ذاكر وتعب حتى تخرج بامتياز مع مرتبة الشرف، ومن ثم أوصلته أوراق اعتماده الأكاديمية إلى كلية الحقوق بجامعة بيل، لكن كانت في قلبه زاوية مظلمة لم تشف بعد من الكسور التي تسببت بها سنوات الضياع تلك. عندما أجريت معه المقابلة الشخصية، كان يعتذر عن تلك الحلقات القاتمة من ماضيه، لكنني اعتقدت أنه مثالي لفريق العمل الذي كنا نعمل على بنائه، و قام بالتسجيل، ثم انتقل إلى مونتغمري، ودون تردد اقترح قضية ماكملان معي، فأمضينا أيامًا في تتبع الأدلة وأجرينا المقابلات مع عشرات الأشخاص ولحقنا بالشائعات الجامحة، وحققنا في النظريات المختلفة، مما زاد قناعتني بضرورة معرفة قاتل روندا موريسون الحقيقي للفوز ببراءة والتر وإطلاق سراحه، وبصرف النظر عن امتناني لمساعدة مايكل التي لا تقدر بثمن في هذا العمل، كنت سعيدًا لأنني أخيرًا وجدت شخصًا ما يشاركني جنون هذه القضية فقد اكتشفت أنها أكثر جنونًا مما كنت أعتقد.

بعد بضعة أشهر من التحقيقات، اكتشفنا أدلة قوية تدعم براءة والتر؛ اكتشفنا أن المأمور تيت دفع لبيل هوكز مقابل شهادته ضد والتر، فقد وجدنا شيكات في السجلات المالية للمقاطعة تظهر ما يقرب

من ٥٠٠٠ دولار في المدفوعات إلى هوكس من أموال المكافآت و «النفقات»، كما كان الأمور تبت قد قام بشراء تذكرة سفر ذهاباً وإياباً لهوكس لمغادرة المقاطعة في وقت المحاكمة تقريباً. كان ينبغي الكشف عن هذه المعلومات لمحاميا والتر قبل المحاكمة ليتمكننا من استخدامها للتشكيك في مصداقية شهادة هوكس.

اكتشفنا أيضاً أنهم أطلقوا سراح هوكس من السجن بعد إعطاء الشرطة تصريحه مباشرة بأنه رأى شاحنة والتر منخفضة المستوى في متجر مواد التنظيف يوم القتل، كما كشفت سجلات المحكمة أن المدعي العام والعمدة والمسؤولون عن المقاطعة، تلقوا بطريقة ما اتهامات من المدينة وغرامات ضد هوكز، على الرغم من عدم وجود سلطة في محاكم المدينة، وبموجب سابقة المحكمة الأمريكية العليا، فإن اتهام هوكس بتهمة وطرده مقابل التعاون مع السلطات، كانت معلومات الدولة ملزمة بالكشف عنها للدفاع لكن، بالطبع لم يفعلوا.

وجدنا الرجل الأبيض الذي كان يدير المتجر في اليوم الذي جاء فيه رالف مايرز لإعطاء الملاحظة لوالتر، وقد حاول والتر إقناع محاميه الأصليين بالتحدث إلى هذا الرجل، لكنهما فشلا في ذلك بينما تمكنا من تتبعه بعد أن وصف والتر موقع المتجر. روى صاحب المتجر ما استحضرتة ذاكرته عن ذلك اليوم فقال: «كان مايرز يبحث عن والتر - لكن كان عليه أن يسألني أي من هؤلاء الرجال السود هو والتر ماكملان؟» وبعد أشهر من الجريمة مازال صاحب المتجر مصراً على أن مايرز لم يرَ والتر ماكملان قبل ذلك اليوم.

عثرت أخت والتر في قبو الكنيسة، على منشورات تروج لفعالية السمك المقلي في منزل والتر، مما أكد أن الفعالية أقيمت في نفس يوم مقتل موريسون، ولسبب ما احتفظ مالك متجر أبيض لم يكن له علاقة بالتر أو عائلته بنسخة من هذا المنشور، وقد أكد أنه حصل عليه قبل جريمة قتل موريسون، كما أننا تتبعنا كلاي كاست، الميكانيكي الأبيض الذي عدل شاحنة والتر وحولها إلى شاحنة ذات مستوى منخفض، وأكد أن العمل قد تم على مدى ستة أشهر بعد مقتل روندا موريسون. وهذا يثبت أن شاحنة ماكملان لم تكن معدلة ولم يكن بها ميزات خاصة، وبالتالي لا يمكن أن تكون الشاحنة التي وصفها مايرز و هوكس في المحاكمة هي نفسها شاحنة والتر.

كنت أشعر بتحسن كبير بشأن التقدم الذي أحرزناه عندما تلقيت مكالمة ستصبح أهم انقطاع في القضية. قال الصوت:

«سيد ستيفنسون، هذا رالف مايرز». أخبرتني السكرتيرة: «أن السيد مايلز على الهاتف» و صدمت قليلاً عندما سمعت صوت رالف مايرز على الطرف الآخر من الخط، وقبل أن أتمالك نفسي، تحدث مرة أخرى:

مايرز: «أعتقد أنك بحاجة للمجيء لرؤيتي». قال بشكل دراماتيكي: «لدي شيء أريد أن أخبرك به». سجن مايرز في سجن سانت كلير الإصلاح في سبرينغفيل ألاباما، وقد خطت و مايكل لمقابلته هناك في غضون ثلاثة أيام.

بدأنا أنا ومايكل بالركض بضعة أميال ليلاً بعد العمل مما ساعدنا في التخلص من الضغط

المتزايد الذي نعانيه خلال أيام العمل الطويلة، حيث يوجد في مونتغمري متنزه جميل يضم مهرجان ألاباما شكسبير، الذي يدعو الكتاب المسرحيين والممثلين المشهود لهم على الصعيد الوطني إلى ألاباما لأداء مسرحيات شكسبير والإنتاج المسرحي الحديث، ويقع المسرح بين مئات الأفدنة من الحدائق المصانة بشكل جميل مع ما تتخلله من البحيرات والبرك، كما يوجد هناك العديد من مسارات الركض. وقد قضينا معظم وقت ذاك المساء في التكهّن بما سيخبرنا به مايرز.

سأل مايكل: «لماذا يتصل بنا مايرز الآن؟ هل يمكنك أن تتخيل مجرد الذهاب إلى قاعة المحكمة و البدء في تأليف قصة تضع رجلاً بريئاً على كرسي الإعدام؟ لست متأكداً من أننا يمكن أن نثق بما يقوله». قلت له: «حسناً، قد تكون على حق، لكنه حصل على الكثير من المساعدة لحبك تلك القصة وتكوين الشهادة، كما لا يمكننا أن ننسى، أنهم وضعوا مايرز أيضاً في وحدة تنفيذ الإعدام لإجباره على الإدلاء بهذه التصريحات. من يعرف؟ قد يكون على اتصال بالولاية الآن، وهذا اللقاء مجرد دسيسة لتضليلنا».

لم أفكر بجدية في هذا الاحتمال حتى جرينا في تلك الليلة. فكرت مرة أخرى كيف كان مايرز مهلهل خلال المحاكمة و قلت لمايكل

برايان: «يجب أن نحرص على عدم الكشف عن أي معلومات لمايرز، فقط نحاول الحصول على ما لديه من معلومات، كما يجب أن نتحدث معه لأنه إذا تخلى عن شهادته في المحاكمة، فإن الولاية لن يكون لديها شيء ضد والتر». اتفقنا على أنه بناءً على أقواله، يمكن لمايرز تغيير كل شيء بالنسبة لنا، فقد حققنا الكثير من التقدم في دحض شهادة بيل هوكس. مع ظهور دارنيل هيوستن والأدلة الجديدة حول حالة شاحنة والتر واكتشاف المساعدة التي قدمت لهوكس من قبل مسؤولي تطبيق القانون، أصبحت شهادته بعيدة كل البعد عن المصادقية. لكن تراجع مايرز عن شهادته سيكون صفقة أكبر بكثير، فاتهامات وشهادة مايرز الغريبة كانت أساس القضية بأكملها وسلاح الولاية الأقوى.

بعد قراءة شهادة مايرز ومراجعة السجلات المتوفرة عنه، كنت أعلم أن خلفيته مأساوية وشخصيته معقدة، وصف والتر وعائلته مايرز بأنه شر خالص لما قاله من أكاذيب خلال المحاكمة، كانت تجربة الكذب الشديد في المحاكمة من قبل شخص لا تعرفه حتى، واحدة من أكثر الأجزاء إثارة للقلق من تجربة والتر، وقد أخبرت والتر عندما اتصل بي في المكتب في اليوم التالي أن مايرز اتصل بنا وطلب مقابلتنا وأنا سنرى ما سيقوله.

حذرني والتر: «انتبه، إنه ثعبان».

سافرت مع مايكل لساعتين إلى سجن الولاية في سبرينغفيل، في مقاطعة سانت كلير، حيث يقع السجن في منطقة ريفية شمال شرق برمنغهام، حيث تبدأ تضاريس ألاباما في التحول إلى صخرية وجبلية، بني السجن وفقاً لأقصى معايير الأمان المتبعة في الآونة الأخيرة حتى أكثر من معايير الأمن المتبعة في هولمان أو دونالدسون، وهي تلك السجون التي يطبق فيها عند مدخل السجن خضعنا أن ومايكل لعملية تفتيش أمني. قال الحارس الذي ربت علينا إنه يعمل في السجن منذ ثلاثة

أشهر، و هذه هي المرة الأولى التي يشهد فيها زيارة قانونية خلال نوبته. وجهنا إلى ممر طويل أدى إلى درج هبط بنا إلى أعماق السجن، ثم دخلنا عبر عدة أبواب معدنية آمنة إلى الغرفة الكبيرة التي كانت بمثابة منطقة الزيارة. كان الأمر نموذجيًّا: حيث يوجد آلات بيع على الجدران الخلفية وطاولات صغيرة مستطيلة حيث يمكن للنزلاء مقابلة أفراد عائلاتهم، على كل حال معرفة تفاصيل المكان لم يكن لها أي أثر في تهدئتنا. وضعنا أنا و مايكل دفاتر الملاحظات خاصتنا وأقلامنا على إحدى الطاولات ثم أخذنا نسير في الغرفة ذهابًا وإيابًا، في انتظار مايرز.

عندما دخل مايرز إلى منطقة الزيارة، فوجئت بالرجل كبير السن الذي أمامي، لقد كان شعره رماديًا بالكامل تقريبًا، مما جعله يبدو ضعيفًا ومنكسرًا، كان أيضًا قصير الهامة يختبئ في جسم أصغر مما توقعته، أيعقل أن هذا هو الرجل الذي تسببت شهادته في كل هذا الألم لوالتر وعائلته؟ والتي جعلتني أكون عنه صورة أكثر جبروت وأكثر ضخامة من الواقع بكثير، و سار باتجاهنا لكنه توقف على مقربة منا عندما رأى مايكل واندفع قائلًا بعصبية مايرز: «من هذا؟ لم تقل لي أنك ستحضر شخص آخر معك.» كان لمايرز لهجة جنوبية ثقيلة، وعند النظر إليه عن قرب تتضح ندوبه بوضوح أكبر، مما جعله يبدو أكثر تعاطفًا من كونه تهديدًا أو شريكًا.

برايان: «هذا مايكل أوكونور. إنه محام في مكنتي يعمل معي في هذه القضية، هو يساعدني فقط في التحقيق في هذه القضية.» مايرز: «حسنًا، أخبرني الناس أنه يمكنني الوثوق بك، لكن هو فإنني لا أعرف أي شيء عنه.»

برايان: «أعدك بأنه إنسان جيد.» نظرت إلى مايكل، الذي كان يحاول أن يبذل قصارى جهده ل يبدو جديرًا بالثقة، قبل أن يعود إلى مايرز.

برايان: «تفضل بالجلوس.» نظر إلى مايكل متشككًا ثم جلس ببطء. كانت خطتي هي محاولة إدخاله في المحادثة بسهولة بإخباره بذلك، نريد الحقيقة فقط.

ولكن قبل أن أتمكن من قول أي شيء، كشف مايرز عن الحقيقة الكاملة لشهادته السابقة. مايرز: «كذبت، كل ما قلته في محاكمة ماكميلان كان كذبًا. إنني لا أستطيع النوم وهذا يؤلمني كثيرًا، لا يمكنني السكوت بعد الآن.»

سألته بحذر: «الشهادة التي قدمتها في المحاكمة ضد والتر ماكميلان كانت كذبة؟» كان قلبي ينبض بقوة أوشكت على كسر ضلوعي، لكنني حاولت البقاء ثابتًا قدر استطاعتي. كنت أخشى أن تقضيني لهفتي و دهشتي مما يقول فيتراجع.

فقال: «كل هذا كان كذبة، استعد فالجنون الذي سأخبرك به سيفجر عقلك، سيد ستيفنسون.»

نظر إلي بتحدٍ كبير قبل أن يتحول إلى مايكل قائلًا:

مايرز: «أنت أيضًا، جيمي كونورز.» لم يستغرق الأمر العديد من المحادثات مع رالف قبل أن يتضح أنه يواجه صعوبة في حفظ الأسماء.

بريان: «سيد مايرز، أنت تعرف أنني لا أريدك أن تجعل هذه الحقيقة حكر علي وحدي، بل أن تقولها في المحكمة أيضًا. فهل ستفعل ذلك؟» كنت متوترا و أحاول دفعه لهذا بسرعة كبيرة، لكن كان يجب أن أكون واضحا، فلم أكن أرغب باعترافات على سبيل الثروة السرية لاتسمن و لاتغني من جوع . اكتسى صوته بالدهشة وهو يقول:

مايرز: «لهذا السبب اتصلت بك». كان متفاجئاً من التشكيك في نواياه ولكنه أكمل:

- «لقد انضمت لصف العلاج الجماعي هنا، و في الصف من المفترض أن تكون صادقاً حقاً، فقد تحدثنا عن الصدق على مدار ثلاثة أشهر، و في الأسبوع الماضي تحدث الجميع عن كل الأشياء السيئة التي حدثت لهم في طفولتهم وكل الأشياء السيئة التي قاموا بها. كان صوت مايرز يزداد قوة كلما استرسل في الحديث:

- «لقد أخبرت المجموعة أخيراً، حسناً يمكنني التغلب على كل أبناء الخطيئة هؤلاء، فقد وضعت رجلاً لعينة على قوائم الانتظار لتنفيذ حكم الإعدام بمنتهى البساطة بينما أضع ساق على أخرى في تلك المحكمة اللعينة و بعد أن أخبرت الجميع في الصف بما فعلته، قالوا لي جميعاً أن علي تصحيح هذا، وهذا ما أحاول القيام به». توقف مرة أخرى ليسمح لي باستيعاب كل الأمور، ثم قال:

مايرز: «مهلا، هل ستشتري لي صودا لعينة، أم سأقضي اليوم بأكمله بالنظر لآلات البيع اللعينة التي تتدفق من قلبي؟» وابتسم لأول مرة منذ أن جلسنا معا، قفز مايكل وذهب ليشترى له مشروباً. مايرز: « جيمي، صودا بالبرتقال، إذا كان لديهم».

وقضينا أكثر من ساعتين، مابين أسئلتني وإجابات مايرز.

في النهاية، علي الاعتراف بأنه أذهلني فعلاً. فقد أخبرنا عما تعرض له من ضغوط من قبل الشريف و ABI وعن تهديده بعقوبة الإعدام إذا لم يشهد ضد ماكميلان وكيف اتهم بالفساد الرسمي، كما تحدث عن تورطه في مقتل بيتمان وكشف عن محاولاته السابقة للتراجع عن شهادته، والأهم من كل هذا، أنه اعترف أخيراً أنه ليست لديه أية معلومات عن جريمة قتل موريسون ولم يكن لديه أي فكرة عما حدث لها ولم تكن له صلة بأي شيء آخر متعلق بتلك الجريمة إطلاقاً، كذلك قال إنه أخبر الكثير من الناس - من المحامي العام و من دونه - أنه أكره على الشهادة زوراً ضد والتر. فكرت إذا كان نصف ما قاله فقط صحيحاً، فهناك الكثير من الأشخاص المتورطين في هذه القضية الذين عرفوا، من فم الشاهد الرئيسي مباشرة، أن والتر ماكميلان ليس له علاقة بقتل روندا موريسون لا من قريب ولا من بعيد.

كان رالف يلقي بمحتويات علبة الصودا الثالثة في جوفه عندما أوقف تدفق اعترافاته، وانحنى إلى الأمام، ليحذرنا بجدية، فتحدث همساً إلي و إلى مايكل قائلاً:

مايرز: «هل تعلمان أنهم سيحاولون قتلكما إذا وصلتما بالفعل إلى أعماق كل تلك الملابس والحقائق؟» سيتضح فيما بعد أن رالف لا يمكن أن ينهي أي اجتماع دون إسقاطات تتم عن البصيرة

الدرامية أو الملاحظة أو التنبؤ، لكنني طمأنته أننا سنكون حذرين.

في طريق العودة إلى مونتغمري، ناقشنا أنا ومايكل إمكانية الوثوق بمايرز، فما قاله لنا عن قضية ماكميلان كان منطقياً. أما قصته في المحاكمة فهي قصة خيالية لا يمكن تصديقها لدرجة أنه كان من السهل تصديق أنه تعرض لضغوط للإدلاء بشهادة زور، لكن في نفس الوقت كان من الصعب تقييم رواية الفساد التي بدا أنه كان ينوي فضحها، حيث زعم أنه ارتكب جريمة قتل فيكي بيتمان بتوجيه من قائد شرطة محلي آخر ثم أفصح عن مؤامرة واسعة النطاق تنتشب ما بين فساد الشرطة وتجارة المخدرات وغسل الأموال.

قضينا الأسابيع التالية في متابعة الأدلة التي قدمها مايرز، الذي اعترف لنا أنه لم يلتق والتر مطلقاً ولم يعرفه إلا من خلال كارين كيلى، وقد أكد أيضاً أنه قضى وقتاً مع كارين كيلى وأنها متورطة في مقتل بيتمان، لذلك قررنا التأكد من القصة من كيلى نفسها لذلك توجهنا إلى سجن توتويلر للنساء، حيث كانت تقضي عقوبة بالسجن لمدة عشر سنوات لمقتل بيتمان، وتوتويلر هو أحد أقدم السجون في الولاية وسجن النساء الوحيد فيها، وفي هذا السجن تفرض قيود أمنية أقل من تلك المفروضة في سجون الرجال، عندما صعدنا أنا ومايكل إلى البوابة، رأينا عدة سجينات يحُمن خارج مدخل السجن دون وجود ضباط. ألقت النساء علي وعلى مايكل نظرات متفحصة قبل أن توجهن لنا التحية بابتسامات غريبة، وفي بهو السجن تعرضنا لضربة سريعة للغاية من قبل ضابط ذكر قبل أن يدخلنا عبر البوابة المحظورة إلى منطقة السجن الرئيسية. طلب منا انتظار كارين كيلى في غرفة صغيرة جداً و فارغة إلا من طاولة مربعة. كانت كيلى امرأة بيضاء نحيفة في منتصف الثلاثينيات من عمرها دخلت إلى الغرفة دون قيود أو أصفاد. بدت مرتاحة بشكل مدهش وهي تصافحني بثقة قبل أن توميء لمايكل، يبدو واضحاً أنها تستعمل مساحيق التجميل فقد غطت جفنيها بظل لامع أخضر اللون وبعدما جلست أعلنت، أن تهمة والتر ملفقة ومحاكمة ضده وأعربت عن امتنانها لتمكنها أخيراً من إخبار شخص ما، عندما بدأنا بأسئلتنا أكدت بسرعة أن مايرز لم يكن يعرف والتر قبل مقتل موريسون.

كارين: «الف أحمق إذ اعتقد أنه يمكن الوثوق برجال الشرطة الفاسدين، وتركهم يورطونه في جريمة لا يعرف عنها شيئاً، لقد ارتكب من السوء مايكفي لتدمير مستقبله لدرجة أنه لم يعد بحاجة إلى القيام بعمل شيء آخر». على الرغم من هدوئها في بداية المقابلة، إلا أنها عندما بدأت في تفصيل الأحداث المحيطة بالقضية ارتجفت يديها واهتز صوتها كأوتار قيثارة تعبت بها أنامل العاطفة التي أربكت روحها، فبكت أكثر من مرة، وكنت أشعر أن الندم يعتصرها ويخنق الحروف التي بالكاد تخرج من بين شفتيها، عندما تحدثت عن حياتها التي خرجت عن السيطرة عندما بدأت بتعاطي المخدرات.

كارين: «أنا لست سيئة، لكنني اتخذت بعض القرارات الحمقاء والسيئة حقاً». أكثر ما ضايقها في كل هذا أن والتر كان في انتظار تنفيذ حكم الإعدام فقالت

كارين: «أشعر أنني السبب في سجنه، فهو ليس من النوع القادر على القتل، أعرف ذلك». ثم

قالت بنبرة مريرة:

«أعرف أنني ارتكبت الكثير من الأخطاء، ولكن يجب أن يخجل هؤلاء الناس، لقد قاموا بنفس الأفعال السيئة التي قمت بها، لقد كان شيء واحد يسيطر على ذهن المأمور تيت، حيث ظل يقول

تيت: «لماذا تريدون النوم مع الزوج؟ لماذا تريدون النوم مع الزوج؟»

كارين: «لقد كان بشعاً، إنه بشع».

توقفت ونظرت إلى يديها، ثم قالت بصوت كسره الحزن:

كارين: «لكنني لا أقل عنه بشاعة، انظر إلى ما فعلته».

بدأت أتلقى رسائل من كارين كيلى بعد زيارتنا لها، لقد أرادت مني أن أخبر والتر عن مدى أسفها لما حدث له وأنها لا تزال تهتم به كثيراً.

لم يكن لدينا تصور عما إذا كان بإمكان كارين مساعدتنا إذا ما حصلنا على جلسة استماع جديدة في المحكمة، بخلاف التأكيد على أن رالف لم يلتق والتر مطلقاً، لقد كان واضحاً أنها تؤمن بأن والتر لا يمكن أن يقتل شخصاً ما بعنف أبداً، وهو ما أجمع عليه كل من يعرفه، لكنها لم تتعاطى مع الشرطة كثيراً حول مقتل موريسون ولم يكن لديها معلومات مفيدة تشير إلى سوء سلوكهم، بصرف النظر عن قدرتها على إظهار كم استفزتهم علاقتها مع والتر.

قررنا أنا ومايكل أن نولي مقتل بيتمان اهتماماً أكبر، لأننا اعتقدنا أن هذه القضية قد تساعدنا في إثبات الضغوط التي تعرض لها ماييرز لأكراهه على الاعتراف ضد ماكملان وقد علمنا الآن، أن ماييرز تراجع عن اتهاماته ضد والتر قبل المحاكمة، وبالتالي فلن تتفاجأ الولاية تماماً عند سماع إنكاره تورط ماكملان في الجريمة، لكننا كنا بحاجة إلى الكثير من الأدلة الموضوعية التي يجب أن نجدها لإثبات صحة ما يقوله ماييرز الآن.

إن فهم قضية بيتمان وتوثيق الأمور الزائفة الأخرى التي أكدها ماييرز من شأنه أن يعزز أدلتنا، فقد نسي الجميع قضية قتل فيكي بيتمان، حيث قام مسؤولو مقاطعة مونرو بتخفيض عقوبات ماييرز وكيلى مقابل شهادة ماييرز ضد والتر، لكن كيف تمكنوا من تخفيض الأحكام في قضية بيتمان، التي كانت خارج نطاق اختصاصهم وفي مقاطعة أخرى، لقد كان هذا شذوذاً آخر، وأصر ماييرز على أن هناك أشخاصاً آخرين متورطين في مقتل بيتمان إلى جانبه وكيلى، بما فيهم مأمور محلي فاسد، ولا تزال هناك العديد من الاستفهامات حول أسباب مقتل فيكي بيتمان، لكن ماييرز أخبرنا أن قتلها كان له علاقة بديون المخدرات وتهديداتها لهم بفضح الفساد، وقد علمنا من بعض تقارير الشرطة السابقة أن والد فيكي بيتمان، فيك بيتمان، تورط هو الآخر كمشتبه به في قتلها، وقد كان لدى فيكي بيتمان عمطان هما موزيل وأونزيل، وكانتا تجمعان المعلومات وتسعيان بشدة للحصول على إجابات للأسئلة المحيطة بوفاة ابنة أخيهما، وقد أبدينا استعداداً للتواصل معهما إذا رغبتا في التحدث معنا، وقد تفاجأنا بحماسهما لذلك.

كانت موزيل وأونزيل شقيقتين توأم، وكانتا أيضًا من المتحدثين الملونين ذوي الآراء الواضحة والتي لا يتورعون عن التعبير عنها بشكل مباشر، وقد أمضت المرأتان المتوسطتان من سكان الريف الأبيض الكثير من الوقت معًا، حتى أنه يمكن لكل منهما أكمل جملة الأخرى دون أن يلاحظا ذلك وقد وصفتا نفسيهما بـ «البلد الصعب»، كما قدمتا نفسيهما على أنهما نساء لا يعرفن الخوف ولا هودة لديهما في الحق ولا أحد يملك ما يمكنه من إخافتهما.

- «فقط ليكن في معلومك: نحن نملك أسلحة، لذلك حاول ألا تجلب أي دراما عندما تأتي». كان هذا آخر تحذير لموزيل قبل أن أغلق الهاتف لإنهاء المحادثة الأولى بيننا، بعد ذلك سافرت أنا ومايكل إلى مقاطعة إسكامبيا الريفية حيث استقبلنا التوائم وقامتا بدعوتنا للجلوس وجلسنا على طاولة المطبخ ولم يضيعا الوقت، فسألت موزيل بصراحة:

موزيل: «هل عميلك من قتل طفلتنا؟»

برايان: «لا يا سيدتي،ؤكد لك بصدق أنه لم يفعل».

موزيل: «هل تعرف من فعل؟»

تتهددت: «حسنًا، ليس تمامًا لقد تحدثنا إلى رالف ماييرز ونعتقد أن وكارين كيلى متورطين، لكن ماييرز يصر على تورط آخرين أيضًا». نظرت موزيل إلى أونزيل وانحنى للخلف. قالت أونزيل: «نحن نعلم أنهما ليسا المتورطين الوحيديين في ارتكاب الجريمة».

أعربت الشقيقتان عن شكوك حول أخيهن وحول تطبيق القانون المحلي، لكنهما اشتكتا من تجاهل المدعي العام وعدم احترامه لهما.

(لم يُتهم فيك بيتمان رسميًّا بتهمة القتل). وقالتا إنهما رفضتا حتى من قبل جماعة حقوق الضحايا في الولاية.

موزيل: «عاملونا كما لو كنا قمامة بيضاء منحنة ولم يهتموا بنا كثيرًا».

كانت موزيل تبدو غاضبة عندما تحدثت

موزيل: «اعتقد أنهم عاملوا الضحايا بشكل أفضل، كما اعتقد أن لدينا ما نقوله».

اشتكى الكثير من ضحايا الجريمة منذ فترة طويلة من سوء معاملة نظام العدالة الجنائية، ولكن بحلول الثمانينيات ظهرت حركة جديدة أدت إلى استجابة أفضل في التعامل مع ضحايا الجريمة وأسره، لكن المشكلة تكمن في عدم تلقي كل ضحايا الجريمة نفس المعاملة.

قبل خمسين سنة، كان المفهوم السائد في نظام العدالة الجنائية الأمريكية هو أن كل فرد في المجتمع هو الضحية عندما يرتكب الجاني جريمة عنيفة، ويُدعى الطرف الذي يحاكم مدعى عليه إجرامي «الولاية» أو «الشعب» أو «الكومنولث» لأنه عندما يُقتل شخص ما أو يُغتصب أو يُسلب أو يُعتدى عليه، فإنه يعتبر الجريمة ضد الجميع، وعلى الرغم من ذلك إلا أن الولايات بدأت في أوائل الثمانينيات بإشراك ضحايا الجرائم الفردية في عمليات المحاكمة فبدأت «بإضفاء الطابع

الشخصي» على ضحايا الجرائم في عرضهم للقضايا، كما سمحت بعض الولايات لأفراد عائلة الضحية بالجلوس إلى طاولة المدعي العام أثناء المحاكمة كما قامت ثلاثون دولة بسن قوانين منحت الضحايا حقوقاً محددة للمشاركة في عملية المحاكمة أو الإدلاء ببيانات تأثير الضحية وفي العديد من الأماكن، بدأ المدعون بتقديم أنفسهم كمحامين يمثلون ضحية معينة، وليس كممثلين للسلطات المدنية.

وقد لقي قرار المحكمة انتقاداً واسع النطاق من قبل بعض المدعين والسياسيين، فقد بدا أنه ينشط حركة حقوق الضحايا وبعد أقل من ثلاث سنوات، ناقضت المحكمة نفسها في قضية باين ضد تينيسي وأيدت حقوق الولاية في إرسال أدلة مسبقة عن شخصية الضحية في محاكمات قضايا الإعدام.

مع إعطاء المحكمة العليا الآن مباركة دستورية لدور أكثر وضوحاً للضحايا الأفراد في عملية المحاكمة الجنائية وحمايتهم، تسارعت التغييرات في عملية العدالة الجنائية الأمريكية، حيث أنفقوا ملايين الدولارات والأموال الفيدرالية لإنشاء مجموعات مناصرة لضحايا الجريمة في كل ولاية، كما وجدت الولايات طرقاً لا حصر لها ليصبح الأفراد ضحايا الجرائم - في جرائم معينة- صناع قرار ومشاركين، وكذلك أضيف المدافعون عن الضحايا إلى مجالس الإفراج المشروط، ومنحتهم معظم الولايات دوراً رسمياً في مكاتب المدعين العامين في الولاية أما على المستوى المحلي فقد أصبحت خدمات الضحايا والتوعية عناصر حاسمة في مهمة الادعاء، حيث جعلت بعض الولايات عمليات الإعدام متاحة لمشاهدتها أهل الضحايا حيث سمحت بزيادة عدد الأشخاص المسموح لهم بمشاهد عمليات الإعدام منهم.

قامت الهيئات التشريعية في الولاية بسن عقوبات جديدة قاسية على الجرائم، وتسمية القوانين بأسماء ضحايا معينين مثل قانون ميغان، الذي وسع سلطة الدولة لإنشاء سجلات مرتكبي الجرائم الجنسية، و سُمي على اسم ميغان كانكا، وهي فتاة عمرها سبع سنوات اغتصبها وقتلها رجل سبق إدانته بالتحرش الجنسي بالأطفال وبدلاً من وجود دولة أو مجتمع مجهولي الهوية، ظهر ضحايا الجرائم في المحاكمات واستولت القضايا الجنائية على ديناميكيات المحاكمات المدنية التقليدية، مما أدى إلى تحريض عائلة الضحية ضد الجاني. غطت الحملات الصحفية الطبيعة الشخصية للنزاع بين الجاني والضحية المحددة، كما ظهرت صيغة جديدة للملاحقة الجنائية لا سيما في القضايا البارزة، حيث برزت عواطف الضحية ووجهات نظرها وآرائها بشكل واضح في كيفية إدارة القضايا الجنائية.

ومع ذلك وكما اكتشف موزيل وأونزيل أصبح التركيز على وضع الضحية طريقة أخرى لنظام العدالة الجنائية لإزعاج بعض الناس، فقد تعرض ضحايا الجريمة من الفقراء والأقليات لمزيد من الإيذاء من قبل النظام نفسه. ظهر قرار المحكمة العليا في باين بعد فترة وجيزة من قرار المحكمة في قضية ماكليسكي ضد كيمب؛ وهي قضية قدمت أدلة تجريبية مقنعة على أن عرق الضحية هو العامل الرئيسي في تحديد المدانين الذين ستوقع عليهم عقوبة الإعدام في الولايات المتحدة، فقد كشفت الدراسة التي أجريت على القضية في جورجيا أن المجرمين هناك كانوا عرضة لعقوبة الإعدام إذا كانت الضحية بيضاء أكثر بإحدى عشرة مرة مما إذا كانت الضحية سوداء. وقد تكررت

هذه النتائج في كل ولاية أخرى حيث أجريت دراسات حول العرق وعقوبة الإعدام.

في ألاباما، وعلى الرغم من أن ٦٥٪ من مجموع ضحايا جرائم القتل كانوا من السود، إلا إن ما يقرب من ٨٠٪ من الأشخاص المحكوم عليهم بالإعدام كانوا متورطين في جرائم ضد ضحايا من البيض. زاد المدعى عليه الأسود وزوج الضحية البيضاء من احتمال توقيع عقوبة الإعدام.

اشتكى العديد من الضحايا الفقراء والأقليات من عدم تلقيهم أي مكالمات أو دعم من الشرطة والمدعين المحليين، كما أن المحادثات لم تحتو على الكثير مما يحدد إذا ما كانت صفقة الاعتراف مقبولة وإذا ما كانت هي العقوبة المناسبة. إذا فقدت عائلتك أحد أفراد أسرته بسبب القتل أو اضطرت إلى المعاناة من عذاب الاغتصاب أو الاعتداء الخطير، قد تتجاهل الإيذاء إذا ما سُجن أحد أحبائك. أدى ازدياد حقوق الضحايا في النهاية إلى إضفاء الطابع الرسمي على ما هو دوماً صحيحاً: بعض الضحايا يتمتعون بقدر أكبر من الحماية والأهمية.

لقد كان برود الشرطة والمدعين العامين ومقدمي خدمات الضحايا و عدم استجابتهم هو ما دمر موزيل وأونزيل. أخبرتنا أونزيل:

«أنتم أول شخصين يأتيان إلى منزلنا ويخصمان وقتاً للتحدث عن فيكي». بعد قضاء ما يقرب من ثلاث ساعات في سماع تأملاتهما المفجعة، وعدناهما بفعل ما بوسعنا لمعرفة من شارك في قتل ابنة أختيهما فيكي.

بعد كل ما فعلناه وصلنا إلى طريق مسدود، فبدون الوصول إلى سجلات وملفات الشرطة، لن نتمكن من تحقيق المزيد من التقدم. ونظرًا لأن القضية معلقة الآن في الاستئناف المباشر، فالدولة ليست ملزمة بالسماح لنا برؤية تلك السجلات والملفات لذلك قررنا تقديم ما يُعرف بالالتماس بموجب القاعدة ٣٢، والذي سيعيدنا إلى المحكمة الأساسية مع فرصة إرسال أدلة جديدة مسبقًا والوصول لاكتشاف، بما في ذلك الوصول إلى ملفات الدولة.

تلتزم القاعدة ٣٢ من الالتماسات، أن يتضمن الالتماس الادعاءات والأدلة التي لم تثر في المحاكمة أو في الاستئناف والتي لم تكن لتثار في المحاكمة أو في الاستئناف. فهي وسيلة للطعن في الإدانة بناء على مستشار غير فعال بالإضافة لإخفاق الدولة في الكشف عن الأدلة، وأهم الدلائل الجديدة على البراءة. قمت أنا ومايكل بكتابة عريضة أكدت جميع هذه الادعاءات، بما فيها سوء سلوك الشرطة والادعاء، ورفعناها في دائرة محكمة مقاطعة مونرو.

الوثيقة التي زعمت أن والتر ماكميلان حوكم بشكل غير عادل وأدين خطأ وحُكم عليه بشكل غير قانوني، لفتت الكثير من الاهتمام في مونرو فيل.

لقد مرت ثلاث سنوات منذ المحاكمة وقد أدى التأكيد الأولي لإدانة والتر في الاستئناف إلى إثارة موجات غضب صحافية كبيرة في المجتمع، وشعر معظم الناس الآن بأن ذنب والتر أمرًا ثابتًا و كل ما يمكن القيام به هو الانتظار حتى تاريخ التنفيذ.

تقاعد القاضي كي، و يبدو جليًا أن أيًا من قضاة مقاطعة مونرو الجدد لا يرغب في لمس

عريضتنا، لذلك تم نقل القضية مرة أخرى إلى مقاطعة بالدوين بموجب نظرية أنه يجب معالجة استئناف ما بعد الإدانة في نفس مقاطعة المحاكمة الأولية، لم يكن هذا منطقيًا بالنسبة لنا لأن قاضي مقاطعة مونرو ترأس المحاكمة ولكن لم يكن باليد حيلة فلم يكن هناك ما يمكننا القيام به.

والمثير للدهشة أن المحكمة العليا في ألاباما وافقت على إبقاء عملية الاستئناف المباشرة الخاصة بنا حتى يمكن التقدم بالتماس القاعدة ٣٢. والقاعدة العامة هي وجوب استكمال الاستئناف المباشر قبل بدء الاستئناف الإضافي، بعد الإدانة بموجب القاعدة ٣٢ من خلال إبقاء القضية، وقد أشارت المحكمة العليا في ألاباما إلى وجود شيء غير عادي في قضية والتر، مما يتطلب المزيد من المراجعة في المحاكم الدنيا وبناءً عليه فقد كان قاضي محكمة مقاطعة بالدوين مُلزمًا الآن بمراجعة قضيتنا وقد يُجبر على الموافقة على طلبات الاكتشاف المقدمة من قبلنا، الأمر الذي يتطلب الكشف عن جميع ملفات الشرطة والادعاء وقد كان هذا تطورًا إيجابيًا للغاية.

كنا بحاجة إلى عقد اجتماع آخر مع تومي تشابمان المدعي العام للمنطقة لكن هذه المرة مختلفة فنحن مسلحون بأمر من المحكمة لتسلم ملفات الشرطة والادعاء، كما سنلتقي أخيرًا أيضًا بضباط تطبيق القانون المتورطين في محاكمة والتر بشحهم ولحمهم وهم: محقق المحامي العام لاري إيكنر وعميل ABI سيمون بنسون والمأمور توم تيت.

اقترح تشابمان أن نأتي إلى مكتبه في محكمة مقاطعة مونرو حتى يتمكنوا من تسليم جميع الملفات معًا، وافقنا على ذلك وعندما وصلنا، كان الرجال هناك بالفعل؛ كان تيت رجلاً أبيض طويل القامة وقد أتى إلى الاجتماع مرتديًا حذاءً وجينزًا وقميصًا خفيفًا، أما إيكنر فقد كان رجلاً أبيضًا آخر في منتصف الأربعينيات يرتدي الزي نفسه، لم يبتسم أي منهم كثيرًا، لقد استقبلونا أنا ومايكل بالفضول المرتبك الذي اعتدنا عليه. عرف الرجال أننا نتهمهم بسوء السلوك، لكنهم ظلوا مدنيين في معظم الأحيان، في أحد الحوارات أخبر تيت مايكل أنه علم بمجرد أن رآه أنه «يانكي» (وهو لفظ يطلق في بريطانيا على الأمريكيين، ويعني الأمريكيين من الولايات الشمالية). ابتسم مايكل وأجاب: «حسنًا، أنا أسد نيتاني». وقد قتل صمت الغرفة النكته، لكن مايكل تابع دون رادع:

«ذهبت إلى ولاية بنسلفانيا، التيممة من الفرق الرياضية في ولاية بنسلفانيا»

تيت: «كسرنا رأسك في عام ٧٨». أدلى تيت بالبيان كما لو أنه قد فاز للتو باليانصيب، وقد كانت ولاية بنسلفانيا وجامعة ألاباما منافسين لكرة القدم في السبعينيات، عندما كان لدى كلتا المدرستين برامج ناجحة ومدرّبون بارزون (بير براينت في ألاباما) و(جو باتيرنو في ولاية بنسلفانيا) هزمت ألاباما فريق ولاية بنسلفانيا الوحيد غير المرتبط ١٤-٧ ليفوز بالبطولة الوطنية لعام ١٩٧٨.

نظر إلي مايكل، وهو أحد مشجعي كرة القدم في الكلية وأحد محبي «جوبا»، وكأنه يطلب إذنًا غير شفهي لقول شيء متهور فأعطيته نظرة تحذيرية؛ وشعرت براحة كبيرة لأنه فهم قصدي سأل تيت: «كم يدفع (جون دي جميعًا)؟»، مستخدمًا لقب والتر وأصدقائه وأفراد عائلته.

قلت بلطف وأدب قدر استطاعتي: «نحن نعمل في منظمة غير ربحية».

فقال: «حسناً، لا بد أنك تحصل على المال من مكان ما للقيام بما تفعله». قررت أن أتجاوز الموضوع وأدفع بالأمور إلى الأمام.

برايان: «اعتقدت أنه قد يكون من الجيد التوقيع على شيء يؤكد أن هذه هي جميع الملفات التي لديك في هذه القضية، كما أنني أتساءل إن كان بالإمكان فهرسة ما تقدمه إلينا ثم نوقعها جميعاً؟» قال تشابمان مستشعراً على ما يبدو أن هذا الاقتراح أثار استفزاز تيت وإيكنر.

«لسنا بحاجة للقيام بأي شيء رسمي، برايان هؤلاء الرجال ضباط في المحكمة، كل ما عليك فعله هو أخذ الملفات»

برايان: «حسناً، قد تكون هناك ملفات فقدت عن غير قصد أو مستندات أسقطت. أنا فقط أحاول توثيق أن ما نتلقاه هو ما تقدموه لنا - نفس عدد الصفحات، نفس عناوين مجلد الملفات، إلى آخره، أه طبعاً أنا لا أشكك في نزاهة أي شخص».

تيت: «إذهب إلى الجحيم». كان تيت مباشراً. نظر إلى تشابمان وقال:

- «يمكننا التوقيع على شيء يؤكد ما نقدمه له، أعتقد أننا قد نحتاج إلى توثيق ذلك أكثر منه».

أوما تشابمان برأسه. حصلنا على الملفات وغادرنا مونرو فيل طائرين على أجنحة الإثارة والحماس حول ما قد نجده في مئات الصفحات من السجلات التي تلقيناها، بدأنا مراجعتها بفارغ الصبر وليس فقط ملفات الشرطة والمدعين العامين، فمن خلال الأمور التي اكتشفناها من المحكمة تمكنا من جمع السجلات من تايلور هاردن -مرفق الصحة العقلية حيث تم إرسال مايرز بعد أن رفض الشهادة لأول مرة- كما حصلنا على ملف ABI سليمان بنسون، وكيل من ABI الأسود الوحيد في جنوب ألاباما، كما أخبرنا بفخر. حصلنا على سجلات قسم شرطة مدينة مونرو فيل وملفات المدينة الأخرى، حتى أننا حصلنا على سجلات وعرائض مقاطعة إسكامبيا عن مقتل فيكي بيتمان، وقد كانت الملفات مذهلة حقاً.

ربما شعرنا بألم موزيل وأونزيل أو تأثرنا بالمؤامرات المعقدة التي وصفها رالف مايرز، لكننا سرعان ما بدأنا في طرح أسئلة حول بعض ضباط تطبيق القانون الذين تكررت أسماؤهم في قضية مقتل بيتمان، لذا قررنا التحدث إلى مكتب التحقيقات الفدرالي حول بعض ما علمناه، لكن لم يمض وقت طويل حتى بدأت تنهال علينا التهديدات بالقنابل.

الفصل الثامن

أحباب الله

بكاء الروح

تخيل الدموع وقد جفت من الألم المرير

وهي حبيسة ذاك السجن الحقير

تنتظر غفلة عينيك للهرب عبر الأثير

الدموع تشكك في الضمير

«لماذا لا تطلق سراحنا؟»

«وتتخلى عن المخاوف والشكوك

التي تحتجزك أسير

وترحم نفسك من هذه المعاناة»

راجيا رحمة القدير

للدموع قال الضمير:

«أعلم أنك تريدني أن أبكيك

بقلب كسير

ولكن إذا بكيتك وحررتك

من العبودية».

سيكون الموت لك مصير

الدموع بعد لحظات من التفكير المرير

أجابت الضمير:

«إذا كان البكاء يقودك إلى أروع مصير ،

فالموت لن يكون ذاك العدو الحقير».

إيان مانويل، مؤسسة الاتحاد الإصلاحية

كانت ترينا غارنيت أصغر من اثني عشر طفلاً يعيشون في الجزء الأكثر فقراً من تشيستر- بنسلفانيا؛ وهي بلدية خارج فيلادلفيا، تعاني من ضائقة مالية، حيث تتقاطع معدلات الفقر والجريمة

والبطالة المرتفعة للغاية في تشيستر مع نظام المدارس العامة الأسوأ بين مقاطعات بنسلفانيا الـ ٥٠١. كان ما يقرب من ٤٦٪ من أطفال المدينة يعيشون تحت مستوى خط الفقر الفيدرالي.

كان والتر غارنيت والد ترينا، ملاكاً سابقاً حولته مسيرته الفاشلة إلى مدمن كحول عنيف ومسيء ومعروف جداً لدى الشرطة المحلية حيث قام بلكم أحدهم مع القليل من الاستقزاز. كانت إديث غارنيت والدة ترينا، امرأة مريضة بسبب حملها مراراً وتكراراً، بعض مرات حملها كانت نتيجة اغتصاب زوجها لها، كلما تقدمت إديث في السن وزاد مرضها، تجد نفسها هدفاً لغضب والتر، فقد كان يقوم بلكمها وركلها وإساءة معاملتها أمام أطفالهما بانتظام، وغالباً ما كان والتر يتمادى إلى أقصى الحدود حيث يجردها من ملابسها ويضربها حتى تقع على الأرض وتتلقى من الألم بينما ينظر أطفالها بخوف، عندما تفقد وعيها أثناء الضرب، يدفع والتر عصا إلى أسفل حلقها ليجرعها مزيد من الإساءات والألم.

في منزل غارنيت لم يكن هناك مكان آمن، وقد شاهدت ترينا ذات مرة والدها يخنق كلبه الأليف في صمت لأنه لم يتوقف عن النباح، فضربه بمطرقة حتى الموت بمطرقة وألقى جسمه من نافذة ليتدحرج أمامه بلا رحمة. كان لدى ترينا شقيقتان توأمان لين وليندا، و كانتا أكبر منها بسنة. علمتها أن تلعب «لعبة الغمضة» عندما كانت طفلة صغيرة، لتحميها من والدهم عندما يكون ثملاً، حيث يطوف الشقة ويلوح بحزامه ثم يجرد الأطفال من ملابسهم ويضربهم بشكل عشوائي. تعلمت ترينا أن تختبئ تحت السرير أو في خزانة وأن تبقى هادئة قدر الإمكان.

ظهرت على ترينا علامات الإعاقة الذهنية وغيرها من المشكلات في سن مبكرة وعندما كانت طفلة صغيرة، مرضت بشدة لأنها تناولت بعض الأدوية حيث كانت دون مراقبة، وفي سن الخامسة أشعلت النار في نفسها بطريق الخطأ، مما أدى إلى حروق شديدة في صدرها ومعدتها وظهرها فأضمت أسابيع في المستشفى تعاني من ترقيع جلدي مؤلم ترك لها ندوباً رهيبية.

ماتت إديث عندما كانت ترينا في التاسعة من عمرها، فحاولت أخوات ترينا الأكبر سنّاً الاعتناء بها، لكن عندما بدأ والتر في اغتصابهن هربن، بعد أن غادر الأشقاء الأكبر سنّاً المنزل انصبت إساءة والتر على ترينا و لين وليندا، مما جعل الفتيات تهربن من المنزل وتجنبن شوارع تشيستر. كانت ترينا وأخواتها يأكلن من علب القمامة، في بعض الأحيان لا يأكلن لأيام، كما نمن في الحدائق والحمامات العامة، ثم ذهبت الفتيات للعيش مع أختهن الأكبر إيدي فترة إلى أن بدأ زوج إيدي في اغتصابهن، وفي بعض الأحيان كان أعمامهن وإخوتهن الأكبر سنّاً يوفرون لهن مأوى مؤقتاً، إلا أن هذا الاستقرار لم يكن يستمر طويلاً بسبب العنف أو الموت، وبالتالي دائماً ما تجد ترينا نفسها تعود للتجول في الشوارع مرة أخرى.

أدت وفاة والدة ترينا وإساءة معاملتها والظروف اليائسة التي عانت منها إلى تفاقم مشكلاتها الصحية العاطفية والعقلية، حيث كانت أحياناً تشعر بالاضطراب والمرض لدرجة أنه كان على أخواتها العثور على أحد أقربائهم ليأخذها إلى المستشفى، لكن لأنها مفلسة لم يُسمح لها أبداً بالبقاء في المستشفى لفترة طويلة بما يكفي لتتعاوى وتستقر حالتها.

في وقت متأخر من إحدى ليالي أغسطس ١٩٧٦، تسلمت ترينا ذات الأربعة عشر عامًا وصديقتها ذات الستة عشر عامًا فرانسييس نيوسوم، عبر نافذة منزل في تشيستير، حيث أرادت الفتاتان التحدث إلى الأولاد الذين يعيشون في ذلك المنزل، لكن والدته هؤلاء الأولاد منعت أطفالها من اللعب مع ترينا، إلا أن ترينا أرادت رؤيتهم وبمجرد أن صعدت إلى المنزل، أضاعت ترينا أعواد الثقاب لتجد طريقها إلى غرفة الأولاد، مما أشعل النيران التي انتشرت بسرعة في المنزل، فمات صبيان كانا نائمين بسبب اختناق الدخان، و اتهمت والدتهما ترينا وصديقتها بإشعال النار عمداً، لكن ترينا وصديقتها أصرتا على أنها كانت حادثة.

أصيبت ترينا بصدمة نفسية بسبب وفاة الصبيان وبالكاد استطاعت التحدث عندما أُلقت الشرطة القبض عليها، وقد كانت عاطلة عن العمل وتعاني خملاً وفتوراً لدرجة أن محاميها المعين اعتقد أنها غير مؤهلة للمحاكمة.

لا يمكن محاكمة المدعى عليهم ممن يُعتبرون غير أكفاء من خلال الإجراءات الجنائية في قضايا الخصومة، مما يعني أن الدولة لا يمكنها مقاضاتهم ما لم يصبحوا أكفاء بما يكفي للدفاع عن أنفسهم، كما يحق للأشخاص المتهمين جنائياً الخاضعون للمحاكمة الحصول على العلاج والخدمات. لكن محامي ترينا فشل في تقديم الطلبات المناسبة أو إرسال أدلة لدعم قرار عدم كفاءة ترينا، كما لم يعترض المحامي -الذي أبعد في وقت لاحق وسُجن بسبب سوء سلوك إجرامي غير ذي صلة - على قرار الدولة بمحاكمة ترينا كشخص بالغ، ونتيجة لذلك خضعت ترينا للمحاكمة بتهمة القتل من الدرجة الثانية في محكمة بالغين، ومما زاد الطين بلة أن فرانسييس نيوسوم شهدت ضد ترينا في المحاكمة مقابل إسقاط التهم الموجهة إليها، وبالتالي أدينَت ترينا بارتكاب جريمة قتل من الدرجة الثانية، وانتقلت المحاكمة إلى مرحلة النطق بالحكم.

أقر هوارد ريد قاضي دائرة مقاطعة ديلاوير بعدم توفر نية القتل العمد لدى ترينا. لكن بموجب قانون بنسلفانيا، لم يستطع القاضي أن يأخذ في الاعتبار غياب النية أثناء إصدار الحكم، كما لم يستطع التفكير في عمر ترينا، أو مرضها العقلي، أو فقرها، أو ما عانتها من سوء المعاملة، أو الظروف المأساوية المحيطة بالحريق، فلم يكن قانون الحكم في بنسلفانيا مرناً بالنسبة لأولئك المدانين بجرائم القتل من الدرجة الثانية، حيث كان السجن مدى الحياة الإلزامي دون إمكانية الإفراج المشروط هو الحكم الوحيد.

أعرب القاضي ريد عن مخاوفه الشديدة بشأن العقوبة التي أجبر على فرضها. وكتب:

«هذه القضية من أكثر الحالات حزناً التي مرت علي إطلاقاً، بالنسبة لجريمة مأساوية ارتكبتها فتاة في الرابعة عشر، لقد حُكم على ترينا بالموت في السجن».

بعد صدور الحكم، أرسلت ترينا على الفور إلى سجن النساء البالغات في مونسي وقد كانت في السادسة عشرة من عمرها، سارت ترينا عبر أبواب المؤسسة الإصلاحية الحكومية في مونسي على أقدام شلها الرعب، وبحركة قيدتها الصدمة والمرض العقلي، والضعف الشديد مع ملاحظة أنها لن تغادر أبداً. لا يمكن أن ننكر أن السجن نجى ترينا يقيناً من التشرد فقد قدم لها المأوى لكنه مأوى بلا

أمان تنام فيه على سرير من الخوف وتلتحف بالمخاطر وتتوسد التحديات الجديدة، و لم يمض وقت طويل على وصولها إلى مونسى، حتى رأت الوجه القبيح لهذا المأوى فقد سحبها ضابط إصلاحي من الذكور إلى منطقة منعزلة واغتصبها. وبالطبع لم تكتشف الجريمة إلا باكتشاف حمل ترينا، كما هو الحال في كثير من الأحيان، فصل ضابط الإصلاحات ولكنه لم يحاكم جنائياً، أما ترينا فقد بقيت في السجن وأنجبت ولداً، ومثل مئات النساء اللواتي يلدن أثناء وجودهن في السجن، لم تكن ترينا مستعدة تماماً لضغوط الولادة، وقد وضعت طفلها وهي مكبلتا اليدين إلى السرير، فحتى عام ٢٠٠٨ كانت معظم الولايات تكبل السجينات أو تقيدهن أثناء الولادة. أخذ طفل ترينا الصغير منها بعد الولادة ووضع في الحضانة، بعد هذه السلسلة من الأحداث المؤلمة التي طوقت حياة ترينا - الحريق والسجن والاعتصاب والولادة المؤلمة ثم الاستيلاء على ابنها - تدهورت صحة ترينا العقلية أكثر، وعلى مر السنين، بدأت قدرتها على أداء أي عمل بالتلاشي كما تدهورت حالتها العقلية. لكن يبدو أن جسدها كان أكثر عناداً منها فقد ثار على كل هذا وبدأ في التشنج والرعشة دون حسيب ولا رقيب، إلا أنه على ما يبدو أن هذا الجسد كان أضعف من أن يتمرد فقد احتاجت للعصا ثم للكرسي المتحرك. و عند بلوغها الثلاثين، قام أطباء السجن بتشخيص حالتها بالتصلب اللويحي (المتعدد) والإعاقة الذهنية والمرض العقلي المرتبط بالصدمة.

رفعت ترينا دعوى مدنية ضد الضابط الذي اغتصبها، و حكمت لها هيئة المحلفين بتعويض مالي قدره ٦٢٠٠٠ دولار، لكن الضابط استأنف فألغت المحكمة الحكم لأن الضابط الإصلاحي لم يُسمح له بإبلاغ هيئة المحلفين بأن ترينا كانت في السجن بتهمة القتل. وبالتالي، لم تتلق ترينا أي مساعدة أو خدمات مالية من الدولة لتعويضها عن تعرضها للاغتصاب العنيف من قبل أحد ضباطها «الإصلاحيين».

في عام ٢٠١٤، بلغت ترينا الثانية والخمسين من عمرها وقد قضت في السجن ثماني وثلاثين سنة. وتعتبر واحدة من حوالى خمسمائة شخص في ولاية بنسلفانيا حكم عليهم بالسجن الإلزامي مدى الحياة دون الإفراج المشروط عن الجرائم التي اتهموا بارتكابها عندما كانت تتراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة والسابعة عشرة. وهذا أكبر عدد من الأطفال الجانحين المحكوم عليهم بالموت في أي السجن في أي ولاية قضائية أخرى في العالم.

في عام ١٩٩٠، حاول إيان مانويل البالغ من العمر حينها ثلاثة عشر عاماً مع اثنين من الأولاد الأكبر سناً، سرقة زوجين كانا خارجين لتناول العشاء في تامبا - فلوريدا، عندما قاومتهم ديبى بيغري، أطلق عليها إيان النار من مسدس أعطاهها له الولدين الأكبر سناً. مرت الرصاصة بخدين بيغري، محطمة العديد من الأسنان فألحقت ضرراً كبيراً بفكها. قبض على الأولاد الثلاثة واتهموا بالسطو المسلح ومحاولة القتل.

قام محامي إيان بتشجيعه على الإقرار بالذنب، مؤكداً له أنه سيحكم عليه بالسجن لمدة خمسة عشر عاماً فقط، فهو لم يدرك أن اثنتين من التهم الموجهة إلى إيان يُعاقب عليها بالسجن المؤبد بدون إفراج مشروط، وقد قبل القاضي مناشدة إيان ثم حكم عليه بالسجن مدى الحياة بدون إفراج مشروط، على الرغم من أنه كان في الثالثة عشرة من عمره، فقد حكم القاضي على إيان دون مراعاة العيش

في الشوارع، وعدم وجود إشراف أبوي جيد، ناهيك عن اعتقالاته المتعددة السابقة بسبب السرقة وجرائم الملكية البسيطة. أرسل إيان إلى سجن للبالغين - مؤسسة إصلاحية أبالاتشي- وهو أحد أقسى السجون في فلوريدا، وهناك لم يتمكن الموظفون الإصلاحيون في مركز معالجة السجون من العثور على أي زي رسمي يناسب حجم الصبي إيان، لذلك قصوا ست بوصات من أسفل أصغر السراويل المتوفرة لديهم.

في سجون البالغين تلك من المرجح أن يكون الأحداث أكثر عرضة للعنف الجنسي بخمسة أضعاف من البالغين، لذلك وضع الموظفون في سجن أبالاتشي إيان، الذي كان جسده أصغر من عمره في الحبس الانفرادي.

الحبس الانفرادي في أبالاتشي يعني العيش في صندوق خرساني بحجم مقصورة المشي، وهناك تحصل على وجباتك من خلال فتحة فلا ترى سجناء آخرين ولا تلمس أو تقترب من شخص آخر. إذا كنت «تتصرف» تصرف غير مقبول كقول شيء متمرّد أو رفض الامتثال لأمر صادر لك من قبل مسؤول إصلاحي، فأنت مجبر على النوم على الأرضية الخرسانية في زنزانة بدون مرتبة. إذا صرخت فإن فترة سجنك الانفرادي ستزداد وإذا أذيت نفسك برفضك الأكل أو تشويه جسمك بجرح نفسك، فإن فترة سجنك الانفرادي ستزداد وإذا شكوت الضباط أو هددتهم أو صدر منك أي قول أو فعل غير مناسب، فإن فترة سجنك الانفرادي ستزداد، يحق لك الاستحمام ثلاثة مرات في الأسبوع، كما يسمح لك بالتمارين لمدة خمس وأربعين دقيقة في منطقة صغيرة في قفص عدة مرات في الأسبوع، غير ذلك فأنت وحيد، مختبئ في صندوقك الخرساني، أسبوعًا بعد أسبوع، شهرًا بعد شهر.

في الحبس الانفرادي، أصبح إيان «القاطع» الموصوف ذاتيًا؛ حيث أنه يأخذ أي شيء حاد في صينية طعامه ليجرح معصميه وذراعيه لمجرد مشاهدة نفسه ينزف، يبدو أن إيان بدأ يفقد عقله فقد حاول الانتحار عدة مرات، وبالطبع ففي كل مرة يؤدي نفسه أو يتصرف بشكل سيئ، كانت فترة حبسه الانفرادي تزداد وتتمدد حتى بات يشعر أن قضبان هذه الزنزانة ستمتد لتطوق عنقه حتى يخنق إذا ما اقترب من الباب.

قضى إيان ثمانية عشر عامًا في الحبس الانفرادي دون انقطاع، وقد سُمح لإيان بإجراء مكالمات هاتفية مرة واحدة في الشهر، وبعد فترة وجيزة من وصوله إلى السجن، وفي عشية عيد الميلاد عام ١٩٩٢، استخدم المكالمات للتواصل مع ديبى بيغري، المرأة التي أطلق عليها النار، و عندما ردت على الهاتف، اعتذر إيان بطريقة عاطفية تتم عن مدى أسفه العميق وندمه على ما فعل، أما السيدة بيغري فقد ذهلت عندما سمعت من الصبي الذي أطلق النار عليها، وتأثرت بمكالمته، و بمرور الوقت تعافت ديبى جسديًا من إطلاق النار وكانت تعمل بجد لتصبح لاعبة كمال أجسام ناجحة وبدأت بإنشاء مجلة تركز على صحة المرأة، وكانت امرأة طموحة و أصرت على عدم السماح للحادثة بإخراجها عن أهدافها، أدت تلك المكالمات الهاتفية المفاجئة إلى مراسلات منتظمة بينهما، أما عائلة إيان فلم تكن لها تلك الأهمية في حياته فقد أهملته قبل وقوع الجريمة، وتركته فريسة سهلة لوحوش الشوارع التي ألقت وقع خطواته في ظل غياب الدعم الأبوي أو العائلي.

في الحبس الانفرادي، التقى ببعض السجناء والموظفين الإصلاحيين، وعندما تاه في دوامة اليأس، كانت ديبي بيغري واحدة من الأشخاص القلائل في حياة إيان الذين ألقوا له طوق النجاة ليتمسك به، ليبقى قويًا ويجتاز تلك المحنة العصيبة التي عانى منها كثيرًا.

بعد التواصل مع إيان لعدة سنوات، كتبت بيغر للمحكمة وأخبرت القاضي الذي حكم بإدانة إيان، أن عقوبته كانت قاسية للغاية وأن ظروف احتجازه لم تكن إنسانية، وحاولت التحدث إلى مسؤولي السجن وأجرت مقابلات مع الصحافة للفت الانتباه إلى محنة إيان قائلةً:

«لا أحد يعرف أكثر مني كم كانت جريمة إيان مدمرة ومتهورة، ولكن ما نفعله به الآن تصرف لنيم وغير مسؤول، فقد كان طفلًا عندما ارتكب هذه الجريمة، مجرد فتى يبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا، يعاني الكثير من الضياع والمشاكل بدون إشراف، و بدون مساعدة أما نحن اليوم لسنا أطفالاً».

تجاهلت المحاكم دعوة ديبي بيغر لتخفيف العقوبة و بحلول عام ٢٠١٠، كانت فلوريدا قد حكمت على أكثر من مئة طفل بالسجن مدى الحياة دون إطلاق سراح مشروط لجرائم غير جرائم القتل وكان العديد منهم في الثالثة عشرة من العمر وقت ارتكاب الجريمة. كان جميع الأطفال المدانين - ثلاثة عشر أو أربعة عشر عامًا - من السود أو اللاتينيين، فقد كان في فلوريدا أكبر عدد من الأطفال الذين حكم عليهم بالموت في السجن بسبب جرائم غير جرائم القتل في العالم.

يعاني جنوب وسط لوس أنجلوس حيث عاش أنطونيو نونيز من العنف العصابات، وكانت والدة أنطونيو تجبر أطفالها على الانبطاح أرضًا عندما تتدلع النيران خارج منزلهم المزدهم، وكان هذا ما يحدث دائمًا وبشكل منتظم ومقلق، حيث قتل نحو اثني عشرة من جيرانهم بعدما وقعوا في مرمى نيران العنف المسلح.

تضاعفت معاناة أنطونيو من العنف في الحي الذي يعيش فيه بسبب ما كان يعانيه من العنف وسوء معاملة في المنزل، فمنذ أن كان أنطونيو رضيعًا، كان يتعرض للضرب الشديد من قبل والده الذي كان يضربه بما يتوافر في يده من أشياء، مثل الحزام أو أسلاك التمديد وإن عجز عن إيجاد شيء لم تكن لتعجز يده أو قبضته عن إلحاق الأذى بأنطونيو، مما جعل الكثير من الذكريات السيئة عن والده ترافقه زمنًا طويلًا، فقد أبى هذا الكائن إلا أن يترك له تذكارات حفرت في جسده الذي اكتسى بالكدمات والجروح. لم تتوقف معاناته في المنزل على ما تلقاه من ضرب بل امتدت ليشهد صراعات مرعبة بين والديه الذين كان يعتديان على بعضهما بعنف ويمتد الأمر بينهما إلى التهديد بالقتل، ولقد كانت صراعاتهما عنيفة للدرجة التي تدعو أنطونيو للاتصال بالشرطة أكثر من مرة. كل هذا العنف أتاح الفرصة للكوابيس لتسود أحلامه حتى يستيقظ على صراخه، ولكن كل هذا لم يمنع والدته المكتئبة من إهماله، فقد كانت تتركه وحده عندما يبكي، و كان النشاط الوحيد الذي تذكرت حضوره هو تخرج أنطونيو من برنامج تعليم مقاومة تعاطي المخدرات في المدرسة الابتدائية.

كان متحمسًا لالتقاط صورة مع ضابط الشرطة لكنه رفض وقال فيما بعد، لقد أراد أن يصبح

ضابط شرطة عندما يكبر. في سبتمبر ١٩٩٩، بعد شهر من بلوغه الثالثة عشرة من عمره، كان أنطونيو نونيز يركب دراجته بالقرب من منزله عندما أطلق عليه شخص غريب النار في معدته وجانبه وذراعه، فانهار أنطونيو ووقع في الشارع. سمعه شقيقه خوسيه ذو الأربعة عشر عامًا يصرخ فركض لمساعدته، وعندها أصيب خوسيه برصاصة في رأسه قتلتته على الفور، أما أنطونيو فقد عانى من إصابات داخلية خطيرة استدعت بقاءه في المستشفى لأسابيع.

عندما خرج أنطونيو من المستشفى، أرسلته والدته ليعيش مع أقاربه في لاس فيغاس، حيث يحاول التعافي من مأساة وفاة خوسيه، وقد ارتاح أنطونيو لابتعاده عن مخاطر جنوب وسط لوس أنجلوس، الشيء الذي يبقيه بعيدًا عن المتاعب، وكان متعاونًا ومطيعًا في المنزل، وقضى الأمسيات في أداء واجبه المنزلي بمساعدة زوج ابنة عمه، وقد وضع ما عاشه في لوس أنجلوس من العصابات في الشارع، إلى العنف في منزله خلفه وأظهر تقدمًا ملحوظًا. ولكن سعادته لم تكتمل ففي غضون عام، أمرته سلطات مراقبة السلوك في كاليفورنيا بالعودة إلى لوس أنجلوس لأنه كان تحت المراقبة عقب تحكيمه كحارس للمحكمة في جريمة سابقة.

في الأحياء المدنية الفقيرة عبر الولايات المتحدة، يواجه الفتيان السود والبنيون لقاءات متعددة مع الشرطة بشكل روتيني، رغم أن العديد من هؤلاء الأطفال لم يرتكبوا أي خطأ، إلا أن الشرطة دائمًا ما تستهدفهم، على افتراض أنهم مذنبون، ناهيك عن قوات تطبيق القانون التي لا تتفك تضعهم في دائرة الاشتباه على أساس أنهم خطرون أو متورطون في نشاط إجرامي. تزيد عمليات التوقيف والاستجواب والمضايقة العشوائية، بشكل كبير من خطر الاعتقال بسبب الجرائم الصغيرة. يدفع العديد من هؤلاء الأطفال ثمن تطوير سجلات إجرامية لسلوكيات ينخرط فيه الأطفال الأكثر ثراءً مع الإفلات من العقاب.

أُجبر أنطونيو على العودة إلى جنوب وسط المدينة، حيث قُتل شقيقه ووجدت إحدى المحاكم لاحقًا أنه عليه العيش على بعد مجرد أمتار من المكان الذي أطلق عليه النار فيه وشهد آخر لحظاته مع أخيه قبل قتله، الشيء الذي جعل نونيز يعاني من أعراض الصدمة، إضافة لشعوره بمرارة ذكريات الماضي فتولدت في نفسه حاجة ملحة لتجنب المنطقة، كما زاد وعيه بالتهديدات المحتملة، والحاجة الشديدة لحماية نفسه من التهديدات الحقيقية أو المتصورة. وضع يديه على مسدس للدفاع عن نفسه، ولكن سرعان ما ألقي القبض عليه بسبب ذلك ووضع في معسكر للأحداث حيث أفاد المشرفون أنه شارك بلهفة واستجاب بشكل إيجابي للبيئة المنظمة وتوجيهات الموظفين.

بعد عودته من المخيم، تلقى أنطونيو دعوة لحفلة حيث أخبره رجلان أكبر منه بمرتين بأنهما يخططان لتزيف عملية اختطاف للحصول على أموال من قريب يدفع الفدية، و أصرّوا على أن ينضم أنطونيو ذو الأربعة عشر عامًا إليهم. ذهب أنطونيو في سيارة مع الرجال للحصول على أموال الفدية، حيث جلس الضحية المزعومة في المقعد الخلفي، بينما قاد خوان بيريز وجلس أنطونيو في مقعد الراكب، وقبل وصولهم إلى وجهتهم في مقاطعة أورانج لاسترداد الأموال، ووجدوا أنفسهم مُلاحقين - ثم مطاردين - من قبل رجلين لاتينيين في سيارة رمادية. في مرحلة ما، أعطى بيريز والرجل الآخر أنطونيو مسدسًا وأمره بإطلاق النار على الشاحنة، وبسرعة تحول

المشهد إلى عملية إطلاق نار خطيرة وسريعة جدًا، وبالطبع فإن أنطونيو لم يعلم أن الرجال الذين يلاحقونهم ضباط شرطة سريين، عندما أطلق النار. إلى أن انضمت للمطاردة سيارة شرطة، وعندما لاحظها أنطونيو ألقى البندقية قبل اصطدام السيارة ببعض الأشجار ولكن لم يصب أحد، لكن واجه كل من أنطونيو وبيرييز تهمة الاختطاف المشدد ومحاولة قتل ضباط الشرطة.

حوكم أنطونيو وزميله ذو السبعة والعشرون عامًا في قانون الدفاع، معًا في محاكمة مشتركة وأدين كلاهما، وبموجب قانون كاليفورنيا يجب ألا يقل الحدث عن ستة عشر عامًا للحكم عليه بالسجن مدى الحياة دون إطلاق سراح مشروط بتهمة القتل. ولكن لا يوجد سن أدنى للحكم في قضايا الاختطاف، لذلك حكم قاضي مقاطعة أورانج على أنطونيو بالسجن المؤبد، مؤكدًا أنه عضوٌ خطيرٌ في العصابة وبالتالي لا يمكن أبدًا تغييره أو إعادة تأهيله، رغم ظروفه المعيشية الصعبة وغياب أي تاريخ إجرامي مهم.

أرسله القاضي إلى سجون البالغين الخطيرة والمكتظة في كاليفورنيا، حيث كان في الرابعة عشرة، وعليه أصبح أنطونيو أصغر شخص في الولايات المتحدة محكوم عليه بالموت في السجن بسبب جريمة لم يصب فيها أي شخص جسديًا.

معظم البالغين المدانين بجرائم من نوعية الجرائم التي اتهم بها كل من ترينا وإيان وأنطونيو لا يُحكم عليهم بالسجن مدى الحياة دون إطلاق سراح مشروط، ففي النظام الفيدرالي، عادة ما يتلقى البالغون الذين يرتكبون جريمة القتل عن غير قصد يذهب ضحيتها أكثر من شخص واحد، أحكامًا تسمح بالإفراج في أقل من خمس وعشرين عامًا، كما أن العديد من البالغين الذين أدينوا بمحاولة القتل في فلوريدا يقضون أقل من عشر سنوات في السجن، حتى في حالات العنف المسلح التي لم تتلق الشرطة أي بلاغات عن إصابات بسببها تكون عقوباتها أقل من عشر سنوات على المدعى عليهم البالغين، حتى في عصر هذه العقوبات القاسية.

لطالما كان الأطفال الذين يرتكبون جرائم خطيرة عرضة للمقاضاة والمعاقبة كالكبار في العديد من الولايات، لكن تطوير أنظمة قضاء الأحداث يعني أن يُرسل معظم المجرمين من الأطفال إلى مرافق احتجاز الأحداث، ورغم اختلاف أنظمة قضاء الأحداث في جميع أنحاء الولايات المتحدة، إلا أن معظم الولايات كانت ستبقي ترينا وإيان وأنطونيو في مصحة الأحداث حتى يبلغوا الثامنة عشرة أو العشرين، وفي أسوأ الأحوال، قد يبقوا رهن الاعتقال حتى سن الخامسة والعشرين أو أكبر، في حال كان تاريخهم المؤسسي أو سجل احتجاز الأحداث يشير إلى أنهم لا يزالوا يشكلون تهديدًا للسلامة العامة.

في عصر سابق، إذا كنت قد ارتكبت جريمة في سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، فستجد نفسك تحاكم تحت نيران أنظمة مقاضاة الكبار مع حكم مطول فقط إذا كانت الجريمة خطيرة بشكل غير عادي أو ارتكبتها طفل أسود ضد شخص أبيض في الجنوب؛ على سبيل المثال في قضية سكوتسبرو بويز سيئة السمعة في ثلاثينيات القرن العشرين، كان اثنان من المتهمين وهما، روي رايت وبوجين ويليامز يبلغان من العمر ثلاثة عشر عامًا فقط عندما أدينا خطأً بالاغتصاب فحكم

عليهما بالإعدام في ألاباما.

في قضية أخرى وقعت لمحاكمة الأحداث أُعدم جورج ستينني، وهو صبي أسود يبلغ من العمر أربعة عشر عامًا، من قبل ولاية كارولينا الجنوبية في ١٦ يونيو ١٩٤٤. وقبل إعدامه بثلاثة أشهر، كانت فتاتان صغيرتان ببيضاوتان تعيشان في مكان قريب في الكولو- وهي بلدة الطاحونة الصغيرة- حيث فُصلت الأعراق بواسطة خطوط السكك الحديدية، وذات يوم خرجت الفتاتان لقطف الزهور لكنهما لم تعودا إلى المنزل أبدًا، وقد ذهب عشرات الأشخاص في جميع أنحاء البلدة للبحث عن الفتاتين المفقودتين، وانضم يونغ جورج وإخوته إلى فريق البحث وفي لحظة ما، ذكر جورج لأحد الباحثين البالغين البيض أنه وشقيقته رأيا الفتاتين في وقت سابق من اليوم، حيث اقتربت الفتاتان منهما أثناء اللعب في الخارج وسألتا عن مكان العثور على الزهور.

في اليوم التالي، عُثر على جثتي الفتاتين في حفرة ضحلة. بعدها قُبض على جورج فورًا بتهمة القتل لأنه اعترف برؤية الفتاتين قبل اختفائهما فهو آخر من رآهما على قيد الحياة، وهذا عرضه لساعات من الاستجواب دون حضور والديه أو محام. انفجر الغضب المفهوم حول موت الفتاتين عندما انتشرت أنباء عن اعتقال صبي أسود بتهمة القتل، و ادعى المأمور أن جورج اعترف بجريمة القتل، على الرغم من عدم تقديم بيان مكتوب أو موقع، وباختصار فصل والد جورج من وظيفته و هُددت عائلته بالإعدام إن لم تغادر المدينة، و خوفًا على حياتهم فرت عائلة جورج من البلدة في وقت متأخر من تلك الليلة، تاركين جورج وراءهم في السجن بدون دعم أسري، وفي غضون ساعات من إعلان الاعتراف المزعوم، تشكل حشد غوغائي في مقر السجن في الكولو، ولكن الطفل ذو الأربعة عشر عامًا كان قد نُقل بالفعل إلى سجن في تشارلستون.

بعد شهر، عقدت المحاكمة ووجهت لجورج اتهامات بالقتل من الدرجة الأولى وجلس جورج بمفرده في مواجهة ما يقدر بـ ١٥٠٠ شخص أبيض كانوا قد طوقوا قاعة المحكمة وحاصروا المبنى، في الوقت الذي لم يُسمح فيه للأمريكيين الأفارقة بدخول المحكمة كما أن محامي جورج الذي عينته المحكمة البيضاء -وهو محامي ضرائب لديه تطلعات سياسية- لم يستدع أي شهود، و قد كان دليل الادعاء الوحيد هو شهادة المأمور فيما يتعلق باعتراف جورج المزعوم، وانتهت المحاكمة في غضون ساعات قليلة، حيث قامت هيئة محلفين بيضاء بالتداول لمدة عشر دقائق قبل إدانة جورج بالاغتصاب والقتل و من ثم حكم القاضي ستول على الفور على الطفل ذي الأربعة عشر عامًا بالإعدام وفي النهاية، قال المحامي إنه لن يكون هناك استئناف لأن عائلة جورج لم يكن لديها المال لدفع ثمنها.

على الرغم من طلبات الطعن المقدمة من NAACP ورجال الدين السود، الذين طلبوا تحويل العقوبة إلى السجن مدى الحياة، رفض الحاكم أولين جونسون التدخل وأرسل جورج إلى كولومبيا، ليعدم على الكرسي الكهربائي في ولاية كارولينا الجنوبية، لكن جورج كان صغيرًا بالنسبة لكل ما يجري حوله صغيرًا على تحمل الكارثة التي حلت به، صغيرًا على تحمل كل الرعب الذي عاناه في تلك الفترة، صغيرًا على أن يقطف عمره الذي كان في عمر الزهور التي بدأت مأساته بمحاولة قطفها، حتى جسده كان صغير بالنسبة لعمره فقد كان طوله خمسة أقدام، ووزنه لا يتجاوز ستين

باوند، قادوا ستيني مع كتابه المقدس الذي لم يفارق يده، إلى الكرسي الكهربائي، الذي ضاع الطفل بين جنباته وكأن وحشاً ابتلعه، وقد كان عليه أن يجلس على الكتاب ليتمكن موظفو السجن من وضع الأقطاب الكهربائية في ذلك الجسد الغض الصغير. كان وحده في الغرفة، بدون عائلة و بدون أصدقاء و بدون أقرباء أو أي شخص ملون، وحده الخوف أخلص له و رفض التخلي عنه في تلك اللحظات المميّة، جلس الطفل المرتعب على الكرسي الكهربائي الكبير، بينما عيناه تذرعان الغرفة بشكل محموم بحثاً عن شخص يساعده، شخص يطمئنه بأن تلك اللحظات المرعبة ستنتهي بذهابه لمكان أفضل، مكان لا ظلم فيه ولا جور و لا انتهاك لحقوق طفل في الحياة بأمان وسعادة لمجرد أنه فكر في اللعب في يوم مشؤوم، أو لنقل لأن لونه لم يعجب أولئك المحيطين به، لكنه لم يرى سوى موظفي تطبيق القانون والمراسلين، وعندما ضربت الصعقة الأولى جسده انزلق القناع الكبير عن وجه جورج، وكأنه يريد لشهود الاعدام أن يروا تأثير إجرامهم عليه فقد كانت عينيه مفتوحتين عن آخرهما واللعب يقطر من فمه، و بعد واحدٍ وثمانين يوماً من اقتراب الفتاتين الصغيرتين من مكان العثور على الزهور، أعلن عن وفاة جورج ستيني.

بعد سنوات، ظهرت شائعات بأن رجلاً أبيض من عائلة بارزة اعترف وهو على فراش الموت بقتل الفتاتين وفي الأونة الأخيرة، بُذل جهد كبير لتبرئة جورج ستيني.

كان إعدام ستيني مروّعاً ومفجعاً، لكنه عكس السياسات العنصرية في الجنوب أكثر مما عكس الطريقة التي يعامل بها الأطفال المتهمون بارتكاب جرائم بشكل عام، لقد كان مثلاً على أثر السياسات والمعايير التي كانت موجهة في السابق حصرياً للسيطرة على السكان السود ومعاقتهم، في كفاحهم وشق طريقهم إلى نظام العدالة الجنائية العام، ففي أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات، كانت سياسات الخوف والغضب تجتاح البلاد وتؤجج الحبس الجماعي، لتحويل اهتمامها إلى الأطفال.

توقع علماء الإجرام المؤثرون موجة قادمة من «المفترسين الفائقين» الذين لن يتمكن نظام قضاء الأحداث من مواجهتهم، وحيث إن في بعض الأحيان ينصب التركيز صراحة على الأطفال السود والبنين، فقد توقع المنظرون أنه سيتم التغلب على أمريكا قريباً من قبل «شباب المدارس الابتدائية الذين يحملون الأسلحة بدلاً من وجبات الغداء والذين لا يحترمون الحياة البشرية مطلقاً. وقد دعا الذعر من موجة الجريمة الوشيكة المتوقعة من هؤلاء الأطفال «المتهورين والقساة الوحشيين» كل ولاية تقريباً إلى سن تشريعات تزيد من فرص تعرض الأطفال للمحاكمة في محاكم البالغين، ولذلك قامت العديد من الولايات بخفض أو إلغاء وجود حد أدنى لعمر الأطفال لمحاكمتهم كبالغين، مما ترك الأطفال في سن الثامنة عرضة لمقاضاتهم كبالغين وسجنهم في سجونهم.

كما شرعت بعض الولايات في تثبيت قواعد النقل الإلزامي، والتي أسقطت أي تقدير من المدعين والقضاة بشأن ما إذا كان يجب إبقاء الطفل في نظام الأحداث، وكانت نتيجة هذه القرارات أن عشرات الآلاف من الأطفال الذين سبق لهم أن حوكموا بنظام قضاء الأحداث، مع توفير الحماية و متطلبات الأطفال المتطورة، ألقوا بهم الآن في سجون البالغين المكتظة والعنيفة والبائسة.

ثبت أن تنبؤات «المفترسين الفائقين» تقتقر إلى الدقة بشكل كبير، بدليل ازدياد عدد الأحداث في أمريكا من عام ١٩٩٤ إلى عام ٢٠٠٠ مع انخفاض معدل جرائمهم مما دفع الأكاديميين الذين دعموا نظرية «المفترس الفائق» في الأصل إلى التوصل منها، وفي عام ٢٠٠١، أصدر الجراح العام للولايات المتحدة تقريراً يصف نظرية «المفترس الفائق» بأنها أسطورة وذكر:

« عدم وجود دليل على أن الشباب المتورطين في العنف خلال سنوات الذروة في أوائل التسعينيات كانوا أكثر تكراراً للجرائم أو أنهم أكثر شراسة من الشباب في السنوات السابقة». جاء هذا القبول متأخراً جداً بالنسبة للأطفال مثل ترينا وإيان وأنتونيو، حيث عزلت أحكام الإعدام الصادرة بحقهم في السجن من الطعون القانونية أو الطعون من خلال متاهة من القواعد الإجرائية وقوانين التقادم والحواز القانونية المصممة لجعل استئناف ما بعد الإدانة الناجحة شبه مستحيلة.

عندما قابلت ترينا وإيان وأنتونيو بعد ذلك بسنوات، كانت سنوات الحبس اليأس قد كسرتهم، كسرت شبابهم الضائع وأملهم الميت وطموحهم المفتت وكرامتهم المبعثرة في أرجاء تلك السجون، أدين هؤلاء الأطفال المختبئين في سجون البالغين قانونياً في ظل نسيان الجميع لهم وخذلانهم حتى أصبحوا مجهولين في عالمهم الغريب هذا، وكل ما يشغلهم كيف يستمرون ويبقون في تلك البيئات الخطيرة والمرعبة مع القليل من الدعم الأسري أو المساعدة الخارجية، لكن حالاتهم لم تكن استثنائية، فقد كان هناك الآلاف من الأطفال المشتبئين مثلهم في جميع أنحاء السجون في الولايات المتحدة، أطفال حُكم عليهم بالسجن مدى الحياة بدون إفراج مشروط أو بأحكام قاسية أخرى، كما بدا أن إخفاء هوية هؤلاء الأطفال زاد من محنتهم ويأسهم.

لقد وافقت على تمثيل ترينا وإيان وأنتونيو، وفي نهاية المطاف سيجعل مكتبنا من أحكام الإعدام الصادرة بحق هؤلاء الأطفال تحدياً محورياً في عملنا. وقد أصبح من الواضح أن أحكامهم المتطرفة والظالمة، لم تكن إلا إحدى المشاكل التي يجب التغلب عليها، فقد تضرروا جميعاً وصدموا من نظامنا القضائي.

إن الصحة العقلية والجسدية لترينا جعلت حياتها في السجن صعبة للغاية، لكنها كانت ممتنة لمساعدتنا وأظهرت تحسناً ملحوظاً عندما أخبرناها أننا سنقاتل من أجل تخفيض العقوبة، إلا أن لديها العديد من الاحتياجات الأخرى، فكثيراً ماتحدثت عن رغبتها في رؤية ابنها، فقد أرادت أن تشعر أنها ليست وحيدة في هذا العالم، ولنحسن من حالتها النفسية، تتبعنا أخواتها ورتبنا لهن أمر زيارتها حيث يمكن أن ترى ترينا ابنها، وعلى ما يبدو فقد نجحت خطتنا فقد تحسنت بشكل لم أكن أتصوره.

طرت إلى لوس أنجلوس وقدت لمئات الأميال في قلب الأراضي الزراعية في وسط كاليفورنيا لمقابلة أنتونيو في سجن محاط بأقصى درجات الأمن، تهيمن عليه العصابات والعنف المتكرر، لكنه كان يحاول تنقيف نفسه حول عالم حاول بكل ما أوتي من قوة أن يفسد التنمية البشرية الصحية، على الرغم من أنه كان يعاني من صعوبات في القراءة، إلا أن رغبته القوية في التعلم لم تقتصر، رغم استيعابه لحاجته لأن يقرأ كل فقرة مراراً وتكراراً، وقد دفعته عزمته للبحث عن الكلمات غير

المألوفة في القاموس الذي أرسلناه إليه، حتى يفهم معنى كل كلمة. أرسلنا إليه مؤخرًا كتاب «أصل الأنواع» لداروين، والذي نأمل أن يساعده على فهم من حوله بشكل أفضل.

اتضح أن إيان كان لامعًا جدًا، وعلى الرغم من كونه ذكيًا وحساسًا، فقد دمره وقته الطويل في الحبس الانفرادي، إلا أن هذا لم يمنعه من تثقيف نفسه، بقراءة مئات الكتب، وكتابة الشعر والقصص القصيرة التي تعكس فكره المتحمس والقوي، وقد أرسل لي عشرات الرسائل والقصائد. كنت كلما عدت إلى المكتب بعد السفر لبضعة أيام غالبًا ما أجد رسائل من إيان، و أحيانًا أجد ضمن الرسالة قصاصة من الورق المجعد، والتي بمجرد أن أفتحها، تكشف عن قصائد مدروسة ورصينة بعناوين مثل «دموع غير مجهولة»، «مقيدة بالكلمات»، «اللحظة التي لا ترحم»، «الصمت» و «الأربعاء الطقوس».

قررنا نشر تقرير للفت الانتباه إلى محنة الأطفال في الولايات المتحدة الذين حكم عليهم بالسجن حتى الموت، حيث فكرت في تصوير بعض عملائنا ليرى العالم الوجه غير الإنساني، ليرى العالم أنياب ذلك الوجه القبيح للسجن حتى الموت وكيف نهشت أرواح هؤلاء الأطفال، و لحسن الحظ فقد كانت فلوريدا واحدة من الولايات القليلة التي تسمح بدخول المصورين إلى السجن، لذلك سألنا مسؤولي السجن أن يسمحوا لإيان بالخروج من حبسه الانفرادي، لمدة ساعة حتى يتمكن المصور الذي استأجرناه من التقاط الصور له، ومن دواعي سروري أنهم وافقوا على أن يكون إيان في الغرفة نفسها مع مصور خارجي، وبمجرد انتهاء الزيارة كتب لي إيان على رسالة على الفور.

عزيزي السيد ستيفنسون:

أمل أن تصلك هذه الرسالة وأنت في تمام الصحة، أريد أن أطمئنك أن كل شيء يسير على ما يرام بالنسبة لك، النقطة المحورية في هذه الرسالة هي رغبتني في أن أشرك على جلسة التصوير مع المصور والحصول على معلومات منك حول كيفية حصولي على عدد جيد من الصور، فكما تعلم أنا أعيش في الحبس الانفرادي منذ أربع عشرة سنة ونصف، فالأمر يبدو كما لو أن هذا النظام قد دفنني حياً، فأنا بالنسبة لأوراقه مازلت على قيد الحياة، لكنني ميت بالنسبة للعالم الخارجي وهذا ما أشعر به، ففعلياً روحي غادرت هذا العالم منذ دفنت في ذلك الصندوق الإسمنتي وحيداً لا يرافقتني إلا الظلم الذي تقنن في تعذيبني و إذلالني وإثبات ضعفي أمامه، إنك لاتعلم يا بريان كم تعني لي هذه الصور، لذلك أود أن أسألك كم صورة تستطيع أن تشتري لي إن أرسلت لك دولارًا واحدًا؟ فكل ما لدي هو ١.٧٥ دولار في حسابي الخاص بالنزول الآن. أه يا إلهي فرحتي بجلسة التصوير اليوم، أنستني أن أخبرك أن اليوم ١٩ يونيو هو عيد ميلاد أمي المتوفاة. أعلم أن هذه المعلومة ليست ذات أهمية كبيرة، ولكن عندما فكرت في الأمر بعد ذلك بدا رمزيًا ومميزًا جدًا أن يكون يوم ميلاد أمي هو اليوم الذي حظيت فيه بالشيء الوحيد الذي أسعدني منذ كنت في الثالثة عشرة من عمري أي منذ أربع عشرة سنة!

لا أعرف كيف أجعلك تشعر بتلك المشاعر التي تجيش في صدري، فقد كانت هذه الصور بمثابة قطرات ماء سحرية سقطت على قلبي المقفر فأحيته، ولكن لكي أكون صريحًا أكثر، أريد أن يعرف

العالم أنني موجود و أنتفس و أشعر، أنني على قيد الحياة! أريد أن ألقى نظرة على تلك الصور لأشعر بالحياة! سيساعدني ذلك حقاً في تحمل هذا الألم الذي رافقني طوال تلك السنوات، لقد شعرت بالسعادة اليوم خلال جلسة التصوير، أنت لاتعلم مدى الحزن الذي يسكنني في كل مرة تنتهي فيها الزيارة وتغادرون، لكنني لا أسمح لتلك اللحظات بالمغادرة معكم فألتقطها وأحتفظ بها للوقت المناسب، وأسترجعها في عقلي لتمر أمام عيني كشريط مصور، فأشعر بالامتنان لهذا التفاعل البشري والتواصل ولكن اليوم كان مختلف، فمجرد المصافحة البسيطة كانت إضافة جميلة مرحب بها في حياتي البائسة والجافة التي تفتقر للمشاعر والأحاسيس ذات المعنى.

من فضلك قل لي كم عدد الصور التي يمكنني الحصول عليها؟ أريد أن تكون تلك الصور لي، بقدر ما أريد استنشاق هواء الحرية الذي يكسو الدنيا خارج ذلك الصندوق الإسمنتي الذي بت أشعر أنه جبل من لحمي ودمي، فأتمنى أن أخرج منه ليسقط على رأس القهر الذي يسكن في حناياه. شكراً لك أيان على وجود كل الأشياء الإيجابية، التي ألبست حياتي ثوب السعادة التي تعرت منه زمناً طويلاً، لا أعرف بالضبط كيف أهداني إياك القانون، لكنني أشكر الله على ذلك، إنني أقدر كل ما تقوم به أنت ومكتبك من أجلي. من فضلك أرسل لي بعض الصور، حسناً؟

الفصل التاسع

أنا هنا

أخيراً، حان موعد جلسة استماع والتر مكميلان، حيث سنتاح لنا أخيراً فرصة إرسال شهادة رالف مايرز الجديدة وجميع أدلة البراءة التي اكتشفناها في سجلات الشرطة والتي لم يُكشف عنها من قبل.

بحثنا أنا ومايكل في القضية عشرات المرات، لنفكر في أفضل طريقة لإرسال أدلة براءة والتر مسبقاً، وقد كان مايرز شاغلنا الأكبر، لأننا كنا نعلم في الغالب أنه سيشعر بضغط لا يحتمل بمجرد إعادته إلى محكمة المقاطعة، وأن هذا الضغط قد حطمه من قبل، لكننا شعرنا بالرضا من حقيقة أن الكثير من أدلتنا كانت وثائقية ويمكن الاعتراف بها، دون الحاجة للقلق بشأن تداعيات شهادة مايرز وعدم القدرة على التنبؤ بما قد تقدمه لنا.

أصبح لدينا الآن مساعد قانوني في فريق العمل، لذا أحضرنا معنا في القضية، بريندا لويس التي كانت ضابطة شرطة سابقة في مونتغمري، انضمت إلينا بعد أن شاهدت في قسم الشرطة الكثير من انتهاكات السلطة التي فاقت قدرتها على الاحتمال، وهي امرأة أميركية من أصل أفريقي، كانت بارعة حتى في البيئات التي كان جنسها أو عرقها سبب في طردها منها، و كنا قد طلبنا منها الاتصال بقاعدة شهودنا قبل جلسة الاستماع، لتجاوز التفاصيل الدقيقة الأخيرة وتهدة أعصابهم.

استدعى تشابمان مكتب المدعي العام للدولة للمساعدة في إثبات إدانة والتر، وأرسلوا مساعد المدعي العام دون فاليسكا، الذي شغل هذا المنصب منذ فترة طويلة والذي اشتهر بكونه شديداً ومقاوماً، وكان فاليسكا رجلاً أبيض في الأربعينيات من عمره، حيث ناسب إطاره المتوسط شخصاً ظل نشطاً، كما أضافت النظارات التي كان يرتديها الحزم إلى سلوكه الجاد، وقد كان شقيقه دوغ المدعي العام في مقاطعة هيوستن، وكان كلا الرجلين عدائيين ولا يقدمان أية تنازلات في مقاضاتهم لـ «الأشرار». تواصلنا أنا ومايكل مع تشابمان مرة أخرى قبل الجلسة لمعرفة ما إذا كان بإمكاننا إقناعه بفتح التحقيق مرة أخرى وإعادة النظر بشكل مستقل في إدانة ماكملان ولكن، تشابمان وجميع ضباط القانون سئموا منا، حيث بدأت عدوانيتهم تزداد كلما اضطروا للتعامل معنا، لقد فكرت في إبلاغهم عما تلقيناه من تهديدات بالقنابل أخرى بالقتل، لأن هذه التهديدات على الأرجح تأتي من أشخاص في مقاطعة مونرو، لكنني لم أكن واثقاً بأي شخص في مكتب المأمور أو المدعي العام. لم يكن تشابمان وحده، بل القاضي الجديد في القضية، القاضي توماس ب. نورتون جونيور، كان قد سئم منا أيضاً، فقد كان لدينا العديد من الجلسات السابقة للمحاكمة حول تحركات مختلفة حيث كان يشعر في بعض الأحيان بالإحباط بسبب المشاحنات بين المحامين، لكن هذا لم يثنينا عن إصرارنا على الحصول على جميع الملفات والأدلة التي بحوزة الولاية. لقد كشفنا عن الكثير من أدلة البراءة التي لم يُكشف عنها سابقاً لدرجة أننا كنا على يقين من أنه لا يزال هناك المزيد الذي لم يُسلم لنا بعد. أخبرنا القاضي أخيراً أننا كنا نصطاد الأسماك بعد أن قدمنا طلبنا التاسع أو العاشر للحصول على

المزيد من ملفات الشرطة والادعاء. أظن أن القاضي نورتون قد حدد موعد جلسة الاستماع النهائية للقاعدة ٣٢ جزئياً، لأنه أراد إزاحة هذه القضية المعقدة المثيرة للجدل من جدول أعماله وإخراجها من محكمته.

في المثل الأخير أمام المحكمة، سأل القاضي:

«كم من الوقت ستحتاج لإرسال الأدلة مسبقاً، سيد ستيفنسون؟»

برايان: «نحتاج إلى أسبوع حضرة القاضي».

القاضي: «أسبوع؟ لا بد أنك تمزح! أسبوع لجلسة القاعدة ٣٢؟ استمرت المحاكمة في هذه القضية ليوم ونصف فقط».

برايان: «نعم سيدي. نعتقد أن هذه حالة استثنائية وهناك العديد من الشهود و....

القاضي: «ثلاثة أيام، يا سيد ستيفنسون. إذا لم تتمكن من تقديم أدلة قضيتك في غضون ثلاثة أيام بعد كل هذه الدراما التي أثرتها، فلن يكون لديك أي شيء» برايان: سيادة القاضي، أنا.....

القاضي: «رُفعت الجلسة»

بعد قضاء يوم طويل آخر في مونرو فيل لتعقب بعض الشهود النهائيين، عدت أنا ومايكل إلى المكتب للتخطيط لكيفية إرسال جميع الأدلة مسبقاً في الوقت الضيق الذي حدده القاضي لنا، وقد كنا بحاجة إلى جعل تعقيد القضية والطرق المتعددة التي انتهكت فيها حقوق والتر متماسكة ومفهومة بالنسبة للقاضي. وكان مايبرز وحبه للرواية الخيالية مصدر قلق آخر، لذلك جلسنا معه قبل أيام قليلة من جلسة الاستماع وحاولنا أن نجعل شهادته واضحة قدر الإمكان.

قلت: «لا مزيد من الروايات حول فساد الشرطة، فقط أجب على الأسئلة بدقة وصدق، رالف».

قال رالف بثقة: «أقوم بذلك دائماً».

سأل مايكل: «انتظر، هل قلت أنك تفعل ذلك دائماً؟ ما الذي تتحدث عنه، ما الذي تفعله دائماً؟ رالف، لقد وصل كذبك عنان السماء طوال هذه المحاكمة وهذا ما سنكشفه في هذه الجلسة» قال مايبرز ببرود: «أعرف، قصدت أنني سأقول لك دائماً الحقيقة».

قال مايكل: «لا تفزعني، رالف. فقط اشهد بالحقيقة»

كان رالف يتصل بمكتبنا يوميًا تقريبًا مع سيل لا نهاية له من الأفكار والآراء والمؤامرات الغريبة، وقد كنت مشغولاً جداً في كثير من الأحيان للتحدث معه، لذلك كان مايكل هو من يتلقى معظم المكالمات مما جعل قلقه يزداد بشأن منظور رالف الفريد للعالم. لكن لم يعد لدينا ما نفعله حيال ذلك.

وصلنا إلى المحكمة في وقت مبكر من صباح الجلسة، لكن قلقنا جعل الوقت المتبقي ثقيلاً ثقل مصيبة والتر.

كنا كلانا نرتدي بذلات داكنة وقمصان بيضاء وربطات عنق جامدة، وقد كنت عادة ما أرتدي ملابس متحفظة قدر الإمكان في المحكمة. كنت شاب أسود ملتج، وحتى في حال عدم وجود هيئة محلفين، كنت أعمل على أن أكون عند حسن ظن المحكمة من خلال المظهر اللائق لمحامي، طالما يصب هذا في مصلحة موكلي. ذهبنا قبل كل شيء للإطمئنان على مايرز والتأكد من أنه وصل بأمان وأن حالته الذهنية مستقرة قبل بدء جلسة الاستماع، وقد أحضر نواب مأمور مقاطعة بالدوين رالف من السجن في مقاطعة سانت كلير إلى المحكمة في الليلة السابقة لجلسة الاستماع. وذهبنا لنلتق به في زنارته حيث كان قلقاً بشكل ملموس، والأسوأ من ذلك أنه كان هادئاً ومتحفظاً على غير عادته، مما أثار استغرابنا، لكن تلك الرحلة ذات الخمس ساعات عبر الطرق الليلية في جنوب ألاباما كان لها آثارها على رالف، بعد أن انتهينا من هذا الاجتماع المقلق ذهبنا لرؤية والتر، الذي كان هو الآخر في إحدى الزنازين الموجودة في قبة المحكمة وقد لاحظت أن عودته إلى المحكمة حيث تواجه بمصيره المحتوم قبل أربع سنوات قد هزه أيضاً، لكنه أجبر نفسه على الابتسام عندما دخلت.

سألته: «هل كانت الرحلة جيدة؟»

والتر: «كل شيء بخير. ولكنني أمل أن تكون هذه المرة مختلفة عن سابقتها وأن يحدث شيء يقضي على الذكرى السيئة التي ارتبطت عندي بهذا المكان».

أومأت له برأسي وأنا متعاطف معه بكل كياني وراجعت معه ما اعتقدت أنه سيكشف خلال الأيام القليلة القادمة. بعد لقائي مع والتر، شققت طريقي إلى الطابق العلوي للاستعداد لبدء المحاكمة، و صدمت لما رأيته فور دخولي قاعة المحكمة، لقد كان هناك حشد من عشرات الأشخاص من المجتمع - معظمهم من السود والفقراء - في منطقة المشاهدة، و على جانبي القاعة، مجموعة من أفراد عائلة والتر و أشخاص حضروا فعالية بيع السمك في يوم الجريمة و غيرهم ممن قابلناهم خلال الأشهر العديدة الماضية، وآخرين عرفوا والتر من خلال العمل معه، حتى سام كروك وبوسي، محاصران في قاعة المحكمة، ابتسمت لي ميني وأرمليا عندما دخلت إلى المحكمة.

ثم دخل توم تشابمان مع دون فاليسكا، وقاما بمسح الغرفة بنظرة سريعة لكنها فضحت التعاسة التي كست وجوههم من وجود هذا الحشد. تيت ولاري إيكنر وبنسون - فريق تطبيق القانون المسؤول في المقام الأول عن ملاحقة والتر - جلسوا في قاعة المحكمة أيضاً متراكمين خلف المدعين، وقد اصطحب نائب المأمور والدي روندا موريسون إلى مقدمة المحكمة قبل بدء الجلسة مباشرة. عندما أخذ القاضي مقعده، ارتفع حشد الوجوه السوداء بشكل صاخب كأنهم شخص واحد ثم جلسوا مرة أخرى، بدا العديد من أفراد الجالية السوداء مرتدين ملابس الكنيسة، فقد كان الرجال يرتدون البدلات، وبعض النساء ارتدين القبعات، وقد استغرق الأمر منهم بضع ثوان ليستقروا في صمت، الأمر الذي أزعج القاضي نورتون. لكن حضورهم ولد بداخلي طاقة كبيرة حولتني إلى شعلة نشاط وكنا سعداء لوالتر الذي جاء الكثير من الناس لدعمه.

كان القاضي نورتون رجلاً أبيض وأصلع في الخمسينات من عمره، لم يكن طويلاً، لكن هيئة المقعد المرتفع جعلته يبدو مثل أي قاضي، وقد أدار بعض جلسات الاستماع الأولية السابقة في

الدعوى، ولكن ثوب القضاء ومطرقته التي طرقها بحزم

قائلاً: «أيها السادة، هل نحن مستعدون للمضي قدماً؟».

أجبت: «نعم حضرة القاضي، لكننا نعتزم استدعاء العديد من ضباط تطبيق القانون الذين أرسلوا مسبقاً إلى قاعة المحكمة، كما أود أن أُنذِر بقاعدة الحجز».

(وهي قاعدة تنص على أنه في القضايا الجنائية، يُطلب من الشهود الذين سيشهدون في الجلسة، الجلوس خارج قاعة المحكمة كي لا يفكروا بتغيير شهادتهم بناءً على ما يقوله الشهود الآخرون.)

انتهض فيسكا واقفاً على قدميه فوراً وقال:

«لا حضرة القاضي، هذا لن يحدث فهو لاء هم المحققون الذين اكتشفوا هذه الجريمة البشعة، ونحن بحاجة لهم في المحكمة لإرسال أدلتنا مسبقاً».

بقيت واقفاً على قدمي و قلت: «إن الدولة لا تتحمل عبء إجراءات تقديم القضية حضرة القاضي، بينما نحن نفعل، ناهيك عن أن هذه ليست محاكمة جنائية بل جلسة استماع لأدلة ما بعد الإدانة». رد فاليسكا قائلاً: «أيها القاضي، هم من يحاول إعادة النظر في هذه القضية ونحن بحاجة إلى بقاء موظفينا في الداخل».

قفز القاضي قائلاً: «حسنًا، يبدو أنك تحاول إعادة النظر في القضية يا سيد ستيفنسون، لذلك سأسمح للولاية بالابقاء على محققي الجرائم في قاعة المحكمة».

لم تكن بداية جيدة لكنني قررت المضي قدماً، في البيان الافتتاحي قبل استدعاء مايرز كأول شاهد لنا، وقد أردت أن يفهم القاضي أننا عملنا كثيراً و بجد كي ندافع عن السيد مكميلان من زاوية مختلفة، عن تلك التي استخدمها محاميه الأصليون للدفاع عنه، كما أردت منه أن يعرف أن لدينا أدلة جديدة مثيرة تثبت براءة والتر.

وطالبت المحكمة بالإفراج الفوري عنه، لكننا لن ننجح إذا لم يصغي القاضي لأدلتنا.

برايان: «حضرة القاضي، لقد تحولت قضية الولاية ضد والتر مكميلان تحولاً جذرياً بشهادة رالف مايرز، المدان بعدة جنايات سابقة وقضية قتل أخرى معلقة ضده في مقاطعة إسكامبيا في الوقت الذي يحاكم فيه السيد مكميلان. وخلال المحاكمة، أكد السيد مكميلان أنه بريء وأنه لم يكن له أي صلة بالسيد مايرز وأنه لم يكن يعرفه حتى وقت ارتكاب هذه الجريمة. وقد حافظ على براءته طوال هذه الإجراءات».

كان القاضي يتململ وبدا مشتتاً عندما بدأت، لذلك توقفت مؤقتاً، فحتى لو لم يوافق كان يجب أن يسمع ما أقوله، لذا توقفت عن الكلام حتى أتأكد من أنه كان يولي اهتماماً وثيقاً لما أقوله، وأخيراً تواصلت معي بالعين، فواصلت دفاعي وقلت: «لا يوجد أدنى شك في أن والتر مكميلان أدین بجريمة القتل بناءً على شهادة رالف مايرز، فلم يكن هناك أي دليل آخر لإثبات إدانة السيد مكميلان بتهمة القتل العمد في محاكمة أخرى غير شهادة مايرز، حيث لم يكن لدى الولاية أدلة مادية تربط

السيد مكميلان بهذه الجريمة، ولم يكن لديها دافع، كما لم يكن لديها شهود على الجريمة، أي أن رالف مايرز كان سلاح الولاية الوحيد ضد مكميلان».

و تابعت: «في المحاكمة، شهد مايرز أنه شارك دون علم ودون قصد في جريمة قتل وسرقة كبرى حدثت يوم ١ نوفمبر ١٩٨٦، عندما رآه والتر مكميلان في المحطة حيث كان يغسل السيارة وطلب منه قيادة شاحنته لأن» ذراعه مصابة» ثم ذكر أنه قاد السيد مكميلان إلى متجر منظفات جاكسون، وذهب بعد ذلك إلى عمال النظافة، ورأى مكميلان يحمل مسدس، ثم وضع المال في كيس بني، كما ذكر وجود رجل آخر، كل ما ذكره عنه أنه كان أبيض ذو شعر يمتزج بين السواد والبياض وأرسل مسبقاً إلى متجر المنظفات. وأكد مايرز أن السيد مكميلان دفعه وهدده عندما ذهب إلى متجر المنظفات. كما زعم أن الشخص الثالث الغامض، الذي يُفترض أنه مسؤول عن ملابسات الجريمة، أمر مكميلان «بالتخلص من مايرز» لكن السيد مكميلان لم يستطيع القيام بذلك لأن سلاحه كان فارغاً من الرصاص، لكن هذا الرجل الأبيض نجح بشكل إعجاذي في البقاء متخفياً حتى هذه اللحظة و كأنه تبخر، فقد عجزت الولاية عن التعرف عليه أو اعتقاله رغم أنه المسؤول عن هذه الجريمة، أو بالأصح فإن الولاية لم تبحث أصلاً عن الشخص الثالث، الذي عرفه الشاهد على أنه زعيم العصابة في هذه الجريمة، ولكن ترا لماذا لم تبحث الولاية عنه؟ ببساطة وكما أعتقد لأنهم يدركون أن هذا الشخص غير موجود» توقفت مرة أخرى لإعطاء فرصة للتعمق في المعنى الذي قصدته، ثم تابعت: «واستناداً إلى شهادة رالف مايرز، أدين والتر مكميلان بارتكاب جريمة قتل وحكم عليه بالإعدام. لقد كانت شهادة رالف مايرز خاطئة تماماً كما سمعنا، أكرر يا حضرة القاضي كانت شهادة رالف مايرز في المحاكمة كاذبة تماماً».

أخذت لحظة قبل أن أنتقل إلى المأمور وأطلب منه دعوة مايرز إلى الوقوف، وكانت قاعة المحكمة غارقة في الصمت حتى فتح النائب الباب المؤدي إلى منطقة الاحتجاز ودخل رالف مايرز إلى قاعة المحكمة. وسرت بين الحضور بعض التمتعات التي انتشرت القاعة من صمتها كردة فعل على دخول مايرز. كان رالف قد تقدم في العمر بشكل واضح منذ آخر مرة شاهده فيها العديد من الأشخاص في قاعة المحكمة ؛ فقد سمعت لغط حول تحول شعره إلى الرمادي، كما بدا أبيضاً في سجنه، وللمرة الثانية بدا لي مايرز صغير وحزين عندما صعد إلى منصة الشهود، وقد جال ببصره في أرجاء قاعة المحكمة بقلق قبل أن يرفع يده ويقسم اليمين على قول الحقيقة. انتظرت حتى هدأت قاعة المحكمة. كان القاضي نورتون ينظر إلى مايرز بانتباه.

سرت لأبدأ الاستجواب، بعد أن طلب منه ذكر اسمه للتسجيل وإثبات أنه قد مثل أمام المحكمة سابقاً وشهد ضد والتر مكميلان، حان الوقت لإصابة قلب الحقيقة. سرت بالقرب من منصة الشهود.

برايان: «سيد مايرز، هل كانت شهادتك ضد السيد مكميلان، أمام هيئة المحكمة الموقرة صحيحة؟» كنت أمل ألا يلاحظ القاضي أنني أحبس أنفاسي في انتظار رد رالف. نظر إلي رالف بهدوء لكنه تحدث بعد ذلك بكل وضوح وثقة قائلاً:

رالف: «لا على الإطلاق».

ساد الهرج والمرج قاعة المحكمة الآن، لكن سرعان ما هدا الحشد لسماع المزيد. برايان: «لا على الإطلاق»، كررت قبل المتابعة. كنت أرغب في وضع رالف في الزاوية، لكنني لم أرغب في التردد لفترة طويلة لأننا كنا بحاجة إلى المزيد،

فسألته: «هل رأيت السيد مكميلان في اليوم الذي قُتلت فيه روندا موريسون؟»

مايرز: «بالطبع لا».

بدا رالف ثابتاً بينما كان يتحدث.

برايان: «هل قدت شاحنته إلى مونرو فيل في ذلك اليوم؟»

مايرز: «بالطبع لا».

برايان: «هل ذهبت إلى متجر منظفات جاكسون عندما قُتلت روندا موريسون؟»

مايرز: «لا. لم أفعل ذلك قط».

لم أكن أريد أن تعتقد المحكمة أن رالف كان ينكر تلقائياً كل ما سألته وكأنه إنسان آلي، لذلك سألت سؤالاً يتطلب إجابة إيجابية.

برايان: «الآن، في محاكمة السيد مكميلان، هل قدمت بعض الشهادات على وجود رجل أبيض داخل متجر المنظفات، عندما دخلت إلى الداخل؟»

مايرز: «نعم، لقد فعلت».

طالما تجرأت على طرح أسئلة على رالف نعم / لا. كان لابد أن أذهب للحد الأقصى فسألته: «ماهي تلك الشهادة من فضلك؟»

مايرز: «كما أذكر، كانت الشهادة أنني سمعت والتر مكميلان يقول شيئاً لهذا الرجل، وقد تذكرت أيضاً أنني رأيت الجزء الخلفي من رأسه.... هذا كل ما يمكنني تذكره بشأن ذلك».

برايان: «هل كانت هذه الشهادة صحيحة يا سيد مايرز؟»

مايرز: «لا، لم تكن كذلك». نجحنا الآن بلفت انتباه القاضي ليستمع باهتمام شديد

برايان: «هل كانت أي من المزاعم التي أدليت بها ضد والتر مكميلان حول تورطه في جريمة قتل روندا موريسون صحيحة؟»

وهنا توقف رالف مؤقتاً ونظر حول قاعة المحكمة قبل أن يجيب. ولأول مرة بدا صوته وكأنه يرتجف من الندم وقال بصوته الذي غلبت عليه العاطفة لأول مرة. مايرز: «لا».

بدت المحكمة الآن وكأنها ستنفجر من الأنفاس المحبوسة في صدور جميع من فيها ولكن هذا لم يمنع ارتفاع الضجيج من العديد من أنصار والتر.

كانت لدي نسخة من محضر المحاكمة مما مكنني من مباغته رالف من خلال كل جملة في

شهادته ضد والتر، حتى اعترف ببيان أن شهادته السابقة كانت خاطئة تماماً. كان مايرز مباشراً ومقتنعاً، وغالباً ما كان يدير رأسه ليوجه نظرات مباشرة إلى القاضي نورتون أثناء تحدّثه. عندما جعلته يكرر أجزاء من شهادته حول إجباره على الشهادة زوراً، ظل رالف هادئاً ويتحدّث بصدق مطلق، حتى استجواب تشابمان المطول عجز عن زعزعته، وبعد استجواب لا هوادة فيه حول سبب تغيير شهادته واقترح تشابمان بأن شخصاً ما كان يضعه في هذا الأمر، وهنا تحول رالف إلى رجل ساخط. نظر إلى المدعي العام

وقال: «أنا، يمكنني ببساطة أن أنظر في وجهك ووجه أي شخص آخر و أن أضع عيني في عينيك وأخبرك أن هذا كل ما لدي - أي شيء قيل عن ماكلان كان محض كذبة... على حد علمي، لم يكن لماكميلان أي علاقة بهذا لأنه في اليوم، الذي يقولون أنه ارتكب فيه الجريمة في متجر المنظفات، لم أر ماكميلان حتى، وهذا بالضبط ما أخبرت به الكثير من الناس».

عند متابعة الاستجواب، طلبت من رالف أن يعترف مرة أخرى بأن شهادته في المحاكمة كانت كاذبة وأنه وضع قصداً رجلاً بريئاً على قوائم تنفيذ حكم الإعدام. ثم أخذت لحظة وسرت إلى طولة الدفاع للتأكد من أنني لم أنس أي شيء. راجعت ملاحظاتي ثم نظرت إلى مايكل.

برايان: «هل نحن بخير؟» بدا مايكل مندهشاً.

مايكل: «كان رالف رائعاً. لقد كان حقاً رائعاً حقاً».

نظرت إلى والتر ثم أدركت أن بعض الدموع وجدت طريقها إلى عينيه. كان يهز رأسه من جانب إلى آخر بعدم تصديق وكأنه يحلم. وضعت يدي على كتفه قبل أن أعلن للمحكمة:

برايان: «يمكن للشاهد المغادرة فليس لدينا أسئلة أخرى».

وقف مايرز لمغادرة قاعة المحكمة. عندما قاده النواب إلى باب جانبي، نظر بأسف إلى والتر وقد حملت عينيه كل معاني الاعتذار قبل أن يغادر بررفتهم. لست متأكداً أن والتر رآه. بدأ الهمس بالانتشار في القاعة مرة أخرى، وسمعت أحد أقارب والتر يقول بنبرة خافتة:

«شكراً لك يا يسوع!»

أما التحدي التالي الذي واجهناه، كان دحض شهادة بيل هوكس وجو هايتاور، الذي ادعى أنه رأى شاحنة والتر المعدلة، وهي تتحرك من أمام متجر المنظفات في الوقت الذي قُتل فيه روندا موريسون.

دعوت كلاي كاست إلى المنصة. شهد الميكانيكي الأبيض أن شاحنة ماكلان لم تكن منخفضة في نوفمبر ١٩٨٦ عندما قُتل روندا موريسون. كان لدى كاست سجلات وتذكر بوضوح أنه عدل شاحنة والتر في مايو ١٩٨٧، أي بعد ستة أشهر من اليوم الذي زعم فيه هوكس وهيتاور، أنهم رأوا شاحنة منخفضة تقود السرعة عند مركز المنظفات، و انهينا اليوم مع وودرو إيكنر، وهو ضابط شرطة مونرو فيل الذي شهد بأنه أول من وصل مكان الحادث وأن جثة روندا موريسون لم تكن

حيث شهد مايرز. وقال إيكنر إنه بدا واضحًا من ملاحظته لمسرح الجريمة، أن موريسون أصيبت برصاصة في الظهر بعد صراع بدأ في الحمام وانتهى في مؤخرة متجر المنظفات، حيث عثر على الجثة، وبالتالي تناقض وصف إيكنر للمشهد مع التأكيد الذي أدلى به مايرز في المحاكمة، حول رؤية موريسون بالقرب من المنضدة الأمامية، والأهم من ذلك شهد إيكنر أن بيرسون المدعي العام للمحاكمة طلب منه، أن يشهد على أن جثة موريسون قد جُرّت عبر المتجر من المنضدة الأمامية إلى المكان الذي عثرت عليه فيه. كان إيكنر ساخطًا وهو يتذكر المحادثة. كان يعلم أن مثل هذه الشهادة ستكون كاذبة، وقال للمدعين العامين أنه رفض الكذب. وسرعان ما خرج من قسم الشرطة.

يمكن لجلسات الاستماع أن تكون مرهقة مثل المحاكمات أمام هيئة المحكمة. لقد أجريت استجوابًا مباشر لجميع الشهود، وفوجئت عندما أدركت أن الساعة كانت قد وصلت الخامسة مساءً. كانت الجلسة على ما يرام لقد كنت أشعر بالحماس والإثارة لتمكني في النهاية من تقديم كل الأدلة التي تثبت براءة والتر، كما أنني راقبت القاضي نورتن للتأكد من أنه لا يزال متابعًا لنا، وقد بدا متأثرًا بشكل واضح بالإجراءات مما جعلني أجزم أن تلك النظرة على وجهه كشفت عن مدى ارتبائه بشأن ما سيفعله في ضوء هذه الأدلة، وكنت سعيدًا بارتباك القاضي وقلقه المكتشف حديثًا حيث اعتبرت أن هذا تقدمًا حقيقيًا.

كان جميع الشهود الذين اتصلنا بهم خلال اليوم الأول من البيض، ولم يكن أي منهم الولاء لوالتر ماكميلان، و على ما يبدو ناقض هذا الشيء توقعات القاضي نورتن، ولكن عندما اعترف كلاي كاست أن الشاحنة التي وصفها شهود الولاية بأنها «معدلة» لم تُعدل حتى ما يقرب من سبعة أشهر بعد وقوع الجريمة، بات الغضب جليًا على وجه القاضي وغاصت خطوط القلق في وجهه، بينما يدون ملاحظاته، أما عندما أعلن وودرو إيكنر أنه فصل من العمل لمجرد محاولته قول الصدق بشأن الأدلة ضد ماكميلان، بدا القاضي مهتزًا و كان هذا الدليل الأول الذي يشير إلى أن الأشخاص في قوة تطبيق القانون، أصروا بشدة على إدانة والتر لدرجة أنهم كانوا على استعداد لتجاهل أو حتى إخفاء الأدلة التي تناقض هدفهم.

عندما أكمل وودرو إيكنر شهادته، كنا قد وصلنا إلى أعماق فترة ما بعد الظهر. نظر القاضي إلى الساعة وأسماها اليوم، أما بالنسبة لي فقد أردت الاستمرار، حتى منتصف الليل إذا لزم الأمر، لكنني أدركت أن ذلك لن يحدث، فذهبت إلى والتر. وقلت: «علينا التوقف الآن؟»

سأل بقلق: «نعم، ولكننا سنستمر ونستمر صباح الغد».

ابتسمت له، وسررت عندما ابتسم. نظر والتر إليّ بحماس وقال:

«يا رجل، لا يمكنني أن أخبرك بما أشعر به الآن، طوال هذا الوقت كنت أنتظر الحقيقة لكن لم أسمع سوى أكاذيب، لا أصدق أن هذه اللحظة قد أتت، أنا فقط» «سار نائب يرتدي الزي الرسمي وقاطعنا قائلًا:

«نحن بحاجة لإعادته إلى الزنزانة، سيتعين عليك التحدث إليه هناك».

وبدا أن الاستقراز قد أخذ من الضابط الأبيض المتوسط العمر كل مأخذ، لم أعر ذلك كثيرًا من الاهتمام وأخبرت والتر أنني سأنزل إليه لاحقًا. كان يمكن للأعمى أن يرى الأمل وهو يزهر ابتسامات على وجوه الناس عند خروجهم من قاعة المحكمة.

لقد جاء أفراد عائلة والتر إليّ وعانقوني، كانت شقيقة والتر أرميليا وزوجته ميني وابن أخته جايلز يتحدثون بحماس عن الأدلة التي قدمناها.

عندما عدنا إلى الفندق، كان مايكل أيضًا مندفعًا ومتحمسًا.

قال: «يجب أن يتصل بك تشابمان ليقول إنه يريد إسقاط التهم الموجهة ضد والتر والسماح له بالعودة إلى المنزل».

أجبت: «دعنا لا نحبس أنفاسنا ونعلق آمالنا بانتظار تلك المكالمات».

بدا تشابمان منزعًا عندما غادرنا المحكمة، وكان لا يزال لدي بعض الأمل في أن يتولى هذا الأمر و يساعدنا، لكننا بالتأكيد لم نتمكن من التخطيط لذلك.

وصلت إلى المحكمة في وقت مبكر من صباح اليوم التالي لزيارة والتر في زنزانته في الطابق السفلي قبل بدء الإجراءات، وعندما عندما صعدت إلى الطابق العلوي، ارتبكت لرؤية حشد غفير من السود يجلسون خارج قاعة المحكمة في البهو. لقد حان الوقت لبدء الإجراءات، صعدت إلى أرميليا التي كانت تجلس مع الآخرين خارج قاعة المحكمة، ونظرت إلي بقلق.

سألت: «ما الخطب؟ لماذا لستم داخل قاعة المحكمة؟» نظرت حول الردهة. إذا كنت أظن أن أعداد الناس التي كانت متواجدة بالأمس كبيرة، لكن العدد الذي أراه في جلسة اليوم أثبت لي أنني كنت مخطئًا بشأن تفسير كلمة كبير، فجلسة اليوم جلبت عدد مهولًا من الناس، بما في ذلك رجال الدين وكبار السن من ذوي الألوان التي لم أرها من قبل.

قالت أرميليا: «لم يسمحوا لنا بالدخول، سيد ستيفنسون».

قلت: «ماذا تقصدين بأنهم لم يسمحوا لكم بالدخول؟»

قالت: «حاولنا الدخول في وقت سابق، وقالوا أننا لا نستطيع الدخول، يوجد هناك شاب يرتدي زي نائب رئيس الشرطة يقف أمام مدخل قاعة المحكمة، ورفض إدخالنا». سرت باتجاهه ورفع ذراعه ليوقفني.

قلت بحزم: «أريد الدخول إلى قاعة المحكمة».

الشاب: «لا يمكنك الدخول».

برايان «ماذا تعني بأنه لا يمكنني الدخول؟ من المقرر عقد جلسة استماع وأريد الدخول» الشاب: «أنا آسف يا سيدي، لا يمكنك الدخول إلى قاعة المحكمة».

سألت: «لَمْ لا؟»، لكنه بقي صامتًا ولم يجب، وأخيرًا، أضفت:

«أنا محامي الدفاع. أعتقد أنني يجب أن أتمكن من الدخول إلى قاعة المحكمة.» نظر إلي عن كثب وكانت الحيرة واضحة عليه

الشاب: «أم، لا أعرف علي الذهاب لأتحقق من الأمر.» و اختفى داخل قاعة المحكمة. عاد بعد لحظات قليلة وقال لي مبتسما:

«أم، يمكنك الدخول.» ودفعني ففتحت الباب ورأيت أن قاعة المحكمة بأكملها قد تغيرت؛ حيث وضعوا كاشفاً كبيراً للمعادن داخل باب قاعة المحكمة، وعلى الجانب الآخر أوقف ضابط شرطة حارساً ألمانياً ضخماً. كانت قاعة المحكمة نصف ممتلئة بالفعل، فالمقاعد التي شغلها مؤيدو والتر في اليوم السابق كانت في الغالب مشغولة من قبل كبار السن من البيض، و من الواضح أن الناس هنا كانوا يدعمون موريسون والمحكمة، أما تشابمان وفاليسكا فجلسا بالفعل إلى طاولة المدعي العام، وتصرفا وكأن شيئاً لم يحدث. وهذا ما جعلني استشيط غضباً.

ذهبت إلى تشابمان.

سألته: «من قال للنواب ألا يسمحوا للناس بالخارج بالدخول إلى قاعة المحكمة؟» نظرا إلي كما لو أنهما لا يعرفان ما كنت أتحدث عنه.

قلت: «سأتحدث إلى القاضي حول هذا الأمر.» استدرت على أعقابى وذهبت مباشرة إلى غرفة القاضي وتبعني المدعون، عندما شرحت للقاضي نورتون أن النواب منعوا عائلة ماكميلان ومؤيديه من الدخول إلى قاعة المحكمة، على الرغم من أن مؤيدي الدولة سُمح لهم بالدخول، رفع القاضي عينيه وبدا منزعجاً. وقال لي: «سيد ستيفنسون، سيضطر مؤيدوك للوصول إلى هنا في وقت مبكر.» قلت: «حضرة القاضي، المشكلة ليست أنهم لم يكونوا هنا في وقت مبكر. المشكلة أن هناك من قال لهم إنهم لا يستطيعون دخول قاعة المحكمة.»

رد: «لا يمكن لأحد أن يمنع أحد من دخول قاعة المحكمة، سيد ستيفنسون.»

التفت إلى المأمور، الذي غادر الغرفة. تابعت مأمور المحكمة ورأيت يهمس بشيء ما للنائب خارج قاعة المحكمة. سيُسمح لمؤيدي ماكميلان بالدخول إلى قاعة المحكمة، الآن وبعد أن امتلأت نصف قاعة المحكمة بالفعل. سرت إلى حيث جمع وزيران كل مؤيدي والتر وحاولا شرح الوضع.

قلت: «أنا أعتذر لكم جميعاً، لقد قاموا بفعل شيء غير لائق حقاً اليوم، لكنهم سيسمحون لكم بالدخول الآن، لكن قاعة المحكمة ممتلئة بالفعل بأناس جاءوا لدعم الولاية خصباً، فلن تكون هناك مقاعد كافية للجميع.» وسار إلي أحد الوزراء، وهو رجل أمريكي من أصل إفريقي يرتدي بذلة سوداء مع صليب كبير حول عنقه.

فقال: «سيد. ستيفنسون، لا بأس من فضلك لا تقلق بشأننا، فسيكون لدينا عدد قليل من الأشخاص ليمثلونا اليوم، وغداً أيضاً سنكون هنا في وقت مبكر، و لن ندع أحداً يسيطر علينا يا سيدي.» بدأ الوزراء في اختيار الأشخاص ليمثلوهم في قاعة المحكمة. أخبروا ميني وأرمليا وأطفال والتر والعديد من الآخرين أن يستمروا. عندما استدعى الوزراء السيدة ويليامز، أشرقت الابتسامة على

وجوه الجميع، وقفت السيدة ويليامز - وهي امرأة سوداء كبيرة السن - وجهزت نفسها لدخول قاعة المحكمة، و لقد اهتمت بشدة بإصلاح شعرها بشكل صحيح، وكانت قد ارتدت فوق شعرها الرمادي قبعة صغيرة عدلت موضعها بدقة، ثم قامت بسحب وشاح أزرق طويل لفته بدقة حول رقبتها، وعندها فقط بدأت في شق طريقها ببطية إلى باب قاعة المحكمة حيث تشكل خط من مؤيدي ماكميلان . لقد وجدت السلسلة التي علقت بها تعويذتها المقدسة، ولكن عندما كُسرت التعويذة، أدركت أنني بحاجة إلى الذهاب بنفسى. لم أقض الصباح في تحضير الشهود كما كنت أنوي، فبدلاً من ذلك انجذبت إلى سوء المعاملة الحمقاء لمؤيدي ماكميلان. مررت بجانب خط أولئك الناس الصابرين وذهبت إلى الداخل لبدء التحضير لجلسة الاستماع.

كنت أقف عند طاولة المحامين عندما رأيت من زاوية عيني أن السيدة ويليامز وصلت إلى باب قاعة المحكمة، لقد كانت أنيقة للغاية في قبعتها ووشاحها، لم تكن امرأة ضخمة ولكنها كانت جذابة كما كان لها حضور مميز لم أستطع أن أساعدها لكنني كنت أراقبها وهي تتحرك بعناية عبر المدخل باتجاه جهاز الكشف عن المعادن. كانت بطيئة في مشيتها أكثر من أي شخص آخر، لكن رأسها كانت مرفوعة بشموخ و كبرياء لا يمكن إنكارهما. لقد ذكررتي بالنساء الأكبر سناً اللواتي كنت أراهن طوال حياتي - النساء اللواتي عانين من قسوة الحياة ولكن هذا لم يغير من طباعهن اللطيفة ولم يثنيهن عن تكريس أنفسهن لبناء مجتمعاتهن والحفاظ عليها. نظرت السيدة ويليامز إلى الصفوف بحثاً عن كرسي متاح لتجلس، ثم استدارت للسير عبر جهاز الكشف عن المعادن - وعندها شاهدت الكلب.

رأيت كيف تساقطت كل رباطة جأشها، وتحت لصالح مظهر الخوف المطلق فقد تراخى كنفها وترهل جسدها وبدأت مشلولة، حيث وقفت هناك متجمدة لأكثر من دقيقة ثم بدأ جسدها يرتجف ثم اهتز بشكل ملحوظ، حتى أنني سمعت أنينها.

كانت الدموع تنهمر من عينيها وبدأت تهز رأسها بحزن. ظللت أشاهدها حتى استدارت وخرجت بسرعة من قاعة المحكمة. شعرت أن مزاجي الخاص تعكر، على الرغم من أنني لم أعرف ما حدث للسيدة ويليامز بالضبط، لكنني كنت أعلم أنه في الألباما، لم تتسجم كلاب الشرطة والسود الذين يبحثون عن العدالة بشكل جيد.

كنت أحاول التخلص من الشعور الكئيب الذي تولد من أحداث الصباح عندما أحضر الضباط والتر إلى قاعة المحكمة، ونظرًا لعدم وجود هيئة محلفين، لم يسمح لي القاضي بإعطائه ملابس رسمية لارتدائها، لذا كان والتر يرتدي زي السجن، ولكنهم سمحوا له بالبقاء في قاعة المحكمة بدون قيود، مع أصرارهم على تكبيل كاحليه. تشاورت مع مايكل لفترة وجيزة حول ترتيب الشهود، حيث تقدمت بقية عائلة ماكميلان ومؤيديه ببطء عبر جهاز الكشف عن المعادن، مروراً بالكلاب داخل قاعة المحكمة.

على الرغم من مناورات الولاية في الصباح الباكر والفأل السيئ لما أصاب السيدة ويليامز جراء رؤية الكلب، كان لا يزال لدينا يوم جيد آخر في المحكمة؛ فكان هناك شهادة مايروز من اليوم السابق،

إضافة إلى أدلة من العاملين في مجال الصحة النفسية في الولاية ممن تعاملوا مع مايرز، بعد إرساله إلى مرفق تايلور هاردين الطبي الآمن للتقييم بسبب رفضه الشهادة في المحاكمة الأولى، حيث وأوضح د. عمر محبات أن مايرز أخبره حينها «أن الشرطة وضعت في إطار لقبول العقوبة في قضية القتل التي اتهم بها أو» للشهادة بأن الرجل فعل ذلك «، كما ذكر محبات أن مايرز أنكر بشكل قاطع أن يكون له أي علاقة بالجريمة المزعومة فقال: «لا أعرف اسم هذه الفتاة، كما أنني لا أعرف وقت ولا تاريخ ولا مكان هذه الجريمة المزعومة وشهد محبت أن مايرز قال له: «أخبروني أن أقول ما يريدون مني أن أقوله».

وأكدت شهادة أطباء آخرين هذه الشهادة، فأوضح د. نورمان بوثرس من تايلور هاردين أن مايرز أخبره أن «اعترافاته السابقة» زائفة وأن الشرطة أجبرته عليها من خلال عزله جسدياً ونفسياً».

استمعت المحكمة كدليل آخر لشهادة أخرى من موظف تايلور هاردين، الدكتور كمال ناجي، الذي قال إن مايرز أخبره عن جريمة قتل أخرى وقعت في عام ١٩٨٦ حيث أطلقت النار على فتاة في المغسلة، فقال :

-«الشرطة والمحامي أيضاً أرادوني أن أقول إنني قد أوصلت هؤلاء الأشخاص إلى المغسلة حيث أطلقوا النار على الفتاة، لكنني لم أفعل ذلك». كما أن مايررز أخبر ناجي:

«لقد هددوني، إن لم أقل ما يريدون مني قوله، فإنهم سيقودونني إلى الكرسي الكهربائي».

إضافة إلى ماسبق كان لدينا شهادة من طبيب رابع، أكد له مايرز أنه كان يتعرض للضغوط للإدلاء بشهادة زائفة ضد والتر ماكميلان، وقد شهد الدكتور برنارد برايان أن مايرز أخبره، بأنه لم يرتكب الجريمة وأنه في الوقت الذي كان مسجوناً فيه بسبب الجريمة، قامت سلطات الشرطة المحلية بتهديده ومضايقته للاعتراف بارتكابه تلك الجريمة».

أكدنا للمحكمة اليوم أن مايرز أدلى بهذه التصريحات قبل المحاكمة الأولى، فلم تقتصر هذه التصريحات على جعل تراجع مايرز أكثر مصداقية فحسب، بل وثقت أيضاً في السجلات الطبية التي لم تسلم إلى محامي والتر كما يقتضي القانون، فقد طالبت المحكمة العليا الأمريكية منذ فترة طويلة، بأن تكشف النيابة للمدعى عليه أي شيء يبرئه أو قد يكون مفيداً له في التشكيك في الشاهد.

بدا أن المؤيدين الذين قدمتهم الولاية للمحكمة وعائلة الضحية مرتبكين من الأدلة التي قدمناها مما أدى إلى تعقيد السرد البسيط الذي اعتمدوه لإقناع المحكمة بإدانة والتر والحاجة إلى عقوبة سريعة ومحددة، وبالتالي بدأ أنصار الولاية بمغادرة قاعة المحكمة بمضي الوقت، مما زاد عدد السود الذين سمح لهم بدخول الغرفة. وفي نهاية اليوم الثاني، شعرنا بتقاول كبير فقد حافظنا على وثيرة جيدة كما أن عملية الاستجواب استغرقت وقتاً أقصر مما كنت أتوقع، وبناءً عليه اعتقدت أن قضيتنا ستنتهي في غضون يوم واحد.

كنت مرهقا لكنني شعرت بالسعادة وأنا متوجهاً إلى سيارتي في ذلك المساء، ولكنني دُهِشت لوجود

السيدة ويليامز تجلس على مقعد خارج المحكمة، وقد وقفت عندما التقت أعيننا، سرت باتجاهها متذكرا كم كنت مضطربا لرؤيتها تغادر قاعة المحكمة اليوم، فقلت:

«السيدة. ويليامز، أنا آسف لما فعلوه هذا الصباح. ما كان عليهم فعل ذلك، وأنا آسف إذا أزعجوك ولكن، كما تعلمي سارت الأمور بشكل جيد اليوم. أشعر وكأننا قضينا يوماً جيداً..».

قالت مقاطعة: «حضرة المحامي ستيفنسون، أشعر بالسوء، أنا أشعر بالسوء» وأمسكت بيدي. «كان يجب علي الحضور إلى قاعة المحكمة هذا الصباح. كان من المفترض أن أكون في قاعة المحكمة هذا الصباح».

قلت مطمئناً: «سيدة. وليامز، كل شيء على ما يرام لم يكن عليهم فعل ما فعلوه، لكن من فضلك لا تقلقي بشأن ذلك». وضعت ذراعي حولها وعانقتها.

فقلت: «لا لا لا، حضرة المحامي ستيفنسون. كان من المفترض أن أكون في قاعة المحكمة تلك، كان من المفترض أن أكون في قاعة المحكمة». حاولت أن أهون عليها أكثر فقلت:

«لا بأس، السيدة ويليامز، لا بأس».

فردت: «لا يا سيدي، كان من المفترض أن أكون هناك وأردت أن أكون هناك. حاولت حاولت، الله يعلم أنني حاولت، سيد ستيفنسون ولكن عندما رأيت هذا الكلب.....».

هزت رأسها أخذت تحديق بعيدا، وقالت بشرود:

«عندما رأيت ذلك الكلب، أخذني الذعر إلى عام ١٩٦٥، عندما اجتمعنا عند جسر إدموند بيتوس في سلما وحاولنا الذهاب لممارسة حقنا في التصويت، لكنهم وقفوا في طريقنا ثم ضربونا وأطلقوا تلك الكلاب علينا». نظرت إلي بحزن وأكملت بصوت يخنقه الحزن:

«حاولت أن أتحرك، أيها المحامي ستيفنسون، صدقني أردت أن أتحرك، لكنني لم أستطع فعل ذلك». وبينما كانت تتحدث، بدا وكأن الحزن سحبها إلى عالم آخر وزمن آخر، فتركت يدي ومضت بعيدا، ورأيتها تدخل سيارة مع بعض الأشخاص الآخرين الذين رأيتهم في قاعة المحكمة في وقت سابق. عندما عدت إلى الفندق كانت الكآبة سيدة مزاجي، لكنني مع ذلك بدأت بالاستعداد لليوم الأخير من جلسات الاستماع.

وصلت إلى المحكمة في الصباح الباكر للتأكد من عدم وجود مشاكل، و كما اتضح فإن قلة قليلة من الناس جاءت لدعم الولاية. وعلى الرغم من أن جهاز الكشف عن المعادن والكلب لا يزالان هناك، إلا أن النائب لم يقف عند الباب لمنع السود من دخول قاعة المحكمة، وفي داخل قاعة المحكمة لاحظت أن السيدة وليامز لم تكن وحدها هذه المرة بل كانت معها إحدى النساء التي غادرت معهن بالأمس والتي جاءت إلي وقدمت نفسها على أنها ابنة السيدة ويليامز، وقد شكرتني على مواساة والدتها.

وقالت لي: «عندما عادت إلى المنزل الليلة الماضية كانت مستاءة للغاية، لم تأكل أي شيء، لم

تتحدث مع أي شخص، ذهبت على الفور إلى غرفة نومها، قضت الليل كله في الصلاة و كنا نسمع صلاتها، وفي الصباح اتصلت بالقس المبارك وتوسلت إليه للحصول على فرصة أخرى ليكون ممثلًا للمجتمع في جلسة الاستماع. عندما نهضت من فراشي كانت مستيقظة ومرتدية ملابسها وجاهزة للحضور إلى المحكمة. أخبرتها أنها لا يجب أن تأتي، لكنها لم تسمع لأي شيء مما قلته لها. لقد مرت بالكثير، في رحلتها إلى هنا استمرت في الدعاء مرارًا وتكرارًا:

«يا رب، لا يمكنني أن أخاف من أي كلب، لا يمكنني أن أخاف من أي كلب».

كررت اعتذاري لابنتها عما فعله مسؤولو المحكمة في اليوم السابق، وما تسببوا به من اضطراب مفاجئ عند باب قاعة المحكمة، نظر كلانا إلى الأعلى حيث وقفت السيدة ويليامز مرة أخرى بأنافتها المعتادة حيث كانت ترتدي وشاحها وقبعنها بشكل لا تشوبه شائبة، كما أمسكت بحقيبة يدها بإحكام بجانبها وبدا أنها تتمايل عند المدخل. كنت أسمعها تتحدث مع نفسها، كررت مرارًا وتكرارًا: «أنا لا أخاف من كلب، لا أخاف من كلب». شاهدتها ترفع رأسها بكبرياء و تمشي ببطء عبر جهاز الكشف عن المعادن عندما سمح لها الضباط بالمضي قدما وهي، تعيد مرارًا وتكرارًا، «أنا لا أخاف من كلب». كان من المستحيل النظر بعيدا، لقد تمكنت من الوصول من خلال الكاشف وحدقت في الكلب. ثم بصوت عالٍ بما يكفي ليسمع الجميع صرخت: «أنا لا أخاف من كلب!»

تجاوزت الكلب ودخلت قاعة المحكمة، ابتهج الناس السود الذين كانوا بالفعل في الداخل وأشرقت أعينهم بالفرح عندما مرت بهم، و جلست قرب مقدمة قاعة المحكمة والتفتت إلي بابتسامة عريضة وأعلنت :

«حضرة المحامي ستيفنسون، أنا هنا!»

فأجبت: «سيدة ويليامز، من الجيد رؤيتك هنا. شكرًا لقدمك». امتلأت قاعة المحكمة، وبدأت بجمع أوراقتي، بعد قليل أحضروا والتر إلى قاعة المحكمة، في إشارة إلى أن الجلسة على وشك البدء. هنا سمعت السيدة ويليامز تتادي باسمي. «لا، يا حضرة المحامي ستيفنسون، لم تسمعني. قلت إنني هنا». تحدثت بصوت عال جدا، مما أربكني قليلا وأخرجني، لكنني استدرت وابتسمت لها قائلاً: «نعم سيدة ويليامز، لقد سمعتك ويسرني جدًا وجودك».

عندما نظرت إليها، بدا الأمر كما لو كانت في عالمها الخاص، كانت قاعة المحكمة ممثلة، مع دخول القاضي ووقف الجميع، كما هي العادة. عندما اتخذ القاضي المقعد وجلس، جلس الجميع أيضًا في قاعة المحكمة، لكن كان هناك توقف طويل بشكل غير عادي حيث انتظرنا جميعًا أن يقول القاضي شيئًا، وقد لاحظت أن الناس يحذقون في شيء ما خلفي، وعندما استدرت ورأيت أن السيدة ويليامز لا تزال واقفة. أصبحت قاعة المحكمة هادئة لدرجة أنه بالإمكان سماع رنة الأبرة، وتسلمت كل العيون عليها. حاولت أن أشير لها على أنها يجب أن تجلس، ولكنها استندت إلى رأسها وصاحت: «أنا هنا!» ضحك الناس بعصبية وهي تشغل مقعدها ولكن عندما نظرت إلي، رأيت الدموع في عينيها.

في تلك اللحظة، شعرت بشيء غريب شعور عميق بالتقدير. عندها ابتسمت لأنني كنت أعلم أنها كانت تقول لهذه الغرفة ولكل قرار جائر صدر من قلب جدرانها، ولكل ظالم طغى وتجبر بسم السلطة الممنوحة له من كراسيها:

«قد أكون كبيرة في السن، قد أكون فقيرة، قد أكون سوداء، لكنني هنا، رغما عنك أنا هنا، أنا هنا لأن لدي رؤية للعدالة خولتني أن أصبح شاهدة، أنا هنا لأنه من المفترض أن أكون هنا، أنا هنا لأنه لا يمكنك إبعادي رغم سلطتك وقوتك، أنا هنا لأنني صاحبة حق». ابتسمت للسيدة ويليامز بينما جلست بفخر.

للمرة الأولى منذ أن بدأت العمل على هذه القضية، بدا كل شيء كنا نكافح من أجل تحقيقه منطقيًا أخيرًا. استغرق الأمر مني دقيقة لأدرك أن القاضي كان ينادي باسمي، ويطلب مني بفارغ الصبر أن أبدأ.

مضى آخر أيام جلسات الاستماع على ما يرام. حيث كان هناك ستة أشخاص ممن احتجزوا أو سجنوا مع رالف مايرز وأخبرهم رالف بأنه يتعرض للضغط ليشهد زورا ضد والتر ماكميلان، وقد وجدنا معظمهم وجعلناهم يشهدون، لقد كان جميعهم متسقين في شهادتهم بما يتعلق بمايرز، وقد أوضح إسحاق دايلي، الذي اتهمه مايرز زوراً بارتكاب جريمة قتل بيتمان، كيف ورط مايرز والتر زوراً في جريمة بيتمان. كان مايرز قد أكد لدائلي بعد القبض عليه أنه ناقش مع كارين الإلقاء بتهمة قتل بيتمان على والتر.

وقال: «لقد أخبرنا أنه وكارين قاما بالقتل، آه تأمرا معاً لإلقاء التهمة على جوني دي».

كما أوضح سجين آخر كتب رسائل إلى مايرز في سجن مقاطعة مونرو أن مايرز لم يكن يعرف ماكميلان، ولم يكن على علم بمقتل موريسون أصلاً، وإنما تعرض للضغط من قبل الشرطة للإدلاء بشهادة زور ضد ماكميلان. إضافة لكل ذلك كنا نحتفظ بدليل من العيار الثقيل للنهاية، وهو الأشرطة التي سجلها تيت وبنسون وإيكنر عندما استجوابهما مايرز والتي كانت مثيرة للغاية، فقد أبرزت التصريحات المتعددة التي قدمها مايرز للشرطة أنه أخبرهم مراراً وتكراراً أنه لا يعرف شيئاً عن مقتل موريسون أو من هو والتر ماكميلان، كما تضمنت التسجيلات تهديدات الضباط لمايرز ومقاومة مايرز وضع رجل بريء في صورة قاتل، ولم تؤكد الأشرطة تراجع مايرز والتناقض في شهادته في المحاكمة فقط، بل كشفت الكذبة التي أخبرها بيرسون للمحكمة وهيئة المحلفين ومحامي ماكميلان السابقين، وهي أن مايرز لم يقدم سوى بيانين، لكن الواقع أن مايرز قدم ما لا يقل عن ستة إفادات إضافية للشرطة كانت متناقضة إلى حد كبير مع شهادته في جلسة القاعدة ٣٢، بأنه لم يكن لديه معلومات حول ارتكاب والتر ماكميلان جريمة قتل روندا موريسون. كل هذه البيانات المسجلة كتبت، وكانت بمثابة شهادة براءة والتر ماكملان والمفضلة لديه، ولم يتم الكشف عن أي منها لمحامي ماكميلان، كما هو مطلوب.

دعوت محامي ماكميلان، بروس بوينتون وجي ل. تشستنت، للشهادة حول ما كان بوسعهما فعله لكسب حكم بالبراءة إذا ما كانت الولاية قد سلمت الأدلة التي قمعتها. انتهينا من تقديم أدلتنا

ولكن ما أثار دهشتنا أن الولاية لم ترفع قضية طعن، وإن كنت أشك أن لديهم ما يمكنهم تقديمه لدحض أدلتنا، لكنني افترضت أنهم سيرسلون شيئاً مسبقاً. بدا القاضي متفاجئاً أيضاً، فقد توقف بشكل مؤقتاً، ثم قال إنه يريد من جميع الأطراف تقديم مذكرات مكتوبة تناقش الحكم الذي يجب عليه اتخاذه، وقد كان هذا غاية أملنا، وقد شعرت بالارتياح لأن المحكمة ستمنحنا الوقت لتقديم شرح مفصل عن أهمية جميع الأدلة المكتوبة مما يساعده في إعداد أمره، وكنت آمل أن يأمر بتحرير والتر. في نهاية اليوم الثالث من أيام التقاضي المكثف، أجل القاضي الإجراءات إلى وقت متأخر من بعد الظهر.

كنت ومايكل في عجلة من أمرنا في صباح اليوم الأخير من جلسة الاستماع ولم نقم بإجراءات الخروج من الفندق قبل مغادرتنا إلى المحكمة، في نهاية الجلسة ودعنا العائلة في قاعة المحكمة وعدنا إلى الفندق، كنا مرهقين جداً إلا أن شعورنا بالرضى كان أقوى.

يقع خليج مينتي حيث عقدت جلسة الاستماع، على بعد ثلاثين دقيقة تقريباً من شواطئ خليج المكسيك الساحرة، والتي سحرتنا عندما اتبعنا تقليدًا خاص بنا وهو إحضار موظفينا إلى هذا الشاطئ الخلاب في شهر سبتمبر من كل عام، مما أوقفنا جميعاً في حب مياه الخليج بدفيء قلبها ونقاء قطراتها ونعومة أمواجها. كانت الرمال البيضاء التي تكسو واجهة الشاطئ التي لم تشوهها يد تطور البشر وحضارتهم المبهرة و المذهلة حيث تعمل نسماها الرقيقة على تسلل الهدوء إلى الأعصاب المرهقة لتزيج تشنج عام كامل من العمل والإرهاق، ولولا منصات النفط البحرية الضخمة التي يمكنك رؤيتها عن قرب والتي دست أذرعها لتفسد المنظر قليلاً، لظننت أنك في الجنة كما لا يمكن نسيان الدلافين التي أضفت على هذا الجزء من الخليج المزيد من الحياة والجمال حيث يمكنك رؤيتها في الصباح الباكر، وهي تشق طريقها في مياه الخليج الذي وقعت هي أيضاً في حبه مثلنا تماماً، فقد كنت أعتقد في كثير من الأحيان أنه يجب علينا نقل مكتبنا إلى ذلك الشاطئ.

كان الذهاب إلى الشاطئ قبل العودة إلى مونتغمري فكرة مايكل. لم أكن متأكداً من أنها كانت فكرة جيدة، لكن مقاومتي انهارت أمام دفء الطقس وقرب الشاطئ، وقفزنا في السيارة، متتبعين آخر أشعة الضوء التي أرسلتها الشمس لتودع الشواطئ الجميلة بالقرب من فورت مورجان، ألاباما قبل رحيلها و بمجرد وصولنا إلى هناك بدل مايكل بدلته بسرّوَال سباحة وركض بسرعة ليغسل كل تعب في المحيط، أما أنا فقد كنت متعباً جداً لأسبح في البحر، لذلك ارتديت سرّوَالاً قصيراً وجلست على حافة المياه، ورغم اقتراب الغسق لكن الحرارة لم ترحل مع الشمس.

كانت أحداث المحكمة تتزاحم في رأسي، فأقوال الشهود تتكرر في رأسي وبدأ القلق يشعل فتيل الحرب بين بنات أفكاري التي كانت تتصارع لتقرر ما إذا كانت الأمور قد سارت على ما يرام أم لا، كانت كل التفاصيل تتجول في ذهني، مع كل خطأ محتمل، حتى انتبهت لنفسي ووبختها قائلاً:

«انتهى الأمر ولا جدوى من إيصال نفسي للجنون بالتفكير في الأمر الآن». لذلك قررت إلقاء نفسي في أحضان المحيط وإغراق كل هذه الأفكار في أعماقه، وبالفعل نسيت كل شيء في لحظة.

في الآونة الأخيرة، تقطعت بهم السبل في المطار ولا يوجد شيء لقراءته، سوى مقالاً عن

هجمات سمك القرش. عندما اقتربت من الأمواج المضاءة الآن بغروب الشمس في فورت مورجان، تذكرت أن أسماك القرش تتغذى عند الغسق وعند الفجر، و شاهدت مايكل يسبح بعيداً عن الشاطئ، وبقدر ما يبدو الأمر ممتعاً، بقدر ما عرفت أنني سأكون الهدف الأضعف والأسهل إذا ظهرت سمكة قرش. فمايكِل يسبح كالسمكة بينما أنا بالكاد أبقي طافياً.

لوح مايكل في وجهي وصرخ: «يا رجل، هيا أخرج!» لقد غامر بحذر في المياه بما يكفي لتوضيح مخاوفي بشأن أسماك القرش له ضحك علي، شعرت بالراحة بشكل لم أتوقعه بعد الاستمتاع بدفيء المياه أخرجت سمكة مضغوطة من ساقي، وحدثت بها في عجب حتى أدركت أنها ربما تهرب من بعض الحيوانات المفترسة الأكبر و عدت أدراجي بعناية إلى الشاطئ.

جلست على الشاطئ الرملي أشاهد البجع الأبيض اللامع - وكأنه حبات من اللؤلؤ المنثور ليزين المياه الساكنة- ينزلق أمامي مشكلاً لوحة من أجمل لوحات الرقص على المياه لينسج قصة جديدة من قصص السعي في الأرض للحصول على الرزق، وتناثرت حولي سرطانات عازف الكمان الصغيرة، التي منعها خوفها من الاقتراب، إلا أنه وبشكل غريب لم يستطع منعها من البقاء في مكان قريب نوعاً ما، وذكرتي بهذا بالفراشات التي رغم خوفها من النيران إلا أنها تستمر في اللعب حولها. انتشلني من التفكير بسرطانات عازف الكمان، تفكيري في عودة والتر، مقيداً في مؤخرة شاحنة الهولمان مرة أخرى، فقد كنت أرغب في إلقاء بذور التقاؤل في قلبه لكن مع الأسف لم يكن بيدنا حيلة تجاه أي قرار تصدره المحكمة، كما فكرت في عائلته وجميع الأشخاص الذين قدموا إلى المحكمة، والذين تحلوا بالإيمان طوال السنوات الخمس التي مرت منذ القبض على والتر لأول مرة بكل مافيه من إحباطات وألم وقهر و ظلم، لكن الآن أصبح لديهم سبب للشعور بالحماس والتشجيع، وبالطبع لم تغب السيدة ويليامز عن بالي، لقد جاءت إلي بعد جلسات الاستماع وأعطتني قبلة حلوة على الخد، وأخبرتني بمدى سعادتي بعودتها إلى المحكمة. نظرت بمرح. «محامي ستيفنسون، أنت تعلم أنني سأكون هنا و تعلم أنني لن أسمح لهؤلاء الناس بإبعادي». ابتسمت حين تذكرت كلماتها.

خرج مايكل من الماء وهو ينظر إلي بقلق. مازحته قائلاً:

«ماذا رأيت؟ قرش؟ الانقليس؟ قنديل البحر السام؟ اللادغة؟ سمكة البيرانا؟»

كان يلهث وهو يقول:

«لقد هددونا، وكذبوا علينا، كما أن هناك من أخبرنا بأن بعض الناس في المحافظة يشعرون بالقلق مما نقوم به لدرجة أنهم يفكرون في قتلنا، برأيك ماذا سيفعلون الآن وهم يعرفون كم الأدلة التي لدينا لإثبات براءة والتر؟»

لقد فكرت في هذا أيضاً، فقد فعل خصومنا كل ما بوسعهم لوضع والتر في صورة القاتل من أجل قتله، كما أنهم كذبوا علينا وأفسدوا العملية القضائية، ونقل إلينا عدد غير قليل من الأشخاص أنهم سمعوا أن الغاضبين في المجتمع يهددون بقتلنا لاعتقادهم أننا نحاول مساعدة قاتل مذنب على الفرار من حكم الإعدام.

قلت لمايكل: «لا أدري، لكن علينا أن نضغط عليهم يا رجل، علينا أن نضغط».

جلسنا هناك في صمت، ونحن نراقب الظلام الذي بدأ يلف الشمس بوشاحه، وظهرت المزيد من سرطانات البحر العازف من ثقبها، لكنها بدت الآن متهورة فهي تقترب من مكان جلوسنا بسرعة جنونية.

التفت إلى مايكل في الظلام الداكن، وقلت له:

«علينا الذهاب».

الفصل العاشر

التخفيف

تحولت السجون الأمريكية إلى مستودعات للمرضى العقليين، وقد تغذت فكرة الحبس الجماعي إلى حد كبير بسبب السياسة الخاطئة لتتبع المخدرات والعقوبات المفرطة، ولكن اعتقال مئات الآلاف من الفقراء والمرضى العقليين، كان قوة دافعة لتحقيق مستويات قياسية من السجناء، الشيء الذي خلق مشاكل غير مسبوقة.

التقيت بأفيري جينكينز في البداية عبر الهاتف، و لكنه لم يكن متماسكاً عندما اتصل بي لدرجة أنه عجز عن شرح ما أدين به أو حتى وصف ما يريدني أن أفعله بوضوح، كما استمر بالشكوى من ظروف حبسه حتى طرأت له فكرة عشوائية أدت إلى تبديل المواضيع بشكل مفاجئ، كما أرسل لي العديد من الرسائل أيضاً ولكن كان من الصعب متابعتها مثل مكالماته الهاتفية، لذلك قررت التحدث معه شخصياً لمعرفة ما إذا كان بإمكانني فهم كيفية مساعدته بشكل أفضل.

لأكثر من قرن، تنقلت الرعاية المؤسسية للأمريكيين الذين يعانون من مرض عقلي خطير بين السجون والمستشفيات، التي أنشئت لإدارة الأشخاص الذين يعانون من مرض عقلي، و في أواخر القرن التاسع عشر، كانت المعاملة اللاإنسانية التي يتلقاها السجناء الذين يعانون من مرض عقلي مروعة لدرجة، قادت دوريث ديكس و ريفرند لويس دوايت لإطلاق حملة ناجحة لإخراج المرضى عقلياً من السجون. مما أدى إلى انخفاض عدد السجناء الذين يعانون من مرض عقلي خطير بشكل كبير، مما أدى إلى ظهور مرافق الصحة العقلية العامة والخاصة لتوفير الرعاية للمصابين بالاضطراب العقلي. وإلى وقت قريب كانت مستشفيات الأمراض العقلية الحكومية منتشرة في كل مكان.

بحلول منتصف القرن العشرين، ولدت الانتهاكات داخل المؤسسات العقلية الكثير من الاهتمام، وأصبح الحجز الإرادي للأشخاص مشكلة كبيرة، فقد كانت العائلات والمعلمين والمحاكم ترسل الآلاف إلى المؤسسات غير المركزية، التي كانت أقل عائداً على المرض العقلي الحاد من مقاومة الأعراف الاجتماعية والثقافية أو الجنسية، وغالباً ما وجد المثليين الذين قاوموا الأعراف الجنسية، أو شاركوا في المواعدة بين الأعراق أنفسهم ملتزمين بشكل لا إرادي، وقد كان إدخال الأدوية المضادة للذهان مثل (ثورازين) يبشر الكثير من الذين يعانون من بعض اضطرابات الصحة العقلية الشديدة، ولكن الإفراط في استخدام الدواء في العديد من المؤسسات العقلية، أدى إلى الكثير من التجاوزات مما خلف آثار جانبية مروعة فقد أنتجت بروتوكولات العلاج العدوانية والعنيف في بعض المرافق، قصصاً مرعبة غدت حملة جديدة، ولكن الحملة هذه المرة كانت لإخراج الناس من مؤسسات الصحة العقلية لما عانوه من أوضاع مزرية فيها.

في الستينيات والسبعينيات، شرعت بعض القوانين لجعل الالتزام بالإرادة أكثر صعوبة، وأصبح إلغاء المؤسسات هدف في العديد من الدول، حيث تمكن المدافعون عن الصحة النفسية

والمحامون من الفوز بسلسلة من قضايا المحكمة العليا، التي أجبرت الدول على نقل المقيمين في المؤسسات إلى برامج المجتمع. وقد أعطت الأحكام القانونية الحق لذوي إعاقات النمو في رفض العلاج وأقرت حقوق المعاقين عقليا التي قللت من انتشار الطابع المؤسسي. بحلول التسعينيات، أخرجت المؤسسات في العديد من الولايات أكثر من ٩٥٪ من النزلاء، وهذا يعني أنه مقابل كل مائة مريض كانوا يقيمون في مستشفيات الدولة - قبل برامج إزالة المؤسسات - كان هناك أقل من خمسة مقيمين، عندما أجريت الدراسة في التسعينيات و في عام ١٩٥٥، كان هناك سرير واحد في مؤسسات الأمراض النفسية لكل ثلاثمائة أمريكي وبعد خمسين سنة، أصبح هناك سرير واحد لكل ثلاثة آلاف.

في حين كانت هناك حاجة ماسة إلى هذه الإصلاحات، إلا أن إزالة المؤسسات تقاطعت مع انتشار سياسات السجن الجماعي، وقد نتج عن توسيع القوانين الجنائية والأحكام القاسية تأثير كارثي فقد أصبح «العالم الحر» محفوفًا بالمخاطر بالنسبة للفقراء الذين أخرجوا من المؤسسات، كما إن عدم قدرة العديد من المعوقين وذوي الدخل المنخفض على تلقي العلاج، أو الحصول على الأدوية الضرورية زاد بشكل كبير من احتمال مواجهة الشرطة التي من شأنها أن تؤدي إلى السجن أو الاحتجاز، فقد اتبعت الدولة استراتيجية السجن والحجز للتعامل مع كل أزمة صحية تنشأ عن تعاطي المخدرات والتبعية، مما أدى إلى توجيه فيضان من المرضى العقليين إلى السجون، لارتكابهم جرائم بسيطة وجرائم مخدرات أو لمجرد اتباعهم سلوكيات رفضت مجتمعاتهم تحملها.

اليوم نجد أن أكثر من ٥٠٪ من نزلاء السجون والمعتقلات في الولايات المتحدة هم حالات مصابة بمرض عقلي، أي ما يزيد على عدد السكان البالغين بحوالي خمس مرات، أي تقريبا واحد من كل خمسة معتقلين أو سجناء يعاني من مرض عقلي خطير. في الواقع، عدد السجناء المصابين بأمراض عقلية خطيرة يزيد بثلاثة أضعاف على أولئك الموجودين في المستشفيات، كما أن العدد يرتفع في بعض الولايات ليصل إلى عشرة أضعاف، ولا يمكن أن ننسى أن السجن عبارة عن مكان رهيب وعالم وحشي مخيف، لشخص يعاني من مرض عقلي أو اضطراب عصبي لأنه ببساطة لا يتلقى حراس السجن تدريباً لتفهمه واستيعاب مأساته المضاعفة.

على سبيل المثال، عندما كنت أعمل في أتلانتا، رفع مكتبنا دعوى قضائية ضد سجن أنغولا سيئ السمعة بسبب رفضه تعديل سياسة تلزم السجناء في زنازين العزل بوضع أيديهم عبر القضبان لتقييدها قبل دخول الضباط لنقلهم، ولأن السجناء المعاقون المصابون بالصرع واضطرابات الصرع يحتاجون إلى المساعدة أحيانا أثناء التشنج في زنازينهم، فهم لا يستطيعون وضع أيديهم من خلال القضبان، ولكن الحراس لم يراعوا هذا أبدا، فقد كانوا يطبقون عليهم أو يستخدمون طفايات الحريق لإخضاعهم، وبالطبع فقد أدى هذا التدخل إلى مضاعفة مشاكل السجناء وتفاقم الحالة الصحية لهم كما أدى إلى الموت أحيانا.

إن معظم السجون المكتظة لا تملك القدرة على تقديم الرعاية والعلاج للمرضى العقليين، بالإضافة إلى أن نقص العلاج يجعل الامتثال للقواعد العديدة التي تحدد حياة السجن مستحيلة بالنسبة للمعاقين، ولكن تكمن المشكلة في استغلال السجناء الآخرين أو تفاعلهم بعنف مع الأعراض

السلوكية للمرضى العقلين، ولطالما عرضهم موظفو السجون المحبسون للعقاب التعسفي أو الحبس الانفرادي حتى أنهم لم يدخروا أقصى أشكال الاعتقال المتاحة، في هذه الأثناء كل ما قام به العديد من القضاة والمدعين العامين ومحامي الدفاع هو مجرد محاولات هزيلة للتعرف على الاحتياجات الخاصة للمعاقين عقلياً، وقد أدت تلك القناعات الخاطئة إلى السجن لفترات أطول ومعدلات انتكاسات عالية.

مثلت في إحدى القضايا الحكم بالإعدام في ألاباما مريضاً عقلياً يدعى جورج دانيال. أصيب جورج بتلف في الدماغ في حادث سيارة أطاح به فاقداً للوعي في إحدى الليالي في هيوستن- تكساس و عندما استيقظ، وجد نفسه ملقياً في السيارة التي قلبت رأساً على عقب على جانب الطريق، في تلك الليلة عاد إلى المنزل دون أن يطلب المساعدة الطبية.

لكن صديقه أخبرت عائلته في وقت لاحق أنه في البداية بدا وكأنه مشوشاً قليلاً.

ثم بدأ بالهلوسة وازدادت بعد ذلك تصرفاته الغريبة، ثم توقف عن النوم بانتظام، واشتكى من سماع أصواتاً، كما أنه هرب من المنزل عارياً مرتين لأنه ظن أن الدبابير تلاحقه. في غضون أسبوع من الحادث فقد القدرة على صياغة الجمل، وقد أقنعه شخص ما بالذهاب إلى المستشفى مباشرة قبل والدته، التي عاشت في مونتغمري، وفي إحدى الليالي استقل جورج حافلة في منتصف الليل، و سافر إلى أبعد مكان تأخذه إليه النقود التي يحملها في جيبه.

مشوش وغير متزن، أجبر على النزول من الحافلة هورتسبورو- ألاباما، بعد أن أزعج بعض الركاب بالحديث بصوت عال مع نفسه وإيمائه بعنف إلى الأشياء التي تصورها أنها تحلق حوله، و رغم مرور الحافلة عبر مونتغمري، حيث كان لديه عائلة لكنه بقي حتى طرد من دون مال و دون حذاء مرتدياً الجينز وقميص في منتصف يناير. وتجول حول هورتسبورو حتى توقف في نهاية المطاف عند منزل. وطرق على الباب، وعندما فتح صاحب المنزل، دخل جورج دون دعوة وأخذ يتجول في أرجاء المنزل حتى وجد طاولة المطبخ حيث جلس، عندها دعا صاحب المنزل المنزعج ابنه، الذي جاء وأخرجه من المنزل ثم ذهب إلى منزل آخر مملوك لامرأة مسنة و فعل نفس الشيء، فاتصلت المرأة بالشرطة. ولسوء حظ جورج فإن الضابط الذي استقبل المكالمات اشتهر بكونه عدوانياً، فطرده بقوة من المنزل. بدأ جورج يقاوم بينما يسحبه الضابط إلى سيارة الشرطة، وعندها بدأ الرجلان في المصارعة وسقطا أرضاً، فسحب الضابط سلاحه حيث كان الاثنان يتصارعان فوق بندقيته عند تفرغها، وإطلاق النار على الضابط الذي أصيب في المعدة، ومات جراء الطلق الناري، ما أدى إلى القبض على جورج واتهامه بارتكاب جريمة قتل، وفي سجن مقاطعة راسل، أصبح شديد الذهان و قد أفاد الضباط أنه لم يغادر زنزانته، كما لوحظ وهو يأكل برازه، حتى إنه لم يتعرف على والدته عندما زارته، فضلاً عن أنه لم يستطع ترتيب الكلام في جمل كاملة، أما المحاميان اللذان عينتهما المحكمة لتمثيله في محاكمته الرئيسية، كانا معنيين في المقام الأول بالمال فجنونهما عندما علما أن أحدهما فقط سيدفع له ١٠٠٠ دولار عن الوقت الذي يقضيه خارج المحكمة ويبدو أن المحاميان نسيا أنهما تعينا لتمثيل متهم في قضية كبرى فبدأ الشجار مع بعضها البعض، ورفع أحدهما دعوى مدنية ضد الآخر حول من يمكنه المطالبة بالمال. في هذه الأثناء، أرسل القاضي

جورج إلى برايس وهي مستشفى في توسكالوسا لفحص الكفاءة، وقد تولى مهمة فحص جورج الطبيب إد سيجر، الذي استنتج بشكل غامض أنه لم يكن مريضاً عقلياً ولكنه كان «يتمارض» أو يدعي أعراض المرض العقلي.

وبناءً على هذا التقييم، سمح القاضي للمحاكمة بتهمة الإعدام بالمضي قدماً، لكن محاميا جورج الذين انشغلا بالشجار مع بعضهما البعض، لم يقدموا الدفاع، ولم يقوموا بدعوة أي شهود، وتواصلت الولاية مع الدكتور سيجر، الذي أقنع هيئة المحلفين بأن جورج لا يعاني من أي خلل عقلي، مع أنه كان طوال وقت الجلسة يبصق في فئجان ويصدر أصواتاً صاخبة، ما أصاب أفراد عائلة جورج بالذهول.

كان جورج يعمل في متجر أثاث في الرصيف ١ في هيوستن قبل حادث سيارته. وقد غادر المدينة دون أن يحصل على مبلغ الشيك الخاص به، مع أن المبلغ كان جاهزاً للدفع قبل مغادرته بيومين وأكثر وقد وجدت والدته، وهي امرأة فقيرة تعرف قيمة الدولار بالنسبة لشخص مثل جورج، أن هذا السلوك دليل دامغ يشير إلى معاناته من مرض عقلي، أكثر من أي شيء آخر وأذنت للمحامين بالحصول على الشيك الذي لم يطالب به جورج أصلاً، على أمل أن يقوموا بتقديمه في المحاكمة كدليل إثبات على الحالة العقلية المشوشة لجورج و بالفعل صرف المحاميان- الذين كانا لا يزالان يتشاحنان على النقود- الشيك لكنهما استغلاه بالحصول على قيمته كأتعاب لهما بدل من استخدامه كدليل لمصلحة جورج.

أدين جورج وحكم عليه بالإعدام، في الوقت الذي تورطنا فيه نحن أعضاء EJI، حيث كان جورج في سجن تنفيذ حكم الإعدام منذ عدة سنوات، وقد كان يسير بلا هوادة نحو الإعدام.

عندما التقيت به، كان أطباء السجن يعالجونه بأدوية نفسية بشكل مكثف، مما ساعد في استقرار سلوكه على الأقل. كان مرض جورج العقلي واضحاً وضوح الشمس لذلك لم تكن صدمتنا كبيرة عند اكتشافنا أن الطبيب الذي فحصه في مستشفى برايس كان محتالاً ولم يخضع للتدريب.

اختلق دكتور إد سيجر أوراق اعتماده، فهو لم يتخرج أبداً من الكلية ولكنه نجح في خداع مسؤولي المستشفى، ليصدقوا أنه طبيب مدرب من ذوي الخبرة في الطب النفسي، وقد استطاع التتكر كطبيب في المستشفى لمدة ثماني سنوات حيث قام بإجراء كشف وتقييم الكفاءة للأشخاص المتهمين بارتكاب جرائم قبل تزويره.

مثلت جورج في إجراءات محاكمته الفدرالية، حيث اعترفت الدولة أن سيجر كان دجالاً لكنها في نفس الوقت، رفضت الاعتراف بأحقية جورج في الخضوع لمحاكمة جديدة، لكننا فزنا في النهاية في الحصول على حكم مؤبد من قبل قاضي فدرالي أسقط حكم إدانته وعقوبته، و بسبب مرضه العقلي وعدم كفاءته، لم يحاكم جورج أو تعاد محاكمته مطلقاً، ومنذ ذلك الحين دخل مؤسسة للرعاية العقلية للأبد، بفضل الله أستطعنا تخليص جورج ولكن لم يفارق تفكيره احتمالية وجود المئات من السجناء الآخرين، الذين يقعون في غياهب السجون بسبب تقييم د. سيجر الذي لم تتم مراجعة تقييماته للسجناء قط.

كان الكثير من موكلي الذين ينتظرون تنفيذ حكم الإعدام، لديهم أمراض نفسية خطيرة ولكن لم يكن من الواضح دائماً أن تاريخهم مع المرض العقلي يمتد إلى ما قبل دخولهم السجن، حيث قد تكون أعراض إعاقاتهم عرضية وغالباً ما تكون ناتجة عن الإجهاد وما يتلقونه من معاملة سيئة في السجن أما رسائل أفيري جينكينز، التي كتبها بخط صغير جداً لدرجة أنني كنت بحاجة إلى عدسة مكبرة لقراءتها أكدت لي أنه كان يعاني المرض منذ فترة طويلة.

نظرت إلى قضيته وبدأت بتجميع قصته. اتضح أنه أدين بقتل رجل مسن بطريقة وحشية ومؤلمة للغاية، حيث قام بجرحه بطعنات متعددة تؤكد بشدة أنه مريض عقلي، ولكن سجلات المحكمة والملفات لم تذكر أي شيء أبداً عن أعاقه جنكينز. لقد اعتقدت أنني سأكتشف المزيد من خلال مقابلاته شخصياً.

عندما دخلت إلى ساحة مواقف السيارات في السجن، لاحظت وجود شاحنة صغيرة هناك، بدت وكأنها ضريح للجنوب القديم؛ لقد كانت مغطاة بالكامل بملصقات مزعجة وشارات العلم الكونفدرالية، إضافة إلى صور أخرى مقلقة، لقد كانت لوحات ترخيص العلم الكونفدرالية في كل مكان في الجنوب، لكن بعض الملصقات كانت جديدة بالنسبة لي. كثير منها كانت تتعلق بالبنادق والهوية الجنوبية قراءة واحدة، جعلتني أجزم بأنني لو كنت أعلم أنها ستكون هكذا، لكنني قد اخترت قطني اللعين، فعلى الرغم من نشأتي حول صور الكونفدرالية الجنوبية وعملي في أعماق الجنوب لسنوات عديدة، إلا أن تلك الرموز صدمتني.

كنت دائماً مهتماً بشكل خاص بعصر ما بعد إعادة الإعمار في التاريخ الأمريكي. لقد كانت جدتي ابنة أولئك الناس الذين تجرعوا مرارة الاستعباد، فقد ولدت في فرجينيا في ثمانينيات القرن التاسع عشر، بعد انسحاب القوات الفيدرالية وبدء عهد من العنف والإرهاب، يهدف إلى حرمان الأميركيين الأفارقة من أي حقوق سياسية أو اجتماعية، وقد أخبرها والدها قصصاً عن كيفية إعادة استعباد السود الذين تحرروا مؤخراً من قبل الضباط والجنود الكونفدراليين السابقين، الذين استخدموا كل ما باستطاعتهم من العنف والترهيب والإعدام والقتل والخنق، لإخضاع الأميركيين الأفارقة وتهميشهم وقد شعر والدا جدتي بالقهر من كيفية انتهاء الوعد بالحرية والمساواة بعد العبودية، عندما استعاد الديمقراطيون الجنوبيون البيض السلطة السياسية بالعنف.

الجماعات الارهابية مثل كو كلوكس كلان توغلت في رموز الجنوب الكونفدرالي لترهيب الآلاف من السود، فالشائعات حول نشاط كلان القريب هي الشيء الوحيد المستقر في الريف الأسود. لمدة مائة عام، يمكن لأي علامة تدل على تقدم السود في الجنوب أن تؤدي إلى رد فعل أبيض يستدعي دائماً الرموز الكونفدرالية ويتحدث عن المقاومة.

أعلن يوم الذكرى الكونفدرالية عطلة رسمية في ألاباما في مطلع القرن، بعد فترة وجيزة من إعادة البيض إلى دستور الولاية لضمان التفوق الأبيض. (لا يزال هذا التقليد متبعاً حتى اليوم.) عندما عاد قدامى المحاربين السود إلى الجنوب بعد الحرب العالمية الثانية، شكل السياسيون الجنوبيون كتلة «ديكسيكرات» للحفاظ على الفصل العنصري والهيمنة البيضاء، خوفاً من أن

الخدمة العسكرية قد تشجع المحاربين السود على التشكيك في الفصل العنصري، وفي الخمسينيات والستينيات ألهم نشاط الحقوق المدنية والقوانين الفيدرالية الجديدة نفس المقاومة، للتقدم العنصري وأدى مرة أخرى إلى ازدياد استخدام الصور الكونفدرالية. في الواقع، في ١٩٥٠، بعد إعلان أن الفصل العنصري في المدارس العامة غير دستوري في قضية براون ضد مجلس التعليم، رفعت العديد من الولايات الجنوبية أعلامًا كونفدرالية فوق مباني حكومة الولاية، كما انتشرت الآثار الكونفدرالية والنصب التذكارية والصور في جميع أنحاء الجنوب خلال عصر الحقوق المدنية وفي هذا الوقت أضيف عيد ميلاد جيفرسون ديفيس، رئيس الكونفدرالية كعطلة في ألاباما. حتى اليوم، حيث تغلق البنوك ومكاتب الدولة ومؤسساتها أبوابها على شرفه.

في جلسة ما قبل المحاكمة، خضت جدالاً ذات مرة لأعبر عن موقفي الرفض لاستبعاد الأفارقة الأمريكيون من مجموعة المحلفين، لأنه في هذا المجتمع الجنوبي الريفي بالذات، كان عدد السكان السود حوالي ٢٧٪ ورغم ذلك كانوا يشكلون ١٠٪ فقط من مجموعة المحلفين. بعد تقديمي للبيانات والحجج حول الإقصاء غير الدستوري للأمريكيين من أصل أفريقي، وهنا اعترض القاضي بصوت عال قائلاً:

«أقدر اقتراحك، سيد ستيفنسون ولكن لأكون صادقاً. لقد سئمت من الناس الذين يتحدثون دائماً عن حقوق الأقليات، أمريكيون من أصل أفريقي، أمريكيون مكسيكيون، أمريكيون آسيويون، أصليون أمريكيون... متى سيأتي شخص ما إلى قاعة المحكمة الخاصة بي ويتكلم عن حماية حقوق الكونفدرالية الأمريكية؟»

لقد فاجأني ردة فعل القاضي حقاً وأردت أن أسأله هل كوني ولدت في الجنوب أو عشت في ألاباما يجعل مني أميركياً كونفدرالياً؟ لكنني فكرت بشكل أفضل منه.

توقفت في ساحة السجن لإلقاء نظرة فاحصة على تلك الشاحنة لكنني لم أستطع الالتفاف حولها وقراءة الملصقات المثيرة، والتفت للعودة إلى البوابة الأمامية للسجن محاولاً استعادة تركيزي، لكنني لم أستطع غض النظر والتصرف بلا مبالاة حيال ما اعتقدت أنه رموز للقمع العنصري، لقد كنت كثير الذهاب إلى هذا السجن، مما مكّني من التعرف على العديد من الضباط الإصلاحيين، ولكن هذه المرة، التقيت بضابط إصلاح لم أره من قبل؛ فقد كان رجلاً أبيضاً من طولي - حوالي ستة أقدام - ذو عضلات فرضت نفسها على بنيته الجسدية. بدا في الأربعينيات من عمره وكان قصة شعره عسكرية قصيرة، وقد كان يحدق بي ببرود بعيون زرقاء فولاذية. مشيت نحو البوابة التي تؤدي إلى بهو غرفة الزيارة، حيث توقعت روتيناً قبل الدخول إلى منطقة الزيارة، لكن الضابط تقدمني ليمنعني من المضي قدماً.

وزمجر: «ماذا تفعل؟»

أجبت: «أنا هنا في زيارة قانونية، وهذه الزيارة تقرر في وقت سابق من هذا الأسبوع، الاشخاص في مكتب المراقب لديهم الأوراق».

ابتسمت وتحدث بأدب ما أستطيع لمنع نزع فتيل الموقف.

فأجاب: «لا بأس، لا بأس، ولكن يجب التفتيش أولاً».

كان من الصعب تجاهل موقفه العدائي الواضح، لكنني فعلت ما يوسعي لذلك.

وقلت: «حسنًا، هل تريدني أن أخلع حذائي؟» فقد كان الضباط المتشددون يجعلونني أخلع حذائي أحيانًا قبل الدخول.

فأجاب بطريقة مستفزة: «بل ستذهب إلى ذلك الحمام وتخلع كل شيء إذا كنت تتوقع الدخول إلى سجن».

لقد صدمت، ولكنني تحدثت بلطف قدر استطاعتي وقلت له:

«أوه، لا يا سيدي. أعتقد أن الأمر التيس عليك، فأنا محام. ولا يخضع المحامون للتفتيش الذاتي للزيارات القانونية».

وبدلاً من تهديته، بدا أن هذا الكلام أثار غضبه أكثر، فقال:

«انظر، أنا لا أعرف من تظن نفسك، ولكنك لن تدخل إلى سجن دون الامتثال لبروتوكولاتنا الأمنية، والآن بإمكانك الاختيار إما أن تدخل إلى هذا الحمام وتخلع ملابسك أو تعود إلى المكان الذي جئت منه أي كان».

لا أنكر أنني واجهت بعض المواقف الصعبة مع الضباط المسؤولين في السجون من وقت لآخر، وغالبًا في سجون المقاطعات الصغيرة أو في الأماكن التي لم أزرها من قبل، ولكن هذا الموقف كان غريبًا للغاية.

قلت له: «لقد زرت هذا السجن عدة مرات، ولم يكن مطلوبًا مني على الإطلاق الخضوع لتفتيش ذاتي». وأكملت بحزم أكبر: «وعليه لا أعتقد أن هذا هو الإجراء المتبع هنا».

فأجاب بنفس الطريقة المستفزة والنظرة الباردة: «حسنًا، لا أعرف ولا أهتم بما يفعله الآخرون، لكن هذا هو البروتوكول الذي أتبعه».

فكرت بمحاولة العثور على مساعد مأمور لكنني أدركت أن ذلك قد يكون صعبًا وعلى أي حال، لا أتوقع من مساعد مأمور أن يخبر الضابط أنه كان مخطئًا أمامي. لقد قدت سيارتي لمدة ساعتين من أجل هذه الزيارة، غير أن جدولي الزمني مزدحم للغاية على مدى الأسابيع الثلاثة المقبلة، لذا لن أتمكن من العودة إلى السجن في أي وقت قريب إذا لم أدخل الآن، لذلك اضطررت إلى دخول الحمام وخلع ملابسني. دخل الضابط وفتشني بشكل عدواني لا داعي له قبل أن أتمتع بشكل واضح ومعبّر عن الغضب الذي بداخلي، وفي النهاية ارتديت بذلتي وخرجت.

حاولت استعادة بعض من كرامتي من خلال التحدث بقوة أكبر:

«أود الدخول إلى غرفة الزيارة الآن»

قال: «حسنًا، لكن عليك العودة وتوقيع الكتاب».

قالها ببرود، مبطن بمحاولة استفزاز واضحة. و قد كان هناك سجل زيارات يستخدمه السجن للزيارات العائلية، ولكنه لم يكن يستخدم للزيارات القانونية. لقد وقعت بالفعل على كتاب المحامين ولم يكن هناك أي معنى لتوقيع ثان.

فقلت له : «ليس على المحامين توقيع هذا الكتاب...».

فقاطعني: «إذا كنت تريد الدخول إلى سجن، فستوقع على الكتاب».

بدا وكأنه يبتسم الآن. حاولت جاهداً الحفاظ على رباطة جأشي فاستدرت ووقعت على ذلك الكتاب، ثم عدت إلى غرفة الزيارة وانتظرت، أن يفتح لي الباب فقد كان هناك قفل على الباب الزجاجي يجب فتحه لأتمكن من الدخول إلى الغرفة حيث سأقابل موكلي، و أخيراً أخرج الضابط مفاتيحه لفتح الباب، أما أنا فقد وقفت بصمت على أمل الدخول دون المزيد من الدراما.

تقدمته عندما فتح الباب، لكنه أمسك بذراعي ليوقفني، لقد أخفض صوته الآن وهو يتكلم معي.

وقال: «أنت يا رجل، هل رأيت شاحنة تقف في ساحة مقر الزيارة، مغطاة بالكثير من الملصقات والأعلام ورف البندقية؟»

تحدثت بحذر: «نعم، رأيت تلك الشاحنة».

تصلب وجهه قبل أن يتكلم. «يسرني أن تعرف، أن شاحنة النقل هذه لي».

ثم أطلق ذراعي وسمح لي بالسير داخل غرفة الزيارة. استبد بي الغضب من الحارس، لكن غضبي من نفسي العاجزة جعلني أغلي كبركان قد ينفجر في أي لحظة، مما جعلني مشتت الفكر، عندما فتح الباب الخلفي لغرفة الزيارة وقاد ضابط آخر السيد جنكينز، الذي كان أمريكياً أفريقيًا قصيراً ذو شعر قصير جداً، وقد أمسك بيدي بكلتا يديه وابتسم ابتسامة عريضة بينما كان يجلس، على كرسيه وقد بدا سعيداً بشكل غير عادي لرؤيتي.

فقلت له: «سيد جنكينز، أنا محاميك واسمي بريان ستيفنسون».

فتحدث بسرعة قائلاً: «هل أحضرت لي حليب الشوكولا المخفوقة؟»

قلت باستغراب: «عفوا ماذا قلت؟»

واصل الابتسام. «هل أحضرت لي حليب الشوكولا المخفوقة؟ أنا أريد حليب الشوكولا المخفوقة»

الرحلة والشاحنة الكونفدرالية ومضايقة الحارس والآن طلب الحليب المخفوق كل هذه الأشياء جعلت يومي غريباً. وللأسف لم أستطع أخفاء نفاذ صبري.

فقلت: «لا يا سيد جينكنز، لم أحضر لك حليب الشوكولا المخفوقة، أنا محام وأنا هنا لمساعدتك في قضيتك ومحاولة الحصول على محاكمة جديدة لك حسناً! لهذا السبب أنا هنا، والآن أريد أن أطرح عليك بعض الأسئلة لأحاول أن أفهم ما يحدث»

رأيت الابتسامة تفر مسرعة من وجه الرجل، و بدأت أسأله أسئلة وهو يعطيني إجابات من كلمة واحدة، وأحياناً مجرد شخير من نعم أو لا، أدركت حينها أنه لا يزال يفكر في الحليب المخفوق. يا إلهي لقد أنساني وقتي مع الضابط مدى ضعف هذا الرجل. وأوقفت الأسئلة وانحنيت إلى الأمام وقلت له:

«سيد جينكينز، أنا آسف حقاً. لم أكن أدرك أنك تريد مني أن أجلب لك حليب الشوكولا المخفوق، لو كنت أعرف ذلك، كنت قد حاولت بالتأكيد. أعدك أنه في المرة القادمة التي آتي فيها لزيارتك، سأحضر لك حليب الشوكولا المخفوق إذا سمحوا لي بذلك فسأفعل بالتأكيد. حسناً؟»

عندها عادت ابتسامته وأشرق مزاجه. لقد كشفت السجلات أنه غالباً ما عانى من نوبات ذهانية كان يصرخ فيها لساعات، لكنه كان عموماً لطيفاً ووديعاً خلال اجتماعنا، لكن مرضه كان أوضح من أن يختفي وراء هذا اللطف، لم أتمكن من فهم سبب عدم إشارة سجلات المحاكمة إلى المرض العقلي، ولكن بعد قضية جورج دانيال، لم يعد هناك ما يفاجئني.

فور عودتي إلى مكنتي، بدأت بالتحقيق بعمق في خلفية السيد جينكينز، وكم كان ما وجدناه مفاجئاً؛ فقد قتل والده قبل ولادته، وتوفيت والدته بجرعة زائدة من المخدرات عندما كان عمره عاماً، وفي عمر العامين دخل الحضانة وكم كان كان وقته في الحضانة مروّعاً؛ فقد تنقل بين تسعة عشر بيت حضانة مختلف قبل أن يبلغ الثامنة وبدأت علامات الإعاقة الذهنية تظهر عليه في سن مبكرة، حيث كان لديه ضعف إدراكي اقترح بعض التلف العضوي في الدماغ ومشاكل سلوكية اقترحت انفصام في الشخصية وأمراض عقلية خطيرة أخرى.

عندما كان في العاشرة من عمره، تنبأ والدين مسيئين حيث فرضا عليه قواعد صارمة أبقت في حالة اضطراب مستمر، ولم يستطع تنفيذ جميع المتطلبات المفروضة عليه، لذلك كانا يقومان بحبسه في خزانة بشكل متكرر ولم يكتفيا بذلك بل حرماه من الطعام أيضاً، غير تعرضه للضرب والإساءة الجسدية، وعندما لم تفلح كل طرق العقاب هذه قررت والدته بالتبني ببساطة أن تتخلص منه، فأخرجته إلى الغابة، وربطته بشجرة، وتركته هناك، حيث عثر عليه بعض الصيادين بعد ثلاثة أيام وهو في حالة صحية سيئة للغاية، بعد تعافيه من مشكلات طبية خطيرة تتعلق بالتخلي عنه، سلمته المستشفى إلى السلطات، التي أعادته بدورها إلى الحضانة، وفي الثالثة عشرة من عمره، بدأ في تعاطي المخدرات وشرب الكحول وعندما بلغ الخامسة عشرة، كان يعاني من نوبات ذهانية، وفي السابعة عشرة، اعتبر غير قابل للسيطرة وترك بلا مأوى. وبدأ يدور في حلقة مفرغة من الدخول إلى السجن والخروج منه حتى بلغ العشرين من عمره، وفي يوم من الأيام وعندما كان عالقاً في دوامة إحدى نوبات الذهان أخذ يتجول في منزل غريب، ظناً منه أنه تعرض لهجوم من قبل الشياطين. وهناك قام بطعن رجل حتى الموت بوحشية لاعتقاده أنه شيطان ومع كل ما يبدو عليه من إعاقة إلا أن محاميه لم يقوموا بإجراء تحقيق في تاريخ السيد جينكينز قبل المحاكمة، وبناءً عليه سرعان ما أدين بالقتل وحكم عليه بالإعدام.

رفضت إدارة السجن السماح لي بإحضار الحليب المخفوق للسيد جينكينز، حاولت أن أشرح له

هذا، و لكنه لم يكف عن سؤالي في بداية كل زيارة إذا كنت سأحضر له الحليب المخفوق وكنت أرد عليه بإنني سأستمر في المحاولة، وكان هذا فقط كل ما علي القيام به لأحظى بتركيزه على أي شيء آخر. أخيرًا وبعد أشهر، تقرر موعد عقد جلسة لنا في المحكمة لتقديم الأدلة التي تثبت مرضه النفسي العميق، وهي مادة كان يجب تقديمها في المحاكمة الأولى، زعمنا أن محاميه قد فشلوا في الكشف عن أي شيء من تاريخ أفيري في المحاكمة أو يقدموا إثباتات على أن إعاقاته ذات صلة بالتهمة الجنائية والعقوبة.

عندما وصلت إلى المحكمة حيث ستعقد الجلسة، والتي تبعد من السجن ما يقارب الثلاث ساعات سيرًا بالسيارة، ذهبت لرؤية أفيري في المحكمة في زنزانه القوي. بعد المرور عبر البروتوكول التقليدي المعتاد حول الحليب المخفوق، حاولت أن أساعده على فهم ما سيحدث في المحكمة، لأنني كنت قلقًا من رؤيته بعض الشهود - الناس الذين تعاملوا معه عندما كان في الحضانة - التي قد تزعجه، كما ستكون الشهادة التي سيقدمها الخبراء مباشرة للغاية في وصف إعاقاته ومرضه، و كنت أربح في أن يفهم لماذا نفعل ذلك، وقد كان لطيفًا ومتقبلًا، كما هو الحال دائمًا.

عندما صعدت إلى قاعة المحكمة، لاحظت وجود الضابط الذي جعلني أمر بوقت صعب عندما ذهبت لمقابلة أفيري لأول مرة. وقد كانت هذه هي المرة الأولى التي ألتقيه فيها منذ زيارتي الأولى الفظيعة لأفيري، لقد سألت عميلًا آخر عن الحارس وقال لي إنه يتمتع بسمعة سيئة ويعمل عادة في المناوبة المتأخرة، وقد حاول معظم الناس الابتعاد عنه، حدثتني نفسي بأنه لا بد وأنه الضابط المكلف بنقل أفيري إلى المحكمة لحضور جلسة الاستماع، مما أثار قلقي بشأن الطريقة التي قد تعامل بها هذا الضابط مع أفيري طوال الرحلة، لكنه بدا أنه معتاد.

خلال الأيام الثلاثة التالية قدمنا أدلتنا حول خلفية أفيري، و مما ساعدنا أن الخبراء الذين تحدثوا عن إعاقات أفيري كانوا رائعين، حيث لم تكن شهادتهم جزئية أو متحيزة، لكنها مقنعة للغاية خاصة في شرح التفاصيل التي أوضحت، كيف يمكن أن يتسبب تلف الدماغ العضوي والفصام واضطراب ثنائي القطب في إحداث خلل عقلي شديد. وأوضحوا أن الذهان والمشاكل الصحية العقلية الخطيرة الأخرى التي أثقلت كاهل السيد جنكينز، يمكن أن تؤدي إلى سلوك خطير، لكن هذا السلوك مظهرًا من مظاهر المرض الخطير، وليس انعكاسًا لشخصيته، كما قدمنا أدلة حول نظام الكفالة وكيف تسبب في فشل أفيري. وتمكننا من إدانة العديد من الآباء بالتبني الذين وُضع معهم أفيري في وقت لاحق، بتهمة الاعتداء الجنسي وسوء الإدارة الإجرامية للأطفال بالتبني، ثم ناقشنا كيف عانى أفيري عبر مراحل عمره المختلفة من الخيبات وحالات التعاسة المتعاقبة، مما صنع منه مدمنًا للمخدرات ومشردًا.

لقد اعترف العديد من الآباء الحاضنين السابقين بأنهم كانوا محبطين للغاية بسبب أفيري لأنهم لم يكونوا مجهزين للتعامل مع مشاكله العقلية الخطيرة، ثم جادلت القاضي حول ضرورة اتخاذ المشكلات الصحية العقلية التي يعاني منها أفيري في الاعتبار أثناء المحاكمة، فعدم الأخذ بها يعادل قسوة القول لشخص فقد ساقيه «يجب عليك تسليق هذه السلالم دون مساعدة، و إلا سنعتبرك كسولاً» أو القول لشخص أعمى، «يجب أن تعبر هذا الطريق السريع المزدهم بين الولايات بدون مساعدة،

والا سنعتبرك مجرد جبان».

هناك مئات الطرق لاستيعاب الإعاقات الجسدية أو على الأقل فهمها، ولذلك نشعر بالغضب عندما لا يعمل هؤلاء المعاقون جسدياً بقوة ولا يدرك الآخرون حاجتهم لمعاملة المدروسة ورحيمة، ولكن نظراً لأن الإعاقات العقلية مخفية ولا يمكن رؤيتها بالعين المجردة، بل ترى بعين الرحمة وبخفقات القلوب لمن يملكهما، فإننا مع الأسف نميل إلى رفض احتياجات المعاقين و الحكم بسرعة على عجزهم وإخفاقاتهم. أعرف أن المنطق والعدل يؤيد خضوع أي شخص يقتل إنساناً بوحشية للمساءلة القانونية، فالدولة مطالبة بحماية الشعب ولكني أعرف أيضاً أن نفس المنطق والعدل والرحمة، يؤكدون أنه من الظلم تجاهل إعاقة المدان تماماً في تقييم درجة المسؤولية عن أفعاله وبالتالي تقرير العقوبة التي يجب أن يخضع لها.

عندما عدت إلى المنزل كان يخالجنني شعور جيد للغاية بشأن جلسة الاستماع ولكن الحقيقة هي أن جلسة ما بعد الإدانة الحكومية، نادراً ما أدت إلى حكم إيجابي. فإذا كان التخفيف سيأتي، فهو على الأرجح سيأتي من الاستئناف، لذلك لم أجرؤ على الحلم بمعجزة تغيير الحكم. بعد حوالي شهر من الجلسة، وقبل إصدار الحكم قررت الذهاب إلى السجن ورؤية أفيري، فلم يكن لدينا الكثير من الوقت للتحديث بعد الجلسة وأردت التأكد من أنه بخير، لأنه كان طوال جلسة الاستماع، كان شخصاً لطيفاً يجلس بهدوء لطيف، ولكن حاله تبدل عندما جاء بعض آباءه بالتبني إلى المحكمة، فقد بدا مستاءً من رؤيتهم، لذلك اعتقدت أن زيارة ما بعد الجلسة ستكون مفيدة.

عندما وقفت في موقف السيارات، رأيت مرة أخرى شاحنة الكراهية تلك مع أعلامها وملصقاتها ورف بندقية ينظر للقدام بتهديد، ولأكون صريحا قلقت من لقاء آخر مع الحارس، وبعد مراجعة أمين السر والتوجه نحو غرفة الزيارة، رأيته يقترب مني استعدت نفسي وتجهزت للقاءه، ولكن حدث شيء مثير للدهشة.

سأل الحارس: «مرحباً سيد ستيفنسون. كيف حالك؟». بدا جاداً وصادقاً، أما أنا فكنت متشككا.

لكنني قلت له: «حسناً، أنا بخير. كيف حالك؟» ولاحظت أن نظرتة إلي اختلفت عما

كانت عليه من قبل، وصوته كان طبيعياً لم يكن يصرخ، وبدا أنه يريد التفاعل بصدق. لذا قررت التفاعل معه مباشرة وقلت: «انظر، سأدخل الحمام للاستعداد للفتيش».

رد بسرعة: «أوه، سيد ستيفنسون لا داعي للقلق بشأن ذلك أعلم أنك ملتزم بالقوانين».

كان كل شيء مختلفاً لهجته وسلوكه وطريقة تعامله، فقلت:

«حسناً، شكراً لك. أقدر ذلك، سأعود وأوقع الكتاب، ثم....».

قاطعني: «سيد. ستيفنسون، ليس عليك فعل ذلك، فقد رأيتك قادماً وقد اهتممت بمسألة التوقيع». في الواقع أدركت أنه بدا عصبياً، وكنت في حيرة من أمري بسبب هذا التحول في موقفه، شكرته وسرت إلى باب غرفة الزيارة مع الضابط الذي سار ورائي، وقد استدار لفتح القفل حتى أتمكن من

الدخول، وعندما مررت بجانبه للدخول، وضع يده على كتفي وقال:
«آه، أود أن أخبرك بشيء».

لم أكن متأكدًا إلى أين سيصل بهذا الحديث.

«أنت تعلم أنني أخذت أفيري إلى المحكمة من أجل جلسة الاستماع الخاصة به، وكنت هناك طوال تلك الأيام الثلاثة وأنا، حسنًا أريدك أن تفعل ذلك لقد كنت أستمع لمرافعتك». أبعد يده عن كتفي ونظر إلى بشروء، كما لو كان يحدق بشيء ما خلفي.

قال: «أتعلم، حسنًا، أنا أقدر ما تفعله، أأنا حقًا. لا تعلم كم كان من الصعب بالنسبة لي أن أكون في قاعة المحكمة هذه لسماع ما كنت تتحدث عنه. لقد جئت من دار رعاية، هل تعلم؟؟ أنا أيضًا جئت من دار رعاية». لأن وجهه وهو يقول:

«يا رجل، لم أكن أعتقد أن هناك من عاش حياة سيئة مثل حياتي. لقد كانوا ينقلونني من مكان لآخر حول المدينة، دون أن يفكروا للحظة إن كنت أحب البقاء في أي من تلك الأماكن وكأنني قطعة متاع، كانت حياتي خسنة جدًا وصعبة للغاية. لكن عندما استمعت إلى ما كنت تقوله عن أفيري أدركت أن هناك أشخاصًا آخرين عانوا مثلما عانيت وتجروا نفس مرارة اليتيم التي تجرعتها، بل إن حالهم كان أسوأ. أعني أنك أعدت لي الكثير من الذكريات، عندما كنت جالس في قاعة المحكمة تلك».

وضع يده في جيبه وسحب منديل لمسح العرق الذي تشكل على جبينه، وقد لاحظت لأول مرة أنه يرسم وشم علمًا كونفدراليًا على ذراعه.

قال: «أتعلم، أعتقد أن ما أحاول قوله هو أنني أعتقد أن ما تفعله جيد، كثيرًا لقد شعرت بالغضب الشديد لدرجة أنني كنت أرغب حقًا في إيذاء شخص ما، لمجرد أن هذا الغضب يصرخ بداخلي لأفجره في شخص ما وعندما وصلت إلى الثامنة عشرة، وانضمت إلى الجيش، شعرت أنني أصبحت بخير و أن كل شيء على ما يرام لكن تواجدي في قاعة المحكمة أعاد الذكريات، وأعتقد أنني أدركت أنني ما زلت غاضبًا نوعًا ما». ابتسمت. وتابع:

«ذلك الطبيب الخبير الذي طلبت شهادته قال إن بعض الضرر الذي يلحق بالأطفال في هذه البيوت المسيئة هو ضرر دائم؛ وقد شعرت بالقلق من كلامه. هل تعتقد أن هذا صحيح؟»

فقلت له: «أعتقد أنه بإمكاننا دائمًا القيام بعمل أفضل، لا يجب أن نسمح للأشياء السيئة التي تحدث لنا بأن تحدد أفعالنا وتفكيرنا، كما أنه من المهم في بعض الأحيان أن يفهم الناس من أين نأتي».

بينما كنا نتحدث بهدوء مع بعضنا البعض. مر ضابط آخر ونظر إلينا. تابعت: «أتعلم، أقدر حقًا أن تقول لي ما قلته للتو. هذا يعني الكثير بالنسبة لي و أعني ذلك حقًا، فأحيانًا أنسى مدى احتياجنا جميعًا إلى التخفيف في مرحلة ما».

كان ينظر في وجهي وابتسم عندما قال:

«لقد ظللت تتحدث عن التخفيف في تلك الجلسة، وقلت لنفسى: ماذا أصابه بحق الجحيم؟ لماذا يستمر في الحديث عن «التخفيف» من هذا القبيل؟ ولكن عندما وصلت إلى المنزل فكرت في ذلك، فأنا لم أكن متأكد مما قصدته في البداية، لكنني أفعل الآن».

ضحكت وقلت له : « صدق أو لاتصدق حتى أنا أذهب إلى المحكمة أحياناً، دون أن أتأكد من معرفة ما ساقوله».

قال: «حسناً، أعتقد أنك قمت بعمل جيد، جيد حقاً».

نظر في عيني قبل أن يمد يده ليصافحني وبدأت السير باتجاه الباب مرة أخرى. كنت في الداخل عندما أمسك ذراعي مرة أخرى.

وقال: «آه انتظر. يجب أن أخبرك بشيء آخر. اسمع، لقد فعلت شيئاً لم يكن من المفترض أن أفعله، لكنني أريدك أن تعرف عنه، في رحلة العودة إلى هنا في آخريوم من المحاكمة، خرجت من الطريق السريع في طريق العودة و أخذت أفيري إلى وينديز، واشتريت له حليب الشوكولا المخفوق».

انفتحت عيني على وسعهما محدقاً فيه كمحاولة لتصديق واستيعاب ما قاله، فأطلق سراح ضحكة مكتومة، ثم حبسني داخل الغرفة مع ذهولي الشديد مما قاله

حتى أنني لم أسمع الضابط الآخر يجلب أفيري إلى الغرفة. عندما أدركت أنه موجود بالفعل في الغرفة، استدريت واستقبلته. قلقت قليلاً عندما سكت ولم يقل أي شيء، وقلت له: «أنت بخير؟»

أجاب: «نعم سيدي، أنا بخير» وسألني: «أنت بخير؟»

أجبت: «نعم، أفيري، أنا بخير حقاً». انتظرت أن تبدأ طقوسنا المعهودة حول الحليب المخفوق وعندما لم يقل شيئاً، قمت بتأدية دوري فحسب:

«انظر، لقد حاولت إحضار الحليب المخفوق، لكنهم لم يسمحوا ل...».

لكنه قاطعني: «أوه، لقد حصلت على الحليب المخفوق، أنا بخير الآن».

عندما بدأت مناقشة الجلسة، ابتسم. تحدثنا لمدة ساعة قبل رؤيتي عميل آخر. أفيري لم يطلب مني حليب الشوكولا المخفوق مرة أخرى. فزنا بمحاكمة جديدة له واستطعنا في النهاية إبعاده عن وحدة تنفيذ الإعدام، و نقلناه إلى منشأة حيث يمكن أن يتلقى العلاج النفسي الصحي.

لم أر الضابط مرة أخرى، لكن أحدهم قال لي أنه استقال بعد لقائنا بوقت قصير.

الفصل الحادي عشر

سأخلق بعيدًا

هذا هو التهديد الثالث بالقنابل في شهرين، قمنا بمسح المكتب بسرعة وانتظرنا وصول الشرطة، لقد كان التوتر يحيط بجميع الموظفين، حيث أننا الآن لدينا خمسة محامين ومحقق وثلاثة موظفين إداريين، كما بدأ طلاب القانون في الوصول للتدريب الداخلي على المدى القصير، مما وفر لنا المساعدة القانونية الإضافية والمساعدة الاستقصائية المطلوبة بشدة، لكن أيا منهم لم يوقع على المجازفة بالتهديدات بالقنابل، التي كان من المغري تجاهلها، حتى وقعت سلسلة من الحوادث بدأت بمقتل محامي حقوق مدنية أمريكي من أصل أفريقي في سافانا- جورجيا، يُدعى روبرت «روبي» روبنسون عندما انفجرت قنبلة أرسلت إلى مكتبه القانوني قبل سنتين، في نفس الوقت تقريباً الذي قُتل فيه قاضي محكمة الاستئناف الفيدرالية، روبرت فانس في برمنغهام بقنبلة بريدية و بعد أيام، أرسلت قنبلة ثالثة إلى مكتب الحقوق المدنية في فلوريدا ورابعة إلى محكمة في أتلانتا، مما رسخ اعتقادنا بأن المفجر يهاجم مهنين قانونيين على صلة بالحقوق المدنية، نحن أيضاً وصلنا تحذير من أننا قد نكون أهدافاً، وعلى مدى أسابيع قمنا بحزم طرود البريد بعناية إلى المحكمة الفيدرالية لفحصها بالأشعة السينية قبل فتحها بعد ذلك، كل هذا جعلنا ندرك أن تلك التهديدات بالقنابل لم تكن مزحة.

فر الجميع من المبنى بينما ناقشنا احتمال وقوع تفجير فعلي، حيث وصف المتصل بنايتنا بدقة عند تهديده، قامت شارون موظفة الاستقبال لدينا، بتويخ المتصل، فقد كانت أم شابة لطفلين صغيرين وترعرعت في أسرة ريفية فقيرة بيضاء. تحدثت إلى المتصل بشكل مباشر وصريح.

شارون: «لماذا تفعل هذا؟ أنت تخيفنا!»

قالت إن الرجل بدا في منتصف العمر وأنه من الجنوب طبقاً لهجته، لكنها لم تستطع أن تعطي المزيد من الوصف.

قال مهدداً: «أنا أقدم لكم خدمة، أريدك أن تتوقف عن القيام بما تفعله. أفضل اللجوء للخيار الأول هو عدم قتل الجميع، لذا من الأفضل أن تخرج من هناك الآن! في المرة القادمة لن يكون هناك تحذير».

لقد مر شهر منذ جلسة مكملان، في المرة الأولى هدد المتصل المكتب كما قد أدلى بتصريحات عنصرية حول ضرورة تعليمنا درسا، في نفس الوقت تلقيت مكالمات تهديد في المنزل، حيث قال أحد المتصلين العاديين:

«إذا كنت تعتقد أننا سنسمح لك بمساعدة هذا الزوجي على الفرار بقتل تلك الفتاة فأنت واهم لأن الخيار القادم هو أن تصبحا زنجيين ميتين! »

على الرغم من أنني كنت أتعامل مع حالات أخرى، لكنني كنت متأكداً من أن مكالمات التهديد

كانت رداً على قضية ماكميلان فقبل الجلسة، قام بعض الأشخاص بتتبعي أنا ومايكل عدة مرات أثناء القيام بأعمال التحقيق في مقاطعة مونرو، وقد اتصل بي رجل مخيف في ساعة متأخرة من الليل ليخبرني شخصياً

أن هناك شخصاً عرض عليه الكثير من المال لقتلي، لكنه قال له أنه لن يفعل ذلك لأنه يحترم ما فعله، فشكرته بأدب معرباً عن تقديري لموقفه. لقد كان من الصعب معرفة مدى الجدية في التعامل مع أي منها، لكن الأمر هذه المرة كان مقلقاً بالتأكيد.

بعد أن قمنا بتطهير المبنى، مرت الشرطة بالمكتب مع الكلاب، لإتمام عمليات البحث ولكنهم لم يعثروا على أية قنبلة، وبعد مرور ساعة ونصف، عدنا جميعاً إلى الداخل لإنجاز ما لدينا من أعمال.

بعد بضعة أيام، تلقيت نوعاً مختلفاً من القذائف لا أبالغ إن قلت أنها أشد وطأة على نفسي من المتفجرات الفعلية، فالمكالمة هذه المرة كانت من مكتب الكاتب في مقاطعة بالدوين، حيث اتصل ليخبرني أن القاضي نورتن حكم في قضية ماكميلان وأنها بحاجة إلى رقم الفاكس الخاص بي لإرسال نسخة من الحكم. أعطيتهم الرقم وجلست أراقب جهاز الفاكس بعصبية و توتر حارق للأعصاب. عندما وصل الفاكس المؤلف من ثلاثة أوراق فقط استبدتني القلق.

احتوت الصفحات على أمر مكتوب بلهجة شديدة من القاضي نورتن يحرمنا من الراحة، وكانت خيبة أمني أكبر بكثير من أي دمار. كنت أظن أن هذا سيكون رد القاضي نورتن. على الرغم من اهتمامه بالجلسة، لكنه لم يبدأ منخراطاً بشكل خاص في السؤال الأساسي عما إذا كان والتر مذنباً أو بريئاً. لقد قيدوه من خلال التزامه بدوره : من غير المرجح أن يلغي الوصي على النظام الحكم السابق، حتى لو كان هناك دليل قاطع على البراءة.

لكن ما يثير الدهشة هو مدى السطحية والزيف وعدم الاهتمام بقراءة أمر من مكون من صفحتين ونصف صادر من المحكمة. حكم القاضي فقط بشهادة رالف مايترز ولم يلتفت لأي شيء من المطالبات القانونية التي قدمناها أو أي من شهادات الشهود الآخرين والذي فاق عددهم العشرة شهود، في الواقع، لم يتم الاستشهاد بسوابق قضائية في الأمر برمته، حيث اتخذ رالف مايترز موقف أمام هذه المحكمة، وأقسم على قول الحقيقة وشرع في التراجع عن معظم إن لم يكن كل، أقواله في المحاكمة، كان من الواضح أن رالف مايترز لم يكن أمامه إلا طريقتين إما أن يشهد زوراً في المحاكمة أو يدين نفسه أمامها.

القرار: أولاً: نظراً لأن سلوك الشاهد، هو فرصته لمعرفة الحقائق التي شهد بها في المحاكمة، فإن الأساس المنطقي، كما صرح به الشاهد في شهادته في المحاكمة الأولى والأساس المنطقي، كما ذكر المدعى عليه من أجل التراجع، إضافة إلى الأدلة على ممارسة الضغوط الخارجية على الشاهد قبل وبعد المحاكمة والعودة.

ثانياً: أفعال الشاهد التي تضفي المصدقية على شهادته في المحاكمة وأفعاله التي تضفي المصدقية على تراجعه.

ثالثًا: الأدلة المقدمة في المحاكمة تناقض شهادة الشاهد من حيث التفاصيل وبسبب طبيعة هذه القضية، فإن المحكمة تشكك في أي دليل من أي مصدر بشأن عدم قدرة الشاهد على معرفة الحقائق التي شهد عليها في المحاكمة.

وقد نظرنا في المجالات المقلقة التالية في الوصول إلى هذا:

أولًا: منذ أن بدأت هذه المحاكمة أمام المحترم آرأي إل كي، قاضي الدائرة المتقاعد، لم تتح لهذه المحكمة الفرصة لمقارنة سلوك الشاهد أثناء شهادة المحاكمة وشهادة في التراجع عنها.

ثانيًا: إن مراجعة العوامل الأخرى الموضحة أعلاه لا تقدم دليلاً قاطعاً على أن الشاهد، رالف مايرز شهد زوراً في المحاكمة الأصلية. هناك أدلة كثيرة على أنه تعرض للضغوط منذ شهادته التجريبية التي يمكن أن يميل إلى تشويه سمعته.

ثالثًا: لا يوجد أي دليل على الإطلاق في سجل المحاكمة أو شهادة التراجع يثبت أن

رالف مايرز كان متواجداً في مكان آخر غير مسرح الجريمة في الوقت الذي ارتكبت فيه.

رابعًا: أعيدت هذه القضية إلى المحكمة لتحديد ما إذا كان هناك دليل يدعم النظرية القائلة بأن رالف مايرز شهد زوراً في المحاكمة الأصلية، وقد قررت هذه المحكمة أنه لا توجد أدلة كافية لدعم هذه النظرية، لذلك قمنا بطلبها وإدارتها وقررت المحكمة أنه لا يوجد ما يثبت أن شهادة رالف مايرز في المحاكمة مزورة.

حرر في اليوم التاسع عشر من مايو ١٩٩٢ م.

توماس ب. نورتون جونيور

قاضي الدائرة

في حين اقترح تشابمان أنه يجب الضغط على مايرز حتى يتراجع، لم يقدم المدعي العام الإقليمي أي دليل فعلي لدعم هذا الادعاء، مما صعب فهم حكم القاضي لذلك نصحت والتر وعائلته، بعدم الاعتماد كثيرًا على جلسة الاستماع وربما نحتاج للذهاب إلى محكمة الاستئناف للحصول على أي فرصة حقيقية لمنح العفو عنه، على الرغم من مدى إيجابية الجميع في جلسة الاستماع.

كنت متفائلًا بشأن ما يمكن أن تحققه أدلتنا في محكمة ألاباما للاستئنافات الجنائية. كنا الآن نناقش القضايا أمام تلك المحكمة بانتظام و بعد جدالنا في قضية مكملان الأولى، قدمنا ما يقرب من عشرين طعنًا في عقوبة الإعدام، وبدأت المحكمة في الاستجابة لدعوتنا، فقد نجحنا بإبطال أربعة أحكام في قضايا عقوبة الإعدام في عام ١٩٩٠ وأربع حالات أخرى في عام ١٩٩١ وبحلول نهاية عام ١٩٩٢، كنا قد حصلنا على إعفاء لثمانية سجناء آخرين كانوا ينتظرون تنفيذ حكم الإعدام. واشتكت المحكمة مرارًا من إجبارها على عقد محاكمات جديدة أو منح العفو، لكنها مع ذلك حكمت لصالحنا. في غضون بضع سنوات، هوجم بعض قضاة محكمة الاستئناف واستبدلوا في انتخابات قضائية حزبية من قبل المرشحين، الذين اشتكوا من قرارات المحكمة في قضايا عقوبة الإعدام، أما

نحن فلم نسمح لشيء بإعاقة أصرارنا ومواصلة العثور على أخطاء و إثارته في القضايا الكبرى، حيث كنا ندفع المحكمة لتطبيق القانون في هذه القضايا وعند رفضها، كنا نلجأ للمحكمة العليا في ألاباما والمحاكم الفدرالية لمنح العفو.

بناءً على هذه التجربة الأخيرة، اعتقدت أنه يمكننا أن نحصل على العفو لمكميلان في الاستئناف، حتى لو كانت المحكمة لا ترغب في الحكم ببراءة والتر وإطلاق سراحه، فإن إخفاء أدلة التبرئة سبباً كافياً لجعل المحكمة تواجه ما يكفي من الصعوبات لتجنب السوابق القضائية التي تتطلب محاكمة جديدة.

لا يوجد شيء مضمون، لكنني أوضحت لوالتر أننا الآن فقط وصلنا إلى المحكمة التي ستظهر في مطالبنا بجدية.

بقي مايكل معنا طوال العامين الذين التزمنا بهما، لكن كان من المقرر الآن أن ينتقل إلى سان دييغو لبدء عمله كمحام عام اتحادي، وقد عانى جراء مغادرة مكتبنا، على الرغم من أنه كان أقل تعارضاً بشأن مغادرة ألاباما.

لقد عينت برنار هاركورت كمحامياً جديداً، ليحل محل مايكل في قضية والتر. كان برنارد يشبه مايكل كثيراً من حيث الذكاء والاجتهاد والعمل الدؤوب. كان قد عمل معي لأول مرة عندما كان طالب قانون في كلية الحقوق بجامعة هارفارد، وقد انخرط في العمل لدرجة أنه سأل القاضي الفيدرالي الذي كان يعمل لديه بعد كلية الحقوق أن يسمح له بقطع تدريبه لمدة عامين للانضمام إلينا في ألاباما، وقد وافق القاضي، ووصل برنارد الذي نشأ في مدينة نيويورك لأبوين فرنسيين قبل مغادرة مايكل بوقت قصير، وكان قد درس في مدرسة (Lycée Français de New York) في مانهاتن، وهي مدرسة ثانوية لم تعتذر عن منظورها الأوروبي في التعليم، وبعد تخرجه من جامعة برينستون، عمل برنارد في القطاع المصرفي قبل متابعة دراسته للقانون، وقد كان يستعد لمهنة قانونية تقليدية حتى جاء للعمل معنا لصيف واحد فقط لكنه فُتن بقضايا عقوبة الإعدام التي نعمل عليها، حتى أنه انتقل مع صديقته ميا، إلى مونتغمري وكان مأخوذاً بالحياة في ألاباما، وقد أثرى انغماس برنارد السريع في قضية ماكميلان مغامرته الثقافية أكثر مما كان يتصور.

حضور المجتمع في جلسة الاستماع جعل الناس يتحدثون عما قدمناه في المحكمة، مما شجع المزيد من الناس على تقديم معلومات مفيدة، وقد كان جميع الأشخاص يتواصلون معنا بخصوص ادعاءات واسعة النطاق بالفساد وسوء السلوك.

لقد كانت بعض الأشياء فقط من هنا وهناك مفيدة لنا في جهودنا لتحرير والتر، ولكن كلها كانت مثيرةً للاهتمام وواصلت أنا وبرنارد تتبع الأدلة وإجراء المقابلات مع الأشخاص الذين لديهم رؤى لمشاركة الحياة في مقاطعة مونرو.

أثارت التهديدات التي تلقيناها قلقنا بشأن العداء الذي سيواجه والتر إذا أطلق سراحه. تساءلت كيف يمكنه أن يعيش بأمان في مجتمع جميع أفرادهم مقتنعون بأنه قاتل خطير، لذلك بدأنا بمناقشة

فكرة التواصل مع عدد قليل من الناس الذين قد يساعدوننا علنا، في إضفاء الطابع الدرامي على ماتعرض له السيد ماکملان من ظلم بسبب إدانته الخاطئة، كوسيلة لتمهيد الطريق لإطلاق سراحه المحتمل فمجرد معرفة الجمهور لما نعرفه، قد يخفف من الكراهية التي سيلقاها عند عودته إلى الحرية. لقد أردنا أن يفهم الناس هذه الحقيقة البسيطة: لم يرتكب والثر تلك الجريمة و لن تستند حريته على بعض الثغرات القانونية الصعبة أو الاستغلال الفني، إنما ستكون قائماً على عدالة بسيطة - أنه كان رجلاً بريئاً.

من ناحية أخرى، لم أكن أعتقد أن اهتمام وسائل الإعلام سيساعدنا على الفوز في قضية معلقة الآن في محكمة الاستئناف الجنائية و في الواقع، فإن كبير القضاة في المحكمة، جون باترسون، كان قد رفع دعوى قضائية ضد صحيفة نيويورك تايمز بسبب تغطيتها لحركة الحقوق المدنية عندما كان حاكم ولاية ألاباما. لقد شاع تكتيكا استخدمه السياسيون الجنوبيون خلال احتجاجات الحقوق المدنية وهو : قم بمقاضاة وسائل الإعلام الوطنية للتشهير إذا كانت توفر تغطية متعاطفة مع النشاط أو إذا كانت تصف السياسيين الجنوبيين وضباط تطبيق القانون بشكل غير موات و قد كان قضاة محكمة الولاية الجنوبية وهيئات المحلفين البيض بالكامل على استعداد تام للحكم لصالح المسؤولين المحليين «المشهورين»، وقد فازت سلطات الولاية بملايين الدولارات من خلال الحكم بهذه الطريقة. والأهم من ذلك، فإن دعاوى التشهير تقلل من التغطية الإعلامية التي تولد التعاطف مع نشاط الحقوق المدنية.

كانت أبرز تلك التغطيات في عام ١٩٦٠، حيث قامت صحيفة نيويورك تايمز بطباعة إعلان بعنوان «احذروا أصواتهم الصاعدة» التي حاولت جمع الأموال للدفاع عن الدكتور مارتن لوتر كينغ جونيور ضد تهم الحنث باليمين في ألاباما. وجاء رد المسؤولون الجنوبيون بالهجوم ومقاضاة الصحيفة، وقد ادعى كل من مفوض السلامة العامة إل.بي.سوليفان والحاكم باترسون التشهير، فمُنحتهم هيئة محلفين محلية نصف مليون دولار، و استؤنفت القضية أمام المحكمة العليا الأمريكية.

في سابقة تاريخية، استطاعت نيويورك تايمز قلب الطاولة على سوليفان ونجحت في تغيير معيار التشهير والقذف من خلال مطالبة المدعين بإثبات الخبث - أي دليل على المعرفة الفعلية من جانب الناشر بأن البيان كاذب. وقد كان الحكم بمثابة انتصار كبير لحرية الصحافة، وعمل على تحرير وسائل الإعلام والناشرين مما فتح لهم الباب على مصراعيه للتحدث بصدق أكبر، عن احتجاجات الحقوق المدنية والنشاط. ولكن في الجنوب، كان الوضع على النقيض تماماً فقد زاد ذلك من ازدياد الصحافة الوطنية، واستمر هذا العداء حتى بعد عصر الحقوق المدنية.

كنت واثقاً من أن التغطية الإعلامية الوطنية لقضية والثر لن تساعد قضيتنا في محكمة الاستئناف الجنائية.

لكنني اعتقدت أن الحصول على رؤية مستتيرة حول إدانة والثر وجريمة القتل، سيجعل حياته بعد الإفراج عنه آمنة نوعاً ما، على افتراض أننا يمكن أن نلغي إدانته. شعرنا بضرورة اغتنام الفرصة ونشر قصة والثر على الملأ، فقد كنت قلقاً من عدم وصول الصورة العادلة والحقيقة للناس

في المجتمع المحلي. وبصرف النظر عن خشيتنا من العداء الذي سيواجهه والتر إذا أطلق سراحه، كان هناك جانب آخر يثير قلقنا و هوالمالذي سيحدث إذا أمر القاضي بمحاكمة جديدة، وكانت الصحافة في مقاطعتي مونرو وموبيل التي شوهدت صورة والتر وتحدثت إثبات براءته وأكدت على قوة إدانته وأنه يستحق حكم الإعدام، هي نفسها التي جعلت من التغطية الإعلامية المسبقة والمتحيزة أداة لاستحالة الحصول على محاكمة عادلة، حيث رسمت الصحف المحلية صورة لوالتر تظهره على أنه وحش كشر عن أنياب الإجرام التي انتزعت الرحمة من قلبه، فزوجوا إلى أنه تاجر مخدرات خطير وربما قتل العديد من المراهقين الأبرياء. تمادت الصحف المحلية في مونروفيل في طبعتها المحمولة حيث صالت وجالت بحرية لتنتشر التأكيدات بأن والتر كان (ملك المخدرات) و (المفتسر الجنسي) و(زعيم العصابات)، كما أكدت عناوين الصحف المحلية في بداية اعتقال والتر على سوء السلوك الجنسي العبثي و تحدثت عن التهم التي تتطوي على تورط رالف مايرز. حيث فاجأت المجتمع بعنوان جديد في مسرحية اتهامات والتر الهزلية وكان العنوان هذه المرة هو (مكميلان متهم بممارسة اللواط) وقد كان عنواناً شائعاً في تغطية الجلسات و قد ركزت مجلة مونرو جورنال على الخطر الذي يشكله والتر فنشرت في أحد أعدادها : «كان على أولئك الذين يدخلون قاعة المحكمة المرور عبر جهاز الكشف عن المعادن، كما كان الحال طوال إجراءات المحكمة ضد ماكميلان، إضافة إلى تمرکز الضباط في جميع أنحاء قاعة المحكمة». على الرغم من جميع الأدلة التي قدمناها في جلسة الاستماع والتي تبين أن والتر ليس له علاقة بقتل بيتمان، استدعت الصحافة المحلية القضية لتضخيم هالة الخوف المحيطة بالتر. كان عنوان (المدان القاتل المطلوب في جريمة قتل شرق برايتون) العنوان الأبرز في صحيفة بريتون.

(روندا لم تكن الفتاة الوحيدة التي قتلت) كان العنوان الرئيسي في لائحة صحافة موبيل بعد جلسة الاستماع. أفادت الصحيفة على الهاتف المحمول بعد الجلسة: «كان كل من مايرز وماكميلان جزءاً من عصابة سطو وسرقة وتزوير وتهريب مخدرات كانت تعمل في عدة مقاطعات في جنوب ألاباما، وفقاً لضباط تطبيق القانون، كان مكميلان قائد العملية» بداية من التركيز على وضعه السابق للمحاكمة في وحدة تنفيذ حكم الإعدام إلى الأمن الإضافي المحيط بمظاهر محاكمته، كانت القصة التي نسجت حبكتها الصحافة باحتراف و بمنتهى الوضوح تلخص بـ: (هذا الرجل في غاية الخطورة).

بدا الناس غير مهتمين بحقيقة الجريمة أو من القاتل الحقيقي، فبدلاً من الاستماع إلى الدليل الذي يدعم براءة والتر خرج أنصار الولاية من قاعة المحكمة خلال جلسة الاستماع الأخيرة في مقاطعة بالدوين. كانت فكرة خطيرة، لكننا تأملنا في أن تغطي الصحافة الوطنية جانبنا من القصة الذي سيغير مجرى الأحداث .

جاء والت هارينغتون الصحفي في واشنطن بوست، إلى ألاباما للقيام بتحقيق صحفي عن عملنا قبل عام وسمعني أتحدث حالة ماكميلان، فنقل هذه المعلومات إلى صديقه الصحفي بيت إيرلي، الذي اتصل بي فوراً لأن قضية ماكملان أثارت اهتمامه بمجرد سماعه عنها، وبعد قراءة النصوص والملفات التي قدمناها له، دخل في القضية وقضى بعض الوقت مع العديد من أطرافها وسرعان ما

أصيب بالذهول هو الآخر من إدانة والتر بناءً على هذه الأدلة غير الموثوقة.

ألقيت خطابًا في كلية الحقوق بجامعة بيل في وقت سابق من العام حضره منتج من البرنامج الاستقصائي الشهير سي بي اس ٦٠ دقيقة، الذي اتصل بي بعد ذلك كما تلقينا مكالمات من مختلف برامج المجالات الإخبارية على مدى السنوات القليلة الماضية التي أعربت عن اهتمامها بتغطية عملنا، لكنني كنت حذرًا، فقد كان موقفني العام هو أن التغطية الصحفية نادرًا ما تساعد عملائنا وبعيدًا عن المشاعر العامة لوسائل الإعلام في الجنوب، كانت عقوبة الإعدام مستقطبة بشكل خاص، فحكم الإعدام موضوع مشحون سياسياً لدرجة أنه حتى المقالات المتعاطفة مع الأشخاص المحكوم عليهم بالإعدام عادة ما تسبب رد فعل محلي عنيف يخلق المزيد من المشاكل للعميل و القضية بدل من المساعدة في حلها و على الرغم من رغبة العملاء في بعض الأحيان باهتمام الصحافة بقضاياهم، فقد كنت شديد المقاومة للمقابلات الإعلامية حول الحالات المعلقة. لقد عرفت العديد من الحالات التي أدت إثارته في وسائل الإعلام إلى تسريع تاريخ التنفيذ أو تعرض المدانين بها لسوء المعاملة الانتقامية التي تجعل الأمور أسوأ بكثير.

قدمنا استئنافاً أمام محكمة الاستئنافات الجنائية في ذلك الصيف مع زوال القليل من الشك الذي طال أمده، قررت المضي قدماً خلال ٦٠ دقيقة. نزل الصحفي المخضرم إد برادلي ومنتجه ديفيد جيلبر من مدينة نيويورك إلى مونرو فيل في يوم من أيام يوليو الحارقة وأجرى مقابلات مع العديد من الأشخاص الذين قدمنا شهادتهم في جلسة الاستماع. تحدثوا مع والتر و رالف مايرز و كارين كيلي و دارنيل هيوستن و كلاي كاست و جيمي ويليامز والتر و ودرو إيكنر، كما واجهوا بيل هوكس في مقر عمله وأجروا مقابلة موسعة مع تومي تشابمان، وقد انتشر خبر وجود أحد أكبر مشاهير الأخبار إد برادلي في المدينة انتشار النار في الهشيم، مما أثار استياء المسؤولين المحليين، كما كتبت صحيفة مونرو:

كثير من هؤلاء (القادمون من خارج المدينة) يعبرون عن ازدراء مطلق للناس والمؤسسات التي يقابلونها هنا، مع أنهم لا يبذلون الجهد اللازم لجمع الحقائق. والأسوأ من ذلك، أن استخفاف القليل منهم واضح للعيان، وهنا في مونرو فيل يمكننا الاستغناء عن أي تغطية إخبارية أخرى من نوع (المراسل الكبير يأتي إلى هيك تاون) حتى قبل بث المقال، بدأت وسائل الإعلام المحلية بتحريض المجتمع على عدم الثقة في أي شيء يسمعون عن القضية. سي بي اس تبحث في قضية القتل، كتب أحد المراسلين المحليين لصحيفة مونرو جورنال، المدعي العام لمقاطعة مونرو تومي تشابمان قال، إنه يعتقد أن باحثين في برنامج مجلة أخبار سي بي إس التليفزيونية «٦٠ دقيقة» قد اتخذوا قراراتهم قبل المجيء إلى هنا». اعتاد تشابمان على استخدام صورة والتر التي حصلوا عليها عندما قبض عليه والتي ظهر فيها ملتحيًا وذا شعر كثيف طويل، والتي اعتقد تشابمان أنها توضح كم هو مجرم خطير فقال: «الشخص الذي قابله في سجن هولمان ليس هو نفس الشخص الذي قبض عليه المأمور تيت بتهمة القتل». وأضافت الصحيفة أن تشابمان عرض على شبكة سي بي إس صورة التقطت لماكملان عند اعتقاله، حيث توضح تلك الصورة من هو والتر الحقيقي لكنهم «لم يكونوا مهتمين». ولكنه أضاف: «يُطلب من السجناء في ألاباما أن يحافظوا على النظافة الشخصية وأن يبقوا حليقي

الشعر و الذقن، وهذا ما جعل والتر يبدو مختلفاً عند إجراء مقابلة أمام الكاميرا.

عندما بث التحقيق الخاص بقضية ماكمليان في برنامج ٦٠ دقيقة بعد ذلك بأشهر، سارع المسؤولون المحليون لتثويته سمعته، وقد كان عنوان Mobile Press Register DA: TV حساب إدانة ماكمليان «خزي»؛ المقال مقتبس من شابمان: «بالنسبة لهم كانوا مستعدين لفعل أي شيء بعيد عن الإيمان والمسؤولية، ليثبتوا أنفسهم كبرنامج إخباري حسن السمعة». ركزت الدعاية على إصابة والدي روندا موريسون. واشتكى الكتاب المحليون من أنه كان على آل موريسون أن يعيشوا لحظات صعبة ويتعاملوا مع الضغط القائل بأن الدعاية الجديدة، يمكن أن تقود الكثير من الناس إلى الاعتقاد بأن ماكمليان بريء.

كانت وسائل الإعلام المحلية حريصة على الانضمام إلى المدعين في انتقاد تحقيق برنامج ٦٠ دقيقة لأنه يكشف تغطيتها، والتي كانت تركز إلى حد كبير على تقديم نظرية الإدانة وتوصيف ادعاء والتر والجريمة فقط. لكن الناس في المجتمع يشاهدون برنامج ٦٠ دقيقة الذي يثقون به طوال الوقت، على الرغم من رد فعل وسائل الإعلام المحلية ومحاولاتها للتشكيك في تقرير البرنامج وبراءة والتر إلا أن تغطية شبكة سي بي اس قدمت للمجتمع ملخصاً لما قدمناه من أدلة في المحكمة ونجحت في خلق أسئلة وشكوك عما إذا كان والتر مذنباً فعلاً، كما اعتقد بعض قادة المجتمع المؤثرين أيضاً أنه جعل مونروفيل تبدو مرتدية زي التخلف وربما العنصرية، مما أعطى صورة سيئة عن المجتمع أو جهوده في توظيف الأعمال التجارية، وهذا بالطبع دفع قادة الأعمال لطرح أسئلة صعبة حول تشابمان وطرق تطبيق القانون في هذه القضية.

لقد قضاوا سنوات يهمسون بشأن إدانة والتر الخاطئة، في هذه القضية التي صدمت مجتمع السود، لدرجة أن تطورات المحاكمة والحكم أصبحت شغلهم الشاغل، حتى أننا كنا نتلقى المكالمات مراراً وتكراراً من أشخاص يبحثون عن آخر المستجدات، سعى بعض المتصلين لتوضيح نقاط معينة في هذه القضية، فقد كانت قضية والتر سيدة المجالس والاجتماعات، فقد أصبحت موضوع النقاش في الشارع وصالون الحلاقة والأسواق وفي كل مكان واجتماع، أما بالنسبة للسود في المنطقة، فقد أخذ العديد منهم يراقبون الأدلة التي قدمناها في المحكمة والتي تعرض الآن على التلفزيون الوطني والتي كانت بمثابة علاج للقهر والألم الذي شعروا به جراء ما تعرض له والتر.

في مقابلة مع تشابمان في برنامج ٦٠ دقيقة رفض أي تلميح سخيّف بوجود أي تحيز عنصري في محاكمة والتر ماكملان، كما أعلن بهدوء وثقة كاملة تصل حد اليقين، أن ماكملان مذنب وأنه يجب إعدامه في أقرب وقت ممكن، وأعرب عن احتقار محامي والتر و (الأشخاص الذين يحاولون تخمين هيئة المحلفين)، و لكننا اكتشفنا لاحقاً وبشكل خاص، أنه على الرغم من الثقة الواضحة في تصريحاته لوسائل الإعلام المحلية وبرنامج ٦٠ دقيقة، بدأ تشابمان في القلق بشأن موثوقية الأدلة ضد والتر، كما أنه لم يستطع تجاهل المشاكل في القضية التي كشفنا عنها في جلسة الاستماع، ونظراً لنجاحنا في قضايا عقوبة الإعدام الأخرى، لا بد أنه كان يخشى الاحتمال الحقيقي لإدانة محكمة الاستئناف لإدانة والتر. أصبح تشابمان الوجه الإعلامي للدفاع عن الإدانة، وعندها أدرك أنه يضع مصداقيته على المحك من خلال الاعتماد على عمل المحققين المحليين - وهو العمل الذي

اكتشف الجميع أنه معيب تقريبًا.

دعا تشابمان كل من تيت وإيكنر وبنسون معًا، بعد فترة وجيزة من جلسة الاستماع وعبر عن مخاوفه، وعندما طلب من المحققين المحليين شرح الأدلة المتناقضة التي قدمناها، لم يكن مسرورًا بما سمعه. بعد ذلك بوقت قصير، طلب رسميًا من مسؤولي ABI في مونتغمري إجراء تحقيق آخر في جريمة القتل لتأكيد ذنب السيد ماكميلان.

لم يخبرنا تشابمان أي شيء عن التحقيق الجديد، على الرغم من سعيها المتواصل لأكثر من عامين لمجرد إعادة النظر في الأدلة. عندما اتصل بي محققا ABI الجديان، توم تايلور وجريج كول، وافقت بشدة على مشاركتهما ملفات القضية وكل ما لدي من معلومات. وقد جعل هذا اللقاء معهما، قلبي يشرق تقاؤلاً بشأن ما قد ينتج عن التحقيق. وقد لاحظت أنهما محققان منطقيان وذوا خبرة، حيث انصب تركيزهما على القيام بعمل معقول وموثوق به.

في غضون بضعة أسابيع، بدا أن تايلور وكول يشككان في إدانة ماكميلان، كما لم يكونا متصلين بأي من الأطراف في جنوب ألاباما ومن جهتنا، قدمنا لهم ملفات ومذكرات وحتى بعض الأدلة الأصلية فلم يكن لدينا ما نخفيه. كنت عصبيا بسبب خوفي من فكرة إعادة المحاولة، أننا قد نحرم من الكشف عن الكثير من المعلومات للمحققين الحكوميين - الذين سيكونون بعد ذلك أكثر استعدادًا لتشويه أو تقويض أدلتنا - لكنني كنت لا أزال واثقًا من أن أي تحقيق معقول وصادق سيكشف عبثية التهم الموجهة ضد والتر.

وبحلول كانون الثاني (يناير)، كانت قد مرت ستة أشهر على تقديم استئنافنا في محكمة الاستئنافات الجنائية، وكان الحكم متوقعًا في أي أسبوع وقد اتصل توم تايلور وقال إنه وكول أرادا لقائنا مرة أخرى، رغم أننا تحدثنا عدة مرات أثناء التحقيق، ولكن هذه المرة مختلفة حيث سنناقش نتائجهم وعندما وصلوا جلسنا معهم أنا و برنار في مكتبي ولم يضيعوا الوقت، فقد قال توم بشكل مباشر:

«من المستحيل أن يقتل والتر ماكميلان روندا موريسون».

وحذا حذوه تايلور عندما قال: «سنقدم تقريرًا للنائب العام ومحامي المقاطعة وأي شخص يسأل عن ماكميلان مفاده أن ماكميلان لا علاقة له بأي من هاتين الجريمتين وهو بريء تمامًا.»

حاولت ألا يطغى شعوري بالبهجة من هذه الأخبار الجيدة على ملامحي فقلت:

«هذا رائع»، محاولاً أن أبدو غير متفاجئ.

«يسعدني سماع ذلك، ويجب أن أقول إنني ممتن جدًا لنظركم إلى الأدلة في هذه القضية بدقة ونزاهة».

رد تايلور: «حسنًا، التأكيد على أن ماكميلان لا علاقة له بهذا الأمر لم يكن بهذه الصعوبة، فمثلًا لماذا يعيش ملك المخدرات في الظروف التي كان يعيش فيها ويعمل خمس عشرة ساعة في اليوم

لقطع الأخشاب في التضاريس الصعبة؟ ما قيل لنا من قبل قوات تطبيق القانون المحلي حول ماكميلان لم يكن منطقياً إلى حد كبير، والقصة التي رواها مايرز أثناء المحاكمة بالتأكيد لا معنى لها، في الحقيقة ما زلت لا أصدق أن هيئة المحلفين أدانته».

تحدث كول: «ستكون مهتماً جداً بمعرفة أن كل من هوكس و هايتور قد اعترفا بأن شهادتهما التجريبية كانت كاذبة».

قلت ولم أستطع السيطرة على دهشتي هذه المرة : «حقاً؟»

تايلور بجدية: «نعم. عندما طُلب منا التحقيق في هذه القضية، قيل لنا إنه يجب علينا التحقيق معك لأن هوكس قال إنك عرضت عليه مالا وشقة في المكسيك إذا قام بتغيير شهادته» قلت: «مسكن في المكسيك؟»

أضاف كول بلا مبالاة «على الشاطئ، أعتقد».

قلت بصوت مصدوم : «انتظر لحظة، كنت سأعطي بيل هوكس مسكناً على الشاطئ في المكسيك إذا غير شهادته ضد والتر؟! «كان من الصعب احتواء صدمتي

- «حسناً، أعلم أن الأمر يبدو جنونياً بالنسبة لك، ولكن صدقني كان هناك أناس في الأسفل متشوقين لإدانتك إلا أن الأمر لم يستغرق وقتاً طويلاً، قبل أن يعترف هوكس بأنه لم يدر بينكما أي حديث أبداً لتعرض عليه رشوة والأكثر من ذلك أنه اعترف أيضاً أن شهادته ضد والتر في المحكمة ملفقة بالكامل».

- «حسناً، لم يكن لدينا أي شك في أن هوكس كان يكذب».

ضحك كول وقال: «ما إن بدأنا باستعمال جهاز كشف الكذب حتى سقطت الأكاذيب وأصحابها بسرعة كبيرة».

سأل برنارد سؤال واضح : «حسناً، ماذا سيحدث الآن؟»

نظر تايلور إلى شريكه ثم نظر إلينا. «حسناً، نحن لم ننهي عملنا بالكامل. فعلينا حل هذه الجريمة ولدينا مشتبه به».

قلت له: «كنت أتساءل إذا ما كنت على استعداد لمساعدتنا، أعلم أنك لن تحاول إقحام أي كان في قضية قتل، لكنني أعتقد أنك قد تفكر على الأقل في تقديم بعض المساعدة لتحديد القاتل الحقيقي، فإذا عرف الناس من هو القاتل الحقيقي سيتقبلون فكرة براءة السيد ماكميلان بسهولة أكبر».

كان من السخف التفكير في أن حرية والتر تعتمد على اعتقال شخص آخر، في حين أن تحقيقاً ناجحاً قد يصل إلى هذه النتيجة، لكن مع ذلك لم يكن بإمكانني المجادلة في حقيقة اعتقاد الناس أن والتر نجى بفعلته مالم نعثر على الجاني الحقيقي، حتى لو أن تحقيقات الـ ABI قد برأت والتر، فقد عرفنا منذ فترة طويلة أن العثر على القاتل الحقيقي قد يكون الطريقة الأكثر فعالية لتحرير والتر، ولكن لم يكن بإمكاننا اكتشاف الكثير بدون قوة وسلطة ضباط تطبيق القانون».

لقد توصلنا إلى نظرية قوية، بناءً على ما أخبرنا به عدة شهود حيث شهدوا أنه في وقت وقوع الجريمة تقريباً، شاهدوا رجلاً أبيض يغادر مركز مواد التنظيف، كما نما إلى علمنا أن روندا موريسون تلقت مكالمات تهديد قبل وفاتها وأنه كان هناك رجل يلاحقها بشغف وبشكل غير لائق - توقف خفية في متجر مواد التنظيف

وربما لملاحقتها- ولم نتمكن في البداية من التعرف على هذا الرجل الغريب، لكن كانت لدينا شكوكنا، فقد اتصل بنا رجل أبيض بدا مهتماً للغاية بالقضية، حيث كان يدعي الرغبة في التحدث مطولاً عن تحقيقنا، ولطالما لمح إلى أن لديه معلومات يمكن أن تساعدنا إلا أنه كان خجولاً وبطيئاً في تقديم شيء ملموس، فقد كان كثيراً ما يردد أنه يعرف أن مكميلان بريء وأنه سيساعدنا في إثبات ذلك و في نهاية المطاف وبعد عدة مكالمات وساعات من المحادثة، ادعى أنه يعرف مكان وجود سلاح الجريمة، الذي لم يُعثَر عليه قط وقد حاولنا الحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات منه، كما بحثنا عن خلفيته للتأكد مما أخبرنا به عن وجود بعض النزاعات بينه وبين رجل آخر في البلدة وأن كثرة حديثه تلقي باللوم على هذا الرجل في مقتل موريسون بالرصاص وعندما حققنا في هذه النظرية، لم نفتتح بها.

لم تتطابق مواصفات الرجل الآخر مع أوصاف شهود العيان للشخص الذي شوهد وهو يغادر متجر مواد التنظيف، ولم يكن للمتصل تاريخ في المطاردة والعنف ضد المرأة لكنه كان منشغلاً بمقتل موريسون. بدأنا نعتقد أن هذا المتصل يمكن أن يكون قاتل روندا موريسون، فأجرينا معه عشرات المحادثات الهاتفية بل وتقابلنا معه عدة مرات و لم نفتتح بتورط الرجل الذي اتهم بارتكابه الجريمة و في مرحلة ما، سألناه بعض الأسئلة المباشرة حول مكان وجوده وقت الجريمة، مما أزعجه وقد اتضح لنا ذلك من تقليل مكالماته بعد ذلك.

قال تايلور قبل أن أتمكن من إخبارهم بأي من هذا:

«نعتقد أنك ربما قابلت المشتبه به، وربما جمعت القليل من المعلومات من هذا الرجل، لذا كنا نأمل أن تسمح لنا بالحصول على تلك المعلومات وتلك المقابلات». وقد ذكر اسم المشتبه به وأخبرتهم أننا سنطلعهم على المعلومات التي جمعناها، فلم يكن أي منها محمياً بامتياز المحامي وموكله ؛ كمال لم نقم بتمثيل هذا الرجل أو نحصل على أي معلومة بشكل سري، لكنني طلبت من تايلور وكول أن يمنحانا بضعة أيام لتنظيم المعلومات، ثم إعادتها.

أصررت: «نريد إخراج والتر من السجن في أقرب وقت ممكن».

-«حسناً، أعتقد أن المدعي العام والمحامين يرغبون في الحفاظ على الوضع الراهن كما هو لبضعة أشهر أخرى، حتى نتمكن من إلقاء القبض على القاتل الفعلي».

-«صحيح، لكن هل تفهم أن الوضع الراهن يمثل مشكلة بالنسبة لنا؟ فالتر في انتظار تنفيذ حكم الإعدام منذ ما يقرب من ست سنوات على جريمة لم يرتكبها».

نظر تايلور وكول إلى بعضهما البعض بشكل غير مريح. رد تايلور: «نحن لسنا محامين لذا لا

يمكننا أن نفهم حقًا من أين أتوا، ولكن كل ما نعرفه أننا إذا كنا في السجن بسبب شيء لم نفعله وكنت أنت محاميًا، كنا نأمل أن تخرجنا في أقرب وقت ممكن».

عندما غادرا، كنت أنا وبيرنارد متحمسين للغاية، لكننا ظللنا قلقين من هذه الخطة (الحفاظ على الوضع الراهن). قررت الاتصال بمكتب المدعي العام لأرى ما إذا كانوا سيعترفون بالخطأ القانوني في الاستئناف المعلق، والذي سيضمن الإنصاف في محكمة الاستئناف وربما يجعل بإطلاق سراح والتر. وتولى محام آخر من مكتب المدعي العام يدعى كين نونلي الاستئناف. لقد تعاملت مع نونلي في العديد من قضايا عقوبة الإعدام الأخرى.

أخبرته أنني قابلت محققى ABI وأدركت أن هناك بعض التطورات في قضية السيد مكميلان، واتضح لي أن محامي الدولة كانوا يناقشون هذه القضية قليلاً.

و قال لي : «برايان، كل شيء سينجح ولكن عليك الانتظار قليلاً لمزيد من الأشهر، لقد كان في السجن لسنوات لذلك فإن بضعة أشهر أخرى لن تحدث فرقاً كبيراً».

قلت له: «كين، كل يوم يحدث فرقاً عندما تحبس في وحدة تنفيذ حكم الإعدام، وقد أدنت خطأ». حاولت الحصول على التزام لكنه لم يقدم شيئاً، فطلبت مقابلة النائب العام أو أي مسؤول لديه سلطة نهائية في اتخاذ القرار، وقال إنه سيرى ما يمكنه فعله، وفي غضون أيام قليلة قدمت الولاية التماساً خاصاً لمحكمة الاستئناف الجنائية، حيث طلب المدعي العام من المحكمة وقف التقاضي وعدم إصدار حكم لأنهم، ربما كشفوا أدلة تبرئ السيد مكميلان ويمكن أن تخوله للخضوع لمحاكمة جديدة، لكنهم كانوا بحاجة إلى مزيد من الوقت لإكمال التحقيق. استشطت غضباً عند سماعي هذا الكلام، لأن هذا يعني أن الولاية ستحاول المماطلة في أي أمر يغيب والتر، وقد كانت اقتراحات الولاية متسقة مع كل ما حدث على مدى السنوات الست الماضية، لكن هذا لا ينفي أنها جنونية، وقمنا بسرعة بتقديم ردٍ يعارض اقتراح الولاية، حيث أخبرنا المحكمة أن هناك أدلة دامغة على انتهاك حقوق السيد مكميلان، وأنه يحق له الحصول على تعويض فوري، كما أوضحنا أن تأخير العفو سيضاعف مأساة الرجل الذي أدين ظلماً وحكم عليه بالإعدام في جريمة لم يرتكبها، وعليه طالبنا المحكمة برفض طلب الولاية والحكم بسرعة. كنت في تلك الآونة أتحدث مع ميني والعائلة كل أسبوع، لإطلاعهم على آخر المستجدات حول تحقيق الولاية الجديد.

قالت لي ميني: «أشعر أن شيئاً جيداً على وشك الحدوث، برايان لقد سجنوه لسنوات. حان الوقت الآن للسماح له بالرحيل. عليهم أن يتركوه يذهب».

رغم تقديرى لتفاؤلها، إلا أنه لم يمنعني من القلق، فكثيراً ما خاب أملنا من قبل

قلت: «علينا أن نبقى متفائلين، ميني أخبرت الناس دوماً أنه ما من كذبة تعيش للأبد ولطالما كانت هذه الكذبة كبيرة».

لم أكن متأكداً تماماً من كيفية التعامل مع توقعات العائلة، لأنني شعرت أنه كان من المفترض أن أكون الصوت التحذيري، الذي يجهز أفراد الأسرة للأسوأ حتى في الوقت الذي شجعتهم فيه على

الأمل في الأفضل. كانت المهمة تزداد تعقيداً حيث تعاملت مع المزيد من الحالات ورأيت الطرق التي لاتعد ولا تحصى والتي من شأنها تسيير بها الأمور بشكل خاطئ. لكني كنت أقوم بتطوير إدراك ناضج لأهمية الأمل في إقامة العدل.

لقد بدأت في معالجة موضوع الأمل في المحادثات مع مجموعات صغيرة، وقد كنت مولعا بالاقتراس عن فاكلاف هافيل، ذلك الزعيم التشيكي العظيم الذي قال إن (الأمل) هو الشيء الوحيد الذي احتاجه الناس في أوروبا الشرقية خلال فترة الهيمنة السوفيتية، حيث قال هافيل إن الناس الذين يناضلون من أجل الاستقلال يريدون المال والاعتراف من الدول الأخرى، كما أرادوا المزيد من النقد للإمبراطورية السوفيتية من الغرب والمزيد من الضغط الدبلوماسي، لكن هافيل قال إن هذه هي الأشياء التي يريدونها، أما الشيء الوحيد الذي يحتاجونه هو الأمل، فالأمل ليس تلك الفطيرة في السماء، ولا هو تفضيلاً للتناول على التشاؤم، بل «توجه الروح». نوع الأمل الذي يخلق بداخل الإنسان الرغبة في وضع نفسه في مكان مئوس منه وأن يكون شاهداً، هو نفسه الذي يسمح للمرء أن يؤمن بمستقبل أفضل، حتى في مواجهة القوة المسيئة. هذا النوع من الأمل هو ما يجعل المرء قويا، وبناءً على وصف هافيل فهذا بالضبط ما يبدو أن عملنا يتطلبه. و ما كان والتر في أمس الحاجة إليه، لذلك لم أحبط ميني. ففي النهاية هذا ما كنا نأمله جميعاً.

في ٢٣ فبراير، أي بعد ما يقرب من ستة أسابيع من تلقي تقرير ABI، تلقيت مكالمة من كاتبة المحكمة لإبلاغنا بأن محكمة الاستئناف الجنائية حكمت في قضية ماكميلان وأنه يمكننا أن نعرف الرأي، ثم قالت بغموض: «ستحب هذا».

ركضت إلى المحكمة وكنت بالكاد ألتقط أنفاسي بينما جلست لقراءة الحكم المكون من خمس وثلاثين صفحة. كانت كاتبة المحكمة على حق، فقد أبطل الحكم إدانة والتر وحكم الإعدام، صحيح أن المحكمة لم تستنتج أنه بريء ويجب الإفراج عنه، لكنها قضت لصالحنا في كل دعوى أخرى وأمرت بمحاكمة جديدة. لم أكن أدرك كم كنت أخشى أن نخسر حتى فزنا في النهاية. قفزت في السيارة وكنت أسابق الريح وأتحدى الموت حتى أخبر والتر شخصياً. استمع لكل ما قلته، ثم استند إلى الوراء وضحك ضحكة مألوفة، ثم قال ببطء:

- «حسناً، هذا جيد. ذلك جيد».

- «جيد؟ انه لشيء رائع!»

-«نعم، هذا رائع». وتزين وجهه بابتسامة عريضة لم أرها من قبل، ابتسامة الحرية التي شعر بأن نسيمها يدغدغ قلبه ورحيقها يداعب مشاعره.

- «لا أصدق ذلك، يارجل لا أصدق ذلك... يا للعجب!»

ثم بدأت ابتسامته تتلاشى، وبدأ يهز رأسه ببطء.

- «ست سنوات، ست سنوات مضت». نظر بعيداً بتعبير مؤلم.

- «هذه السنوات الست مرت و كأنها خمسين سنة، ست سنوات، لقد ولت للتو. لقد كانت فكرة أنهم سيقتلونني مرعبة لدرجة أنني لم أفكر في تلك الأيام والليالي والسنوات التي ضاعت من عمري في هذا القبر الإسمنتي المقيت».

لقد ادركتتي نظراته المضطربة أيضا، قلت:

«أعلم يا والتر، أن الأمور لم تتضح لنا بعد، فهذا الحكم يمنحك محاكمة جديدة فقط بالنظر إلى ما قاله محققو الـABI، لا أستطيع أن أصدق أنهم سيحاولون مقاضاتك مرة أخرى، ولكن مع كل الأفكار والاحداث المتزاحمة حولنا، فإن السلوك المعقول غير مضمون على الإطلاق، لكنني سأحاول إعادتك إلى المنزل في أقرب وقت ممكن إنسانيا».

خفت تقلب مزاجه عند ذكر فكرة المنزل، وبدأنا نتحدث عن أشياء كنا نخشى مناقشتها منذ التقينا، فقال:

«أريد أن أقابل كل من ساعدني في مونتغمري. وأريد أن أتجول معك وأخبر العالم عما فعلوه بي، بريان هناك أناس آخرون أبرياء مثلي» توقف ثم ابتسم مرة أخرى. «أه يا رجل، أريد بعض الطعام الجيد أيضًا فأنا لم أذوق طعام جيد حقيقي منذ فترة طويلة لدرجة أنني لا أتذكر طعمه حتى».

قلت بفخر: «أيا كان ما تريده، سيكون ذلك بمثابة علاجي لك».

قال في محاولة لمضايقتي: «مما سمعته، قد لا تكون قادرًا على تحمل نوع الوجبة التي أريدها، فأنا أريد شرائح اللحم والدجاج ولحم الخنزير، وربما بعض الراكون المطبوخ الجيد».

- «راكون؟»

«أه، لا تتظاهر. تعلم أنك تحب الراكون المشوي. من فضلك لا تجلس هناك وتخبرني أنك لم يكن لديك أي راكون جيد، فأنا أعلم أنك نشأت في بلدة مثلي تمامًا، حيث كان هناك الكثير من الوقت الذي كنت فيه أنا وابن عمي قادرين على القيادة، وعندها ركض الراكون عبر الطريق وقال: «أوقف السيارة، أوقف السيارة!» وأوقف السيارة وقال اقفز للخارج واذهب للركض في الغابة وعُد بعد دقائق مع الراكون الذي اصطرته لناأخذه إلى المنزل، فاحتفظ بالجلد ونقله أو نشوي اللحم. يارجل. . . عم تتكلم؟ سيكون ذلك بعض الطعام الجيد».

- «لابد أنك تمزح. لقد نشأت في بلدة، لكنني لم أطارد أي نوع من الحيوانات البرية في الغابة لأخذها إلى المنزل وأتناولها كطعام» استرخينا وضحكنا كثيرا في تلك الزيارة ولم تكن هذه المرة الوحيدة التي ضحكنا فيها فقد عجزت تلك السنوات الست بانتظار تنفيذ حكم الإعدام على إفقاده حس الفكاهة، كثيرا ما كنا نتحدث عن الحالات والناس المتصلة بخصوص القضية التي، تسببت له بكل هذا الضرر، وضحكنا على عبثيتها. لكن الضحك اليوم كان مختلفاً جداً كان بحلاوة طعم الحرية التي حرم والتر منها لسنوات.

أثناء عودتي إلى مونتغمري سيطرت على تفكيري فكرة واحدة فقط وهي تسريع إطلاق سراح

والتر. اتصلت بـ(تومي تشابمان) وأخبرته أنني أنوي تقديم طلب لرفض جميع التهم الموجهة إلى (والتر) في ضوء حكم محكمة الاستئناف، وكنت أمل أن يفكر في الانضمام إلى الطلب أو على الأقل عدم معارضته تنهد قائلاً: «يجب أن نتحدث عندما ينتهي كل هذا، و بمجرد أن تقدم طلبك، سوف أعود إليك ولكن اطمئن ففي حال لم ننضم إليه فنحن بالتأكيد لن نعارضه».

عقدت جلسة الاستماع بشأن الطلب، وقد انضمت الولاية في الواقع إلى اقتراحنا بإسقاط التهم، ولم أتوقع أن تستمر الجلسة النهائية أكثر من بضع دقائق، في الليلة السابقة كنت قد ذهبت إلى ميني للحصول على بدلة لوالتر لارتدائها في جلسة الاستماع، لأنه في النهاية سيكون قادرًا على الخروج من المحكمة رجل حر. عندما وصلت إلى المنزل، عانقتني عناق طويل، فقد بدا الأمر كما لو أنها كانت تبكي ولم تتم، ثم جلسنا وأخبرتني مرة أخرى كم كانت سعيدة لأنهم سيسمحون له بالخروج. لكنها بدت مضطربة، أخيراً التفتت إليّ.

- «بريان، أعتقد أنه يجب عليك إخباره أنه ربما لا يجب أن يأتي إلى هنا، لقد كان كل ما حصل فوق قدرتي على الاحتمال؛ الإجهاد و الثثرة و الأكاذيب و كل شيء. إنه لا يستحق ما وضعوه به، لقد جرح قلبي ما فعلوه و سيظل يؤلمني بقية عمري أنا وعائلي، لكن رغم كل ذلك لا أعتقد أنه يمكن للأمر العودة لما كانت عليه».

- «حسنًا، يجب أن نتحدثا معًا عندما يعود إلى المنزل».

- «عندما يأتي سنخرج جميعًا، سنطهرو بعض الطعام الجيد، وسيرغب الجميع بالاحتفال. ولكن بعد ذلك، ربما يجب أن يذهب معك إلى مونتغمري».

لقد تحدثت بالفعل مع والتر عن عدم بقائه في الليالي الأولى بعد خروجه من السجن في مونروفييل، لأسباب أمنية، كما تحدثنا عن قضاء بعض الوقت مع أفراد العائلة في فلوريدا إلى أن نجس نبض الشارع المحلي بخصوص إطلاق سراحه. لكني لم أناقش مستقبله معه ميني. لقد ظلت أحت ميني على التحدث مع والتر عندما يعود إلى المنزل، ولكن كان من الواضح أن جرحها مازال ينزف وأنها لم تتجاوز ألمها الذي كان يحول بينها وبين ذلك. عدت إلى مونتغمري، وأدركت أنه مع الأسف حتى عندما وقفنا على حافة النصر، وشعرنا باقتراب ما ينبغي أن يكون إطلاقاً مجيداً لوالتر وعائلته، قد يبقى شبح هذا الكابوس يهدده وعائلته ولأول مرة استوعب تماماً، حقيقة أن الإدانة وحكم الإعدام والدمار الذي يسببه إجهاض العدالة قد يسبب ندوباً دائمة يبقى أثرها يشوه حياة هؤلاء الناس.

عندما وصلت إلى المحكمة في صباح اليوم التالي، كان هناك العديد من وسائل الإعلام الحكومية والمحلية والوطنية تحتشد خارج المحكمة، كما حضر العشرات من أفراد عائلة والتر وأصدقائه من المجتمع لتحيته عندما يخرج. لقد رفعوا لافتات ولوحات، الأمر الذي فاجأني لقد كانت لفظة بسيطة لكنها هزتني من أعماقي لقد كانت تلك اللافتات صوت الحشد الصامت الذي عبر عما يشعرون به، بما حوته من عبارات مثل (مرحباً بك في بيتك، جوني دي) و(الله لا يخذل أحداً) و(الحرية أخيراً) و(الحمد لله تعالى) و(نحن أحرار في النهاية).

نزلت إلى السجن وأحضرت بدلة والتر وأخبرته بما يحدث وبخططنا للاحتفال في منزله بعد

جلسة الاستماع، ولكن إدارة السجن لم تسمح لوالتر بإحضار ممتلكاته إلى المحكمة، فهم يرفضون الاعتراف بأنه قد يُفرج عنه، وهكذا كان علينا العودة إلى سجن هولمان لأخذ أغراضه قبل العودة إلى منزله، كما أخبرته أيضًا أنني حجزت له غرفة في فندق مونتغمري وأنه ربما يكون من الأسلم قضاء بضع ليال هناك بعد خروجه، ثم تحدثت معه على مضض عما دار بيني وبين ميني، وقد بدا مندهشًا ومجروحًا لكنه لم يستغرق وقتًا قبل أن يقرر:

«هذا يوم سعيد حقًا بالنسبة لي. ولن أسمح لشيء بإفساد فرحة الحصول على حريتي وعودتي للحياة».

- «حسنًا، يجب أن نتحدثًا في وقت ما».

صعدت لأجد تومي تشابمان ينتظرني في قاعة المحكمة وقال لي: «بعد أن ننتهي من كل هذا، أود أن أصفحه، هل هذا سيكون هذا حسنًا؟»

- «أعتقد أنه سيقدر ذلك».

- «آه بريان لقد علمتني هذه القضية أشياء لم أكن أعلم أنني يجب أن أتعلّمها».

- «جميعنا تعلمنا الكثير، تومي».

عندما وصل برنار، كان نواب المأمور ينتشرون في كل مكان، تشاورنا معه لفترة وجيزة على طاولة المشورة قبل أن يطلب منا مأمور الهجرة العودة إلى غرفة القاضي. لقد تقاعد القاضي نورتون قبل أسابيع من قرار محكمة الاستئناف الجنائي. أما القاضي الجديد، باميلا باسكاب فقد استقبلتني بحرارة ثم أجرينا حديثًا صغيرًا تخلله نقاش عما سيحدث خلال جلسة الاستماع، وقد كان الجميع لطيفًا بشكل غريب.

قالت باميلا: «سيد. ستيفنسون، إذا كنت ستقدم مذكرة فقط وموجزًا ملخصًا فلست بحاجة إلى أي حجج أو تصريحات، فأنا أنوي إسقاط التهم على الفور كي نتمكن جميعنا من العودة إلى المنزل، ويمكننا إنجاز ذلك بسرعة» ثم توجهنا إلى قاعة المحكمة. يبدو أن هناك عددًا من النواب السود في قاعة المحكمة التي تجري بين جدرانها أحداث هذه الجلسة، أكبر مما رأيت في أي وقت مضى من تلك المحاكمة، كما لفت نظري عدم وجود كاشف معادن، أو كلب مُهدد. كانت قاعة المحكمة ممتلئة بأفراد عائلة والتر وأنصاره، ناهيك عن الأشخاص السود الذين يهتفون خارج المحكمة ولم يتمكنوا من الدخول، وقد كان هناك حشد من كاميرات التلفزيون والصحافيين اصطفوا خارج قاعة المحكمة المزدحمة.

أخيرًا أحضروا والتر إلى قاعة المحكمة مرتدياً البدلة السوداء والقميص الأبيض الذين أحضرتهما له، وقد بدا وسميًا وورشيقيًا، وكأنه رجل آخر، لم يكبل النواب يديه أو يقيده، لذلك دخل إلى المحكمة ملوحًا لعائلته وأصدقائه، لم تره عائلته بزي آخر غير زي السجن الأبيض منذ ذلك الحين الحين، حيث جرت محاكمته الأولى قبل ست سنوات، حبس الكثيرين من الحشد أنفاسهم عند دخوله قاعة المحكمة بتلك البدلة. منذ سنوات وأفراد عائلة والتر وأنصاره يواجهون تهديدًا بالغًا

وتهديدات بالطرد كلما أعربوا عن آرائهم، ببعض العفوية خلال إجراءات المحاكمة، ولكن اليوم وافق النواب على تعبيرهم الصامت عن فرحتهم.

أخذ القاضي المقعد، وتقدمت لأتكلّم، أعطيتهم تاريخاً موجزاً للقضية وأبلغت المحكمة أن كل من المدعى عليه والولاية يطلبان من المحكمة رفض جميع التهم، وقد وافق القاضي بسرعة على الاقتراح وسأل عما إذا كان هناك أي شيء، بالإضافة إلى ذلك، وفجأة، شعرت بالغضب الشديد، لقد كنت أتوقع أن أكون مندفعاً. لقد كان الجميع في مزاج جيد، وكان القاضي والمدعي العام كريمين فجأة واستوعبا أن الأمر كان كما لو أراد الجميع، التأكد من عدم وجود مشاعر قاسية أو ضغينة.

كان والتر مبتهجاً فعلاً، لكنني ارتبكت فجأة وشعرت بغضب، لقد كنا على وشك مغادرة المحكمة للمرة الأخيرة، وبدأت أفكر في مقدار الألم والمعاناة التي لحقت بوالتر وعائلته والمجتمع بأكمله، كما فكرت لو أن القاضي روبرت إي لي كي لم يتخط حكم هيئة المحلفين بسجن والترمدى الحياة بدون إطلاق سراح مشروط وفرض عقوبة الإعدام، مما لفت انتباهنا إلى القضية، كان من المحتمل أن يقضي والتر بقية حياته في السجن ويموت في تلك الزنزانة التي تشبه القبر، كما فكرت في مدى الظلم الذي لحق بمئات وربما آلاف الأشخاص الآخرين، الذين أدينوا بالخطأ مثل والتر لكنهم لم يحصلوا على المساعدة التي يحتاجونها لأثبات براءتهم. كنت أعلم أن هذا ليس المكان أو الوقت المناسب لإلقاء خطاب أو تقديم شكوى، لكنني لم أستطع منع نفسي من تقديم تعليق أخير.

- «حاضرة القاضي، أريد فقط أن أقول هذا قبل أن ترفع الجلسة، لقد كان من السهل جداً إدانة هذا الرجل المتهم خطأ بتهمة القتل وإرساله إلى الكرسي الكهربائي لإعدامه، كعقاب له على جرم لم يرتكبه وكم كان كسب حريته بعد إثبات براءته صعب عليه. اليوم نجا والتر ولكن كم والتر مازال يقبع في سجوننا؟ وكم والتر أحتضن ذلك الكرسي أجسادهم ليزهق أرواحهم؟ سيدتي القاضي لدينا مشاكل خطيرة وعمل مهم يجب القيام به في هذه الحالة».

جلست ونطقت القاضي بحكم براءة والتر وأنه حر تماماً في الذهاب كما لو أنه لم يدخل قفص الاتهام من قبل.

عانقتي والتر بشدة، وأعطيته منديلاً ليمسح الدموع التي فرت من عينيه كما لو أنها هي الأخرى تحررت اليوم. ذهبت معه إلى تشابمان وتصافحت أيديهما، كان النواب السود يحومون في مكان قريب وقد دفعونا نحو باب خلفي أدى إلى الطابق السفلي، حيث ينتظرنا حشد من الصحفيين.

ربتني أحد النواب على ظهري قائلاً: «هذا رائع يا رجل. هذا رائع». طلبت من برنارد أن يخبر العائلة ومؤيدين والتر بأننا سنلتقي بهم في الخارج.

وقف والتر قريباً جداً مني بينما نجيب على أسئلة الصحافة. أستطيع القول أنه كان يشعر بالإرهاق، لذلك قطعت الأسئلة بعد بضع دقائق، وسرنا إلى الباب الأمامي للمحكمة تتبعنا طواقم كاميرات التلفزيون، أثناء سيرنا في الخارج قابلتنا موجة من الفرحة اكتست بها الأجواء حيث هلل العشرات ولوحوا بلافتاتهم و ركض أقارب والتر لمعانقته، وعانقوني أيضاً، وأمسك أحفاد والتر بيديه، حتى كبار السن الذين لم ألتق بهم من قبل جاءوا لمعانقته، لم يستطع والتر تصديق عدد

الأشخاص الموجودين هنا من أجله، عانق الجميع حتى أنه عانق بعض الرجال الذين جاؤوا لمصافحته أخبرت الجميع أنني و برنارد علينا أخذ والتر إلى السجن و من ثم سندهب إلى المنزل مباشرة من هناك، وقد استغرق الأمر ما يقرب من ساعة لتجاوز هذا الحشد للوصول إلى السيارة.

في الطريق إلى السجن، أخبرني والتر أن الرجال على وشك الموت ومع ذلك سعوا لتقديم خدمة خاصة له في ليلته الأخيرة، فقد جاؤوا للصلاة من أجله و عانقوه عناقاً أخيراً، قال والتر إنه شعر بالذنب لتركهم وراءه. قلت له ألا يفعل - لقد شعروا جميعاً بسعادة غامرة لمعرفة أنه عائد إلى المنزل. لقد كانت حريته، بارقة أمل أضاعت عتمة ذلك المكان ابعد أن هجره لسنوات.

على الرغم من تأكيداتى للجميع بأننا سنكون في المنزل قريباً، إلا أن الجميع تبعنا إلى السجن؛ الصحافة و طواقم التلفزيون المحلية و أسرته وجميع وعندما وصلنا إلى هولمان، خلفنا قافلة من وسائل الإعلام والمهنيين، وأوقفت سيارتي وسرت إلى البوابة الأمامية لأشرح للحارس في البرج أنه ليس بيدي حيلة أمام هذا الجمع الغفير من الناس - كنت أعرف أن مأمور السجن لديه سياسات صارمة حول وجود أشخاص لم يكن لديهم عمل في السجن- لكن الحرس في الداخل لوحوا لنا ولم يحاول أحد إقناع الحشد بالمغادرة.

ذهبنا إلى مكتب السجن لجمع ممتلكات والتر، من المواد القانونية ومراسلاتنا وخطابات من الأسرة والمؤيدين و كتاب مقدس و ساعة تيميكس التي كان يرتديها عندما قبض عليه، إضافة إلى المحفظة التي كان بحوزته في يونيو ١٩٨٧ عندما بدأ كابوسه، لا تزال المحفظة تحتوي على ٢٣ دولاراً، أعطى والتر لسجناء آخرين محكومين بالإعدام مروحته وقاموس ومواد غذائية كانت في زنزانته و رأيت السجنان ينظر إلينا من مكتبه ونحن نجمع أشياء والتر، لكنه لم يخرج.

راقبنا بعض الحراس أثناء خروجنا من البوابة الأمامية للسجن، حيث لا يزال الكثير من الناس يتجمعون في الخارج. رأت السيدة ويليامز والتر الذي صعد إليها وعانقها. عندما أفرج عنها نظرت إلى وغمرتني و عندها لم يسعني إلا أن أضحك.

كان بإمكان الرجال رؤية الحشد في الخارج من زنازينهم حيث بدأوا بالصراخ لتشجيع والتر أثناء سيره. لم نتمكن من رؤيتهم من خارج السجن، لكن أصواتهم عزفت على نفس الوتر ظلت تلك الأصوات ترافقنا لأنها لم تكن مجردة، بل كانت محملة بالإثارة والأمل. أحد آخر الأصوات التي وصلتنا كانت لرجل يصرخ، «ابق قوياً يا رجل. ابق قوياً!»

صاح والتر: «حسناً!»

أثناء سيره إلى السيارة، رفع والتر ذراعيه وحركهما برفق صعوداً وهبوطاً كما لو كان يقصد الطيران، نظر إلي و قال:

«أشعر أنني طائر، أشعر أنني طائر يحلق في السماء ويشم عبيرها ويتنفس هواءها ويلمس سحبها بجناحيه.

الفصل الثاني عشر

الأمهات

في ليلة باردة وهادئة من ليالي منتصف شهر مارس، تجولت مارشا كولبي برفقة زوجها في شوارع مدينة نيويورك، مرتديةً فستانًا باللون الأزرق الملكي الأنيق، إنها اللحظة التي حلمت بها لسنوات، وهناك يدفعها فضولها الكبير لمتابعة المشاهد والأصوات بينما يجوبان تلك الأرصفة المشغولة، حيث تمادت المباني الضخمة لتعانق السحاب، بينما ضجت شوارع قرية غرينتش بحركة المرور الصاخبة. لم يلق أحد بآلاً لمجموعات الطلاب والحرفيين في نيويورك لأنهم شقوا طريقهم عبر واشنطن سكوير بارك، وقد لاحظت وجود ثلاثة هواة يعزفون موسيقى الجاز متبعين أدق المعايير في زاوية الحديقة. بدا كل شيء وكأنه مشهد ساحر من فيلم خيالي.

كانت مارشا تلك المرأة البيضاء القادمة من بلدة ريفية فقيرة في ألاباما و التي لم تزر نيويورك يوماً، ضيفة الشرف في حفل عشاء ضم مائتي ضيف في تلك الليلة وقد كان كل شيء مثيراً، لكنها كانت تشعر بشيء غير عادي لوجودها في هذا المكان، وسرعان ما فهمت ما كانت تشعر به، إنه سحر الحرية فقد كانت تتجول في شوارع المدينة الأكثر إبهاراً بأنوارها المتلألئة وحضارتها الطاغية وتقدمها المثير مع زوجها، و هي حرة بلا قيود وبلا حراسة و بلا خوف لقد كان شعورا مجيداً، كل شيء في الأشهر الثلاثة الأخيرة منذ إطلاق سراحها كان سحرياً. كان ذلك أروع مما تخيلت حتى قبل أن يحكم عليها بالسجن مدى الحياة دون إطلاق سراح مشروط في سجن جوليا توتويلر للنساء.

عندما ضرب إعصار إيفان ولاية ألاباما الساحلية وأحدث فوضى و كارثة في حياة مارشا، اعتقدت أن الأمور وصلت إلى أسوأ ما يمكن أن تصل إليه، فقد خلف إيفان ١١٩ إعصاراً وخلق أكثر من ١٨ مليار دولار من الأضرار، كل هذا الدمار مع وجود ستة أطفال لحمايتهم، لم يكن لديها وقت للاستسلام للذعر الذي أصابها عندما فقدت منزلها أو عندما رأت كل الدمار المحيط بها، لكن الشك هو الذي أثار قلق مارشا. أين ستجد عملاً هي أو زوجها؟ كم من الوقت سيبقى أطفالها خارج المدرسة؟ كيف سيكسبون المال؟ كيف سيوفرون الطعام؟ كان الجميع على ساحل الخليج يشعرون بالضعف وعدم القدرة على مواجهة مثل هذا المستقبل الغامض. حولت الموجات المستمرة من العواصف والأعاصير المدارية التي هددت ساحل لويزيانا، ألاباما و ميسيسيبي وفلوريدا في صيف ٢٠٠٤، حياتهم الساحلية الجنوبية الهادئة إلى صراع مروع من أجل البقاء.

كانت مارشا وغلين كولبي يعيشان في مقطورة مزدحمة مع أطفالهما، عندما أعلن عن تحذيرات الإعصار، كانا يعلمان أنهما والجميع في خطر. لم يكونا وحدهما، بل كان هناك الكثير من العائلات الأخرى معهما في هذا الموقف الصعب، مما هون عليهما، ولكن عندما دمر إيفان منزل كولبي في سبتمبر، وجد نفسه يتأقلم مع آلاف الأشخاص الآخرين الذين يطلبون المساعدة من الوكالة الفيدرالية لإدارة الطوارئ (FEMA) قد جاءت المساعدة في نهاية المطاف، حيث أعطت (FEMA) لكولبي

مقطورة العرببة كسكن مؤقت و وضعوها على ممتلكاتهم، حتى يتمكن الأطفال من البقاء في مدارسهم القريبة. وجدت مارشا وغلين وظيفة في أعمال البناء والتسقيف في بداية الصيف، ولكن سيكون أمامهما أسابيع قبل توفر تلك الوظائف .

بإمكان مارشا القول أيضًا أنها حامل، لقد كانت في الثالثة والأربعين من عمرها ولم تخطط لإنجاب طفل آخر، لكن كل ما يشغل بالها الآن هو كيف سيحد هذا الحمل خلال الأشهر القليلة القادمة من قدرتها على القيام بأعمال البناء، فينقلب قلقها تحت كل هذا الضغط الذي تتعرض له إلى خوف من إغراء قديم، وهو المخدرات لكن تفكيرها بالعديد من الناس الذين يعتمدون عليها يفقد هذا الإغراء بريقه، فهي لن تنسى أبدا الرعب الذي شعرت به قبل خمس سنوات، عندما استدعت الممرضات الشرطة بعد أن وجدن الكوكايين في دمها عندما كانت حاملاً بطفلها الأصغر جوشوا وعندما هددتها السلطات بملاحقتها و توجيه الاتهامات الجنائية لها وسجنها وأخذ أطفالها. كل هذا يجعلها لا تفكر بالمخاطرة بذلك مرة أخرى، رغم وجود الكثير من الأشياء التي تدعوها للاستسلام.

كانت هي وغلين واقعان في براثن الفقر المدقع، لكن مارشا كانت تعوض هذا الفقر الذي حرماها من توفير العديد من الأشياء لأبنائها بمنحهم ما هو أهم من المال أو الأشياء المادية، فقدت منحهم قلباً كبيراً وحنوناً احتواهم جميعاً فقد كانت تقرأ لهم وتتحدث وتلعب معهم، وتحضنهم و تقبلهم باستمرار وتبقيهم قريبين دائماً، فعلى الرغم من كل الصعاب، استطاعت تكوين عائلة عزيزة النفس وذات قيمة يربط أفرادها حب شديد، ولذلك لم يترك أولادها الأكبر سناً المنزل، وبقوا على مقربة منها بما فيهم ابنها البالغ من العمر تسعة عشر عاماً، على الرغم من كثرة الملهيات التي ظهرت عند الانتهاء المدرسة الثانوية. لقد كانت مارشا تحب كونها أمّاً. لذلك لم تقلق من إنجاب الكثير من الأطفال، صحيح أنها لم تكن تفضل أو تتوقع حملاً سابعاً، لكنها ستحب هذا الطفل كما أحببت جميع أبنائها الآخرين.

استقرت الأمور في مقاطعة بالدوين بحلول الشتاء. عادت عملية التوظيف إلى الوضع المعتاد وتمكن غلين أخيراً من العثور على عمل أكثر استقراراً ومع ذلك، كانت الأسرة لا تزال تعاني من الناحية المالية، إلا أن معظم الأطفال عادوا إلى المدرسة وعلى ما يبدو فقد نجوا من آثار الدمار السوء. أما مارشا فكانت تعلم أن الحمل في سنّها كان محفوفاً بالمخاطر، لكنها لم تستطع تحمل نفقات زيارة الطبيب، كما ظنت أن بإمكانها الاعتناء بنفسها فبعد ما مرت بتجربة الحمل لست مرات سابقة، كانت تتوقع كل ما يمكن أن تمر بها خلال الحمل مما يساعدها على تحقيق أفضل النتائج من دون رعاية ما قبل الولادة. حاولت ألا تترك مجالاً للقلق ليتسرب إلى نفسها على الرغم من أنها كانت تعاني من بعض الآلام والمشاكل في هذا الحمل التي لم تتذكر أنها مرت بها من قبل، فقد كانت تعاني نزيفاً مما اضطرها للذهاب لاستشارة الطبيب الذي وجد علامات انفصال المشيمة.

كانت عربتهم القديمة بجانب العرببة الجديدة المقدمة لهم من FEMA وكانت إلى حد كبير غير صالحة للسكن، ولكن لا تزال بها مياه جارية وحوض استحمام، مما يمنح مارشا ملجأ هادئاً تقر إليه من الضغوط المحيطة بها من وقت لآخر، إلى أن جاء اليوم الذي شعرت به مارشا أنها ليست على مايرام واعتقدت أن حماماً ساخناً طويلاً سيشعرها ببعض التحسن، و بعد استقرارها في حوض من

الماء الساخن بدقائق بدء المخاض العنيف، و قد حصل هذا بسرعة كبيرة قبل أن تسوعبه وقبل أن تعرف أنها أنجبت ولدا ميتا. حاولت يائسة مساعدة رضيعها على النجاة، لكنه لم يستطع أن يأخذ نفساً.

على الرغم من قلقها في البداية بشأن الحمل، إلا أنها نعتت طفلها وأصرت على إعطائه إسما وعلى دفنه بشكل عائلي، فأطلقوا عليه اسم تيموثي ودفنوه بشكل لائق فجعلوا القبر بجانب منزلهم الصغير (العربة). إن ولادة جنين ميت شكل مأساة لمارشا وعائلتها لكنها لم تكن كذلك لجارة فوضوية كان تشك في كولبي منذ فترة طويلة، فقد لاحظت ديبي كوك أن مارشا كولبي لم تعد حاملاً، لكن لم يكن لديها طفل أيضاً مما أثار اهتمامها بتفاصيل ولادة جنين ميت، ولكن مارشا لم تثق بالمرأة لذلك استمرت بالمرادغة حيال استفساراتها، وفي نهاية المطاف أمرت كوك التي تعمل أيضاً في مدرسة أطفال السيدة كولبي الابتدائية أحد العاملين في كافيتيريا المدرسة بالاتصال بالشرطة بشأن الرضيع الغائب، و تحدث الضابط كينيث ليولين مع السيدة كوك ثم توجه إلى السيدة كولبي، التي مازالت حزينة على فقدان طفلها ومحبطة من التدخل السافر في هذا الأمر، مما ولد لديها رد فعل سيئ لاستجواب الشرطة، فحاولت في البداية تضليل الضابط والمحققين في محاولة لحماية خصوصيتها، وبالطبع لم يكن هذا تصرفاً ذكياً، لكنها كانت غاضبة بسبب همزهم، وعندما لاحظ ليونيل القبر المميز بجانب منزل كولبي، اضطرت مارشا للاعتراف بأن هذا المكان هو قبر رضيعها المتوفى.

كاثلين إنستيس، طبيبة طب شرعي تعمل لصالح الولاية، استدعت لاستخراج جثة الرضيع، لكن هذا الإجراء الذي لم يكن له أي مبرر من قبل قوات تطبيق القانون صدم مارشا وأوجعها، ومما زاد الطين بلة أن إنستيس أخبرت محققاً أنها تعتقد أن الطفل قد ولد على قيد الحياة، بمجرد استخراج الرضيع وقبل أن تتاح لها الفرصة لفحص الجثة رسمياً، ثم عادت واعترفت فيما بعد بأنه ليس لديها أساس لمثل هذا الرأي وأنه بدون تشريح الجثة والاختبارات، لا يمكنها معرفة ما إذا كان الطفل قد ولد على قيد الحياة، و اتضح فيما بعد، أن إنستيس لديها تاريخ عريق في الإعلان عن حالات الوفيات قبل الأوان وبشكل خاطئ، على أنها جرائم قتل دون وجود أدلة تثبت ذلك.

قام أخصائي علم الأمراض بعد ذلك بتشريح الجثة في مختبر علوم الطب الشرعي في موبيل، ولم تظهر النتائج أن طفل مارشا كولبي قد ولد على قيد الحياة فقط، بل أكدت أيضاً أن الطفل كان سيعيش مع الرعاية الطبية، وعلى الرغم من اتفاق معظم الخبراء على أن أخصائيي الطب الشرعي - الذين يتعاملون في المقام الأول مع القتل - ليسوا مؤهلين لتقدير فرص النجاة، إلا أن الولاية سمحت للمدعين العامين بمتابعة التهم الجنائية.

في وسط دوامة الجنون هذه - بعد أسابيع قليلة من ولادة ابنها ميتاً - وجدت مارشا كولبي نفسها في السجن ومتهمة بجريمة قتل.

توضع ألاباما على القائمة المتزايدة للولايات، التي تعتبر قتل شخص دون سن الرابعة عشرة جريمة يعاقب عليها بالإعدام، وقد أدت جرائم الأطفال إلى زيادة هائلة في عدد الأمهات الشابات

والأحداث الذين تم إرسالهم إلى سجن تنفيذ أحكام الإعدام، وقد أدين جميع النساء الخمس اللواتي ينتظرن تنفيذ حكم الإعدام في الألباما بسبب وفاة أطفالهن غير المبررة أو وفاة أزواجهن أو أصدقائهن المسيئين. في الواقع، تنتظر معظم النساء المحكوم عليهن بالإعدام في جميع أنحاء البلاد، الإعدام لارتكاب جرائم عائلية تتطوي على ادعاء بإساءة معاملة الأطفال أو العنف المنزلي ضد شريك ذكر.

في المحاكمة، شهدت كاتلين إنستيس أن تيموثي ولد حيا و قد مات بسبب الغرق. وشهدت أن استنتاجها للولادة الحية كان «تشخيص الإقصاء»، أي أنها لم تستطع العثور على أدلة تثبت أن الطفل ولد ميتاً ولم يكن لديها تفسير آخر لوفاته، ولكن شهادة دنيس ماكنالي الخبيرة في الدولة و طبية النساء والتوليد أثبتت أن شهادة إنستيس غير موثوقة. فقد فحصت السيدة كولبي بعد أسبوعين من ولادة الجنين الميت وبناءً عليه، شهدت أن حمل السيدة كولبي كان في خطر كبير «لموت الجنين غير المبرر» بسبب عمرها ونقص الرعاية قبل الولادة. وقد دحض الدكتور فيرنر سبيتز الذي قام بتأليف الأطروحة الطبية، التي اعتمدت عليها إنستيس في تدريب علم الطب الشرعي شهادتها، كما شهد الدكتور سبيتز للدفاع أنه «لن يقوم على الإطلاق» بإعلان ولادة حية، ناهيك عن جريمة قتل في ظل ظروف هذه القضية.

مع عدم وجود دليل علمي موثوق على وقوع الجريمة، فإن الدولة قدمت أدلة تحريضية على أن مارشا كانت فقيرة، ومتعاطية سابقة للمخدرات، ومن الواضح أنها أم سيئة لعدم طلب رعاية ما قبل الولادة، كما لوح المحققون أمام هيئة المحلفين ببعض الصور التي التقطوها عندما ذهبوا إلى منزل مارشا لمرحاض متسخ وعلبة بيضاء ملقاة على الأرض واعتبروا أنها دليل على الإهمال وسوء الأبوة، لكن السيدة كولبي أكدت باستمرار خلال الاستجوابات المتعددة أن الطفل كان ميتاً، وقالت للمحققين أن ابنها ولد ميتاً ولم يستطع أخذ نفس على الرغم من جهودها لمساعدته ورفضت السيدة كولبي عرض الدولة للإقرار بالذنب، الذي كانت ستبقي بموجبه في السجن لمدة ثمانية عشر عاماً، لأنها كانت مصرة على أنها لم ترتكب أي خطأ.

لفتت محاكمة مارشا كولبي في نهاية المطاف انتباه الصحافة، عندما دأبت خيال الإعلام لنسج قصة أخرى عن (أم خطيرة)، وقد أثارت الجريمة من قبل وسائل الإعلام المحلية، التي أشادت بمجهودات الشرطة والمدعي العام لمساعدتهما طفل رضيع أعزل.

أصبحت شيطنة الأمهات اللامسؤولات جنون إعلامي من قبل الوقت المقرر لمحاكمة مارشا، فقد أصبحت الروايات المأساوية للأمهات اللواتي يقتلن أطفالهن هاجساً قومياً، وعندما غرق أطفال أندريا ياتيس الخمسة في ولاية تكساس في عام ٢٠٠١، أصبحت المأساة قصة قومية، ولم ينسأ أحد جهود سوزان سميث لإلقاء اللوم على الرجال السود العشوائيين لوفاة أطفالها في ولاية كارولينا الجنوبية قبل اعتراف الأمريكيين المهوسين بالجرائم بقتلهما لاحقاً. مع مرور الوقت، نما اهتمام وسائل الإعلام بهذه الأنواع من القصص وتحول إلى انشغال قومي، حيث وصفت مجلة تايم محاكمة كيسي أنتوني، الأم الشابة من فلوريدا، التي برأت في نهاية المطاف من وفاة ابنتها البالغة من العمر عامين، «محاكمة وسائل التواصل الاجتماعي للقرن» بعد أن ولدت القصة تغطية متواصلة على

شبكات الانترنت.

إن قيام أحد الوالدين بقتل طفلها أمر مروع وعادة ما يكون معقداً وعائد لمرض عقلي خطير، كما هو الحال في حالات ياتس و سميث. لكن هذه الحالات تميل أيضاً إلى إحداث تشوهات وتحيز، كما تتأثر الشرطة والمدعون العامون بالتغطية الإعلامية، مما أوقع افتراض الذنب على آلاف النساء - لا سيما النساء الفقيرات في الظروف الصعبة - اللواتي يموت أطفالهن بشكل غير متوقع.

على الرغم من مكانة أمريكا البارزة بين الدول المتقدمة، إلا أننا دائماً ما نكافح لمحاربة ارتفاع معدلات وفيات الرضع التي تزيد عندنا عن معظم البلدان المتقدمة.

إن عدم قدرة الكثير من النساء الفقيرات على الحصول على الرعاية الصحية الكافية بما في ذلك الرعاية ما قبل الولادة وما بعدها، يشكل مشكلة خطيرة في هذا البلد منذ عقود، فحتى مع التحسينات الأخيرة، لا يزال معدل وفيات الرضع يشكل إحراجاً لهذه الأمة التي تتفق على الرعاية الصحية أكثر مما تتفقه أي دولة أخرى في العالم. إن تجريم وفيات الرضع واضطهاد النساء الفقيرات اللواتي مات أطفالهن بات يشكل أبعاد جديدة في أمريكا في القرن الحادي والعشرين، و الذي بدأت تشهده البلاد عبر السجون.

باتت المجتمعات تبحث عن الأمهات السيئات اللواتي ينبغي وضعهن في السجن. في الوقت الذي كانت تحاكم فيه مارشا، كانت بريدجيت لي قد أنجبت طفلاً ميتاً في مقاطعة بيكنز، ألاباما، حيث اتهمت بجريمة قتل وسجنت خطأ. كانت لي البالغة من العمر أربعة وثلاثين عاماً عازفة البيانو في الكنيسة وأم لطفلين وكاتبة حسابات مصرفية، وقد حملت بعد إقامة علاقة خارج نطاق الزواج مما تسبب بخوفها واكتئابها، لدرجة أنها أخفت حملها وتأملت في عرض الطفل سراً للتبني، لكنها دخلت في المخاض قبل خمسة أسابيع من موعد ولادتها، وولد الطفل ميتاً. لم تخبر زوجها عن الإجهاض الذي أثار الشكوك، و أثرت الظروف السيئة المحيطة بحمل لي على أخصائي علم الأمراض الذي أجرى تشريح الجثة ليخلص إلى أن الطفل المولود كان على قيد الحياة ثم قامت لي بخنقه، لكن بعد أشهر من اعتقال لي واتهامها بارتكاب جريمة قتل، قام ستة من أخصائيي الأمراض الآخرين بفحص الجثة وخلصوا بالإجماع إلى أن الالتهاب الرئوي لحديثي الولادة قتل الطفل - كانت ولادة ميتة كلاسيكية بسمات شائعة جداً، وقد دفعت هذه المعلومات الجديدة المدعي العام إلى إسقاط التهم، وتجنّب السيدة لي المحاكمة بتهمة الإعدام، وربما عقوبة الإعدام. صحيح أن أخصائي علم الأمراض السيئ السمعة غادر ولاية ألاباما لكنه لا يزال يعمل كطبيب ممارس في تكساس.

في مئات الحالات الأخرى، لم تتلق النساء المتهمات زوراً مساعدة الطب الشرعي التي احتجنها لتجنب الإدانات الخاطئة. قبل سنوات قليلة من تمثيل مارشا كولبي، تناولنا القضية ديان تاكر وفيكيتوريا بانكس المرأة السوداء المعاقبة فكراً والتي تعيش مقاطعة شوكتاو ألاباما و التي اتهمت بقتل طفلها حديث الولادة على الرغم من أن الشرطة ليس لديها أساس موثوق للاعتقاد أنها كانت حامل. ويقال أن بانكس قالت لنائب شريف أنها حامل لتقاضي قضاء الوقت في قضية غير ذات صلة ولكن عندما شوهدت بعد أشهر بدون طفل، قامت الشرطة باتهامها بقتل طفلها. الإعاقة وعدم وجود

مساعدة قانونية كافية، ظروف أجبرت السيدة بانكس على الإقرار بذنب قتل طفلة لم تكن موجودة مع أختها، السيدة تاكر، ولأنها كانت تواجه اتهامات بارتكاب جريمة قتل وعقوبة محتملة بالإعدام، فضلت عقد صفقة لقبول حكم بالسجن لمدة عشرين سنة. رفض مسؤولو تطبيق القانون التحقيق في ادعاءات براءتها قبل إرسالها إلى السجن، ولكننا تمكنا من الحصول على حكم ببراءتها وإعادتها على قيد الحرية بعدما أثبتنا أنها قامت بعملية ربط أنابيب قبل خمس سنوات من اعتقالها، مما يجعل من المستحيل بيولوجيًا أن تحمل، ناهيك عن أن تلد.

بالإضافة إلى الوفيات غير المبررة لوضع النساء الفقيرات جرم القانون أنواع أخرى من (سوء التربية) في عام ٢٠٠٦، أصدرت ولاية ألاباما قانونًا حول جنائية تعرية الطفل إلى جريمة «بيئة خطيرة» حيث يمكن للطفل أن يواجه خطر المخدرات. وقد كان «قانون تعريض الأطفال للخطر الكيميائي» مجرد قانونًا ظاهريًا، مرر لحماية الأطفال الذين يعيشون مع الأسر التي يتعاطى أحد أفرادها عقار الميثامفيتامين المنشط أو يتاجر بالمخدرات. ولكن طبق هذا القانون كثيرًا وعلى نطاق أوسع، فقد وجدوا الآلاف من الأمهات اللواتي يعشن مع أطفالهن في مجتمعات فقيرة ومهمشة، حيث تنتفشى المخدرات وإدمانها مما يعرضهم إلى خطر المحاكمة. اختارت المحكمة العليا في ألاباما الوقت المناسب، لتوسيع مصطلح البيئة ليشمل الرحم ومصطلح الطفل ليشمل الجنين، وبذلك أصبح بإمكان السلطات محاكمة النساء الحوامل جنائيًا وإرسالهن إلى السجن لعقود إذا وجدوا أي دليل على استخدامهن المخدرات في أي مرحلة من مراحل الحمل. وقد سجنّت العشرات من النساء بموجب هذا القانون في السنوات الأخيرة، بدلاً من الحصول على المساعدة التي كن بحاجة لها ولسوء حظ مارشا فإن الهستيريا المحيطة بالأمهات السيئات جعلت حصولها على محاكمة عادلة صعب جداً، فأتساءل اختيار هيئة المحلفين، أعلن العديد منهم أنهم لا يمكن أن يكونوا محايدين تجاه السيدة كولبي، كما أشار البعض الآخر إلى أنهم وجدوا الادعاءات بقتل طفل مزعجة لدرجة أنهم لم يتمكنوا من احترام قرينة البراءة، كما كشف الكثيرون عن وجود علاقة وثيقة مع أحد محققى الدولة- شاهد الدولة الرئيسي الذي كان صريحًا بشكل خاص حول تحديد الأمهات السيئات - وبأنهم سيعطونه (مصادقية فورية) و (سيصدقون كل ما يقوله فهو شخص ذا مصداقية) و كذلك اعترف محلف أخبر أنه يثق في شهود تطبيق القانون الذين عرفهم لدرجة أنه (سيصدق أي شيء يقولونه).

سمحت المحكمة الابتدائية ببقاء جميع هؤلاء المحلفين تقريباً في هيئة المحلفين رغم اعتراضات الدفاع، في نهاية المطاف اختارت هيئة المحلفين العديد من الافتراضات والتحيزات لمحاكمة مارشا كولبي لتحديد مصيرها.

أعادت هيئة المحلفين حكم الإدانة إلى تهمة واحدة و هي تهمة القتل العمد، فقد أعرب المحلفون عن قلقهم بشأن تعرض السيدة كولبي لعقوبة الإعدام قبل إصدار الحكم، لذلك وافقت الدولة على عدم المضي في عقوبة الإعدام إذا ثبتت إدانتها، إلا أن هذا الامتياز أدى إلى إدانة فورية، فقد حكمت المحكمة على السيدة كولبي بالسجن مدى الحياة دون إمكانية الإفراج المشروط، وبعد فترة وجيزة وجدت نفسها مكبلة بالأغلال في شاحنة متجهة إلى سجن جوليا توتويلر للنساء.

بني توتويلر في أربعينيات القرن العشرين، ويقع في ويتومبكا، ألاباما و سمي بإسم المرأة التي

روجت لتعليم السجينات وكافحت لايجاد ظروف إنسانية للاحتجاز، لكن توتويلر أصبح كابوساً مكتظاً وخطيراً للنساء المحاصرات هناك. وقد وجدت المحاكم مراراً أن السجن مكتظ بشكل غير دستوري، مع زيادة عدد النساء إلى ضعف القدرة الاستيعابية التي صمم المكان وفقاً لها. في الولايات المتحدة، زاد عدد السجينات بنسبة ٦٤٦٪ بين عامي ١٩٨٠ و ٢٠١٠، وهو ما يزيد بـ ١.٥ مرة من معدل الرجال، مع ما يقرب من مائة ألف امرأة في المعتقلات والسجون في أمريكا وأكثر من مليون امرأة تحت إشراف أو رقابة نظام العدالة الجنائية و بهذا يكون سجن النساء قد وصل إلى مستويات قياسية.

في توتويلر، تحشر النساء في المهاجع ومساحات المعيشة المرتجلة وقد صدمت مارشا من هذا الاكتظاظ و باعتباره سجن النساء الوحيد في الولاية، لا يوجد في توتويلر طريقة لتصنيف ذي مغزى أو توزيع للنساء في مساكن مناسبة لكل حالة. فمن الطبيعي في توتويلر أن تجد امرأة تقاتل مرضاً عقلياً خطيراً أو تعاني مشكلات عاطفية حادة ملقاة مع باقي النساء، مما يجعل حياة السكن فوضوية ومجهدة للجميع. لم تتمكن مارشا من الاعتياد على سماع صراخ النساء أو ضحكهن طوال الليل لسبب غير مفهوم في مسكن مكتظ.

معظم السجينات - ما يقرب من الثلثين - في السجن لجرائم المخدرات ليس لها علاقة بالعنف أو جرائم الملكية و قد كان لقوانين المخدرات بشكل خاص تأثير كبير على عدد النساء اللواتي أرسلن إلى السجن، كما لعبت قوانين «ثلاث إضرابات» دوراً مهماً. عندما بدأت كمحام شاب في لجنة الدفاع عن السجناء الجنوبيين في منتصف الثمانينيات، بدت الظروف في سجن توتويلر صعبة ما زلت أذكر صدمتي عندما وجدت نساء في السجن لمتل هذه الجرائم البسيطة. واحدة من أول النساء السجينات اللاتي التقيتهن كانت أم شابة كانت تقضي عقوبة طويلة بالسجن لكتابتها شيكات بدون رصيد لشراء هدايا أطفالها الثلاثة الصغار في عيد الميلاد، لقد ذكرتي بشخصية في رواية فيكتور هوغو، شرحت لي دموعها حكايتها المفجعة بالنسبة لي. لم أستطع قبول حقيقة ما كانت تقوله حتى راجعت ملفها واكتشفت أنها في الواقع أديننت وحكم عليها بالسجن لأكثر من عشر سنوات في السجن لكتابتها خمسة شيكات، بما في ذلك ثلاثة شيكات لمتجر ألعاب (تويز آراس). لم يكن مبلغ أي من الشيكات يزيد على ١٥٠ دولاراً، لكنها لم تكن الوحيدة فهناك آلاف من النساء حُكم عليهن بالسجن لفترات طويلة بسبب كتابة شيكات سيئة أو لارتكابهن جرائم ممتلكات طفيفة أدت إلى عقوبات دنيا إلزامية.

كانت العواقب الجانبية على السجينات وخيمة، فما يقرب من ٧٥ إلى ٨٠٪ من السجينات أمهات لأطفال صغار و ما يقرب من ٦٥٪ كان لديهن أطفال قَصُر يعيشون معهم عند القبض عليهم مما يعني أن الأطفال سيصبحون أكثر عرضة للخطر والإيذاء، نتيجة سجن أمهاتهم وسيظلون كذلك طوال حياتهم، حتى بعد عودة الأمهات إلى المنزل. في عام ١٩٩٦، أصدر الكونجرس تشريع إصلاح الرعاية الذي تضمن بنداً يفوض الولايات بحظر الأشخاص الذين يدانون بتهمة المخدرات من المنافع العامة والرعاية الاجتماعية، وقد كان أكثر السكان تأثراً بهذا القانون المضلل هم السجينات السابقات اللواتي لديهن أطفال، ومعظمهن سُجِنَ بتهمة جرائم المخدرات، حيث لم يعد

بإمكان تلك النساء وأطفالهن العيش في مساكن عامة أو تلقي قسائم الطعام أو الحصول على الخدمات الأساسية. لقد أبدعنا في السنوات العشرين الماضية، بإنشاء فئة جديدة من «المنبوذين» في المجتمع الأمريكي، تتكون من أمهاتنا الأكثر ضعفاً وأطفالهن.

تجولت مارشا خلال أيامها الأولى في توتويلر وقد سيطرت عليها حالة من عدم التصديق، فقد قابلت نساء أخريات سُجِنَ لِنفس السبب الذي سجنّت من أجله أي، بعد ولادة أطفال ميتين ومن ضمنهن إفرينا ماكلندون و هي مراهقة سوداء شابة من أوبيليك ألاباما، حملت عندما كانت في الثانوية ولم تخبر والديها، لكن شهور حملها لم تكتمل، فقد أنجبت بعدما يزيد عن خمسة أشهر بقليل وتركت رفات الجنين ميتاً في حفرة تصريف، عندما اكتشفت، خضعت لاستجواب من قبل الشرطة، حتى اعترفت بأنها لم تستطيع التأكد بنسبة ١٠٠٪ من أن الرضيع لم يتحرك، قبل أن تلقيه في الحفرة وعلى الرغم من أن الولادة المبكرة جعلت إمكانية بقاءه على قيد الحياة ضعيفة للغاية، إلا أنها قبلت بالانضمام إلى مجتمع متنامٍ من السجينات بسبب سوء التقدير والحمل غير المخطط له، بعد تهديدها بعقوبة الإعدام.

تشابكت حياة النساء ومعاناتهم معاً في توتويلر وبالنسبة لمارشا، كان من المستحيل ألا تلاحظ انعدام الزيارات للنساء و قد حاولت في البداية، لكنها لم تستطع النظر بلا مبالاة لمعاناة الأشخاص من حولها والذين بدوا في حالة من الضيق الحاد، فمنهم من بكوا أكثر من المعتاد أو عانوا كثيراً من القلق، بشأن الأطفال أو الآباء الذين تركوهم وراءهم ومنهم الذين بدا عليهم الحزن أو الاكتئاب بشكل خاص وإذا ما ربطناهم معاً، فإن يوماً مروعاً لامرأة واحدة حتماً سيلقي بظلال ترويعه على الجميع وقد كان العزاء الوحيد في هذا النظام، هو مشاركة اللحظات السعيدة أيضاً، فمنح الإفراج المشروط أو وصول خطاب أمل أو زيارة من أحد أفراد الأسرة الغائبين لفترة طويلة كان كفيلاً برفع معنويات الجميع.

كان نضال النساء الأخريات أكبر تحدي لمارشا في توتويلر فقد كانت سنواتها هناك صعبة ولكن يمكن التحكم فيها. ولكن المشاكل الأكبر كانت، تأتي من موظفي الإصلاحات نفسها، فقد كان حراس السجن يغتصبون النساء في توتويلر، كما تعرضت النساء للتحرش الجنسي والاستغلال والاعتداء والإساءة من قبل الضباط الذكور بطرق لا تعد ولا تحصى، كما سمح مأمور السجن للحراس الذكور بالدخول إلى حمامات السجينات في أي وقت وقد نظر الضباط إلى النساء العاريات باستهجان وألقوا بتعليقات فظة وتهديدات موحية، فلم يكن للنساء خصوصية في الحمامات، حيث كان بإمكان الضباط الذكور مشاهدتهن أثناء استخدام المراحيض. ناهيك عن الزوايا والممرات المظلمة و الأماكن المربعة في توتويلر حيث يمكن ضرب النساء أو الاعتداء عليهن جنسياً. وقد طلبت EJI من إدارة الإصلاحات تركيب كاميرات أمنية في مساكن السجينات، لكنهم رفضوا، فقد كانت ثقافة العنف الجنسي منتشرة للغاية، لدرجة أن قسيس السجن كان يعتدي جنسياً على النساء عندما يذهبن إلى الكنيسة.

بعد وقت قصير من وصول مارشا إلى توتويلر، فزنا ببراءة وإطلاق سراح ديان جونز، التي أدينّت خطأ وحكم عليها بالموت في السجن على جريمة لم ترتكبها. كانت ديان مخطئة بتورطها في

عملية تهريب مخدرات شاركت فيها حبيبها السابق وقد أدينبت بتهم متعددة أدت إلى إصدار حكم بالسجن الإلزامي مدى الحياة بدون إفراج مشروط، لكننا طعنا في إدانتها وحكمها وفزنا في نهاية المطاف بإطلاق سراحها. أعطى الإفراج عن ديان جونز، الأمل لجميع النساء الأخريات المحكوم عليهن بالسجن المؤبد في توتويلر. تلقيت رسائل من نساء لم ألتقي بهن أبدًا ليشكرنني على مساعدتها، أثناء العمل في قضيتها كنت أذهب إلى توتويلر لمقابلة ديان، التي كانت تخبرني كيف أن النساء يائسات و بحاجة للمساعدة.

ديان: «بريان، لدي حوالي تسع ملاحظات تريد النساء مني أن أنقلها إليك، لكنها كانت كثيرة جدًا لتجاوز الحراس لذا لم أحضرها، لكن تلك النساء تريد مساعدتكم».

بريان: «حسنًا، لا تحاولي تهريب الملاحظات. يمكنهم الكتابة إلينا».

ديان: «حسنًا، تقول بعضهن أنهن كتبن لكم».

بريان: «نحن غارقون يا ديان. أنا أسف، لكننا سنحاول الرد».

ديان: «أنا قلقة على سجينات المؤبد فهن على الأغلب، اللواتي سيمتن هنا».

بريان: «نحن نحاول وبإمكاننا فعل الكثير».

ديان: «أقول لهن ذلك، لكنني أعرف شعور اليأس الذي يغرقن في وحله، كما كنت غارقة قبل أن تمد لي يدك وتخرجني، لكن الجميع هناك؛ مارشا و اشلي و مونيكا و باتريشيا رجونني أن أرسل شخصًا للمساعدة».

التقينا مارشا كولبي بعد ذلك بوقت قصير وبدأنا العمل على قضية الاستئناف الخاصة بها، فقررنا الطعن في القضية المرفوعة ضدها من قبل الولاية وطريقة اختيار المحلفين، وقد اجتمعت شارلوت موريسون- باحثة في رودس كما أنها طالبتني السابقة وهي الآن محام أول في EJI- والمحامية كريستين نيلسون- خريجة كلية الحقوق بجامعة هارفارد و التي تعمل في خدمة الدفاع العام لمنطقة كولومبيا، مكتب الدفاع العام الأول في البلاد- مع مارشا بشكل متكرر حيث كانت مارشا تتحدث عن قضيتها، والتحديات التي تخوضها للحفاظ على عائلتها معًا أثناء وجودها في السجن ومجموعة من المشاكل الأخرى ولكن كان العنف الجنسي في توتويلر هو سيد الحديث في كل تلك الزيارات.

توليت أنا شارلوت قضية امرأة أخرى رفعت دعوى مدنية اتحادية بعد اغتصابها في توتويلر، لكن لم يكن لديها مساعدة قانونية؛ بسبب العيوب في مرافعاتها والادعاءات التي قدمتها في شكاواها، فلم نتمكن من الحصول إلا على حكم تسوية صغير لها، رغم أن تفاصيل تجربتها كانت مؤلمة لدرجة أنه لم يعد بإمكاننا النظر إلى ما بعد العنف، لقد بدأنا تحقيق أجرينا خلاله مقابلات مع أكثر من خمسين امرأة و قد صُدمنا حقًا عندما رأينا إلى أي مدى انتشرت مشكلة العنف الجنسي، فقد تعرضت عدة نساء للاغتصاب وحملن، حتى عندما أكد اختبار الحمض النووي أن الضباط الذكور هم آباء هؤلاء الأطفال، لم تتخذ ضدهم الإجراءات الرادعة الواجب اتخاذها فكل ما قاموا به هو، تكليف بعض الضباط الذين قُدمت عدة شكاوى في حقهم تتعلق بالاعتداء الجنسي مؤقتًا بواجبات

أخرى أو في سجون أخرى، فقط لينهوا مشكلة توتويلر، بينما سيستمرون في افتراس النساء في أماكن أخرى مما حثنا على تقديم شكوى إلى الولايات المتحدة في النهاية، مما دعا وزارة العدل لنشر عدة تقارير عامة حول المشكلة والتي حظيت بتغطية إعلامية واسعة النطاق. وضعت توتويلر ضمن القائمة التي أعدتها الأم جمنز لأسوأ عشرة سجون في أمريكا وعليه فإن توتويلر كان المرفق النسائي الوحيد الذي تعرض لتلويث سمعته وتبع ذلك جلسات استماع تشريعية وتغييرات في سياسة السجن، و على رأس تلك التغييرات سيطرة مأمور جديد على تلك المنشأة، كما مُنح الحراس الذكور من دخول مناطق الاستحمام والمراحيض.

صمدت مارشا على الرغم من هذه التحديات وبدأت في الدفاع عن بعض النساء الأصغر سناً. لقد دمرنا إصدار محكمة الاستئناف الجنائية قراراً يؤكد إدانتها وحكمها، لكننا طلبنا المراجعة في المحكمة العليا في ألاباما وربحنا محاكمة جديدة بناءً على رفض قاضي المحاكمة استبعاد الأشخاص المنحازين والذين لا يمكن أن يكونوا محايدين من خدمة هيئة المحلفين، مما ولد شعوراً بالإثارة لدى مارشا وفريقنا، ولكن لم يحصل نفس الشيء لدى المسؤولين المحليون في مقاطعة بالدوين، فقد هددونا بإعادة المحاكمة، لكن من جهة أخرى ساعدنا أخصائي الأمراض والخبراء في إقناع السلطات المحلية بعدم وجود أساس لإدانة مارشا بالقتل، ورغم ذلك استغرق الأمر عامين لتسوية القضية القانونية وسنة أخرى من الجدل مع إدارة الإصلاحات لمنح مارشا التقدير الكامل للوقت الذي قضته في السجن قبل أن يطلق سراحها في ديسمبر ٢٠١٢ بعد عشر سنوات من السجن غير المشروع.

لقد بدأنا في إقامة عشاء سنوي ذي فائدة سنوية في مارس في مدينة نيو يورك لجمع الأموال لصالح ماريان العشاء على تكريم نجم الخدمة العامة والعميل، وقد كرّمنا، وجرّت العادة في هذا EJI عن الأطفال، كما كرّمنا رايت إيدلمان، المحامي البطولي للحقوق المدنية ومؤسس صندوق الدفاع الأمريكية المتقاعد جون بول ستيفنز، الذي التقيت به في عام ٢٠١١، قاضي المحكمة العليا تقاعده، أصبح من أشد منتقدي صغير عندما كنت محامياً شاباً، وكان لطيفاً للغاية معي. وبعدهم مؤتمر والسجن الجماعي و في عام ٢٠١٣، قررنا، تكريم المدير المحكمة لاتباع سياسة العقاب المفرط NAACP السابق لصندوق الدفاع القانوني الجذاب، إلين جونز، ورموز الأيس كريم التقديمية بن (كوهين) وجيري (جرينفيلد)، جنباً إلى جنب مع مارشا كولبي وسعدنا بموافقة روبرتا فلاك، المغنية وكاتبة الأغاني الأسطورية، على الأداء وقد غنت نغمة جورج هاريسون «أليس من المؤسف» قبل أن يحين الوقت لتقديم جائزتنا إلى مارشا.

في المقدمة التي ألقيتها، أخبرت الحضور كيف جاءت مارشا إلى المكتب في يوم إطلاق سراحها من توتويلر، لتوجيه شكرها للجميع وقد أحضرها زوجها وابنتها بعدما أخرجوها من توتويلر، أما ابنتها الصغرى، التي كانت في الثانية عشرة من عمرها، أشعلت دموعها النيران في قلوب موظفينا فقد رفضت ترك والدتها طوال وجودها في المكتب و طوقت خصر مارشا بيدها الرقيقة وأمسكت ذراعها وانحنى عليها كما لو أنها تعلن للجميع أنها لا تتوي السماح لأي شخص بفصلها مرة أخرى، ثم التقطنا صوراً مع مارشا وبعض الموظفين، وبالطبع كانت ابنتها موجودة في كل لقطة

لأنها رفضت السماح لوالدتها بالابتعاد، في الحقيقة أخبرنا ذلك أي نوع من الأمهات كانت مارشا كولبي، بعد ذلك اعتلت مارشا المنصة بثوبها الأزرق الجميل.

مارشا: «أود أن أشكركم جميعًا على تقديركم لي ولما مررت به، ولن أنسى كم كنتم طيبون معي، أنا سعيدة لأنني حرة».

تحدثت إلى الجمهور الكبير بمنتهى الهدوء وبكثير من رباطة الجأش، كانت واضحة وساهرة. ولكن الحديث عن النساء اللواتي تركتهن وراءها جعل عاطفتها تنثور في صدرها حيث قالت:

«لقد كنت محظوظة، فقد حصلت على المساعدة التي لا تستطيع معظم النساء الحصول عليها، وهذا ما يزعجني الآن أكثر فهن لا يزلن هناك وأنا في المنزل، أمل أن نتمكن من بذل المزيد من الجهد لمساعدة المزيد من الناس» في الحقيقة لم أكن أعلم إن كان تألق ثوبها قد جاء من انعكاس الأضواء، أو من إشراقة روحها وتوهج مشاعرها، لكن ما أعرفه أن عاطفتها وصلت لقلوب الجمهور الذي وقف ليشيد بمارشا وبإحساسها بتلك النساء اللاتي تركتهن وراءها ففاضت دموعها حزناً عليهن بدل من أن تفيض فرحاً بحريتها . وهنا فقدت أي قدرة لتفكير، بما سأقوله:

بريان : «نحن نحتاج إلى المزيد من الأمل و المزيد من الرحمة و المزيد من العدالة».

ثم قدمت إلين جونز، التي بدأت بـ «مارشا كولبي- أليست شيء جميل؟»

الفصل الثالث عشر

التغطية

كانت أحداث الأيام والأسابيع التي أعقبت إطلاق سراح والتر مفاجأةً تمامًا. فقد قامت صحيفة نيويورك تايمز بتغطية ملابسات تبرئته وعودته إلى منزله وبلدته في قصة الصفحة الأولى وقد غمرتنا طلبات وسائل الإعلام، فأجرينا أنا والتر العديد من المقابلات التلفزيونية على المستوى المحلي والوطني وحتى الصحافة الدولية التي أرادت نشر القصة، على الرغم من إحجامي عن وسائل الإعلام بشأن القضايا المعلقة، لكنني اعتقدت أنه إذا سمع الناس في مقاطعة مونرو ما يكفي من التقارير التي تفيد بأن قرار إطلاق سراح والتر نابع من براءته، فسيكون تقبل المجتمع له أسهل عند عودته إلى المنزل.

لم يكن والتر أول شخص تثبت براءته ويفرج عنه بعدما حكم عليه بالإعدام فقد كان هناك العشرات غيره من الأبرياء الذين حكم عليهم بغير وجه حق حتى أن بعضهم كان محكوم عليهم بالإعدام و أطلق سراحهم من قبله، لقد أفاد مركز معلومات عقوبة الإعدام أن والتر كان الشخص الخمسين الذي بُرأ في العصر الحديث، لكن القليل من القضايا السابقة لفتت انتباه وسائل الإعلام. مثل قضية كلارنس برانتلي عام ١٩٩٠ في تكساس والتي جذبت بعض التغطية، كما ظهرت أيضًا في برنامج ٦٠ دقيقة، كذلك أيضا قضية رونالد ديل آدمز، التي استلهم منها فيلمًا وثائقيًا مقنعًا وقد حاز على جائزة من The Blue thin Line بعنوان Errol Morris وقد لعب الفيلم دورًا في تبرئة آدمز، و إطلاق سراحه من وحدة تنفيذ حكم الإعدام في تكساس بعد وقت قصير من إطلاقه. لكن لم يكن هناك مايشبه التغطية المحيطة بتبرئة والتر.

في عام ١٩٩٢ أي قبل عام من إطلاق سراح والتر، أعدم ثمانية وثلاثون شخصًا في الولايات المتحدة، وكان هذا أكبر عدد من عمليات الإعدام التي نُفذت في عام واحد منذ بداية عصر عقوبة الإعدام الحديث في عام ١٩٧٦، لكن هذا العدد لم يبق كما هو وإنما ارتفع إلى ثمانية وتسعين في عام ١٩٩٩ ومن حسن حظ والتر أن إطلاق سراحه تزامن مع زيادة اهتمام وسائل الإعلام بعقوبة الإعدام، بسبب زيادة وتيرة عمليات الإعدام، فقد كانت قصته معاكسة لخطاب الإنصاف والموثوقية الذي قدمه السياسيون ومسؤولو تطبيق القانون الذين أرادوا إعدامات أكثر وأسرع، لكن قضية والتر أدت إلى تعقيد النقاش بطريقة صعبة للغاية.

سافرت مع والتر لحضور العديد من المؤتمرات القانونية وتحدثنا عن تجربته وعن عقوبة الإعدام، حتى اللجنة القضائية بمجلس الشيوخ الأمريكي حددت جلسات استماع بشأن البراءة وعقوبة الإعدام بعد بضعة أشهر من إطلاق سراح والتر، وقد شهدنا تلك الجلسات و بعد بضعة أشهر من إطلاق سراح والتر نشر كتاب الأدلة الظرفية لبيت إيرلي والذي قدم وصفًا مفصلاً للقضية، أما والتر فقد استمتع بالسفر وبالاهتمام، مع أنه لم يكن يحب التحدث علنًا، مع ذلك كان هناك ما أثار غضبي، مثل بعض أحاديث السياسيين الاستقرازية، حول أن تبرئته أثبتت كفاءة النظام

وقد ظهر هذا الغضب في بعض أحاديثي التي تصل أحياناً إلى حافة القتال، أما والتر فقد ظل هادئاً ومرحاً وجاداً وفعالاً جداً كما كان عرضه مقتنعاً وقد كانت مشاهدة والتر، يحكي قصته بمثل هذه الفكاكة الطيبة والذكاء والصدق تزيد من رعب جمهورنا، من أن الولاية كانت مصممة على إعدام هذا الرجل بإسمنا جميعاً، لقد أمضينا وقتاً جيداً معاً، لكن قلقنا بشأن حالات الرجال الذين تركهم خلفه في انتظار تنفيذ حكم الإعدام كانت تنغص علينا أحياناً، فقد كان يفكر في الرجال المتواجدين في السجن كأصدقائه، مما جعله معارضاً شرساً لعقوبة الإعدام، لكن بإمكانني الاعتراف ببساطة أنه لم يفكر أبداً في تلك العقوبة قبل خوضه تجربته الخاصة في مواجهتها.

بعد أشهر قليلة من كسب حريته، كنت لا أزال أشعر بالقلق من عودة والتر إلى مقاطعة مونرو. المهرجان الكبير الذي أعقب الإفراج عنه مباشرة جلب مئات الأشخاص إلى منزله للاحتفال بحريته، لكنني كنت أعلم أن السعادة لم تغمر كل أفراد المجتمع، كما أنني لم أخبر والتر عن التهديدات بالقتل والقنابل التي تلقيناها حتى أطلق سراحه، وعندها أخبرته أننا بحاجة إلى توخي الحذر.

أمضى والتر أسبوعه الأول خارج السجن في مونتغمري، ثم انتقل إلى فلوريدا ليعيش مع أخته لبضعة أشهر، مع ذلك لازلنا نتحدث كل يوم تقريباً، لقد وافق على رغبة ميني في المضي قدماً بدونه ورغم أنه بدا سعيداً ومتفائلاً في معظم الأوقات، إلا أن هذا لا ينفي أنه مازال يعاني من آثار الفترة التي قضاها في السجن، فقد بدأ يخبرني أكثر فأكثر عن معنى العيش تحت التهديد المستمر بالإعدام وعن وقع خطوات حراس السجن على المحكومين وشعورهم بأن تلك الخطوات لم تكن تدوس أرض السجن، بل كانت تدوس أعمارهم أو ما تبقى منها لقد كان أمراً لا يطاق. كما اعترف بمخاوف وشكوك لم يخبرني عنها عندما كان مسجوناً، حيث شهد على خطف الإعدام لستة رجال بينما كان في ذلك السجن، ومع أنه تعامل مع السجناء الآخرين، من خلال الاحتجاجات الرمزية في لحظات الكرب الخاصة، لكنه أخبرني أنه لم يدرك مدى دعر التجربة حتى ترك السجن، وقد أربكه إنزعاجه من كل ذلك الآن بعد أن أصبح حراً.

والتر: «لماذا مازلت أفكر في كل هذا؟»

كما اشتكى في بعض الأحيان من الكوابيس، وكيف يرتعش إذا ما قال صديق أو قريب شيئاً عن دعمهم لعقوبة الإعدام - ليس فقط لوالتر - كل ما استطعت أن أخبره به: «لا بأس كل هذا سيمضي وستتحسن»

بعد بضعة أشهر، أراد والتر بشدة العودة إلى المكان الذي أمضى فيه حياته كلها. مما جعلني أغضب كثيراً، لكنه مضى في ذلك و قام بوضع مقطورة في الممتلكات التي يملكها في مقاطعة مونرو وعاد للاستقرار هناك، كما عاد إلى عمله في قطع الأشجار، في هذا الوقت كنا قد وضعنا خططا لتقديم ملف دعوى قضائية مدنية، ضد كل من تورط في إدانته و ملاحقته غير المشروعة.

إن معظم الأشخاص الذين أفرج عنهم بعد إثبات براءتهم لم يتلقوا أي أموال ولا مساعدة ولا استشارة - لا شيء من الدولة كتعويض عن سجنهم خطأ. في الوقت الذي إطلاق فيه سراح والتر،

كانت فقط عشر ولايات إضافة إلى مقاطعة كولومبيا لديها قوانين تجيز تعويض الأشخاص الذين سُجنوا خطأ ورغم ازدياد العدد منذ ذلك الحين، إلا أن ما يقرب من نصف الولايات الاثنان والعشرون لا تقدم أي تعويض للسجناء الخطأ حتى الآن، كما أن العديد من الولايات التي تسمح ببعض المساعدات النقدية تحد بشدة من مبلغ التعويض. بغض النظر عن عدد السنوات التي حبس فيها شخص بريء عن طريق الخطأ، فمثلاً في نيو هامشير يقصر التعويض على ٢٠٠٠٠ دولار و سقف التعويض في ولاية ويسكونسن لا يجاوز ٢٥٠٠٠ دولار، أما أوكلاهوما وإلينوي فتحدان من المبلغ الإجمالي الذي يمكن للشخص البريء استرداده إلى أقل من ٢٠٠,٠٠٠ دولار، حتى لو أن الشخص قد قضى عقوداً في السجن، في حين أن الولايات الأخرى لديها سقف أكثر من مليون دولار، والعديد منها ليس لها حد أقصى على الإطلاق و قد تقرض العديد من الولايات متطلبات أهلية مرهقة وفي بعض الولايات القضائية، إذا كان الشخص يفتقر إلى دعم محامي الادعاء الذي أدانته خطأ، فسيرفض التعويض.

في وقت إطلاق سراح والتر، لم تكن ألاباما من بين عدد قليل من الدول التي قدمت المساعدة إلى الأبرياء الذين تم الإفراج عنهم من السجن.

كان بإمكان الهيئة التشريعية في ألاباما تمرير مشروع قانون خاص بمنح تعويض لشخص مدان خطأ، ولكن هذا لم يحدث أبداً، لكن أحد المشرعين المحليين قام بتقديم مشروع قانون يطالب فيه بالتعويض نيابة عن والتر، مما دفع الصحافة المحلية إلى الإبلاغ عن سعي والتر للحصول على ٩ ملايين دولار، لكن والتر لم يكن لديه معرفة مسبقة عن التشريع المقترح، كما أنه لم يذهب إلى أي مكان وقد أثارت التغطية الإخبارية حول المكافأة المحتملة البالغة ٩ ملايين دولار غضب الأشخاص، الذين لا يزالون يشكون في براءته ويثيرون بعض أصدقاء والتر وعائلته في مونروفييل، الذين بدأ بعضهم في حثه بقوة للحصول على مساعدة مالية و من حيث لا يدري ظهرت له إحدى السيدات التي رفعت دعوى أبوة ادعت فيها زوراً، أن والتر هو والد طفلها، مع أن طفل ولد بعد إطلاق سراح والتر بأقل من ثمانية أشهر و من جهة أخرى أكدت اختبارات الحمض النووي أنه ليس الأب.

أعرب والتر أحياناً عن إحباطه من عدم تصديق الناس له عندما أخبرهم أنه لم يتلق شيئاً مضيئاً قدما في مضاعفة جهودنا للحصول على تعويض له من خلال دعوى قضائية ولكن طريقنا لم تخل من العقبات فقد تعارضت قضيتنا المدنية مع القوانين التي تمنح الشرطة والمدعين العامين والقضاة حصانة خاصة من المسؤولية المدنية في مسائل العدالة الجنائية ورغم اعتراف تشابمان وضباط الدولة المرتبطون بالقضية الآن ببراءة والتر، إلا أنهم في نفس الوقت لم يكونوا على استعداد لتحمل أي مسؤولية عن ملاحقته غير المشروعة وعقوبة الإعدام، أما المأموريات التي بدا الأكثر فعالية في وضع والتر الخاطئ في سجن تنفيذ حكم الإعدام من قبل المحاكمة والذي بدت تهديداته العنصرية وتكتيكاته في التهريب هي الأكثر قابلية للتنفيذ في الدعوى المدنية و بحسب ما ورد فقد قبل ببراءة والتر عند إطلاق سراحه، ولكنه عاد بعد ذلك ليخبر الناس أنه لا يزال يعتقد أن والتر مذنب.

وافق روب مكديف، صديقي القديم من جاكسون - ميسيسيبي، على الانضمام إلى فريقنا في

الدعاوى المدنية، روب هو مواطن أبيض مسيحي عزر بسحره الجنوبي وطريقته، مهاراته البارزة في التقاضي في محاكم ألاباما. وقد طلب مني مؤخرًا مساعدته في قضية حقوق مدنية في ألاباما تتعلق بسوء سلوك قوات تطبيق القانون، وقد تضمنت هذه الحالة مراهمة الشرطة لملهى ليلي في مقاطعة تشامبرز احتجز خلالها السكان السود بشكل غير قانوني بالضافة إلى إساءة معاملتهم واضطهادهم من قبل السلطات المحلية التي رفضت تحمل مسؤولية سوء سلوكها. انتهى بنا الأمر بنقل القضية إلى المحكمة الأمريكية العليا ومن ثم ربحنا في النهاية حكمًا موائيًا.

قررنا رفع قضية والتر المدنية أيضًا إلى المحكمة الأمريكية العليا، وقد قمنا برفع دعاوى قضائية ضد ما يقرب من اثني عشر مسؤول ووكالة حكومية ومحلية و كما هو متوقع، ادعى جميع المتهمين الحصانة حول السلوك الذي أدى إلى إدانة والتر الخاطئة، لكن الحصانة حول المسؤولية المدنية الممنوحة للمدعين العامين والقضاة أكبر من تلك الممنوحة لضباط تطبيق القانون، لذلك وعلى الرغم من أن قيام نيد بيرسون -المدعي العام الذي نظر في القضية ضد والتر- بحجب الأدلة التي أدت مباشرة إلى إدانة والتر الخاطئة بشكل غير قانوني كان واضحًا كفلق الصبح، إلا أننا على الأرجح لن ننجح في رفع دعوى مدنية ضده و نظرًا لأنه كان المسؤول الأول عن ملاحقة وإدانة والتر الخاطئة، فقد كان من الصعب التوفيق بين حصانته و ذنبه في القضية بأكملها وبناءً عليه لم يكن هناك الكثير مما يمكننا القيام به. لطالما عزلت محاكم الولايات والمحاكم الفيدرالية المدعين العامين عن المساءلة عن سوء السلوك الفظيع الذي يؤدي إلى إرسال الأبرياء إلى الكرسي الكهربائي لإعدامهم.

في عام ٢٠١١، عززت المحكمة العليا للولايات المتحدة مرة أخرى الحماية التي تحمي المدعين من المساءلة. قبل شهر كان من المقرر إعدام جون تومسون النزيل في لويزيانا، لكن حدثت مفاجأة قلبت القضية رأسًا على عقب، حيث كشف تقرير مختبر الجريمة التعارض مع قضية الولاية ضده، لارتكابه جريمة سرقة وقعت قبل أربع عشرة سنة و عندها ألغت محاكم الولاية حكم الإدانة والحكم بالإعدام وبُرت ساحتها لاحقًا من جميع التهم وأُفرج عنه، ثم قدم دعوى مدنية، ومنحت هيئة المحلفين في نيو أورليانز طومسون ١٤ مليون دولار، فقد وجدت هيئة المحلفين أن المدعي العام هاري كونيك الأب، قام بإلغاء أدلة براءة طومسون بشكل غير قانوني وسمح بقضائه أربعة عشر عامًا في السجن على جريمة لم يرتكبها، لكن كونيك استأنف الحكم، وبناءً عليه ألغت المحكمة العليا الأمريكية الجائزة في القرار المقسم بمرارة ٥-٤، ونتيجة لقانون الحصانة، رأت المحكمة أنه لا يمكن اعتبار المدعي العام مسؤولاً عن سوء السلوك في قضية جنائية، حتى وإن كان قد حجب عمداً وبشكل غير قانوني أدلة البراءة، لكن العلماء ومراقبي المحكمة، انتقدوا قرار المحكمة بشدة وكتبت القاضية روث بدر جينسبورغ معارضة قوية، لكن طومسون لم يحصل على أي تعويضات مالية.

واجهنا عقبات مماثلة في قضية والتر، فبعد عام من الإيداعات وجلسات الاستماع والتقاضي قبل المحاكمة، توصلنا في نهاية المطاف إلى تسوية مع معظم المتهمين من شأنها أن توفر لوالتر بضع مئات آلاف من الدولارات. لم نستطع تسوية دعوى والتر ضد مقاطعة مونرو بسبب سوء سلوك

المأمور تيت، لذلك قمنا باستئناف القضية أمام المحكمة العليا الأمريكية. بشكل عام، لا يمتلك الموظفون المسؤولون عن تطبيق القانون موارد شخصية لدفع تعويضات لضحايا سوء السلوك، لذا فإن المدينة أو المقاطعة أو الوكالة التي توظفهم عادةً ما تكون هدفاً لأي إجراء مدني يسعى للحصول على تعويض، و لهذا السبب طلبنا التعويض من مقاطعة مونرو بسبب سوء سلوك مأمورها، لكن المقاطعة اتخذت موقفاً مفاده أنه على الرغم من أن اختصاص المأمور يقتصر على المقاطعة، إلا أنه يتم انتخابه من قبل الأشخاص الموجودين في المقاطعة فقط، ويتقاضى أجراً من المقاطعة، وهو ليس موظفاً في المقاطعة. وزعمت أن مأمور المقاطعة موظف في ولاية ألاباما.

تُعصم حكومات الولايات من إصلاح من سوء سلوك موظفيها على نطاق واسع ما لم يعمل الموظف في وكالة يمكن مقاضاتها، فإذا كان تيت ضابطاً في الولاية، فلن تتحمل مقاطعة مونرو أي مسؤولية عن سوء سلوكه ولن يكون من الممكن التعويض عنها من ولاية ألاباما و لسوء حظ والتر، قضت المحكمة العليا بأن عمداء المقاطعات في ألاباما هم ضباط الدولة، للمرة الثانية في القرار الوثيقي ٤-٥، مما حد من قدرتنا على المطالبة بتعويض عن الأضرار الناجمة عن أخطر سوء سلوك في قضية والتر، مع ذلك توصلنا في النهاية إلى تسوية مع جميع الأطراف، لكنني شعرت بخيبة أمل لأننا لم نتمكن من الحصول على المزيد لوالتر وإضافة إلى جرح الإهانة، عاد تيت إلى منصب المأمور ولا يزال في منصبه إلى يومنا هذا ؛ فقد احتل منصب المأمور لأكثر من خمسة وعشرين عاماً متتالية.

رغم أننا لم نحصل على مبلغ التعويض الذي طالبنا به، إلا أنه سمح لوالتر باستئناف أعماله في قطع الأشجار، لقد أحب العودة إلى العمل في الأخشاب وقطع الأشجار، كما أخبرني أنه كان يعمل في الخارج من الصباح حتى الليل، مما جعله يشعر أنه يعود إلى حالته الطبيعية مرة أخرى.

لكن في بعد ظهر أحد الأيام، وقعت المأساة، عندما كان يقطع شجرة حيث طارفرعها وضربه مسبباً كسر رقبته، لقد كانت إصابة خطيرة وتركت والتر في حالة سيئة للغاية لعدة أسابيع، مع عدم توفر الرعاية الكافية له، لذلك جاء ليعيش معي في مونتغمري لعدة أشهر حتى يتعافى، ولكنه في النهاية استعاد صحته، على الرغم من أن الإصابة وضعت حداً لقدرته على قطع الأشجار وأداء أعماله في المناظر الطبيعية الصعبة، إلا أنني تعجبت من أنه يتقدم بخطوة وقد قال لي: «سأكتشف شيئاً آخر أفعله عندما أعود للوقوف على قدمي»

بعد بضعة أشهر، عاد إلى مقاطعة مونرو وبدأ بجمع قطع غيار السيارات لإعادة بيعها، حيث كانت ممتلكاته مليئة بأنقاض السيارات والمعادن الخردة منذ وقت طويل ثم امتلك قطعة الأرض التي كان يقطنها ويضع فيها مقطورته، مما اقنعه بنصيحة بعض الأصدقاء، بأنه يمكن أن يدر دخلاً من خلال نشاط تجاري غير مرغوب فيه - يجمع المركبات المهملة وقطع غيار السيارات ويعيد بيعها- فقد كان العمل يتطلب جهداً جسدياً أقل من ذاك الذي يبذله في قطع الأشجار وفي نفس الوقت سمح له بالبقاء في الهواء الطلق.

في عام ١٩٩٨، دُعيت أنا ووالتر لحضور مؤتمر وطني في شيكاغو كان قد خطط له السجناء

السابقين المحكوم عليهم بالإعدام بعد تبرأتهم، حيث ساعدت تطورات أدلة الحمض النووي في أواخر التسعينيات في فضح عشرات الإدانات الخاطئة في العديد من الولايات، مما جعل عدد التبرئات يتجاوز عدد الإعدامات، لكن في ولاية إلينوي كانت المشكلة كبيرة لدرجة أنه في عام ٢٠٠٣، استشهد الحاكم الجمهوري جورج رايان بعدم موثوقية عقوبة الإعدام، فقام بتخفيف أحكام الإعدام الصادرة بحق ١٦٧ شخصاً ممن ينتظرون تنفيذ حكم الإعدام، مما زاد المخاوف بشأن البراءة وعقوبة الإعدام، وبدأ دعم عقوبة الإعدام بالانخفاض في استطلاعات الرأي وازداد أمل المؤمنون بالإلغاء في التعمق بإصلاح عقوبة الإعدام أو ربما وقفها كاختيار يمكن تنفيذه. كان وقتنا في شيكاغو مع سجناء سابقين محكوم عليهم بالإعدام محفزاً جيداً لتنشيط والتر، الذي بدا أكثر حماساً من أي وقت مضى للتحدث عن تجربته.

بدأت التدريس في كلية الحقوق بجامعة نيويورك في نفس الوقت تقريباً، حيث كنت أسافر إلى نيويورك لتدريس فصولي ثم العودة إلى مونتغمري لإدارة EJI. في كل عام كنت أطلب من والتر الحضور إلى نيويورك للتحدث إلى الطلاب وكانت دائماً لحظة دخوله إلى الفصل الدراسي قوية، فقد كان ناجحاً من نظام العدالة الجنائية الذي أثبت من خلال قضيته، كيف يمكن أن يكون النظام ظالم وقاسي بوحشية، كما قالت شخصيته وحضوره وشهادته شيئاً غير عادي عن إنسانية الأشخاص المتضررين مباشرة من الإساءة المنهجية. كانت وجهة نظره المباشرة حول محنة الأشخاص الذين أدينوا بشكل خاطئ ذات مغزى عميق للطلاب، الذين طغت عليهم شهادة والتر في كثير من الأحيان، ومع أنه كان يتحدث بإيجاز شديد ويقدم إجابات قصيرة على الأسئلة التي يطرحها عليه الطلاب، إلا أن تأثيره كان هائلاً على الطلاب الذين التقوا به، فقد كان يضحك معهم ويمازحهم ويخبرهم أنه ليس غاضباً ولا يشعر بمرارة بل كان ممتن لكونه حراً، وكثيراً ما شاركهم تجربته حيث ساعده إيمانه على البقاء على قيد الحياة مئات الليالي البائسة والقاتلة في سجن تنفيذ حكم الإعدام.

في أحد الأيام، ضاع والتر في رحلته إلى نيويورك، واتصل بي ليخبرني أنه لا يستطيع القدوم، لكنه بدا مرتبكاً ولم يستطع تقديم تفسير مترابطاً لما حدث له في المطار، ذهبت لرؤيته عندما عدت إلى المنزل، وبدأ كعادته، تقريباً لكنه قال لي أن أعماله في الخردة لا تسير على ما يرام وعندما وصف أوضاعه المالية، اتضح أنه أنفق الأموال التي حصلنا عليها من أجله بسرعة أكبر مما كنت أتوقع، فقد ظننت أنه أكثر حصافةً، لكنه كان يشتري المعدات لجعل مجموعته من السيارات أبسط، إلا أن هذا النوع من الإيرادات لم يدر عليه الدخل اللازم لدعم التكاليف، بعد ساعة أو ساعتين من الحديث القلق، استرخى قليلاً وقد عاد على ما يبدو إلى دعابات والتر التي عرفتھا. اتفقنا على أن نسافر معاً في أي رحلة مستقبلية.

لم يكن والتر هو الشخص الوحيد الذي كان يواجه ضغوطاً مالية جديدة، فعندما تولت الأغلبية المحافظة السلطة في الكونجرس عام ١٩٩٤، أصبحت المساعدة القانونية للسجناء المحكوم عليهم بالإعدام هدفاً سياسياً، و سرعان ما ألغي التمويل الفيدرالي. واضطرت معظم مراكز موارد تمثيل رأس المال في جميع أنحاء البلاد إلى الإغلاق. لم نتلق دعم الدولة لعملنا قط، وقد واجهنا تحديات

مالية خطيرة بدون الدولار الفيدرالي، لكننا استطعنا شق طريقنا بصعوبة ومن ثم العثور على دعم خاص كافٍ لمواصلة عملنا. لقد تراكم التدريس وزيادة مسؤوليات جمع الأموال على رأس قائمة التقاضي المكتظة، ولكن بطريقة ما تقدمت الأمور و قد كان موظفونا أكثر من اللازم، لكن كانت سعادتي غامرة بالمحامين والمهنيين الموهوبين الذين عملوا معنا. كنا نساعد العملاء المحكوم عليهم بالإعدام ونتحدى العقوبات المفرطة ونساعد السجناء المعاقين والأطفال المسجونين في سجون الكبار ونبحث عن طرق لفصح التحيز العنصري والتمييز ضد الفقراء وإساءة استخدام السلطة. لقد كانت مهام ساحقة لكنها مرضية.

في يوم من الأيام تلقيت مكالمة مفاجئة من السفير السويدي في الولايات المتحدة، ليخبرني أنهم اختاروا EJI لجائزة أولوف بالمه الدولية لحقوق الإنسان ودعوني إلى ستوكهولم لاستلامها. لقد درست نهج السويد التقدمي لإعادة تأهيل المجرمين كطالب دراسات عليا وقد تعجبت من مدى التركيز على إصلاح نظامهم منذ فترة طويلة، فقد كانت عقوباتهم إنسانية، حيث اتخذ صانعو السياسات منهم إعادة تأهيل المجرمين على محمل الجد، مما جعلني متحمساً بشأن الرحلة والجائزة، المسماة على اسم رئيس وزراء محبوب قتل بشكل مأساوي على يد رجل مشوش مستأجر من قبل شخص مثل المحكومون بالإعدام مما دل على قيمهم. لقد خططوا للرحلة إلى ستوكهولم في يناير إلا أنهم أرسلوا طاقم تصوير لمقابلي قبل الرحلة بشهر أو اثنين، وقد أراد الطاقم أيضاً التحدث مع عدد قليل من العملاء، لذلك قمت بعمل الترتيبات لمقابلة والتر.

أخبرت والتر: «يمكنني النزول لهذه المقابلة».

والتر: «لا، لست مضطراً للسفر فأنا بخير بإمكانني التحدث معهم لضرورة لقضاء الوقت في القيادة على طول الطريق إلى هنا».

سألته نصف مازحاً: «هل تريد الذهاب إلى السويد؟»

فأجاب: «أنا لا أعرف بالضبط أين توجد هذه الدولة، ولكن إذا كان عليك الطيران لمسافات طويلة للوصول إلى هناك، فلا لست مهتماً جداً. أعتقد أنني أود البقاء على الأرض من الآن فصاعداً». ضحكنا وبدأ بخير. ثم هدأ قليلاً وطرح سؤالاً أخيراً قبل أن نغلق الخط

والتر: «ربما يمكنك أن تأتي لرؤيتي عندما تعود؟ أنا بخير، لكن يمكننا فقط أن نتسكع».

لقد كان طلباً غير معتاد من والتر لذلك وافقت بشدة.

وقلت: «بالتأكيد، سيكون هذا رائع. لقد أثرت حماسي للذهاب للصيد، فأنا لم أصطد أبداً في حياتي» وقد وجد والتر أن ذلك مخزٍ لدرجة أنه لم يتوقف عن استجابي حول ذلك، لقد كان والتر متأكداً من أنني لم أطلب أكل السمك عندما سافرنا معاً، لأنني لم اصطد السمك بنفسني وقد حاولت تتبع منطقته وقدمت وعوداً ولكننا لم نذهب قط في رحلة صيد.

كان طاقم الفيلم السويدي حريصاً على مواجهة تحدي البحث عن مقطورة والتر بين الأخشاب والأشجار الخلفية لجنوب ألاباما. أخبرتهم كيفية الوصول الى هناك، لقد كنت دائماً مع والتر عندما

يتحدث إلى الصحافة، لكنني شعرت أن هذا ربما كان آمناً، فهو لن يلقي الخطب وعادة ما يكون مباشراً ومقتضباً للغاية».

قلت للمذيعين: «إنه رائع، ولكن يجب أن تسأله أسئلة جيدة وربما من الأفضل أن تتحدث معه في الخارج أيضاً. إنه يفضل أن يكون في الهواء الطلق». أو مأوا برأسه متعاطفاً، لكنهم بدوا مرتبكين من قلقي. اتصلت بالتر قبل مغادرتي إلى السويد، وأخبرني أن المقابلة سارت على ما يرام، وهذا أمر مطمئن.

كانت ستوكهولم جميلة، على الرغم من درجات الحرارة المتجمدة والتلوج المستمرة إلا أنها كست جسد هذه الأرض الرشيقة حتى بدت كأنها عروس تطل على العالم بفستانها الأبيض الناصع. ألقيت بعض الخطب ولبيت بعض دعوات العشاء، لقد كانت رحلة قصيرة وباردة، لكن الناس كانوا لطفاء ورأعين بالنسبة لي، لقد فوجئت بمدى سروري لحماستهم لعملنا فقد قدم معظم الذين التقيت بهم الدعم والتشجيع.

دعيت قبل ذلك بعامين، إلى البرازيل للحديث عن العقاب والمعاملة الظالمة للأشخاص السيئين و قد قضيت الكثير من الوقت في المجتمعات المحلية ومعظمها من الأحياء الفقيرة خارج ساو باولو، حيث قابلت مئات الأشخاص الذين يعانون مرارة الفقر المدقع والذين كانوا مهتمين بشدة بالتحدث، كما قضيت ساعات في المحادثة مع الناس من جميع الأنواع، بدأ بالأمهات المناضلات وصولاً إلى الأطفال الفقراء الذين أدمنوا استنشاق الغراء لمساعدتهم على التعامل مع الجوع ووحشية الشرطة.

لقد كان لهذه المحادثات بين الثقافات مع هؤلاء الناس الذين شاركوا موكلي في أمريكا الكثير من التاريخ المؤلم والنضال الطويل تأثير كبير علي، أما في السويد فقد كان الأشخاص الذين التقيت بهم مهتمين ومتجاوبين على حد سواء، على الرغم من أنهم لم يواجهوا احتياجات عميقة أو صراعاً مشتركاً مع نظام قضائي مسيء و قد بدا الناس في جميع أنحاء البلاد متحمسين للتواصل من خلال نقطة مشتركة من التعاطف الهائل.

طلب مني المنظمون التحدث في مدرسة ثانوية في إحدى ضواحي ستوكهولم. Kungsholmens Gymnasium و التي كانت حالة استثنائية من الجمال المنتشر في ستوكهولم، كانت عبارة عن جزيرة محاطة بفن العمارة الصامد من القرن السابع عشر و بصفتي أمريكياً ذا خبرة محدودة خارج الولايات المتحدة، فقد أذهشت من عمر المباني وتعجبت من هندستها المعمارية المزخرفة. كان عمر المدرسة نفسها ما يقرب من مائة عام. سرت عبر المدرسة إلى سلم ضيق ومتعرج مع درابزين يدوي أدى إلى قاعة كهفية، طوقها عدة مئات من طلاب المدارس الثانوية في انتظار عرضي التقديمي، ولولا وجود هؤلاء الطلاب ربما كنت لأجزم بأنني اخترقت الزمن ورجعت إلى تلك الأزمنة الغابرة، فكل ما حولي مغلف بعبق تاريخي معتق، فالسقف المقبب للقاعة الضخمة زين بلوحات يدوية دقيقة وعبارات لاتينية مكتوبة بخط زخرفي، وكانت لوحة رقصة الملائكة العائمة والرضع الذين يستخدمون البوق منتشرة في جميع أنحاء الجدران والسقف. يبدو أن شرفة كبيرة مكتظة بالمزيد من الطلاب ترتفع بأناقة داخل الرسومات و في حين كانت الغرفة قديمة جداً، إلا أن

التجهيزات الصوتية كانت مثالية، وكان هناك دقة في المساحة و توازنًا سحريًا. لقد درست مئات المراهقين الاسكندنافيين الجالسين في القاعة أثناء تقديمي وقد تأثرت بمدى توقعهم وشغفهم، فقد تحدثت لمدة خمسة وأربعين دقيقة إلى مجموعة من المراهقين الصامتين والمتيقظين بشكل غريب ولأنني أعلم أن اللغة الإنجليزية ليست لغتهم الأولى، كانت لدي شكوك حقيقية حول مدى متابعتهم لما قلته، ولكن عندما انتهيت فوجئت بموجة هائلة من التصفيق الشديد، حتى خيل إلي أنني سمعت صوت نفير الأبواق التي ينفث فيها الصغار في الصور التي ملأت السقف و الجدران، لقد أذهلني رد فعلهم حقيقةً، فعلى الرغم من صغرهم إلا أنهم كانوا مهتمين جدًا بتسليط الضوء على عملائي المدانين والذين تفصلهم عنهم آلاف الأميال. انضم إلي مدير المدرسة على خشبة المسرح لي شكرني واقترح على الطلاب تقديم شكرهم الخاص من خلال أغنية، وقد كان لدى المدرسة برنامج موسيقي مشهور دوليًا وجوقة من الطلاب. طلب مدير المدرسة من جوقة الطلاب الوقوف أينما كانوا في القاعة وغناء شيء لفترة وجيزة، فوقف حوالي خمسين طفلًا يضحكون وينظرون إلى بعضهم البعض. بعد دقيقة من التوجس، وقف صبي عمره سبعة عشر عامًا بشعر أشقر بقصة الفراولة على كرسيه وقال شيئًا للجوقة باللغة السويدية، فضحك الطلاب لكنهم أصبحوا أكثر رصانة، عندما هدأوا تمامًا، ترنم الصبي بنغمة موسيقية بصوت جميل. كانت أنغامه مثاليةً، ثم لوح بذراعيه ببطء لدفع هؤلاء الأطفال الاستثنائيين إلى الغناء. ترددت أصواتهم عبر جدران وسقف هذه القاعة القديمة وانسجمت في تناغم رائع لم أسمع به من قبل، بعد بدء زملائه في الغناء، نزل الشاب من كرسيه وانضم إليهم في أداء لحن يحطم القلوب بدقة و رعاية هائلة، صحيح أنني لم أستطع فهم كلمة من الكلمات السويدية إلا أنها بدت ملائكية، حيث انسجم التناغم والتوتر ليتحولان ببطء إلى عاطفة دافئة تعزف أروع النغمات وقد كان الصوت بهيئًا، فقد بنى هؤلاء الصبية نغمات الغناء بشكل أخذ يزداد روعة مع كل سطر، لقد كانت لحظات بديعة حتى خيل إلي أنني دخلت في عالم من الموسيقى الحالمة الذي تمنيت ألا أخرج منه أبدًا. وقفت على خشبة المسرح وكان أعلى من المطربين وبجوار ناظر المدرسة، نظرت إلى السقف وضعت في مهابة العمل الفني البديع، وتذكرت أمي التي توفيت قبل هذه الرحلة ببضعة أشهر و قد كانت موسيقار الكنيسة معظم حياتها مما خولها للعمل مع العشرات من جوقات الأطفال.

عندما نظرت إلى الأعلى ورأيت رسومات الملائكة على السقف المقبب فكرت بها و أدركت بسرعة أنني لن أستعيد رباطة جأشي أبدًا إذا استمررت بالنظر إلى هناك لذلك، عدت بنظري إلى الطلاب وأجبرت نفسي على الابتسامة وعندما أنهى الطلاب أغنياتهم، هتف بقية الطلاب وصفقوا بعنف فانضمت يدي إلى تلك الأيدي النقية بالتصفيق وحاولت أن أمسك نفسي. عندما غادرت المسرح، جاء الطلاب ليشكروني على الحديث وليطرحوا الأسئلة ويلتقطوا الصور، لقد نجح هؤلاء الأولاد بسحري بالكامل.

بقدر ما كان يوما طويلا ومرهقا كان جميل، فعندما عدت إلى الفندق كنت ممتًا لأخذ راحة لمدة ساعتين قبل الترامي التالي و لا أعرف ما الذي دفعني إلى تشغيل التلفاز، لكنني بقيت بعيدًا عن المنزل لمدة أربعة أيام، فلم أرى أية عناوين وما أن شغلت التلفاز حتى انتشرت الأخبار المحلية في

غرفتي، لقد كان مذيعوا القنوات السويدية غير المألوفة لي، يتحدثون عندما سمعت اسمي، إنه المقطع الذي صورته طاقم التصوير معي، ثم ملأت الصور المألوفة الشاشة، حيث شاهدت نفسي أسير مع المراسل إلى كنيسة الدكتور مارتن لوثر كينغ جونيور في دكستر أفينيو في مونتغمري، ثم ذهبنا إلى أعلى الشارع حيث النصب التذكاري للحقوق المدنية، ثم تحول المشهد إلى والتر، الذي كان يقف بملابس خاصة وسط كومة من السيارات المهملة في مونرو فيل. وضع والتر القطعة الصغيرة التي كان يمسك بها برفق وبدأ بالإجابة على أسئلة الصحفيين. لقد قال لي سابقاً أن جميع أنواع القطط قد لجأت إلى حقله المعدني المهجور، كما أنه قال أشياء سمعته يقولها عشرات المرات من قبل، ثم شاهدت تغير أسلوبه وتعابير، فقد كان يتحدث بحيوية وإثارة أكثر من أي مرة سمعته يتحدث بها من قبل لقد أصبح عاطفياً بشكل غير معهود وهو يقول:

«وضعوني في سجن الإعدام لمدة ست سنوات! هددوني لمدة ست سنوات و عذبوني مع وعد بالإعدام لمدة ست سنوات، لقد فقدت وظيفتي و فقدت زوجتي و فقدت سمعتي. لقد فقدت فقدت كرامتي».

كان يتحدث بصوت عال وعاطفي حتى أن الغصة بدت واضحة في صوته كالدموع التي بدأت تتفرق في مقلتيه ثم تابع «لقد فقدت كل شيء». هداً من روعه وحاول الابتسام، لكنه لم ينجح، ثم نظر بهدوء إلى الكاميرا.

قال: «لقد كان قاسياً قاسياً يا رجل. إنها قاسية» تابعت اللقاء بقلق بينما جلس والتر قريباً من الأرض وانخرط في بكاء عنيف، ثم استمرت الكاميرا بتصويره وهو يبكي، ثم تحول التقرير إلي وأنا أقول شيئاً تجريدياً وفلسفياً، ثم انتهى الأمر. لقد ذهلت مما رأيته وكنت أرغب بالاتصال بالتر، لكن لم أتمكن من معرفة كيفية الاتصال به من السويد. عندها علمت أن الوقت قد حان للعودة إلى ألاباما.

الفصل الرابع عشر

قاسية واستثنائية

في صباح يوم ٤ مايو ١٩٨٩، قام مايكل جولي، خمسة عشر عامًا وناتان مكانتس، سبعة عشر عامًا، بإقناع جو سوليفان البالغ من العمر ثلاثة عشر عامًا بمرافقتهم ليقترحوا منزلًا فارغًا في بينساكولا - فلوريدا. دخل الأولاد الثلاثة منزل لينا برونر في الصباح، بينما لم يكن هناك أحد، حيث أخذ مكانتس بعض المال والمجوهرات ثم غادر الأولاد الثلاثة و بعد ظهر ذلك اليوم تعرضت السيدة برونر، المرأة البيضاء وهي في أوائل السبعينيات من عمرها، لاعتداء جنسي في منزلها. حيث طرق شخص ما بابها، وبينما ذهبت لفتحه، دخل شخص آخر من الجزء الخلفي لمنزلها و أمسك بها من الخلف، لقد كانت عملية اغتصاب عنيفة وصادمة. لم تتمكن السيدة برونر من رؤية مهاجمها بوضوح، لكن كل ما تمكنت من وصفه

فقط أنه كان صبي داكن اللون ذو شعر مجعد.

إن جولي ومكانتس وسوليفان جميعهم أميركيون من أصل أفريقي و قد قبض على جولي و مكانتس في غضون دقائق من الهجوم، بينما كان مكانتس يحمل مجوهرات السيدة برونر معه، مما وضعهما في مواجهة جنائية خطيرة، لقد كان جولي صاحب تاريخ إجرامي واسع النطاق وتاريخه هذا يحتوي على جريمة جنسية واحدة على الأقل، أما جو المتهم بالاعتداء الجنسي، فلم يُقبض عليه في ذلك اليوم، لكنه سلم نفسه طوعًا في اليوم التالي بعد أن علم أن غولي ومكانتس قد ورطاه، و اعترف جو بمساعدة الأولاد الأكبر سنا في السطو في وقت سابق من اليوم، لكنه نفى بشدة أي معرفة أو تورط في الاعتداء الجنسي.

اختار المدعي العام توجيه الاتهام إلى جو سوليفان البالغ من العمر ثلاثة عشر عامًا

و محاكمته في محكمة البالغين للاعتداء الجنسي والتهم الأخرى، حيث لم يكن هناك مراجعة لنوع المحكمة التي يجب أن يحاكم فيها جو إذا ما كانت محكمة الأحداث أو الكبار، ففلوريدا تدخل ضمن عدد قليل من الولايات التي تسمح للمدعي العام أن يقرر اتهام طفل و محاكمته في محكمة الكبار لجرائم معينة وليس لديها حد أدنى لسن محاكمة الطفل كشخص بالغ.

في المحاكمة، شهد جو أنه شارك في عملية السطو السابقة لكنه لم يقر بالاعتداء الجنسي، لكن الادعاء اعتمد في المقام الأول على القصص الذاتية لمكانتس وجولي، بما في ذلك ادعاء جولي بأن جو قد اعترف له بالاغتصاب في مرفق الاحتجاز قبل المحاكمة و بعد توريط جو، حُكم على مكانتس كشخص بالغ بأربع سنوات ونصف وخدمة لمدة ستة أشهر فقط، أما جولي وعلى الرغم من اعترافه بتورطه في حوالي عشرين سطوًا سابقًا وجريمة جنسية سابقة، حكم عليه باعتباره حدثًا وقضى فترة قصيرة فقط في مرفق احتجاز الأحداث.

كان الدليل المادي الوحيد لتورط جو، هو جزء كامن من بصمة اليد الذي عثر عليه خبير الأدلة

الجنائية في الولاية، مع أنه يتفق مع حضور جو المعتترف به في غرفة النوم قبل الاغتصاب، و بالرغم من جمع الشرطة سائل منوي ودم، لكن الولاية اختارت عدم عرضه في المحكمة وتدميره قبل أن يتمكن الدفاع من اختباره، كذلك قدم الادعاء شهادة ضابط شرطة لمح شاب أمريكي من أصل أفريقي، يركض من منزل الضحية، حدد بأن هذا الشاب الفار هو جو سوليفان بعد أن شاهده أثناء استجوابه في مركز الشرطة كمشتبه به في الاعتداء الجنسي. وأخيرًا، قدم الادعاء شهادة الضحية، التي مع تدريبها من خلال بروفة على شهادتها في الخارج قبل حضور هيئة المحلفين، إلا أنها لم تستطيع أن تؤكد أن جو سوليفان هو الجاني. في المحكمة أجبر جو على أن يكرر ما قاله المعتدي للضحية وقت الحادثة حسب ما تذكر هي، وعندها شهدت أن صوت جو (يمكن أن يكون بسهولة) صوت الجاني.

وقد أدانت هيئة المحلفين المكونة من ستة أشخاص جو، بعد محاكمة استمرت ليوم واحد فقط، فقد بدأت البيانات الافتتاحية في وقت ما بعد الساعة ٩ صباحًا و

أعادت هيئة المحلفين حكمها في الساعة ٤:٥٥ مساءً أما مستشار جو المعين في فقد أوقف عن الممارسة في وقت لاحق في فلوريدا ولم يعد أبدًا، كذلك فإن محامي الدفاع لم يقدّم أي مرافعات خطية ولم ينطق أكثر من اثني عشر سطر في نص الدفاع في المحكمة. مع أنه كان بإمكانه قول الكثير لكنه لم يقل.

كان جو سوليفان في الثالثة عشرة من عمره عند اعتقاله عام ١٩٨٩ و قد كان يعاني من إعاقات عقلية ولا زال يدرس في الصف الأول، كما أنه تعرض للاعتداء الجسدي المتكرر من قبل والده وعانى من إهمال شديد، فقد كان يعيش في عائلة مفككة وقد وصف مسؤولو الولاية حياته بـ «الإساءة والفوضى»، فمن سن العاشرة حتى اعتقاله، لم يكن لدى جو منزل مستقر، حيث كان لديه ما لا يقل عن عشرة عناوين مختلفة خلال هذه السنوات الثلاث و قضى معظم وقته في الشوارع، حيث أوقفته الشرطة لانتهاكاته بما في ذلك التعدي على ممتلكات الغير وسرقة دراجة وجرائم الملكية التي ارتكبها مع أخيه الأكبر والمراهقين الأكبر سنًا.

فُدم جو إلى المحكمة و حُكم عليه مرة واحدة، عندما كان في الثانية عشرة من عمره وقد عزت ضابط مراقبة الأحداث المعينة لقضية جو سلوكه إلى حقيقة أنه يتأثر بسهولة و يسير مع القطيع، كما لاحظت بوضوح سذاجة جو و عدم نضوجه بالكامل و أنه مجرد تابع وليس قائدًا، لكن لديه القدرة على أن يكون فردًا إيجابيًا ومنتجًا.

كان سجل جو في معظم الحالات يحتوي على جنح بسيطة ولم تستحق أكثر من حكم واحد في غضون عامين، لكن القاضي نظر إلى الحكم بشكل مختلف، وخلص إلى أن (نظام الأحداث عاجز تمامًا على فعل أي شيء مع السيد سوليفان.) وخلصت المحكمة إلى أن جو قد مُنح فرصة بعد فرصة ليقوم نفسه ومع ذلك لم يستغل أبدًا الفرصة الثانية والثالثة التي مُنحت له ولكن حقيقة الأمر أن جو لم يُمنح أبدًا فرصة ثانية، فما بالك بثالثة ليقوم نفسه، لكن مع ذلك وصف في سن الثالثة عشرة بأنه متسلسل أو مرتد عنيف من قبل المدعين. وحكم عليه القاضي بالسجن مدى الحياة دون

إمكانية الإفراج المشروط.

على الرغم من وجود العديد من الأسباب التي قد تكون جديرة بالاستئناف، إلا أن محامي الاستئناف المعين من قبل جو قام بتقديم مذكرة تشير، إلى اعتقاده بأنه لا توجد أسباب مشروعة للاستئناف ولا أساس موثوق به للشكوى من الإدانة أو العقوبة وسُمح له بالانسحاب من تمثيل جو. بعد عام واحد فقط من بلوغه سن المراهقة أرسل جو إلى سجن البالغين، ليبدأ كابوس سنيته الثمانية عشر، حيث تعرض في السجن للاغتصاب والاعتداء الجنسي بشكل متكرر، مما دفعه إلى محاولة الانتحار في مناسبات متعددة، إضافة إلى معاناته من تطور التصلب المتعدد، الذي أجبره في النهاية على الجلوس على كرسي متحرك. خلص الأطباء لاحقًا إلى أن الاضطراب العصبي قد يكون ناتجًا عن تعرضه لصدمة في السجن.

كتب لنا سجين آخر مع جو ليشرح لنا وضعه حيث وصفه بأنه معاق، و يعاني سوء المعاملة بشكل مروع، كما حكم عليه بالموت في السجن مع أنه لم يرتكب جريمة قتل بل ارتكب جريمة غير ذلك عندما كان في الثالثة عشرة. في عام ٢٠٠٧، كتبنا إلى جو واكتشفنا أنه لم يتلق مساعدة قانونية وأمضى السنوات الثماني عشرة السابقة في السجن دون أن يساعده أحد على الطعن في إدانته أو عقوبته و عندما تلقيت رد جو على رسالتي، كان عبارة عن مذكرة مكتوبة بخط يد طفل، بالكاد بإمكانه القراءة كما لو أنه لا يزال في الصف الثالث، على الرغم من أنه كان في الحادية والثلاثين، لقد أخبرني في رسالته أنه بخير، ثم كتب:

- «إذا لم أفعل شيئًا، ألا يجب أن أكون قادرًا على العودة إلى المنزل الآن؟ سيد بريان إذا كان هذا صحيحًا، هل يمكنك مراسلتي؟ من فضلك تعال لتأخذني».

لقد كتبت لجو أننا سننظر بشكل أعمق في قضيته وأنا مقتنعون ببرأته بناءً على ادعاءاته الموثوقة، ثم حاولنا إثبات براءته من خلال إجراء اختبار الحمض النووي ولكن تدمير الولاية للأدلة البيولوجية ذات الصلة، أدى إلى رفض الاقتراح. رغم شعورنا بخيبة الأمل، إلا أننا قررنا الطعن في عقوبة السجن حتى الموت و التي يواجهها جو لأنها عقوبة قاسية واستثنائية وغير دستورية.

قادت سيارتي من مونتغمري عبر جنوب ألاباما إلى فلوريدا ثم على طول تشابك الطرق الخلفية التي تكسوها الأشجار للوصول إلى المنشأة الإصلاحية في سانتا روزا في مدينة ميلتون لمقابلة جو لأول مرة . مقاطعة سانتا روزا تحد خليج المكسيك من الغرب إلى نهاية فلوريدا بانهاندل وقد اشتهرت منذ فترة طويلة بالزراعة. لقد تضاعف عدد سكان المقاطعة بين عامي ١٩٨٠ و ٢٠٠٠، بسبب جذب المناطق الساحلية حيث بنيت منازل الشاطئ وازدادت ممتلكات المنتجع، مما دعى العديد من العائلات الثرية إلى مغادرة بينساكولا إلى مقاطعة سانتا روزا، كما استقرت بها العائلات العسكرية من قاعدة إيجلين الجوية القريبة. إلا أن صناعة أخرى اشتهرت بها المدينة وهي السجن.

قامت إدارة السجون في فلوريدا ببناء السجن ليكون مأوى لـ ٦٠٠ شخص في التسعينيات، عندما كانت أمريكا تفتح سجونًا في وتيرة لم يسبق لها مثيل في تاريخ البشرية و بين عامي ١٩٩٠ و ٢٠٠٥ كان يُفتح سجن جديد في الولايات المتحدة كل عشرة أيام. إن نمو السجن وما ترتب عليه من

«مجمع السجون الصناعي» و المصالح التجارية التي استفادت من بناء السجون جعلت السجن عملاً مربحاً للغاية حيث أنفقت ملايين الدولارات للضغط على مشرعي الولاية لمواصلة توسيع استخدام السجون كرد على أي طارئ، حتى أصبح السجن هو العصي السحرية لكل المشاكل؛ مثل مشاكل الرعاية الصحية كإدمان المخدرات، والفقر الذي يجبر أحدهم على كتابة شيك بدون رصيد والاضطرابات السلوكية للأطفال وإدارة الفقراء الذين يعانون من إعاقات عقلية، وحتى قضايا الهجرة و هذا ولد ردوداً من المشرعين تضمنت إرسال الأشخاص إلى السجون، حيث لم يحدث من قبل أن أنفقت الكثير من الأموال للضغط من أجل زيادة عدد نزلاء السجون الأمريكية، ومنع إصلاح الأحكام، وخلق فئات جديدة من الجرائم، ونشر الخوف والغضب الذي يغذي الحبس الجماعي، ليفوق ما كان عليه خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية في الولايات المتحدة.

عندما وصلت إلى سانتا روزا، لم ألتق أي موظف ملون، على الرغم من أن ٧٠٪ من المساجين هناك كانوا سوداً أو بنيين، و قد كان هذا غير عادي بعض الشيء. لقد خضعت لعملية قبول معقدة وأعطيت صافرة للاستخدام، إذا شعرت بالتهديد أثناء وجودي في السجن، أو في حال وقعت أحداث محزنة، ثم اصطحبوني إلى غرفة بمقاس أربعين قدماً في أربعين قدماً حيث سجن أكثر من عشرين رجل، جلسوا بحزن بينما كان الموظفون الإصلاحيون الذين يرتدون الزي الرسمي يراقبونهم ويخرجون، لقد كان هناك ثلاثة أقفاص معدنية طولها ستة أقدام في الزاوية التي لم تكن أكثر من أربعة أقدام في أربعة أقدام، طوال كل سنوات عملي وبقدر مازرت من سجون، ألا أنني لم أر قط مثل هذه الأقفاص الصغيرة التي كانت تستخدم لاحتجاز سجين داخل سجن آمن. تساءلت عن مدى الخطر الذي قد يمثله الرجال المحتجزون كي لا يتمكنوا من الجلوس مع السجناء الآخرين على المقاعد، لاحظت وقوف شابان في كل من القفصين الأولين، أما القفص الثالث والذي كان مثبتاً في الزاوية، فقد جلس فيه رجل صغير على كرسي متحرك وواجه كرسيه المتحرك الجزء الخلفي من القفص، لذلك لم يستطع النظر إلى الغرفة. لم أستطع رؤية وجهه لكنني متأكد من أنه جو. كان أحد ضباط الإصلاحيات يدخل باستمرار إلى الغرفة وينادي اسم، فينهض أحد الرجال من مقعده ويتبع الضابط من خلال ممر حيث سيجتمع مع مساعد الأمور أو أي شخص من المقرر أن يراه وأخيراً، نادى الضابط «جو سوليفان، زيارة قانونية» فذهبت إلى الرجل وقلت له:

«إننا محامي الزيارة القانونية» استدعى ضابطين، ذهبا إلى قفص جو لفتحه، لكن القفص كان صغيراً لدرجة أنهم عندما حاولوا تحريك كرسي جو المتحرك ورغم ما بذلا من جهود لم يتمكنوا من تحريكه.

وقفت هناك لأراقب عدة دقائق بينما تشارك المزيد من الضباط في بذل جهد أكثر دقة لإخراج كرسي جو المتحرك من القفص الضيق، فوققوا على الكرسي المتحرك، ثم ضغطوا على الكرسي لإنزاله للأسفل، ورفعوا المقدمة عن الأرض، لكن كل هذا لم ينجح أيضاً. جروا الكرسي مع إصدار الهمهمات الصاخبة وحاولوا إجباره على التحرر، لكنه عالق تماماً. توقف اثنين من أمناء السجناء الذين كانوا يمسخان الأرض بعد مشاهدتهما صراع الضباط مع الكرسي المتحرك والقفص. وقد عرضوا أخيراً المساعدة، على الرغم من أن أحداً لم يطلب تدخلهما، قبل الضباط بصمت

مساعدة السجناء، لكن لم يتمكن أي منهم من التوصل إلى حل، عندما زاد إحباط الموظفون بسبب عدم قدرتهم على إخراج جو من القفص، كان هناك حديث عن استخدام كمامة ومنشار، لفتح القفص من جانبه مع وجود جو فيه، ثم اقترح شخص ما محاولة رفع جو من كرسيه المتحرك لإخراجه بدون الكرسي، لكن كان كل من جو والكرسي محشوين بإحكام في القفص بحيث لم يتمكن أحد من الدخول لتحريره.

سألت الحراس : «لماذا وضعتوه في القفص في المقام الأول»

ما أثار رد فعل فظ: «يجب نقل جميع المحكومون بالسجن مدى الحياة من خلال مستوى متقدم من البروتوكولات الأمنية».

لم أستطع رؤية وجه جو مع حصول كل هذه الفوضى، لكنني استطعت أن أسمع صوت بكائه. وانتحابه من حين لآخر بينما اهتز كتفيه صعوداً وهبوطاً وكأنهما يحاولان إيقاظه من هذا الكابوس المريع وعندها اقترح الموظفي قلب القفص على جانبه، مما جعله يئن وينتحب بصوت أعلى، وأخيراً اقترح أميني السجناء رفع القفص وإمالة قليلاً، فوافق الجميع على تجربة هذا الاقتراح. قام الوصيان برفع القفص الثقيل وإمالة، في حين قام ثلاثة ضباط بسحب كرسي جو بعنف مما أخرجه أخيراً، رفع الحراس أكفهم عاليًا لضربها ببعض، بينما سار الأمنيين بصمت، ثم جلس جو بلا حراك في كرسيه في منتصف الغرفة، بينما نتجه عيناه إلى السفلى عند قدميه.

سرت إليه وعرفته بنفسه، لقد كان وجهه ملطخاً بالدموع، وكانت عيناه حمراوان و مع ذلك نظر إليّ وبدأ يصفق بيديه بدوار. «بلى! بلى! السيد بريان. » ابتسم وقدم لي كلتا يديه، فأخذتهما، ثم نقلت جو إلى مكتب ضيق لقضاء زيارتنا القانونية، بينما أكمل هتافه بهدوء و استمر بالتصفيق بإثارة. اضطررت لخوض جدال مع حارس السجن للحصول على إذن لإغلاق الباب والتحدث بسرية مع جو، وقد رضخ الضابط في النهاية، بدا لي جو أكثر استرخاءً عندما أغلقت الباب. على الرغم من بداية الزيارة المرعبة، إلا أنه كان مبتهجا للغاية، أما أنا فلم أستطع التخلص من الشعور بأنني أتحدث إلى طفل صغير.

شرحت لجو مدى خيبة أملنا لتدمير الولاية للأدلة البيولوجية، التي ربما سمحت لنا بإثبات أنه بريء من خلال اختبار الحمض النووي، كما أخبرته أننا اكتشفنا أن الضحية وأحد المتهمين معه توفيا، لكن المتهم الآخر لم يصرح بأي شيء عما حدث بالفعل، مما صعب علينا الطعن في إدانة جو للغاية، ثم عرضت عليه فكرتنا الجديدة حول استئناف الحكم في عقوبته باعتبارها غير دستورية، مما قد يشق له طريقاً آخر للعودة إلى المنزل، ولم تفارق الابتسامة وجهه طوال شرحي لقضيته، على الرغم من أنه كان واضحاً أنه لم يفهم كل شيء. كان يضع مستنداً قانونياً في حضنه وعندما انتهيت أخبرني أنه أعد بعض الأسئلة لزيارتنا ظلت أفكر طوال الزيارة كيف تفوق حماسه وإثارته على توقعاتي، نظرا لتاريخه. عندما أخبرني عن الأسئلة التي أعدها لي، كان ينفجر من شدة الحماس فعلياً وأوضح أنه إذا خرج من السجن، قد يصبح مراسلاً وقال:

«حتى يمكنني أن أخبر الناس ما يحدث حقاً». كان يتحدث بفخر كبير عندما أعلن

عن استعدادده لطرح أسئلته.

قلت له: «جو، سأكون سعيدًا بالإجابة على أسئلتك، هيا أطلق النار».

قرأ بصعوبة: «هل لديك أطفال؟» نظر إلي بشكل متوقع.

أجبت: «لا، ليس لدي أطفال، لكن مع ذلك لدي أبناء أخ وبنات أخت».

جو: «ما هو لونك المفضل؟» ابتسم مرة أخرى بلهفة.

ضحكت، لأنه ليس لدي لون مفضل، لكني أردت الرد عليه:

«بنى».

جو: «حسنًا، سؤالي الأخير هو الأهم». رفع عينيه ونظر إلي لفترة وجيزة بعيون كبيرة وابتسم. ثم أصبح جادا وقرأ سؤاله.

«ما هي شخصيتك الكرتونية المفضلة؟» كانت عيناه تشعان عندما نظر إلي.

«من فضلك، قل الحقيقة أريد حقا أن أعرف».

لم أستطع التفكير في أي شيء واضطرت إلى إجبار نفسي على الاستمرار في الابتسام. «واو، جو، أنا بصراحة لا أعرف. هل يمكنني التفكير في ذلك والعودة إليك؟ وسأكتب لك إجابتي في رسالتي القادمة». أومأ برأسه بحماس.

خلال الأشهر الثلاثة التالية غُمرت بسيلٍ من رسائل جو المبعثرة، في معظم الأحيان كنت أتلّق رسالة كل يوم. كانت الرسائل عادة عبارة عن بيانات قصيرة حول ما كان سيأكله في ذلك اليوم أو العرض الذي سيشاهده على شاشة التلفاز.

في بعض الأحيان كانت الرسائل تتكون من مجرد آيتين أو ثلاث من آيات من الكتاب المقدس نسخها هو، دائمًا ما كان يطلب مني مراسلته مرة أخرى وإخباره إذا ما كان خط يده تحسن، وفي أحيان أخرى كانت الرسائل تحتوي على بضعة كلمات فقط أو سؤال واحد مثل، «هل لديك أصدقاء؟»

قدمنا عريضة للطعن في عقوبة جو على أنها غير دستورية، فهي عقوبة قاسية وغير عادية. علمنا أنه ستكون هناك اعتراضات إجرائية على الطعن، بعد ما يقرب من عشرين عامًا من الحكم عليه، لكننا اعتقدنا أن قرار المحكمة العليا الأخير الذي يحظر عقوبة الإعدام على الأحداث يمكن أن يوفر أساسًا للتخفيف، ففي عام ٢٠٠٥، اعترفت المحكمة بأن الاختلافات بين الأطفال والبالغين، تتطلب حماية الأطفال من عقوبة الإعدام بموجب التعديل الثامن. ناقشت أنا وطاقم العمل معي كيف يمكن أن نستخدم المنطق الدستوري الذي يحظر إعدام الأطفال كأساس قانوني للطعن في الأحكام الصادرة بحق حياة الأحداث دون الإفراج المشروط.

قدمنا طعونًا مماثلة لعقوبات مدى الحياة بدون الإفراج المشروط في عدة حالات أخرى تتعلق

بالأطفال، بما في ذلك قضية إيان مانويل. إيان الذي كان لا يزال محتجزاً في الحبس الانفرادي في فلوريدا، كما رفعنا قضايا في ميسوري و ميشيغان و أيووا و ميسيسيبي و نورث كارولينا و أركنساس و ديلاوير و ويسكونسن و نبراسكا وجنوب داكوتا كذلك رفعنا قضية في بنسلفانيا لمساعدة ترينا غارنيت، الفتاة التي أدينبت بتهمة الحرق العمد و كانت لا تزال تكافح في سجن النساء لكنها كانت متحمسة لإمكانية قيامنا بشيء ما لتغيير عقوبتها. قدمنا قضية في كاليفورنيا لأنطونيو نونيز، كما قدمنا حالتين في ألاباما.

كانت آشلي جونز البالغة من العمر أربعة عشر عاماً، قد أدينبت بقتل اثنين من أفراد عائلتها عندما حاول صديقها الأكبر سناً مساعدتها على الهرب من عائلتها، فقد عانت آشلي من تاريخ مروع من الإساءة والإهمال، وقد قضت سنين مراهقتها في سجن توتويلر للنساء، بدأت في الكتابة إلي للسؤال عن مختلف القرارات القانونية التي قرأتها في الصحيفة، لكنها لم تطلب المساعدة القانونية قط، بل كانت تسأل ببساطة عما قرأته وأعربت عن اهتمامها بالقانون وعملنا، ثم بدأت بإرسال ملاحظات تهنئة لي ولـ EJI كلما فزنا في استئناف إحدى قضايا عقوبة الإعدام و عندما قررنا الطعن في أحكام الإعدام في السجن المفروضة على الأطفال، أخبرتها أننا قد نتمكن من الطعن في حكمها أخيراً. مما أسعدها للغاية.

كان إيفان ميللر فتى أبيض من عائلة فقيرة في شمال ألاباما وكان في الرابعة عشر من عمره عندما حكم عليه بالموت في السجن في ألاباما، تخلل حياته الصعبة العديد من محاولات الانتحار التي بدأت في سن السابعة عندما كان في المدرسة الابتدائية حيث كان والديه يسيئان معاملته كما كانا يعانيان من مشاكل إدمان المخدرات، لذلك أمضى وقتاً كبيراً من طفولته في الحضانة التي كثيراً ما كان يتردد عليها، لكن وقت وقوع الجريمة كان يعيش مع والدته. في يوم من الأيام جاء جارهم كول كانون الذي كان في منتصف العمر، لأكثر من ليلة بحثاً عن المخدرات من والدته إيفان، وذات مرة ذهب إيفان ذو الأربعة عشر عاماً وصديقه ذو الستة عشر عاماً إلى منزل الرجل للعب الورق معه، فأعطى كول المراهقين المخدرات ولعب معهم ألعاب الشرب و في مرحلة ما، أرسل الأولاد لشراء المزيد من المخدرات. عاد الولدان وبقياً عنده حتى وقت متأخر واستمروا جميعاً في شرب المخدرات، حتى اعتقد الولدان أن كانون قد مات وحاولا سرقة محفظته. لكن المدهش أنه كان مستيقظاً وهجم على إيفان، فرد الولد الأكبر بضرب الرجل في رأسه بمضرب، ثم بدأ الصبيان في ضربه بعد ذلك أشعلوا النار في المقطورة، ما أدى إلى وفاة كول كانون واتهم إيفان وصديقه بالقتل العمد. عقد الصبي الأكبر صفقة مع المدعين العامين وحكم عليه بالسجن المؤبد المشروط، في حين أدين إيفان وحكم عليه بالسجن مدى الحياة دون إفراج مشروط. لقد توليت قضية إيفان مباشرة بعد محاكمته وقدمت طلباً لتخفيف عقوبته، على الرغم من أن العقاب كان الإلزامي.

بالنسبة لشخص أدين بجريمة قتل وهو بعمر الرابعة عشر كان أصغر من أن يعدم، طلبت من القاضي في جلسة الاستماع، إعادة النظر في عقوبة إيفان في ضوء عمره، لكن المدعي العام جادل: «أعتقد أنه يجب إعدامه، إنه يستحق عقوبة الإعدام» ثم رثى القانون الذي لم يعد يسمح بإعدام الأطفال، لأنه كان عادلاً

ثم أكمل: «لا أستطع الانتظار لوضع هذا الصبي ذي الأربعة عشر عامًا على الكرسي الكهربائي لقتله». ورفض القاضي اقتراحنا.

عندما زرت إيفان في السجن، دارت بيننا أحاديث طويلة، فقد أحب الحديث عن أي شيء يخطر في باله أو يفكر فيه، وكان يحب تمديد الزيارة عندما نكون معًا. لقد تحدثنا في كل شيء تقريبًا، تحدثنا عن الرياضة والتمارين وعن الكتب وعن عائلته وعن الموسيقى وتحدثنا عن كل الأشياء التي يريد القيام بها عندما يكبر. عادةً ما كان ممثليًا بالحيوية ومتحمسًا بشأن شيء ما، على الرغم من أنه لم يسمع من عائلته لفترة من الوقت واضطر إلى التعامل مع بعض الحوادث السيئة في السجن، مما جعله مكتئبًا للغاية. ما أحرزته أنه لم يستطع فهم بعض السلوك العدائي والعنيف الذي مارسه معه بعض السجناء والأشخاص الآخرين من حوله. لم أستطع نسيان عينيهِ الغارقة في الدموع، عندما أخبرني ذات مرة أن أحد الحراس لكمه في صدره لمجرد أنه سأله عن أوقات الوجبات، ثم فاضت دموعه لتغرق وجنتيه لأنه لم يستطع فهم سبب قيام الضابط بذلك.

أُرسل إيفان إلى سجن سانت كلير، وهو سجن يتمتع بأعلى درجات الأمان، لكن لم يمض وقت طويل على وصوله، حتى هاجمه سجين آخر بطعنه تسع مرات، إلا أنه تعافى دون مشاكل جسدية خطيرة، لكن على المستوى النفسي صدمته التجربة وأربكه العنف. عندما تحدث عن عنفه مع الرجل الذي قتله بدا مرتبكًا للغاية وهو يفكر كيف تمكن من القيام بشيء مدمر كهذا.

لقد كان معظم عملاء قضايا الأحداث المحكوم عليهم بالسجن حتى الموت التي تعاملنا معها، ممن شاركوا إيفان ارتباكه بشأن سلوك المراهقين، الذين نضج الكثير منهم وأصبحوا يفكرون كبالغين أكثر تأملًا وأعمق تفكيرًا، حيث أصبحوا الآن قادرين على اتخاذ قرارات مسؤولة وملائمة، إن أكثر القضايا المعلقة أدانت أشخاصًا تميزوا بالسخرية المأساوية، إنهم الآن ليسوا نفس الأطفال المشوشين الذين ارتكبوا جرائم عنيفة، لقد تغير جميعهم تغييرًا جذريًا مما ميزهم عن معظم موكلِي الذين ارتكبوا جرائم كبالغين. لقد كان تولي قضايا المراهقين الذين ارتكبوا جرائم عنيفة ضرب من السخرية في حد ذاته.

كان عمري ستة عشر عامًا، وأعيش في جنوب ولاية ديلاوير، وفي يوم من الأيام كنت متوجهًا للخارج عندما رن الهاتف، رأيت والدتي تجيب بينما تخطيبتها وبعد دقيقة سمعت صراخها داخل المنزل، فركضت إلى الداخل ورأيتها مستلقية على الأرض، تنتحب وتصرخ: «أبي، أبي» بينما كان جهاز استقبال الهاتف متدليًا من قاعدته، النقطة وكانت على الخط خالتي، التي أخبرتني أن جدي قُتل.

كان جدي منفصلين منذ سنوات عديدة، وكان جدي يعيش لبعض الوقت بمفرده في مشاريع الإسكان في جنوب فيلادلفيا وهناك تعرض للهجوم والطعن حتى الموت من قبل مجموعة من المراهقين الذين اقتحموا شقته لسرقة جهاز التلفزيون الأبيض والأسود، لقد كان عمره ثمانون سنة.

لقد دمر ذلك القاتل الأخرق عائلتنا الكبيرة، حتى جدتي التي انفصلت عن جدي منذ سنوات عديدة، كانت منهارة بسبب جريمة قتله، كان أبناء عموتي الكبار يعملون في تطبيق القانون وقد

طلبوا معلومات حول الأولاد الذين ارتكبوا الجريمة - أذكر أنهم كانوا في غاية الدهشة من انتقام و رعونة هؤلاء الأحداث، فقد ظللنا نقول ونفكر في نفس الشيء: «لم يكن عليهم قتله، فلم يكن بإمكان رجل في السادسة والثمانين من عمره أن يمنعهم من الفرار مع نهبهم الضئيل». لم تستطع والدتي أن تفهم ذلك أبداً، كما أنني لم أكن أعرف أطفالاً في المدرسة بدوا خارجين عن السيطرة و بهذا العنف، ومع ذلك ما زلت أتساءل كيف يمكن لشخص أي شخص أن يكون مدمراً إلى هذا الحد. لقد ترك لنا قتل جدي أسئلة كثيرة.

الآن بعد عقود وأثناء تحضير التقاضي نيابة عن الأطفال الذين نمثلهم، بدأت أفهم، لقد كان من الواضح أنه لا يمكن تقييم هذه الجرائم المروعة وغير المعقولة بصدق دون فهم حياة هؤلاء الأطفال و ما أجبروا على تحمله في ظل حظر عقوبة الإعدام للأحداث، أولت المحكمة العليا اهتماماً كبيراً للهيئة الناشئة للأبحاث الطبية حول تطور المراهقين وعلم الدماغ وأهميتها في جرائم الأحداث وإدانتهم.

أثبتت الأدلة العصبية والنفسية والاجتماعية المعاصرة، أن الأطفال يضعفون بسبب الحكم الأرعن والقدرة المتخلفة على التنظيم الذاتي والمسؤولية والتعرض للتأثيرات السلبية والضغط الخارجية وعدم السيطرة على دوافعهم وبيئتهم. يشمل سن المراهقة عموماً الأعمار من ١٢ إلى ١٨ عاماً، و يعرف عن طريق التحولات الكلية التي تصيبه، بما في ذلك التغيرات الجسدية الواضحة والمؤلمة غالباً المرتبطة بالبلوغ (الزيادات في الطول والوزن والتغيرات المتعلقة بالجنس) بالإضافة إلى اكتساب القدرة التدريجية على التفكير المنطقي و الأحكام الناضجة و التحكم في الاندفاع والاستقلالية. وكما أوضحنا فيما بعد للمحكمة، فقد توصل الخبراء إلى الاستنتاج التالي:

«إن الزيادة السريعة والمثيرة في نشاط الدوبامين داخل النظام الاجتماعي-العاطفي في وقت البلوغ تقود المراهقين الشباب نحو زيادة البحث عن الإحساس والمجازفة ؛ هذه الزيادة في طلب المكافأة تسبق النضج الهيكلي لنظام التحكم المعرفي وصلته بمناطق النظام الاجتماعي العاطفي، إن عملية النضج هذه عملية تدريجية، تتكشف على مدار فترة المراهقة، وتسمح بتنظيم ذاتي أكثر تقدماً وتحكماً في الاندفاع. خلال الفجوة الزمنية بين إثارة النظام الاجتماعي والعاطفي، مما يعمل على التنمية المبكرة للمراهقين، والنضج الكامل ومعرفة نظام التحكم، الذي يحدث في وقت لاحق، مما يُنشئ فترة من زيادة القابلية للتعرض للمخاطرة خلال فترة المراهقة».

تشرح هذه التطورات البيولوجية والنفسية الاجتماعية ما يتضح بشدة للآباء والمعلمين وأي شخص بالغ يفكر في سنوات المراهقة الخاصة؛ حيث يفتقر المراهقون إلى النضج والاستقلالية التوجه المستقبلي الذي اكتسبه الكبار، كم يبدو غريباً أن تضطر إلى شرح شيء أساسي جداً عن الطفولة في المحكمة، لكن التمسك بالعقوبات القاسية على الأطفال كان شديداً ورجعياً لدرجة أننا اضطررنا إلى توضيح هذه الحقائق الأساسية.

جادلنا في المحكمة أنه مقارنةً بالبالغين فإن الأحكام ضد المراهقين الصغار معوقة بكل طريقة يمكن تصورها تقريباً، المراهقون الصغار يفتقرون إلى الخبرة الحياتية والخلفية المعرفية للإبلاغ

عن اختياراتهم، فهم يكافحون من أجل إيجاد الخيارات وتخيل العواقب وربما لسبب وجيه، فإنهم يفتقرون إلى الثقة بالنفس اللازمة لإصدار أحكام منطقية والتمسك بها، لقد جادلنا بأن علم الأعصاب والمعلومات الجديدة حول كيمياء الدماغ تساعد في تفسير الحكم الضعيف الذي يظهره المراهقون في كثير من الأحيان، فعندما تقتزن هذه العيوب الأساسية التي تثقل كاهل جميع الأطفال بالبيئات التي يعاني منها بعض الأطفال الفقراء، كاليئات التي تتسم بالاعتداء والعنف والخلل الوظيفي والإهمال وغياب مقدمي الرعاية المحبين، وقد يؤدي هذا إلى ترك المراهقين عرضة لصنع قرارات سيئة للغاية تؤدي في النهاية إلى عنف مأساوي.

تمكنا من تقديم حجج مقنعة حول الاختلافات بين الأطفال والبالغين، لكن هذه لم تكن العقبة الوحيدة أمام التخفيف، فسابقة التعديل الثامن للمحكمة العليا لا تتطلب مجرد حكم معين يسيء إلى (معايير الآداب المتطورة) ولكن يجب أيضاً أن يكون (غير عادي). بناءً على القضايا التي سبق ومنحت فيها المحكمة العليا إعفاء بموجب التعديل الثامن، فإن عدد العقوبات التي طعن فيها عادة ما يكون أقل من مائة أو نحو ذلك على الصعيد الوطني. في عام ٢٠٠٢ عندما حظرت المحكمة عقوبة الإعدام للأشخاص ذوي الإعاقة الذهنية، كان هناك حوالي مائة شخص يعانون من التخلف العقلي يواجهون الإعدام و في عام ٢٠٠٥، عندما حظرت المحكمة عقوبة إعدام الأطفال، كان هناك أقل من خمسة وسبعين حدثاً من المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام، حتى الأرقام الأصغر كانت مصحوبة بقرارات المحكمة التي تحظر عقوبة الإعدام على جرائم غير جرائم القتل.

إن استراتيجية التقاضي لدينا معقدة بسبب حقيقة أن أكثر من ٢٥٠٠ طفل في الولايات المتحدة قد حكم عليهم بالسجن مدى الحياة بدون إفراج مشروط، لقد قررنا التركيز على مجموعتين فرعيتين من الأطفال لمساعدة المحكمة على منح التخفيف إذا لم تكن مستعدة لحظر جميع الأحكام بالسجن مدى الحياة دون الإفراج المشروط عن الأحداث. ركزنا على أصغر الأطفال و هم هؤلاء الذين كانوا في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، فقد كان هناك أقل من مائة طفل تحت سن الخامسة عشر حكم عليهم بالسجن مدى الحياة بدون إفراج مشروط، كما ركزنا على الأطفال المدانين، بارتكاب جرائم غير جرائم القتل؛ مثل جو سوليفان وإيان مانويل وأنطونيو نونيز. وقد أدين معظم الأحداث المحكوم عليهم بالسجن مدى الحياة بدون إفراج مشروط بجرائم قتل، لقد قدرنا أن عدد الأحداث الجانحين الذين يقضون الحياة في السجون بدون الإفراج المشروط عن جرائم غير جرائم القتل أقل من مائتي حدث.

جادلنا بأن الحظر على عقوبة الإعدام كان له آثار لأن عقوبة الموت في السجن هي أيضاً نهاية لا يمكن تغييرها، إنه حكم لمرة واحدة وإلى الأبد على حياة الإنسان كلها تعلن أنه غير صالح إلى الأبد ليكون جزءاً من المجتمع المدني. سألنا المحاكم الاعتراف بأن مثل هذا الحكم لا يمكن تمريره بشكل عقلائي على الأطفال تحت سن معينة لأنهم ثمار لم تتضج بعد، كما أن الأعمال البشرية قيد التقدم، إنهم يقفون في لحظة ضعف بشكل خاص في حياتهم. إمكاناتهم للنمو والتغيير هائلة، كما أن كلهم تقريباً سوف يتوقون على السلوك الإجرامي، ومن المستحيل عملياً اكتشاف القلة التي لن تفعل ذلك. إنهم «نتاج بيئة ليس لهم سيطرة حقيقية عليها، فهم مسافرون عبر مسارات ضيقة في عالم لم

يصنعوه أبدأ»، كما كتبنا في مذكرتنا.

شددنا على التناقض في عدم السماح للأطفال بالتدخين و الشرب و التصويت و القيادة بدون قيود و التبرع بالدم و شراء البنادق، بالإضافة إلى مجموعة من السلوكيات الأخرى بسبب، افتقارهم المعترف به جيداً للنضج والحكم بينما يعالجون في نفس الوقت بعض الأطفال الأكثر عرضة للخطر والإهمال والضعف تماماً مثل البالغين البالغين في نظام العدالة الجنائية.

في البداية، لم تحقق هذه الحجج نجاحاً كبيراً، ففي قضية جو سوليفان حكم القاضي بأن ادعاءاتنا «لا أساس لها». في ولايات أخرى، كنا نتلقى تشكيك ومقاومة مماثلة. لكن في النهاية استنفدنا من الخيارات المقدمة من ولاية فلوريدا في قضية جو سوليفان المرفوعة للاستئناف في المحكمة العليا الأمريكية. في مايو ٢٠٠٩، وافقت المحكمة العليا على مراجعة القضية، لقد شعرت وكأنها معجزة، فالمراجعة في المحكمة العليا أمر نادر بما فيه الكفاية، ولكن احتمال أن المحكمة قد تجعل من هذا الانصاف الدستوري للأطفال المحكوم عليهم بالموت في السجن فرصة أكثر إثارة لقد كانت فرصة لتغيير القواعد عبر الدولة.

قبلت المحكمة مراجعة قضية جو و قضية أخرى في فلوريدا تورط بها مراهق يبلغ من العمر ستة عشر، عاما أدين بارتكاب جريمة غير جرائم القتل وحكم عليه بالسجن مع عدم الإفراج المشروط. كان ترانس جراهام من جاكسون فيل- فلوريدا، تحت المراقبة عندما اتهم بمحاولة سرقة متجر ونتيجة لاعتقاله الجديد، ألغى القاضي مراقبة ترانس وحكم عليه بالموت في السجن. لأن قضية كل من جو و غراهام تضمنت جرائم غير جرائم القتل، فمن المحتمل أنه إذا حصلنا على حكم مؤيد من المحكمة، فلن تطبق أحكام السجن مدى الحياة بدون الإفراج المشروط المفروضة على الأحداث المدانين بارتكاب جرائم غير جرائم القتل، ولكن هذا كان إمكانية مثيرة.

ولدت القضايا الكثير من اهتمام وسائل الإعلام الوطنية، عندما قدمنا مذكرتنا في المحكمة العليا الأمريكية، كما انضمت إلينا المنظمات الوطنية وقدمت مذكرات مؤازرة، تحت المحكمة على الحكم لصالحنا وتلقينا الدعم من جمعية علم النفس الأمريكية و جمعية الطب النفسي الأمريكية و نقابة المحامين الأمريكية والجمعية الطبية الأمريكية و القضاة السابقون والمدعون العامون بالإضافة إلى الأخصائيين الاجتماعيين و مجموعات الحقوق المدنية و مجموعات حقوق الإنسان، حتى بعض جماعات حقوق الضحايا، كما قدمت شخصيات عامة معروفة وثنائق داعمة لأنهم رغم ما وصلو إليه، لم ينسوا ما تعرضوا له في السجون عندما أدينوا في فترات مراهقتهم، بما في ذلك السياسيين المحافظين للغاية مثل السيناتور الأمريكي السابق آلان سيمبسون من وايومنغ، فقد قضى سيمبسون ثمانية عشر عاما في مجلس الشيوخ، تخللها عشر سنوات كسوط جمهوري - وكما هو معروف فإن السياط رمز لإجبار النواب المترددين أو المتمردين على التصويت وفق سياسة الحزب - كما ساندنا أيضاً سيناتور آخر من نفس الحزب، حيث كان هو الآخر مجرمًا سابقًا. خلال مراهقته، فقد حكم عليه بأنه حدث جانح عندما كان في السابعة عشرة من عمره، كما أدين بتهم متعددة مثل الحرق المتعمد والسرقة والاعتداء المشدد والعنف المسلح وأخيراً، الاعتداء على ضابط شرطة. اعترف فيما بعد: «لقد كنت وحش». لم تبدأ حياته في التغيير حتى وجد نفسه مسجوناً في (بحر من القيء

والبول) بعد اعتقال آخر. عرف السيناتور سيمبسون مباشرة أنه لا يمكنك الحكم على إمكانيات الشخص بالكامل من سوء سلوكه في مراهقته. قدمت مذكرة أخرى نيابة عن الأطفال المجندين سابقاً، الذين أدى سلوكهم المرعب - بعد إجبارهم على الانضمام إلى الميليشيات الأفريقية العنيفة - إلى جعل جرائم عملائنا تبدو أقل تفاقمًا بكثير. ومع ذلك، فإن هؤلاء الأطفال المجندين سابقاً والذين أنقذوا من جيوشهم قد تعافوا و في الغالب احتضنتهم الكليات والجامعات الأمريكية، على نطاق واسع، حيث ازدهر الكثير منهم.

في تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠٩، بعد أن قدمنا المذكرات في قضية جو وقضية غراهام، ذهبت إلى واشنطن لتقديم المرافعة الشفوية الثالثة في المحكمة العليا للولايات المتحدة، حيث وجدت أن الاهتمام الإعلامي والوطني والتغطية الإخبارية لهذه القضية، أكثر من الاهتمام والتغطية لأي قضية سابقة توليتها، فقد كانت المحكمة مكتظة كما كان هناك مئات الأشخاص خارج المحكمة أيضاً، كان من بينهم مجموعة واسعة من المدافعين عن حقوق الأطفال والمحامين وخبراء الصحة العقلية، وكان الجميع يراقبون عن كثب لحظة طلبنا من المحكمة أن تعلن، أن عقوبات السجن مدى الحياة بدون الإفراج المشروط المفروضة على الأطفال غير دستورية.

لقد كانت المحكمة مشوشة خلال المرافعة، مما جعل من المستحيل توقع ما سيفعله القاضي. قلت للمحكمة: «إن الولايات المتحدة هي الدولة الوحيدة في العالم التي تقرض عقوبة السجن مدى الحياة دون إفراج مشروط على الأطفال»، كما شرحت: «أن إدانة الأطفال تنتهك القانون الدولي الذي يحظر فرض تلك العقوبة على الأطفال» أظهرنا للمحكمة أن هذه الأحكام مفروضة بشكل غير متناسب على الأطفال الملونين، كما ناقشنا أن ظاهرة الأحكام بالسجن مدى الحياة المفروضة على الأطفال، هي إلى حد كبير نتيجة للعقوبات القاسية التي تم إنشاؤها لتطبيق على مجرمين مهنيين بالغين ولم تكن مخصصة للأطفال مطلقاً - مما جعل فرض مثل هذه العقوبة على الأحداث مثل ترانس جراهام و جو سوليفان أمر غير عادي. كما أخبرت المحكمة، كم هو قاسي قولنا لأي طفل في الثالثة عشرة من عمره، أنه لا يصلح إلا للموت في السجن، في الحقيقة لم يكن لدي أي وسيلة لمعرفة ما إذا نجحت في إقناع المحكمة أم لا.

لقد وعدت جو، الذي كان اسمه وقضيته حديث التلفاز باستمرار، أنني سأزوره بعد المرافعة في المحكمة العليا. كان جو في البداية متحمساً للغاية لكل الاهتمام الذي تمخض عن قضيته، ولكن بعدما بدأ الحراس والسجناء الآخرين بالسخرية منه ومعاملته بقسوة أكثر من المعتاد، بدأ هذا الحماس ينطفيء، إنهم على ما يبدو يشعرون بالاستياء من الاهتمام الذي كان يحظى به، لكنني أخبرته بأن الأمور ستهدأ الآن بعد انتهاء المرافعة.

عمل جو لأسابيع على حفظ قصيدة قال إنه سيكتبها وعندما سألتها عما إذا كان قد كتبها بالفعل، اعترف أن سجين آخر قد ساعده، كان متحمساً جداً لقصيدته التي لم تنته ولكنه وعدني مراراً وتكراراً بأنه سيقراها لي عندما أزوره بعد المرافعة. عندما وصلت إلى السجن، كان جو قد نُقل إلى منطقة الزيارة دون أي صعوبة. تحدثت معه عن الجدل الدائر في واشنطن، لكنه كان أكثر اهتماماً بتحضير لي لسماع قصيدته، استطيع القول إنه متوتر فهو لا يعلم إن كان يستطيع القيام بذلك. قطعت

التقرير القصير عن قضيته حتى أسمع قصيدته، أغلق عينيه ليركز ثم بدأ في قراءة السطور:

الورود حمراء البنفسج أزرق.
قريباً سأعود إلى المنزل لأعيش معك.
ستكون حياتي أفضل، وسأكون سعيداً ،
ستكون مثل والدي وعائلتي.
سنستمتع مع أصدقائنا وسيرى الآخرون ،
انا صالح . . . اه . . . انا صالح . . . انا . . .
حسن . . . شخص . . . اه . . .

لم يستطع تذكر السطر الأخير، قام بمحاولات عدة، ونظر إلى السقف، ثم إلى الأرض جاهد للتذكر، ثم ضغط عينيه، لإجبار الكلمات الأخيرة على القفز إلى ذاكرته، لكنها لم تأتي. فكرت بارتجال سطر لمساعدته على تجاوزه فقلت «فكن سعيداً بالنسبة لي» أو «الآن سيرى الناس». لكنني أدركت أن ارتجال سطر يكمل قصيدته لم يكن التصرف الصحيح الذي علي القيام به، لذا جلست هناك.

أخيراً، بدا أنه تقبل فكرة أنه لن يتذكر السطر. اعتقدت أنه سيكون منزعاً، ولكن عندما اتضح أنه لن يتذكر السطر الأخير، بدأ بالضحك، فابتسمت له وهذا جعله يشعر بالارتياح و لسبب ما أصبح الأمر أكثر مرحاً وأكثر تسلية بالنسبة له لدرجة أنه، لم يعد يستطيع التفكير في السطر الأخير حتى توقف فجأة عن الضحك ونظر إلي.

جو: «آه إنتظر. أعتقد أن السطر الأخير. . . في الواقع، أعتقد أن السطر الأخير هو فقط ما قلته. السطر الأخير هو «أنا شخص جيد».

توقف، ونظرت إليه مشككا لعدة ثوان و قلت

قبل أن أفكر في ذلك: «هل حقاً؟»

كان يجب أن أتوقف لكنني تابعت:

«سنستمتع بوقتنا سوف يرى الأصدقاء وغيرهم، أنا شخص جيد؟».

نظر إلي للحظة مع تعبير جاد، ثم انفجرنا بالضحك الجامح في وقت واحد معاً لم أكن متأكداً إن كان يجب أن أضحك، لكن جو كان يضحك، مما جعلني أعتقد أن هذا جيد.

بصراحة، لم أستطع المساعدة. في بضع ثوان دخل كلانا في نوبة ضحك، لدرجة أنه كان يتأرجح على كرسيه المتحرك من جانب إلى آخر يضحك و يصفق بيديه. أنا أيضاً لم أستطع التوقف عن الضحك، حاولت جاهداً أن أتوقف ولكنني فشلت. نظرنا لبعضنا البعض ونحن نضحك. شاهدت جو وهو يضحك كطفل صغير، لكنني رأيت خلف ضحكه أثر صفعات الحياة وقسوتها والتي ارتسمت على هيئة تجاعيد مزقت طفولته لترتسم على وجهه قبل الآوان، كما أنني لم أغفل بعض الشعرات الرمادية التي أضاعت سواد شعره، من يدري لعلها كان تحاول التسرب لتثير روحه التي اطفأها

ظلام هذا السجن و قسوته، كما أدركت أن ضحكته تشي بطفولة تعيسة أعقبتها سنوات مراهقة أسيرة وأكثر تعاسة، ليهدر شبابه بعد ذلك في سجن مظلم كئيب دمر نفسه كما دمر جسده، فجأة شعرت بمعجزة هزت كياني وهي أنه رغم كل هذا ما زال بإمكانه أن يضحك. فكرت في مدى ظلم العالم لجو سوليفان وكم أردت الفوز بقضيته. أخيراً هدأ كلانا، وحاولت أن أتكلم بإخلاص قدر استطاعتي. «جو، إنها قصيدة لطيفة للغاية». توقفت مؤقتاً، ثم قلت: «اعتقد انها جميلة». فابتسم لي و صفق بيديه.

الفصل الخامس عشر

الانكسار

كان والتر يجري نحو النهاية حيث بدأت لحظات ارتبائه تطول أكثر وأكثر، فقد بدأ ينسى الأشياء التي فعلها قبل ساعات قليلة فقط، ولم يعد قادرًا على ملاحقة تفاصيل عمله، التي بدأت تخرج عن سيطرته وأصبحت إدارة العمل معقدة بطرق لم يستطع فهمها ومجاراتها، الأمر الذي أحبطه، لدرجة أنني في مرحلة ما راجعت سجلاته معه و اكتشفت أنه كان يبيع الأشياء بجزء ضئيل من قيمتها مما أفقده الكثير من المال.

جاء طاقم فيلم من أيرلندا إلى ألاباما لعمل فيلم وثائقي قصير عن عقوبة الإعدام وكان الفيلم سيعرض قضية والتر وقضيتين أخريين من قضايا سجناء ألاباما المحكوم عليهم بالإعدام. جيمس بوكوكران، الذي أفرج عنه بعد قضاء ما يقرب من عشرين عامًا في وحدة الإعدام في ألاباما و قد مُنح محاكمة جديدة بعد أن عكست المحاكم الفيدرالية إدانته بسبب التحيز العنصري أثناء اختيار هيئة المحلفين. في محاكمته الجديدة، وجدت هيئة محلفين متنوعة عرقياً أنه غير مذنب بجريمة القتل وأطلق سراحه، أما الرجل الثالث الذي ظهرت قصيته في الفيلم، كان روبرت تارفر، الذي أصر على الحفاظ على براءته، واعترف المدعي العام فيما بعد بأن اختيار هيئة المحلفين لم يكن قانوني بل كان بطريقة تمييزية عنصرية و مع ذلك رفضت المحاكم مراجعة المطالبة لأن محامي الدفاع فشل في تقديم اعتراض مناسب، لذلك أعدام تارفر.

استضيفنا العرض الأول للفيلم في مكتبنا و دعوت والتر وبو لمخاطبة الجمهور. اجتمع حوالي خمسة وسبعون شخصاً من المجتمع في غرفة اجتماعات EJI، حيث قمنا بعرض الفيلم، كافح والتر ل يبدو بخير، لكنه كان مقتضب أكثر من المعتاد ونظر إلي بشكل محموم كلما سأله أحدهم سؤالاً، أخبرته أنه لن يضطر للقيام بأي عروض أخرى، و قالت لي أخته أنه بدأ يضع كلما تجول في المساء كما بدأ يشرب كثيراً وهو شيء لم يكن معتاداً عليه من قبل، ثم قال لي أنه يعاني من القلق طوال الوقت وأن الكحول يهدئ أعصابه، لكنه انهار ذات يوم، كان في مستشفى في موبيل عندما وصلني الخبر في مونتغمري. ذهبت للتحدث مع طبيبه الذي أخبرني أن والتر كان يعاني من الخرف، ومن المرجح أن يعاني من الصدمة، وأنه سيحتاج إلى رعاية مستمرة، كما قال الطبيب أيضاً أن الخرف سيتقدم وأنه من المحتمل أن يصبح عاجزاً.

التقينا مع عائلة والتر في مكتبنا واتفقنا على أنه يجب أن ينتقل إلى هانتسفيل للعيش مع قريب يمكنه توفير رعاية مستمرة له و سار كل شيء على ما يرام لبعض الوقت لكن والتر هاج هناك و كان لديه بعض نقود مما مكنه من العودة إلى مونروفييل حيث كان، وافقت الأخت كاتي لي على رؤيته، لفترة من الوقت مما حسن أدائه في مونروفييل، ولكن بعد ذلك عادت حالته للتدهور مرة أخرى فسرعان ما احتاج إلى الانتقال إلى هذا النوع من المرافق التي تقدم الرعاية للمسنين والعجزة، لكن معظم الأماكن رفضت استقباله وإدخاله لأنه أدين بجناية، حتى عندما أوضحنا أنه

أدين ظلما وأن براءته أثبتت فيما بعد لم تختلف النتيجة فقد رفض الجميع الاعتراف بهذه البراءة. كان لدى EJI الآن عاملة اجتماعية بين موظفيها، وهي ماريا موريسون، التي بدأت العمل مع والتر وعائلته لإيجاد مكان مناسب له. لقد كانت عملية البحث محبطة للغاية و جنونية، في النهاية وجدت ماريا مكانًا في مونتغمري وافق على استقبال والتر وإدخاله لفترة قصيرة - لا تزيد عن تسعين يومًا - ذهب إلى هناك بينما اكتشفنا ما يجب القيام به بعد ذلك.

أحكمت خيوط الحزن عقدتها على قلبي من كل جانب. كان عبء العمل لدينا يزداد بسرعة كبيرة، فقد توافعت للتو في قضية جو سوليفان في محكمة الولايات المتحدة العليا، وكنت أنتظر بفارغ الصبر هذا الحكم، من جهة أخرى حددت المحكمة العليا في ألاباما مواعيد لإعدام العديد من السجناء المحكوم عليهم بالإعدام، الذين أكملوا عملية الاستئناف. لسنوات كنا نخشى ما سيحدث عندما يستنفد عدد كبير من السجناء المدانين طلباتهم، والآن أصبح لدينا أكثر من اثني عشر شخصًا معرضين للإعدام وعلما أنه سيكون من الصعب للغاية منع عمليات الإعدام هذه نظرًا للمناخ القانوني الحالي في ألاباما، إلى جانب القيود المفروضة على مراجعة المحكمة الفيدرالية في قضايا الإعدام. اجتمعت بموظفينا واتخذنا القرار الصعب بتمثيل جميع الأشخاص الذين كان من المقرر إعدامهم وليس لديهم محام.

بعد أسابيع قليلة وجدت نفسي منزعًا للغاية فقد أوقعني القلق في حفرة من الهموم جاهدت للخروج منها، فقد كنت قلقًا حول مواعيد الإعدام التي عُينت كل شهرين في ألاباما وكنت قلقًا بشأن ما ستفعله المحكمة الأمريكية العليا حيال جميع الأطفال المحكوم عليهم بالموت في السجن، بعد أن أصبحت لديها تلك القضية للنظر فيها، كما كنت قلقًا بشأن تمويلنا وما إذا كان لدينا ما يكفي من الموظفين والموارد لتلبية متطلبات جدولنا الذي لم يتوقف عن التوسع، كما كنت قلقًا بشأن العديد من العملاء الذين كانوا يكافحون. عندما وصلت إلى دار رعاية مونتغمري لرؤية والتر بعد أسبوع من وصوله إلى هناك، شعرت أنني قضيت اليوم في تلك الحفرة.

كان والتر يجلس في غرفة مشتركة مع كبار السن والذين يعالجون بأدوية ثقيلة لمشاهدة التلفاز. كم كانت رؤيته يجلس في ثوب المستشفى بين الناس المعرضين للخطر والعجزة مؤلمة، توقفت قبل أن أدخل الغرفة ونظرت إليه، لكنه لم يرني بعد. كان يبدو خاملاً تعيسًا، فقد كان متدليًا على كرسي استلاق، ورأسه ملقًا على يده، مع أنه كان يحدق باتجاه التلفاز، إلا أنه لم يبد عليه أنه كان يشاهد البرنامج. لم تكن ذقنه ملحوقّة، وكانت ممثلة بالقشرة، لكن أكثر ما ألمني عينيته التي اكتست بحزن لم أراه من قبل، عندما نظرت إليه شعرت أن قلبي يغوص في أعماق الحزن، ما جعل جزء مني يريد أن يغادرو ويجري إلى حيث يرى والتر القديم الذي حافظ على ابتسامته وروح الفكاهة رغم كل ما مر به. رأيتي ممرضة واقفًا خارج الغرفة وسألت ما إذا كنت موجودًا لرؤية شخص ما. أخبرتها أنني كذلك، فابتسمت بتعاطف عندما اصطحبتني الممرضة إلى الغرفة، ذهبت إلى والتر ووضعت يدي على كتفه، فتحرك ونظر ثم ابتسم لي ابتسامة عريضة.

قال: «مرحبًا، ها هو!» بدا مبتهجًا، وفجأة نظر إلي كوالتر القديم، ثم بدأ يضحك ووقف فاحتضنته، كنت مرتاح لأنه عرفني فهو لم يتعرف على بعض أفراد العائلة مؤخرًا.

سألته بينما كان يتكئ علي قليلاً:

«كيف حالك؟»

فقال: «حسنًا، كما تعلم، أنا بخير». بدأنا بالسير إلى غرفته حيث يمكننا التحدث بخصوصية

فقلت: «هل تشعر بتحسن؟»

لم يكن هذا السؤال معقولا، لكنني لم أكن مرتاحًا لرؤيته على هذا الحال لقد فقد وزنه، كما لم يكن ثوبه مربوطًا من ناحية الظهر و لم يلاحظه، لكنني أوقفته.

-«انتظر، دعني أساعدك».

ربطت خيوط ثوبه واستمررتنا في السير إلى غرفته، كان يتحرك ببطء وحذر، وكانت قدميه تنزلق من شبشبه عبر الأرضية كما لو كان قد نسي كيفية التقاطها. أمسك ذراعي على بعد بضعة أقدام من القاعة وانحنى علي بينما كنا نسير ببطء.

قال: «حسنًا، أخبرتهم أن لدي الكثير والكثير من السيارات، ذات الألوان والأشكال والأحجام المختلفة» كان يتحدث بشكل مؤكد، مع إثارة أكثر بكثير مما سمعت منه في يوم .

قال رجل ما: «سياراتك لا تعمل».

أخبره والتر: «إن سياراتي تعمل أيضًا. » نظر إلي وقال:

«قد تضطر إلى التحدث مع هذا الرجل حول سياراتي، حسنا؟»

أومأت برأسي وفكرت في مجاله المعدني. «لديك الكثير السيارات»....

قاطعني: «أنا أعلم!» وبدأ يضحك. «انظر، لقد قلت لهؤلاء الناس، لكنهم لم يصدقوني. لقد أخبرتهم». كان يبتسم وبدأ يضحك الآن، لكنه بدا مرتبكًا إنه ليس والتر نفسه. قال:

«يعتقد الناس أنني لا أعرف ما أتحدث عنه، لكنني أعرف ذلك بالضبط». تحدث بتحد، ثم وصلنا إلى غرفته، وجلس على سريره بينما قمت بسحب كرسي، كان لا يزال هادئ وبدا فجأة قلقًا للغاية.

قال بحسرة شديدة «حسنًا، يبدو أنني عدت إلى هنا». «هم

أعادوني إلى وحدة الموت».

كان صوته حزينًا.

والتر: «لقد حاولت و حاولت و حاولت، لكنهم لم يسمحوا لي أن أكون». نظر إلى عيني.

«لماذا يريد الناس أن يفعلوا بأي كان ما يفعلونه بي ؟ هذا ما لن أفهمه أبدًا. لماذا الناس هكذا؟ لقد اهتممت بأعمالي التجارية الخاصة. لم أقم بإيذاء أحدا، لقد حاولت أن أفعل الصواب، لكن بغض النظر ما أفعله، يأتي الناس ليعيدوني إلى قائمة المحكوم عليهم بالإعدام. . . بلا سبب، لم أفعل شيئًا لأحد. لا شيء، لا شيء، لا شيء».

كان يشعر بالإثارة لذلك وضعت يدي على ذراعه.

قلت بلطف قدر استطاعتي «لا بأس»، «إنها ليست سيئة كما تبدو. أعتقد....».

والتر: «ستخرجني، أليس كذلك؟ أنت ستبعدني عن وحدة الإعدام مرة أخرى؟».

قلت له «والتر، هذا ليس السجن، لم تكن على ما يرام، لهذا أنت هنا حتى تتحسن. هذه مستشفى».

والتر: «لقد أخذوني مرة أخرى، وعليك مساعدتي».

بدا مذعورًا، لم أكن متأكدًا مما يجب فعله. ثم بدأ في البكاء، وقال:

«أرجوك أخرجني من هنا. رجاء؟ سوف يعدموني بدون سبب وجيه، ولا أريد أن أموت بالكروسي الكهربائي»

كان يبكي الآن بقوة هزت أعماقي، فانتقلت إلى السرير وجلست بجانبه ووضعت ذراعي حوله، وقلت له: «إنها حسنًا، لا بأس والتر، سيكون كل شيء على ما يرام. سيكون كل شيء على ما يرام».

كان يرتجف، وقفت حتى يتمكن من الاستلقاء، لقد توقف عن البكاء عندما لامس رأسه الوسادة. بدأت أتحدث معه بهدوء حول محاولة إجراء الترتيبات حتى يتمكن من البقاء في المنزل وكم كنا بحاجة للمساعدة، وكم الخطر الذي كان يشكله بقاءه بمفرده، استطعت أن أرى عينيه تغمض أثناء حديثي و في غضون دقائق كان نائمًا. لقد بقيت معه لأقل من عشرين دقيقة، ثم سحبت بطانيته وشاهدته ينام.

في الردهة، سألت إحدى الممرضات: «كيف حاله؟»

قالت: «إنه لطيف حقًا، نحن نحبه وجوده هنا، فهو لطيف مع الموظفين و مهذب للغاية، في بعض الأحيان ينزعج ويبدأ في الحديث عن السجن وحكم الإعدام. لم نكن نعرف ما الذي يتحدث عنه، لكن إحدى الفتيات بحثت عنه على الإنترنت، ثم قرأنا ما حدث له، وعندها قال أحدهم إن شخصًا مثل هذا لا يفترض أن يكون هنا، لكنني أخبرته أن مهمتنا هي مساعدة أي شخص يحتاج إلى المساعدة».

قلت لها: «حسنًا، لقد أقرت الدولة بأنه لم يرتكب أي خطأ، إنه بريء».

نظرت الممرضة إلي بلطف و قالت: «أعرف سيد ستيفنسون، ولكن الكثير من الناس هنا يعتقدون أنه بمجرد دخولك السجن، سواء أكنت تنتمي إليه أم لا، فأنت تصبح شخصًا خطيرًا ولا يريدون أن يكون لهم علاقة بك».

بريان: «حسنًا، هذا عار». كان هذا كل ما استطعت جمعه من كلمات لأعبر عن مدى السوء الذي أشعر به.

ترك المرفق مهتزًا ومضطربًا. رن هاتفي الخلوي بمجرد أن خرجت، كانت المحكمة العليا في

ألاباما قد حددت لتوها إعدام سجين آخر محكوم عليه بالإعدام. كان راندي ساسكيند أحد أفضل محامي EJI الذي يشغل الآن منصب نائب مدير، متدرب معنا كطالب قانون عندما كان في جامعة جورج تاون وأصبح محامياً للموظفين بعد تخرجه من كلية الحقوق و قد أثبت أنه مقاض بارز ومدير مشروع فعال للغاية، فاتصلت به وناقشنا ما سنفعله لمنع الإعدام، على الرغم من أننا كنا نعلم أنه سيكون من الصعب الحصول على إقامة في هذه المرحلة، كم أخبرت راندي عن زيارتي لوالتر وكم كانت رؤيته مؤلمة. ظللنا صامتين لفترة على الهاتف وهو أمر يحدث كثيراً عندما نتحدث.

إن المعدل المتزايد لعمليات الإعدام في ألاباما مخالف للاتجاه الوطني، لا يمكن أن ننكر دور التغطية الإعلامية لجميع الأبرياء المدانين خطأ في التأثير على معدل حكم الإعدام في أمريكا، والذي بدأ في الانخفاض في عام ١٩٩٩، لكن الهجمات الإرهابية في مدينة نيويورك في ١١ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١، و تهديدات الإرهاب والصراع العالمي أدت إلى تعطيل التقدم نحو إلغاء عقوبة الإعدام.

ولكن بعد ذلك ببضع سنوات، عادت معدلات الإعدام وأحكام الإعدام للانخفاض مرة أخرى، فبحلول عام ٢٠١٠، انخفض عدد عمليات الإعدام السنوية إلى أقل من نصف العدد في عام ١٩٩٩ وقد كانت عدة ولايات تناقش بجدية إنهاء عقوبة الإعدام. ألغت كل من نيو جيرسي و نيويورك و إلينوي ونيو مكسيكو وكونيتيكت وماريلاند عقوبة الإعدام من الكتب، حتى في تكساس، حيث نُفذ ما يقرب من ٤٠ ٪ من عمليات الإعدام في العصر الحديث التي يبلغ عددها حوالي ١٤٠٠ عملية في الولايات المتحدة، كما انخفض معدل حكم الإعدام بشكل كبير، ثم تباطأت وتيرة الإعدام في النهاية، كذلك انخفض معدل حكم الإعدام في ألاباما من أواخر التسعينيات مع أنه لا يزال الأعلى في البلاد. بحلول نهاية عام ٢٠٠٩، كان لدى ألاباما أعلى معدل تنفيذ للفرد في البلاد.

هناك شخص ما يواجه الإعدام كل شهرين، وهنا نحن نتدافع لمتابعته والسعي في محاولة إيقافه. أعدم كل من جيمي كالاهاان و داني برادلي و ماكس باين و جاك تراويك وويلي ماكثير في عام ٢٠٠٩. لقد حاولنا بجد منع عمليات الإعدام هذه، في الغالب بالمجادلة حول طريقة تنفيذ عمليات الإعدام. في عام ٢٠٠٤، ترافعت في قضية في المحكمة الأمريكية العليا، أثارت تساؤلات حول دستورية بعض طرق الإعدام، حيث تخلت بعض الدول إلى حد كبير عن الإعدام بالصعق الكهربائي وغرفة الغاز وفرق الرماية والتعليق لصالح الحقنة المميتة. يعتبر الحقن القاتل، الأكثر تعقيداً وهدوءاً مما جعله الطريقة الأكثر شيوعاً للقتل المسموح به للأشخاص في كل حالة وفاة تقريباً. ولكن كانت هناك تساؤلات حول مدى آلام وفعالية الحقن المميتة. في القضية التي ترافعت بها أمام المحكمة، طعنا في دستورية بروتوكولات ألاباما للحقن المميتة، بعدما فعله مسؤولو ألاباما في إعدام ديفيد نيلسون الذي كانت عروقه شديدة الاختراق، لقد كان في الستينيات من عمره وكان مدمنا على المخدرات في وقت سابق من حياته، مما جعل الوصول إلى عروقه أمراً صعباً، و بالطبع لم يكن أعضاء الهيئة الإصلاحية قادرين على إدخال الحقنة في ذراعه من أجل تنفيذ إعدامه دون مضاعفات طبية و لأن قسم أبقراط يمنع الأطباء والعاملين الطبيين من المشاركة في عمليات الإعدام، قام مسؤولو ألاباما بوضع خطة تتضمن قيام الموظفين الإصلاحيين غير المدربين، بشق

ذراع أو حتى فخذ السيد نيلسون شق طوله بوصتين، بواسطة سكين حتى يتمكنوا من العثور على وريد ليحقنوه بالسموم وقتله وكانت نقطة جدالنا هنا هي أنه بدون التخدير، سيكون هذا الإجراء مؤلماً وقاسياً بدون داع.

احتجت ولاية ألاباما بأن القواعد الإجرائية تمنع السيد نيلسون من الطعن في دستورية البروتوكول، مما استدعى تدخل المحكمة الأمريكية العليا فقالت: «كان السؤال القانوني ما إذا كان يمكن للسجناء المدانين رفع دعاوى حقوق مدنية للطعن في أساليب الإعدام غير الدستورية؟».

كانت القاضية ساندرا داي أوكونور نشطة بشكل خاص خلال المناقشة الشفوية، حيث سألتني الكثير من الأسئلة حول مدى قدرة موظفي الإصلاحات على اتخاذ الإجراءات الطبية، في هذا اليوم قضت المحكمة بالإجماع لصالحنا، وقررت أن السجناء المدان يمكن أن يطعن في عدم دستورية طرق التنفيذ عن طريق رفع قضية حقوق مدنية. توفي ديفيد نيلسون لأسباب طبيعية بعد عام من فوزنا بالتخفيف.

تكاثرت الأسئلة بعد دعوى نيلسون، حول مجموعة الأدوية التي استخدمتها معظم الولايات في الحقن المميتة، فقد كانت كثير من الولايات تستخدم عقاقير محظورة الاستخدام في حالات القتل الرحيم للحيوانات لما تسببه من ألم وعذاب قبل الموت. هل لكم أن تتخيلوا كم تعرينا من إنسانيتنا، ولأن تلك العقاقير القاتلة لم تكن متوفرة بسهولة في الولايات المتحدة، بدأت الولايات في استيرادها من المصانع الأوروبية. التي توقف أصحابها عن توفير تلك العقاقير للولايات المتحدة، عندما انتشر خبر استخدام تلك العقاقير في عمليات الإعدام، مما تسبب في ندرة تلك العقاقير، مما دفع السلطات الإصلاحية في الدولة للحصول عليها بشكل غير قانوني، ضاربين عرض الحائط بقواعد إدارة هيئة الغذاء والدواء الأمريكية، التي تنظم بيع الأدوية ونقلها بين الدول. كانت غارات المخدرات على المنشآت الإصلاحية الحكومية نتيجة غريبة لهذا الدواء السريالي المستخدم لتنفيذ عمليات الإعدام. قررت المحكمة الأمريكية العليا في قضية بيز في ريس لاحقاً، أن بروتوكولات التنفيذ ومجموعات العقاقير، لم تكن غير دستورية بطبيعتها، وعليه ستستأنف عمليات الإعدام.

مما يعني بالنسبة للسجناء المحكوم عليهم بالإعدام في ألاباما ولموظفي EJI أن سبعة عشر عملية إعدام ستنفذ خلال ثلاثين شهراً. حدث ذلك في نفس الوقت الذي كنا نمثل فيه الأطفال المحكوم عليهم بالسجن مدى الحياة بدون إطلاق سراح مشروط في جميع أنحاء البلاد، التي تنقلت بين ولاياتها جواً، حيث سافرت إلى داكوتا الجنوبية وأيووا و ميشيغان وميزوري وأركنساس وفرجينيا وويسكونسن وكاليفورنيا للمرافعة في القضايا التي اختلفت في محاكمها وإجراءاتها وأطرافها، نيابة عن الأطفال المدانين خلال الأشهر السابقة التي أرهاقها السفر مثلي تماماً.

مع ذلك واصلنا التقاضي بجد نيابة عن الأطفال المدانين في ميسيسيبي وجورجيا ونورث كارولينا وفلوريدا ولويسيانا - وهي الولايات المتناثرة على طول الجنوب الأمريكي حيث قمنا بالتقاضي من قبل. وبالطبع، لم يكن جدول بياناتنا في ألاباما أكثر تشويشاً أو طلباً، ففي غضون أسبوعين كنت في كاليفورنيا في زيارة أنطونيونونيز في سجن نائي في وسط الولاية قبل المرافعة

في قضيته في محكمة الاستئناف هناك، في نفس الوقت كنت أحاول بجد لإغاثة ترينا غارنيت في بنسلفانيا وإيان مانويل في فلوريدا، لقد زرت إيان وجو سوليفان في سجن فلوريدا، وكان كلاهما يعاني، فعلى سبيل المعاناة، لم يسمح مسؤولو السجن لجو بالوصول بانتظام إلى كرسيه المتحرك، مما جعله يسقط مرارًا وتسبب في إصابة نفسه، أما إيان فلا يزال في العزل، إضافة لتدهورت حالة ترينا الطبية.

كل هذا جعلني كما لو أنني أغرق في بحر هائج متلاطم الأمواج التي تقذفني كل منها إلى الأخرى ولم أكن أعرف متى سأصل إلى الشاطئ لأوصل من معي بأمان، فقد كنت أعاني من صعوبة متزايدة في إدارة كل شيء، في الوقت نفسه، كانت مدة الإقامة التي سمح بها لوالتر بالبقاء في منشأة مونتغومري تقترب من بدأ العد التنازلي، لذلك قمنا بترتيبات محمولة لينتقل إلى منزله، حيث ستبذل أخته قصارى جهدها لرعايته، لقد كانت حالته مقلقة بالنسبة له ولأسرته و لنا جميعًا.

في الوقت الذي تقرر فيه إعدام جيمي ديل في ألاباما، كان الأرهاق ينقض على جميع موظفي EJI. لا يمكن أن يأتي تاريخ التنفيذ في وقت أصعب من هذا، فلم يكن لدينا مشاركة سابقة في قضية السيد ديل، وهذا يعني أننا استيقظنا قبل موعد إعدامه المقرر بثلاثين يومًا، لم تكن جريمة عادية، فقد كان السيد ديل متهم بإطلاق النار على شخص أثناء صفقة مخدرات بعد اشتعال النزاع، إلا أن الضحية لم يمت جراء إطلاق النار، في حين أُلقي القبض على السيد ديل واتهم بالاعتداء المشدد، وبقي في السجن لمدة تسعة أشهر في انتظار المحاكمة، بينما أطلق سراح الضحية من المستشفى وتعاوى بشكل جيد. ولكن بعد عدة أشهر من العناية به في المنزل، يبدو أن زوجة الضحية تخلت عنه، فعانى من مرض خطير مات على إثره وعندها، غير المدعون العامون التهم ضد السيد ديل من الاعتداء إلى القتل العمد.

انضم جيمي ديل إلى قافلة المتهمين الذين يعانون من إعاقات عقلية، كما أنه عاش طفولة بائسة تعرض خلالها للاعتداء الجنسي والجسدي، وقد كافح مع إدمان المخدرات حتى اعتقاله، أما محاميه المعين فلم يكلف نفسه عناء فعل الكثير لإعداد القضية للمحاكمة، من جهة أخرى لم يُجرى تحقيق تقريبًا في الرعاية الطبية السيئة التي تلقتها الضحية، مع أنها شكلت السبب الفعلي للوفاة. قدمت الدولة عرضًا لمدة عشرين عامًا، ولكنه لم يُبلغ بالشكل المناسب للسيد ديل، لذلك ذهب إلى المحاكمة وأدين وحكم عليه بالإعدام ومن ثم أكدت محاكم الاستئناف إدانته وعقوبته، كما أنه لم يتمكن من العثور على مستشار متطوع لتقديم طلبات استئناف ما بعد الإدانة الخاصة به، لذلك حُظرت معظم ادعاءاته القانونية من الناحية الإجرائية بسبب انتهاء المواعيد النهائية لتقديم الطلبات دون فعل شيء.

عندما نظرنا لأول مرة في قضية السيد ديل قبل بضعة أسابيع من موعد التنفيذ المقرر، اتضح لنا أنه لم تقم أي محكمة بمراجعة المسائل الحرجة المتعلقة بمصادقية إدانته والحكم عليه، فجريمة الإعدام تتطلب توفر أركان نية القتل، التي لم تتوفر في هذه القضية بدليل وجود حجة مقنعة على عدم توفر تلك النية إضافة إلى أن الرعاية الصحية السيئة هي التي تسببت في وفاة الضحية، فلا يموت معظم ضحايا الطلقات النارية بعد تسعة أشهر، مما يجعل سعي الولاية لعقوبة الإعدام في هذه القضية أمرًا مفاجئًا. والأهم أن المحكمة الأمريكية العليا كانت قد حظرت في السابق إعدام

الأشخاص الذين يعانون من تخلف عقلي، لذلك كان ينبغي حماية السيد ديل من عقوبة الإعدام بسبب إعاقة ذهنية، ولكن لم يتم أحد بالتحقيق أو تقديم الأدلة لدعم هذا الادعاء.

واجه السيد ديل صعوبة هائلة في الكلام، إلى جانب التحديات الأخرى، فقد كان لديه عائق في الكلام يجعله يتلعثم بشكل سيئ. عندما يتحمس أو يضطرب، مما زاد الأمر سوءاً، نظراً لأنه لم يكن لديه في السابق محام يراه أو يتحدث إليه، فقد رأى السيد ديل تدخلنا على أنه معجزة. أرسلت للقائه المحامين الشباب، وكان يتصل بي بشكل متكرر بعد أن تدخلنا.

حاولنا بشكل محموم حث المحاكم على إصدار أمر إقامة على أساس المسائل الجديدة التي اكتشفناها، لكن دون جدوى، فقد كانت المحاكم شديدة المقاومة لمراجعة الادعاءات بمجرد انتهاء السجين المحكوم عليه من إجراءات الاستئناف في المرة الأولى، حتى ادعاء التخلف العقلي أحبط لعدم وجود محكمة تمنح جلسة استماع في مثل هذه المرحلة المتأخرة. على الرغم من علمي أن الاحتمالات كانت ضدنا، فإن الإعاقات الشديدة للسيد ديل وهبتي أمل خاص بأن يكون القاضي معنياً وعلى الأقل يسمح لنا بتقديم أدلة إضافية. لكن جميع المحاكم أجمعت على كلمة واحدة (فات الألوان) وجدت نفسي في يوم الإعدام المقرر أتحدث مرة أخرى إلى رجل كان على وشك الجلد والقتل، كنت قد طلبت من السيد ديل الاتصال طوال اليوم لأننا كنا ننتظر سماع نتيجة طلب الإقامة النهائي في المحكمة الأمريكية العليا.

رغم شعوره بالقلق من بداية اليوم، إلا أنه أصر على أن الأمور ستسير، كما قال لي أنه لن يستسلم للأمل و حاول التعبير عن امتنانه لما فعلناه في الأسابيع التي سبقت إعدامه، كما شكرني على إرسال الموظفين لزيارته بانتظام، حيث وجدنا أفراد الأسرة الذين أعاد تواصله معهم . قلنا له أننا نعتقد بظلم إدانته والحكم عليه، على الرغم من أننا لم نقنع المحكمة بوقف إعدامه، لكن على ما يبدو فإن جهودنا أتت ثمارها وساعدته على التأقلم. ولكن في النهاية رفضت المحكمة العليا طلبنا النهائي للحصول على وقف التنفيذ، ولم يكن بأيدينا حيلة فعلية لإعدامه ستنفذ خلال أقل من ساعة، لقد كان علي أن أخبره أن المحكمة لن تمنحه إقامة، مما أشعروني بالإرهاق.

تحدثنا عبر الهاتف قبل اقتياده إلى غرفة الإعدام بوقت قصير. كان الاستماع إليه صعباً و مؤلماً، فقد كان يتلعثم بشكل أسوأ من المعتاد ويجاهد لأخراج تلك الكلمات التي كانت تعانده وكأنها تقف على عتبة غرفة الإعدام. كان الإعدام الوشيك يقتله حزناً قبل أن يقتله جسداً، و رغم ذلك حاول ببسالة أن يعبر عن امتنانه لجهودنا. جلست لفترة طويلة على الهاتف بينما أنهكه التحدث، فقد كان مكسور القلب، وفي لحظة زار ذاكرتي موقف كان قد هجرها تماماً ولم يعد لها حتى تلك اللحظة، فعندما كنت صبياً، أخذتني أُمي إلى الكنيسة. كنت عندها في العاشرة من عمري و كنت أقف خارج كنيسةنا مع أصدقائي، فأحضر أحدهم قريباً له للخدمة في الزيارة كان ذلك الطفل صبيًا خجولاً ونحيلًا وبطولي تقريباً، لكنه كان يتمسك بابن عمه بعصبية، لاحظت أنه لم يقل أي شيء بينما كانت المجموعة تتردش بعيداً، فسألته من أين هو وعندما حاول هذا الطفل التحدث تعثر بشكل رهيب، فقد كان لديه عائق شديد في الكلام حتى أن فمه لم يعاونه وكأنه ضاع منه، لدرجة أنه لم يستطع حتى ذكر اسم البلدة التي عاش فيها. لم يسبق لي أن رأيت أحدهم يتلعثم هكذا مما جعلني أعتقد أنه كان

يمزح أو يلعب، لذا ضحكت، فنظر لي أحد أصدقائي بقلق، لكنني لم أتوقف عن الضحك، وعندما التفت بعيني رأيت أُمِّي تنظر إليّ بنظرة لم يسبق لي أن رأيتها من قبل. لقد كانت مزيجًا من الرعب والغضب والعار، ركزوا جميعًا عليّ، فتوقفت عن الضحك على الفور كنت أشعر دائمًا بأن والدتي تعشق ضحكتي، لذلك كنت قلقًا عندما نادتني، لكنها كانت تشتعل غضبًا عندما وصلت إليها وقالتلي:

أُمِّي: «ماذا تفعل؟»

أنا: «ماذا؟ لم أفعل» . . .

أُمِّي: «لا تضحك على أحد لأنه لا يستطيع الحصول على كلماته بشكل جيد، لا تفعل ذلك أبدًا!»

أنا: «أنا آسف». شعرت بالدمار لأنني تعرضت للتوبيخ من قبل أُمِّي بقسوة.

أنا: «أُمِّي، لم أقصد فعل أي شيء خطأ».

أُمِّي: «يجب أن تكون أفضل، بريان».

أنا: «أنا آسف. اعتقدت . . .»

أُمِّي: «لا أريد سماع ذلك، بريان لا يوجد لك أي عذر، و كذلك خاب أُملي فيك. الآن، أريدك أن تعود إلى هناك وتخبر هذا الولد الصغير أنك آسف».

أنا: «نعم، سيدتي».

أُمِّي: «ثم أريدك أن تعانق هذا الولد الصغير».

أنا: «هاه؟»

أُمِّي: «ثم أريدك أن تخبره أنك تحبه». نظرت إليها

وأرعبتي نظرتها، فقد كانت خطيرة و قد استجبت اعتذارياً قدر استطاعتي، لكن كان هذا كثيرًا جدًا.

أنا: «أُمِّي، لا يمكنني أن أذهب وأخبر ذلك الصبي أنني أحبه. الناس سوف-»

فرمقتني بنظرة أخرى مما جعلني استدير بصمت وأعود إلى أصدقائي الذين رأوا بوضوح توبيخ أُمِّي لي، لقد عرفت ذلك من تحديقهم بي فذهبت إلى الولد الصغير الذي كافح للتحدث وقلت

أنا: «انظر يا رجل، أنا آسف».

لقد اعتذرت بصدق عن الضحك، بل وندمت بشدة على الوضع الذي وضعت نفسي. به، ثم نظرت إلى والدتي، التي كانت لا تزال تحق بي فاندفعت نحو الصبي لأعانقه عناقًا أخرق للغاية و أعتقد أنني أذهلته بإمساكه بهذا الشكل، لكن عندما أدرك أنني كنت أحاول معانفته، استرخى جسده وعانقني مرة أخرى. نظر إليّ أصدقائي بشكل غريب بينما كنت أتحدث أنا: «آه. . . أيضا آه... أحبك!» حاولت أن أقول ذلك بشكل متصنع قدر استطاعتي مع نصف ابتسامة، عندما تحدثت كنت

لا أزال أعانق ذلك الصبي، لذلك لم يستطع رؤية النظرة المخادعة على وجهي الشاب، شعرت بأن الغرابة تتلاشى من ابتسامتي وكأنها مزحة ولكن بعد ذلك اشتد عناقه لي وهمس في أذني، حيث تحدث بلا عيوب وبلا تلثم وبلا تردد.

الصبي: «أحبك أيضاً». كان في صوته تلك الرقة والجدية حتى ظننت أنني سأبدأ في البكاء.

كنت في مكنتي، وأتحدث إلى جيمي ديل قبيل إعدامه، عندما أدركت أنني أفكر في شيء حدث قبل حوالي أربعين سنة، لقد أدركت أيضاً أنني كنت أبكي، كانت الدموع الهاربة تنزلق على خدي - لقد هربت تلك الدموع في حين أنني لم أكن أعيرها انتباهاً، في تلك اللحظات كان السيد ديل لا يزال يعمل جاهداً لإيصال كلماته العنيدة، في محاولة يائسة لشكري على محاولة إنقاذ حياته و مع اقتراب نفاذ اللحظات المتبقية في عمره لاحتلال إعدامه ما تبقى منها، أصبح من الصعب عليه التحدث. كنت أستطيع سماع الحراس يصرون ضوضاء خلفه، وأستطيع أن أقول أنه مستاء جداً لأنه أصبح عاجزاً تماماً عن نقل كلماته بشكل صحيح، لكنني لم أرغب في مقاطعته. لذلك جلست هناك وقررت عتق تلك الدموع لتجري على خدي كيفما شاءت.

كلما زادت محاولاته للتحدث صعوبة، زادت رغبتي في البكاء. لقد أعطتني فترات التوقف المؤقت الكثير من الوقت للتفكير. لم يكن ليُدان بجريمة قتل لو أنه كان يملك المال لتعيين محامي جيد، لم يكن ليحكم عليه بالإعدام قط ويجلس الآن هناك يعد ما تبقى في عمره من ثواني و ما تبقى في صدره من أنفاس، لو أن شخص ما حقق في ماضيه شعرت أن وضعه المأساوي يحيط بي ليخففني بذراعين من العذاب والقهر، فكل ما حصل كان مأساوي؛ صراعه لتشكيل الكلمات وعزمه على التعبير عن الامتنان الذي عزز إنسانيته في عيني، كل هذا جعل مجرد التفكير في إعدامه ناراً لا تطاق، لماذا لا يمكنهم رؤيتها و الشعور بها أيضاً؟ لقد حظرت المحكمة العليا إعدام ذوي الإعاقة الذهنية، لكن ولايات مثل ألاباما رفضت التعامل معهم على أنهم بشرفتهم بنزاهة لمعرفة ما إذا كان هؤلاء المدانون معاقين أم لا.

من المفترض أن دورنا في هذه الحياة هو الحكم على الناس بإنصاف بعد النظر الكامل لظروف حياتهم، ولكن بدلاً من ذلك أخذنا نستغل عدم قدرة الفقراء على الحصول على المساعدة القانونية التي يحتاجونها - لماذا كل هذا ؟ لنقتلهم بأقل مقاومة ؟ !

على الهاتف مع السيد ديل، فكرت في كل صراعاته و في كل عذابه وألمه وفي كل الأشياء الرهيبة التي مر بها وكيف كسرتة إعاقاته، أعلم أنه ليس لديه أي عذر لإطلاق النار على أي كان، لكن لم يكن من المنطقي الرد على تلك المحاولة بقتله في ظل ظروف إعاقته، بدأ الغضب من كل هذا بزلزلة كياني . لماذا نفعل ذلك؟ لماذا نريد قتل كل المكسورين؟ ما هو الخطأ بنا، مالذي يجعلنا نعتقد أننا على حق عندما نمزق المحتاجين ونزيد ألم المطحونين؟ لماذا خلعنا رداء القيم التي فطرنا الله عليها؟

لماذا نسلخ أرواحنا من أي رحمة؟ لماذا ننسى أننا كلنا بشر نشعر بنفس الألم عندما يعصرنا الظلم وننزف نفس الدماء عندما يمزقنا الجرح ونبكي بنفس الدموع عندما يفتتنا القهر.

حاولت ألا أدع السيد ديل يسمع بكائي. حاولت ألا أريه نزف قلبي وألا أشعره بانكساره، أخيراً تمكن من الحصول على كلماته.

ديل: «سيد. بريان، أريد فقط أن أشكرك على القتال من أجلي، أشكرك لرعايتي، أحبكم جميعاً لمحاولتكم إنقاذي».

عندما أغلقت الهاتف في تلك الليلة شعرت أنني أنسان أخرفقد كانت عيناى تبكيان ألما وقلبي ينزف وجعاً، كما كان العجز عن فعل شيء يشل تفكيري وأطرافي على حد سواء، لقد أرهقتني أخيراً سطوة القسوة وانعدام الرحمة التي أشهد لها كل يوم. نظرت حولي لأرى مكتبي الغارق، في أكوام من السجلات والأوراق، التي امتلأت كل واحدة منها بقصص مأساوية تقنت الصخر و أدركت أنني لا أريد أن أبقي حبيس كل هذا البؤس و الألم الذي يحكم قبضته علي، كم كنت أحمق إذ حاولت إصلاح المواقف التي كسرت حتى الموت، وتيقنت أنه حان الوقت للتوقف، لا يمكنني فعل هذا بعد الآن.

لأول مرة أدرك أن حياتي كانت مليئة بالكسر، لقد عملت في نظام العدالة المكسور. كسر المرض العقلي والفقر والعنصرية موكلي الذين تمزقوا بين المرض والمخدرات والكحول والكبرياء والخوف والغضب. فكرت في جو سوليفان و

ترينا و أنطونيو و إيان وعشرات الأطفال الآخرين المكسورين الذين عملت معهم والذين كافحوا من أجل البقاء في السجن. فكرت في الأشخاص الذين كسرتهم الحرب، مثل هيربرت ريتشاردسون و في الناس الذين كسرهم الفقر، مثل مارشا كولبي و في الأشخاص الذين كسرتهم الإعاقة، مثل أفري جينكينز. فكرت في حياتهم في دولة مكسورة، جعلت الحكم عليهم وإدانتهم بأيدي أشخاص كسروا الالتزام بالعدالة بسبب السخرية واليأس والتحمل.

نظرت إلى جهاز الكمبيوتر الخاص بي وإلى التقويم الموجود على الحائط، ثم نظرت

مرة أخرى حول مكتبي في أكوام الملفات التي تخنقه وتخنقني معه. رأيت قائمة موظفينا، التي نمت إلى ما يقرب من أربعين شخصاً. وقبل أن أشعر بذلك، كنت أتحدث مع نفسي بصوت عالٍ: «يمكنني المغادرة بكل بساطة. لماذا أفعل هذا؟».

استغرق الأمر مني بعض الوقت لحله، لكنني أدركت أن شيئاً يجلس هناك بينما كان جيمي ديل يقتل في سجن هولمان. بعد العمل لأكثر من خمسة وعشرين عاماً، فهمت أنني لا أفعل ما أفعله لأنه مطلوب أو ضروري أو مهم، لا أفعل ذلك لأنه ليس لدي خيار، بل أفعل ما أفعله لأنني مكسور أيضاً، فسنوات النضال ضد الظلم و القوة المسيئة والفقر والاضطهاد، كشفت لي في النهاية شيئاً عن نفسي. إن الاقتراب من المعاناة والموت والإعدام والعقوبات القاسية لم يسلط الضوء على كسر الآخرين فحسب؛ ففي لحظة من الألم والحزن كشفت أيضاً عن كسر نفسي، فلم أتمكن من محاربة القوة المسيئة أو الفقر أو الظلم أو المرض أو الأذى أو الاضطهاد بشكل فعال، دون أن أنكسر أنا أيضاً.

جميعنا محطون بسبب شيء ما، جميعنا آذينا شخصًا ما وأوذينا من قبل شخص ما، نحن جميعًا شركاء في الكسر حتى لو يكن كسرنا متكافئًا، كل ما أردته هو الرحمة لجيمي وكنت مستعدًا لفعل أي شيء لتحقيق العدالة له، لكنني لم أستطع التظاهر بأن صراعه منفصلاً عن صراعي.

تختلف الطرق التي آذيت بها -وأوذي بها الآخرون- عن الطرق التي أوذي بها جيمي ديل وتسببت في معاناته. لكن كسرنا المشترك ربطنا.

بول فارمر، الطبيب الشهير الذي قضى حياته يحاول علاج أشد الناس فقرًا في العالم، نقل لي ذات مرة شيئًا قاله الكاتب توماس ميرتون: «نحن جنث ذات عظام مكسورة». أعتقد أنني كنت أعرف هذا دائمًا ولكنني لم أفكر مطلقًا في أن الكسر هو ما يجعلنا بشرًا، لدينا جميعًا أسبابنا، ففي بعض الأحيان، تكسرنا الخيارات التي نتخذها وفي أحيان أخرى تحطمتنا أشياء لم نختارها يومًا، لكن انكسارنا هو أيضًا مصدر إنسانيتنا المشتركة، وهو أساس بحثنا المشترك عن الراحة والمعنى والشفاء. كما أن قابليتنا المشتركة للضعف والعيوب، هي التي تغذي وتعزز قدرتنا على التراحم.

ما زال لدينا خيار، فإما أن نحتضن إنسانيتنا وهذا يعني احتضان طباعنا المكسورة والرحمة التي لا تزال أملنا الوحيد للشفاء وإما أن ننكر انكسارنا، ونرفض التعاطف و بالتالي، ننكر إنسانيتنا.

لقد فكرت في أن الحراس يربطون جيمي ديل بالسريير ذو العجلات في هذه الساعة بالذات و فكرت في كل أولئك الذين يهللون لموته ويرونه كنوع من النصر وتساءلت أي نصر هذا الذي يشعرون به من خلال ظلم إنسان معاق ومكسور ولا حيلة بيده مثل ديل؟ أي نصر هذا وهم يبارزون إنسانًا أعزل من أي سلاح قد يواجههم به ؟ وعندها أدركت أن هؤلاء الناس منكسرون أيضًا، حتى لو لم يعترفوا بذلك أبدًا. لقد تحول الكثير منا إلى أشباح يحركها الخوف والغضب، وتسكنها الرغبة في الانتقام لدرجة دفعتنا لإلقاء الأطفال بعيدًا وتجاهل المعاقين ومعاقبة المرضى والضعفاء بالسجن- ليس لأنهم يشكلون تهديدًا للأمن العام ولكن لأننا نعتقد أن ذلك يجعلنا نبدو أقوى وأقوى من أن ننكسر، كما فكرت في ضحايا الجرائم العنيفة والناجين من ألم قتل أحبائهم، وكيف ضغطنا عليهم لإعادة تشكيل آلامهم وعذابهم وإعادتها إلى الجناة الذين نحاكمهم. فكرت في الطرق العديدة التي شرعنا فيها العقوبات الانتقامية والقاسية، وكيف سمحنا لإيذائنا بأن يكون مبررًا لإيذاء الآخرين. لقد عززنا الغريزة القاسية لسحق أولئك الذين كانوا أضعف من أن يخفوا كسرهم أو يوقفوا نزفهم .

ببساطة لقد عاقبنا المكسورين بالابتعاد عنهم أو إخفاءهم عن الأنظار لنضمن فقط أن يظلوا محطمين مهشمين ينزفون كرامتهم ويكون وجعهم ودون أن نشعر فنحن مثلهم، فليس هناك كمال خارج إنسانيتنا المتبادلة.

كثيرا ما كنت أجري محادثات صعبة مع العملاء الذين كانوا يكافحون ويعانون بشأن أوضاعهم بسبب الأشياء التي كانوا يفعلوها أو تفعل بهم، مما أدى بهم إلى عيش لحظات مؤلمة ودقائق مريرة كلما ساءت الأمور حقًا، مما يجعلهم يتساءلون عن قيمة حياتهم و جدواها، كنت أذكرهم بأن كل واحد منا هو أكثر بكثير من أسوأ شيء قام به على الإطلاق، فإذا كذب أحدهم، فهذا لا يعني أن هذا الشخص مجرد كاذب و إذا أخذت شيئًا لا يخصك فهذا لا يعني أنك مجرد لص. حتى إذا قتلت

شخصًا، فهذا لا يعني أنك مجرد قاتل. أخبرت نفسي في تلك الأمسية بما كنت أخبر به عملائي لسنوات. ففي الواقع أنا أكثر من مجرد مكسور. في الواقع، حتى انكسارنا فيه قوة، تلك القوة الكامنة في فهم الانكسار، والتمثلة في أن احتضاننا لهذا الكسر يخلق في أرواحنا حاجة ورغبة في الرحمة، وربما هي حاجة مقابلة لإظهار الرحمة. عندما تشعر بالرحمة تتغير روحك ويختلف نبض قلبك و تتعلم أشياء يصعب تعلمها بطريقة أخرى، و ترى أشياء لا يمكن لغيرك رؤيتها و تسمع أشياء لا يمكن لغيرك سماعها، ثم تبدأ في التعرف على الإنسانية المختبئة في داخلك و في داخل كل منا تحت ركام القسوة والعنف الذي ملأ كياننا لسنوات.

فجأة، شعرت أنني أقوى و بدأت أفكر فيما سيحدث إذا اعترفنا جميعًا بانكسارنا، إذا تقهنا نقاط ضعفنا وعجزنا وتحيزاتنا ومخاوفنا. ربما لو فعلنا ذلك، سنفقد رغبتنا في قتل المكسورين منا، ربما سنبحث بجد عن حلول لرعاية المعاقين والمعتدى عليهم والمهمشين والمصدومين. كانت فكرتي أنه إذا اعترفنا بانكسارنا، و شعرنا بالخزي والعار من الحبس الجماعي و من إعدام الناس ومن لامبالاتنا المتعمدة لأولئك الضعفاء الذين هم أحد الخيوط التي نسج منها عالمنا شئنا أم أبينا.

عندما كنت في الجامعة، كنت أعمل كموسيقي في كنيسة سوداء في قسم فقير من غرب فيلادلفيا. وفي اليوم المخصص للخدمة كنت أعزف على الآلة الموسيقية قبل أن تبدأ الجوقة بالغناء و كان الوزير يقف، ثم فتح ذراعيه على وسعهما وقال: «أسمعني صوت السعادة والفرح، لعل الفرح يجبر العظام المتكسرة». لم أقدر ما قاله يوما، حتى ليلة أعدم جيمي ديل.

لقد حظيت بشرف لقاء روزا باركس عندما انتقلت إلى مونتغمري لأول مرة، فقد كانت تعود أحيانا إلى مونتغمري من ديترويت حيث كانت تعيش، لزيارة الأصدقاء الأعزاء، كانت جوني كار أحد هؤلاء الأصدقاء. لقد صادقتني السيدة كار، وسرعان ما علمت أنها إحدى قوى الطبيعة فقد كانت جذابة وقوية وملهمة، وقد كانت من عدة نواح المهندس الحقيقي لحركة مقاطعة حافلات مونتغمري، حيث قامت بتنظيم الناس ووسائل النقل خلال المقاطعة وقامت بالكثير من العمل الجاد لتنشئة أول عمل رئيسي ناجح لحركة الحقوق المدنية الحديثة وخلفت الدكتور مارتن لوثر كينغ جونيور كرئيسة رابطة مونتغمري للتحسين... كانت في أواخر السبعينات من عمرها عندما التقيت بها لأول مرة و عندها قالت لي: «الآن براين، سأتصل بك من وقت لآخر وسأطلب منك القيام بهذا أو ذاك وعندما أطلب منك أن تفعل شيئا ستقول» نعم، سيدتي، «حسنا؟»

ضحكت وقلت : «نعم يا سيدتي». كانت تتصل في بعض الأحيان فقط لتتفقدني، وكانت تدعوني عندما تحضر السيدة باركس إلى المدينة.

السيدة كار: «برايين إن روزا باركس قادمة إلى المدينة، وسنلتقي في منزل فيرجينيا دور للحديث. هل تريد الحضور والاستماع؟»

عندما تتصل بي السيدة كار فهي إما تريدني أن أذهب إلى مكان ما للتحدث، أو الذهاب إلى مكان ما للاستماع، لكن كلما تأتي السيدة باركس إلى المدينة تكون دعوتي للاستماع.

أنا: «أوه، نعم سيدتي، بالطبع أحب أن آتي وأستمع» هذا ما كنت أقوله دائما، للتأكيد على أنني

فهمت ماذا سأفعل عندما أصل.

سألتني السيدة باركس والسيدة كار في منزل فيرجينيا دور، التي كانت هي أيضًا شخصية أكبر من الحياة. زوجها كليفورد دور، كان محامياً مثل د. كينغ أمضى حياته في مونتغمري. وكانت السيدة دور مصممة على مواجهة الظلم حتى في التسعينيات من عمرها و كثيرا ما طلبت مني أن أرافقها إلى أماكن مختلفة أو دعيتي لتناول العشاء. بدأت EJI في تأجير منزلها لطلاب القانون والموظفين لدينا خلال الصيف عندما تكون في الخارج.

كنت أحب الذهاب إلى منزل السيدة دور للاستماع إلى هؤلاء النساء الثلاث الرائعات

لقد كانت روزا باركس من النساء الرائعات دائماً، فقد كانت ودودة و سخية للغاية معي وبمرور السنوات، كنت أقابلها من حين لآخر في مناسبات متعددة في ولايات أخرى، فينتهي بي الأمر بقضاء بعض الوقت معها ولكن في الغالب، كنت فقط أحب سماعها عندما تتحدث والسيدة كار والسيدة دور، ففي اجتماعهن كن يتحدثن ويتحدثن ويتحدثن، ثم يضحكن ويروين القصص والشهادات وما الذي كان يمكن فعله عندما وقف الناس أو جلسوا، عندما تمردت السيدة باركس ورفضت الانصياع لأوامر سائق الحافلة عندما أمرها بالتخلي عن مقعدها ليجلس رجل أبيض مكانها. لقد كن دائماً نشيطات معاً، حتى بعد كل ما فعلته، كان تركيزهن دائماً منصب على ما كن يخططن لفعله من أجل الحقوق المدنية.

في المرة الأولى التي التقيت فيها بالسيدة باركس، جلست على الشرفة الأمامية في منزل السيدة دور في المدينة القديمة في كلوفرديل -وهو حي سكني في مونتغمري- واستمعت إلى النساء الثلاث يتحدثن لمدة ساعتين. أخيراً، بعد رؤيتي أستمع طوال ذلك الوقت، التقت إلي السيدة باركس وسألتني بلطف، «الآن، بريان أخبرني من أنت؟ وماذا تفعل؟». نظرت إلى السيدة كار لمعرفة ما إذا كانت ستعطيني الإذن بالتحدث، فابتسمت وأومأت برأسها. ثم أعطيت السيدة باركس لمحة عن عملي:

«نعم، سيدتي. حسناً، لدي مشروع قانون يسمى مبادرة العدالة المتساوية، ونحن نحاول مساعدة الأشخاص المحكوم عليهم بالإعدام، في الواقع نحاول إيقاف عقوبة الإعدام، كما نسعى للقيام بشيء حيال ظروف السجن والعقاب المفرط، نريد تحرير الناس الذين أدينوا خطأ، كما نريد إنهاء الأحكام الظالمة في القضايا الجنائية ووقف التحيز العنصري الذي أخل بميزان العدالة الجنائية ومن جهة أخرى نحاول مساعدة الفقراء والقيام بشيء ما بشأن الدفاع المعوز، ففي الحقيقة لا يحصل الناس على المساعدة القانونية التي يحتاجونها، كما نحاول مساعدة الأشخاص الذين يعانون من مرض عقلي ونجاهد لمنعهم من وضع الأطفال في سجون الكبار. كما أننا نحاول القيام بشيء حيال ذلك الفقر واليأس الذي يسيطر على المجتمعات الفقيرة. فنحن نريد أن نرى المزيد من التنوع في أدوار صنع القرار في نظام العدالة ونسعى لتنقيف الناس حول التاريخ العنصري والحاجة إلى العدالة العرقية، كما نعمل على مواجهة إساءة استخدام السلطة من قبل الشرطة والمدعين العامين...للحظة أدركت أنني قد مضيت بعيداً بحديثي، فتوقفت فجأة. لأجد كل من السيدة باركس والسيدة كار والسيدة دور ينظرون إلي.

أسندت السيدة باركس ظهرها للخلف مبتسمة. «عزيزي، إن كل ذلك يجعلك متعباً، متعباً، متعباً». ضحكنا جميعاً ونظرنا إلى الأسفل لأنني أخرجت قليلاً، ثم انحنيت السيدة كار إلى الأمام ووضعت إصبعها في وجهي وتحدث إلي مثلما اعتادت جدتي أن تحدثني .

فقلت: «لهذا السبب يجب أن تكون شجاعاً، شجاعاً، شجاعاً». أومأت ثلاثتهن بصمت مما جعلني أشعر وكأنني أمير شاب، لمدة قصيرة.

صحت من ذكرياتي وعدت لواقعي، فنظرت إلى الساعة التي كانت تشير السادسة والنصف مساءً. مات السيد ديل الآن، أما أنا فقد كنت متعب للغاية وكان الوقت قد حان لإيقاف كل هذا الغباء بشأن الاستقالة، فقد كان هذا وقت الشجاعة. التقت إلى جهاز الحاسب الخاص بي، حيث وجدت بريد إلكتروني يتضمن دعوة للتحدث إلى الطلاب في منطقة مدارس فقيرة حول البقاء متقائلين وقد أخبرتني المعلمة أنها سمعتني أتحدث وأرادت مني أن أكون قدوة للطلاب وأن ألهمهم للقيام بأشياء عظيمة. لقد كان الجلوس في مكتبي و تجفيف دموعي والتفكير في كسري، بمثابة فكرة مضحكة خاصة بعدما فكرت في هؤلاء الأطفال وفي التحديات الساحقة وغير العادلة، التي يجب أن يتغلب عليها الكثير منهم في هذا البلد، وبدأت بكتابة رسالة تقول سيشرفني الحضور.

أثناء عودتي إلى المنزل قمت بتشغيل راديو السيارة، بحثاً عن أخبار إعدام السيد ديل. لقد وجدت محطة تبث تقرير إخباري، وقد كانت محطة دينية محلية، ولكن بثهم الإخباري لم يأت على أي ذكر للإعدام. غيرت المحطة، ولكن قبل ذلك بفترة طويلة بدأ الواعظ بعظة، بدأت بالكتاب المقدس:

توسلت الرب ثلاث مرات مختلفة أن يأخذها. في كل مرة.

قال : «نعمتي كافية. قوتي مصنوعة بشكل مثالي في ضعفك». لذا يسرني الآن أن أتباهى بنقاط ضعفي، حتى تعمل بي قوة المسيح لأنني أعلم أن كل شيء من المسيح خير، أنا راضٍ تماماً عن نقاط ضعفي والإهانات والمصاعب والاضطهاد والكوارث. لأنني أكون ضعيفاً، بعدها أصبح قوي.

قمت بإيقاف تشغيل محطة الراديو، وبينما كنت أسير ببطء في طريق عودتي إلى المنزل، أدركت أنه حتى مع وقوعنا في شبكة من الأذى والانكسار، فإننا أيضاً عالقون في شبكة من الشفاء والرحمة. فكرت في الصبي الصغير الذي عانقني خارج الكنيسة، وكيف أوجد المصالحة والحب، مع أنني لم أكن أستحق أي منهما في تلك اللحظة، لكن هذه هي الرحمة وهكذا تعمل، أن قوة الرحمة تكمن في أنها تنتمي فقط إلى من يستحقها و في حين يتوقع الجميع أن تكون الرحمة هي الحلقة الأضعف إلا أنها تقاومنا بقوتها، التي تكفي لكسر حلقة الإيذاء وإيقاف شلال الضحايا، ومداواة ألم العقاب وامتصاص عذاب المعاناة، فليدها القدرة على شفاء الأذى النفسي والجروح التي تؤدي إلى العدوان والعنف، وإساءة استخدام السلطة، وتقود إلى السجن. أكملت طريقي إلى المنزل و أنا مكسور و مفطور القلب بسبب ما حصل لجيمي ديل. لكنني كنت أعلم أنني سأعود في اليوم التالي، فهناك المزيد من العمل الذي علي القيام به.

الفصل السادس عشر

القابضون على الحجارة

أنشودة الحزن

في ١٧ مايو ٢٠١٠، كنت أجلس في مكتبي بانتظار إعلان المحكمة الأمريكية العليا قرارها التالي: السجن مدى الحياة بدون أحكام الإفراج المشروط المفروضة على الأطفال المدانين بجرائم غير جرائم القتل، عقوبة قاسية وغير عادية وغير مسموح بها دستوريًا. قفزت أنا وطاقم العمل لأعلى ولأسفل من الفرع، وبعد لحظات غمرنا سيل من المكالمات من كل حذب و صوب، وسائل الإعلام والعملاء والأسر والمدافعين عن حقوق الأطفال. إنها المرة الأولى التي تصدر فيها المحكمة حظراً قاطعاً على عقوبة أخرى غير عقوبة الإعدام. كان يحق لجو سوليفان التخفيف، كان من حق عشرات الأشخاص، بمن فيهم أنطونيو نونيز وإيان مانويل، الحصول على عقوبات مخففة تمنحهم «فرصة حقيقية للإفراج».

بعد ذلك بعامين، في يونيو ٢٠١٢ فرنا بحظر دستوري على الأحكام الإلزامية مدى الحياة بدون إفراج مشروط المفروضة على الأطفال المدانين بالقتل و قد وافقت المحكمة العليا على مراجعة قضية إيفان ميلر وقضية عميلنا من أركنساس و كونتريل جاكسون و قد ناقشت الحالتين في مارس من ذلك العام وانتظرت بقلق حتى فرنا بحكم إيجابي ويعني قرار المحكمة أنه لا يمكن الحكم على أي طفل متهم بارتكاب أي جريمة بالموت في السجن مرة أخرى. أدين أكثر من ألفي شخصاً حكم عليهم بالسجن مدى الحياة دون إطلاق سراح مشروط، لجرائم ارتكبوها عندما كانوا أطفالاً، لكن الآن جميعهم مؤهلين للإعفاء وتخفيف الأحكام. غيرت بعض الولايات قوانينها لإنشاء أحكام أكثر تفاؤلاً للأطفال الجانحين ومن جهة أخرى قاوم المدعون في العديد من الأماكن التطبيق بأثر رجعي لقرار المحكمة كما حدث في قضية ميلر ضد ألاباما، لكن الجميع الآن لديهم أمل جديد، بما في ذلك أشلي جونز وترينا غارنيت.

واصلنا عملنا في القضايا المتعلقة بالأطفال من خلال متابعة المزيد من الحالات و لطالما اعتقدت أنه يجب أن يكون هناك حظر كامل على وضع الأطفال تحت سن الثامنة عشر مع البالغين في السجون، لذلك رفعنا قضايا تسعى لوقف تلك الممارسات كما أنني مقتنع أيضاً، بأنه لا يجب محاكمة الأطفال الصغار جداً في محاكم الكبار، حيث سيكونون عرضة لجميع أنواع المشاكل التي ستزيد من خطر الإدانة الخاطئة، حيث لا يمكن لأي طفل يبلغ من العمر اثني عشر أو ثلاثة عشر أو أربعة عشر، الدفاع عن نفسه أو نفسها في نظام العدالة الجنائية للبالغين، فالإدانات غير القانونية والمحاكمات غير القانونية التي تشمل أطفالاً صغاراً شائعة جداً.

قبل بضع سنوات، فرنا بإطلاق سراح فيليب شو، الذي كان يبلغ من العمر أربعة عشر عندما أدين بشكل خاطئ وحكم عليه بالسجن مدى الحياة دون إطلاق سراح مشروط في ميزوري حيث

اختيرت هيئة المحلفين بشكل غير قانوني، باستثناء الأمريكيين من أصل أفريقي، كما ترافعت في قضيتين في محكمة ميسيسيبي العليا حكمت فيهما المحكمة بأن إدانات الأطفال الصغار وأحكامهم غير قانونية، فقد كان ديماريوس بانيارد يبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا عندما قام بعض الأشخاص بتخويفه لإجباره على المشاركة في عملية سطو، أدت إلى إطلاق نار قاتل في جاكسون - ميسيسيبي وقد حُكم عليه بالسجن المؤبد الإلزامي بعد أن أبلغت هيئة المحلفين بشكل غير قانوني، أنه كان عليه أن يثبت براءته بما لا يدع مجالاً للشك لكن الدولة قدمت أدلة غير مقبولة مما أدى للحكم عليه بالسجن لمدة محدودة، بات لديه أمل الآن في الإفراج عنه.

كان دانتي إيفانز طفلاً يبلغ من العمر أربعة عشر عامًا ويعيش في مقطورة FEMA مع والده المسيء في جولةفورت - ميسيسيبي، بعد إعصار كاترينا. أصيب والده، الذي أوشك على قتل والدته مرتين تقريباً، برصاص دانتي بينما كان نائماً على كرسي و قد قال دانتي مراراً وتكراراً للمسؤولي المدرسة عن إساءة والده لكن لم يتدخل أحد، لقد ناقشت تشخيص دانتي السابق لاضطراب ما بعد الصدمة بعد محاولة قتل والدته في مرافعتي الشفوية أمام محكمة ميسيسيبي العليا. وأكدت المحكمة رفضها السماح بإدخال هذه الأدلة ومنحت دانتي محاكمة جديدة.

اتخذ عمل عقوبة الإعدام الخاص بنا منحى مفيداً، حيث حصلنا على أحكاماً بالتخفيف لمائة سجين من المحكوم عليهم بالإعدام في ألاباما، كما أنشأنا مجتمعاً جديداً من السجناء المدانين سابقاً في ألاباما، الذين أدينوا أو حُكموا بشكل غير قانوني وحصلوا على محاكمات جديدة أو جلسات استماع، حيث نجا أغلبهم من العودة لحكم الإعدام مرة أخرى.

ابتداءً من عام ٢٠١٢، شهدت ولاية ألاباما مرور ثمانية عشر شهراً بدون عمليات إعدام، لكن التقاضي بشأن بروتوكولات الحقنة المميتة مازال مستمرًا بالإضافة إلى أسئلة أخرى حول موثوقية عقوبة الإعدام، وهذا أبطأ معدل الإعدام في ألاباما بشكل كبير في عام ٢٠١٣، سجلت ألاباما أدنى عدد من أحكام الإعدام الجديدة منذ استئناف عقوبة الإعدام في منتصف السبعينيات، كل هذه التطورات بعثت على الأمل، إلا أن الأحكام لم تنته بالطبع، كان هناك رجل آخر يسرق نومي، لأنه ينتظر تنفيذ حكم الإعدام فيه في ألاباما، لقد كانت برائته واضحة لدرجة أن من الممكن لأعمى أن يراها.

كان أنتوني راي هينتون ينتظر تنفيذ حكم الإعدام عندما وصل والتر ماكميلان في الثمانينيات، فقد أدين السيد هينتون عن طريق الخطأ بجريمة قتل لصين خارج برمنغهام، بعد أن خلص موظفو الطب الشرعي في الولاية عن طريق الخطأ إلى أن البندقية المستخدم في الجريمة انتشلت من منزل والدته، حصل محامي الدفاع المعين من قبل السيد هينتون على ٥٠٠ دولار فقط من المحكمة لإحضار خبير أسلحة لمواجهة قضية الولاية، لكن انتهى به الأمر إلى مهندس ميكانيكي كان أعمى في إحدى عينه ولم يكن لديه أي خبرة تقريباً في الأسلحة ليبدلي بشهادته كخبير بها.

وتضمن الدليل الأساسي للدولة ضد السيد هينتون اتهامه بجريمة ثالثة، حيث عرفه شاهد بأنه مهاجم ولكننا وجدنا ستة أشخاص بالإضافة للسجلات الأمنية أثبتت أن السيد هينتون، حبس داخل

مستودع سوبرماركت آمن يعمل به، كعامل ليلي على بعد خمسة عشر ميلاً وقت ارتكاب الجريمة، كما حصلنا على بعض أفضل خبراء الدولة لمراجعة أدلة الأسلحة، وخلصوا إلى أن سلاح هينتون لا يمكن مطابقته مع السلاح المستخدم في جرائم القتل. كنت أمل بعد ظهور هذه الأدلة أن تعيد الدولة فتح القضية، لكن بدلاً من ذلك استمروا في التحرك نحو الإعدام. لم تكن وسائل الإعلام مهتمة بالقصة، مشيرة إلى «إرهاق البراءة» بقولهم: «لقد سمعنا هذه القصة مراراً وتكراراً وغطينا ملابساتها في مرات سابقة»، و النتيجة أن كل ما حصلنا عليه هو قرارات موثقة من محاكم الاستئناف تنفي الإنصاف، فضل السيد هينتون ينتظر تنفيذ حكم الإعدام و مواجهته قرابة ثلاثين عاماً، مع ذلك كان دائماً متفائلاً ومشجع عندما التقيت به، لكن بالنسبة لي لم يكف اليأس عن مطاردي حول إيجاد طريقة تمكيني من قلب قضيته.

لقد شجعتني حقيقة أن معدل الحبس الجماعي قد تباطأ في نهاية المطاف على الصعيد الوطني، للمرة الأولى منذ ما يقرب من أربعين عاماً، كما لم يزد عدد نزلاء سجون البلاد في عام ٢٠١١ و في عام ٢٠١٢، شهدت الولايات المتحدة أول انخفاض في عدد نزلاء السجون منذ عقود. قضيت الكثير من الوقت في كاليفورنيا في ذلك العام في دعم مبادرات الاقتراع، وشجعت فكرة أن الناجين هم من قرر بهامش كبير، توقف قانون «الإضرابات الثلاث» في الولاية الذي فرض عقوبات إلزامية على المخالفين غير العنيفين و قد حازت المبادرة على دعم الأغلبية في كل مقاطعة في الولاية، اقترب الناجون في كاليفورنيا أيضاً من حظر عقوبة الإعدام، مع أن مبادرة الاقتراع خسرت مقابل بضع نقاط مئوية فقط. كان حظر عقوبة الإعدام، من خلال استفتاء شعبي في ولاية أمريكية أمراً لا يمكن تصوره منذ بضع سنوات فقط.

تمكنا أخيراً من إطلاق مبادرة العرق والفقر، التي كنت أمل أن تبدأ في EJI منذ فترة طويلة. كنت أرغب منذ سنوات في تنفيذ مشروع لتغيير الطريقة، التي نتحدث بها عن التاريخ العنصري ووضع السياق لقضايا العرق المعاصرة. نشرنا تقريراً للتاريخ العنصري لعامي ٢٠١٣ و ٢٠١٤، ثم اتجهنا للعمل مع الأطفال والأسر الفقيرة في مقاطعات الحزام الأسود الذي يلف الجنوب، كما جلبنا المئات من طلاب المدارس الثانوية إلى مكتبنا، للتعليم التكميلي والمناقشة حول الحقوق والعدالة، كذلك عملنا أيضاً على التقارير والمواد التي تسعى إلى تعميق الحوار الوطني حول إرث العبودية والإعدام وتاريخ الظلم العنصري لأمتنا.

لقد وجدت أن العنصرية الجديدة وضعت يدها بيد الفقر للعمل بنشاط كبير وهذا يرتبط ارتباطاً وثيقاً بعملنا في قضايا العدالة الجنائية؛ أعتقد أن الكثير من أسوأ اعتقاداتنا حول العدالة غارق في أساطير الاختلاف العرقي التي لاتزال تُبلينا، كما أعتقد أن هناك أربع مؤسسات في التاريخ الأمريكي شكلت نهجنا للعرق والعدالة لكنها لا تزال غير مفهومة، المؤسسة الأولى هي العبودية التي لاتخفى على أحد، وعهد الرعب الذي تبعها كخادم أمين ليشكل حياة الأشخاص الملونين بعد انهيار إعادة الإعمار حتى الحرب العالمية الثانية.

يأتيني كبار السن من ذوي البشرة الملونة في الجنوب من حين لآخر، بعد الخطب ليشكون لي شعورهم بالعداء، عندما يسمعون حديث المعاقين عن كيفية تعاملنا مع الإرهاب المحلي، لأول مرة

في الولايات المتحدة بعد هجمات ١١ سبتمبر.

قال لي رجل أمريكي من أصل أفريقي ذات مرة: «أنت تستطيع أن تفهمهم عن قول ذلك! فنحن من نشأ في ظل الإرهاب طوال الوقت، إرهاب الشرطة وإرهاب منظمة كلان العنصرية التي تؤمن بالتفوق الأبيض، عشنا لحظات رعب حيث يمكن لأي شخص أبيض أن يرهبك وبعد كل هذا كان يجب علينا نقلق بشأن التفجيرات والإعدام والعنف العنصري بجميع أنواعه».

المؤسسة الثانية هي الإرهاب العرقي الذي أنشأ بطرق عديدة، عقوبة الإعدام الحديثة، حيث كان اعتناق أمريكا لعمليات الإعدام السريع بشكل ما، محاولة لإعادة توجيه الطاقات العنيفة للإعدام في حين يتأكد الجنوبيون البيض من أن الرجال السود مستمرون في دفع الثمن النهائي.

لقد قاد تأجير المدانين في نهاية القرن التاسع عشر إلى تجريم العبيد السابقين وإدانتهم بجرائم لا معنى لها، حتى يتمكنوا من «تأجير» الرجال والنساء والأطفال المحررين منهم للشركات حيث كانت طريقة فعالة للعودة إلى السخرة. التي ساعدت الشركات وأصحاب الأموال و الصناعات الخاصة في جميع أنحاء البلاد على جني ملايين الدولارات من خلال عمل المدان مجاناً، بينما قتلت ظروف العمل المروعة الآلاف من الأمريكيين الأفارقة، كانت ممارسة الاستعباد تنتشر على نطاق واسع في بعض الولايات لدرجة أنها، تبلورت في (كتاب الرق باسم آخر) الحائز على جائزة بوليتزر لدوغلاس بلاكمون و مع ذلك فلم تكن هذه الممارسة معروفة لمعظم الأمريكيين.

خلال عصر الإرهاب كانت هناك مئات الطرق لجعل الملونين يدفعون حياتهم ثمناً لأي تجاوز اجتماعي أو إساءة إلى شخص ما، من جهة أخرى فقد سبب الرعب العنصري والتهديد المستمر الناشئ عن التسلسل الهرمي العنصري المفروض بعنف صدمة عميقة للأميركيين الأفارقة، وقد ساهم استيعاب كل هذه الحقائق النفسية الاجتماعية في إيجاد جميع أنواع التشوهات والصعوبات التي تظهر اليوم بطرق متعددة.

المؤسسة الثالثة، هي «جيم كرو»، التي تبنت الفصل العنصري المقنن وقمع الحقوق الأساسية التي حددت حقبة الفصل العنصري الأمريكي، كما إنها أحدثت المؤسسات المعترف بها في وعينا الوطني، إلا أنها لا تزال غير مفهومة بشكل جيد و يبدو لي أننا تسرعنا في الاحتفال بإنجازات حركة الحقوق المدنية وتباطأنا في التعرف على الضرر الذي حدث في تلك الحقبة، كما أعتقد أننا لم نرغب في الالتزام بالحقيقة والمصالحة التي يسمح فيها للناس بالتصويت للصعوبات الناجمة عن الفصل العنصري والتبعية العنصرية والتهميش. لأنني ولدت في الوقت الذي كانت فيه وصمة التسلسل الهرمي العرقي وجيم كرو لها عواقب حقيقية على الطرق التي كانت تحتّم على زعمائي التصرف بها أو الرد من خلالها على مجموعة متنوعة من السخط، فقد كنت مدركاً للطريقة التي تراكم بها الإذلال اليومي والإهانات.

إن إرث التمييز العرقي يحمل العديد من المضاعفات نفسها، و بذلك فإن العمل على جميع قضايا الأحداث هذه والممتدة عبر جميع أنحاء البلاد، فرضت علي في كثير من الأحيان التواجد في قاعات المحاكم والمجتمعات التي لم أعرفها أو أكن فيها من قبل، ذات مرة بينما كنت أستعد للترافع في

جلسة استماع في محكمة ابتدائية في الغرب الأوسط، حيث كنت أجلس إلى طاولة المحامين في قاعة المحكمة الفارغة قبل الجلسة، وقد كنت أردي بذلة داكنة وقميص أبيض وربطة عنق وعندها دخل القاضي والمدعي العام من خلال باب في الجزء الخلفي من قاعة المحكمة وكانا يضحكان على شيء ما.

عندما رأي القاضي أجلس إلى طاولة الدفاع، قال لي بقسوة : «مهلاً، أنت لا يجب أن تكون هنا بدون مستشار، اذهب للخارج وانتظر في الردهة إلى أن يصل محاميك».

وقفت وابتسمت ابتسامة عريضة و قلت: «أوه، أنا آسف حضرة القاضي، نحن لم نلتق من قبل، إسمي بريان ستيفنسون أنا المحامي المعين للترافع في جلسة الاستماع هذا الصباح».

ضحك القاضي والمدعي العام على هذا الخطأ، وبدوري أجبرت نفسي على الضحك لأنني لا أريد لعميلي الشاب الأبيض الطفل الذي حوكم كشخص بالغ، أن يدفع ضريبة الصراع الذي نشأ بيني وبين القاضي قبل جلسة الاستماع. إلا أنني شعرت بخيبة أمل من التجربة، لا بد من حدوث أخطاء بريئة بالطبع، لكن الإهانات المتراكمة والسخط الناتج عن الافتراضات العنصرية مدمرة بطرق يصعب قياسها. حيث يكون الملون دائماً عرضة للاشتباه والاثهام والمشاهدة والتشكيك، مما يجهض ثقته في نفسه فيفترض أنه مذنب، بل ويخشى أن يكون عبئاً على الأشخاص الملونين الذين لا يمكن فهمهم أو مواجهتهم دون محادثة أعمق حول تاريخهم مع المعاناة من الظلم العنصري.

المؤسسة الرابعة هي السجن الجماعي. إن الدخول في أي سجن هو أمر مربك للغاية إذا كنت تعرف أي شيء عن التركيبة السكانية العنصرية في أمريكا. إن التمثيل المفرط للأشخاص الملونين، والحكم غير المتناسب مع الأقليات العرقية والملاحقة القضائية لجرائم المخدرات في المجتمعات الفقيرة وتجريم المهاجرين الجدد والأشخاص الذين لا يملكون وثائق والعواقب الجانبية لحرمان الناخبين والعقوبات التي تحول دون العودة، تأبى إلا أن تكون مفهومة بالكامل من خلال عدسة تاريخنا العنصري، لقد كان من دواعي سروري أن أتمكن أخيراً من معالجة بعض هذه القضايا والتعبير عن التحديات التي أوجدها التاريخ العنصري والفقر الهيكلي من خلال مشروعنا الجديد، فقد كانت المواد التي طورناها تولد ردود فعل إيجابية، وأصبحت أمل في أن نتمكن من الدفع لإبعاد قمع هذا التاريخ الصعب من الظلم العنصري.

لقد شجعني أيضاً فريقنا الجديد، فنحن الآن نجذب الشباب الموهوبين و المهرة من المحامين من جميع أنحاء البلاد وقد بدأنا برنامجاً لخريجي الكلية للعمل في EJI كزملاء العدالة. إن وجود عدد أكبر من الموظفين و أشخاص موهوبين للغاية لمواجهة التحديات الجديدة الناتجة عن جدولنا الأوسع نطاقاً يبدو ممكناً، ففي بعض الأحيان العدد الكبير من الموظفين والعدد الأكبر من القضايا والجدول الأكثر اكتظاظاً، يعني مشاكل أكبر فبالرغم من قرارات المحكمة العليا بشأن الأحداث مثيرة ومرضية للغاية، إلا أنها خلقت لنا كل أنواع التحديات الجديدة. يحق لمئات الأشخاص الآن الخضوع للأحكام الجديدة، لكن معظمهم في ولايات ليس لديهم فيها حق واضح في الحصول على المشورة. في ولايات مثل لويزيانا وألاباما وميسيسيبي وأركنساس، كان هناك المئات من الأشخاص الذين

تأثرت قضاياهم بالقرارات الأخيرة ولكن لم يتاح الكثير من المحامين لمساعدة هؤلاء الأحداث المدانين والمحكوم عليهم بالسجن مدى الحياة، وبالتالي انتهى بنا الأمر بتولي ما يقرب من مائة قضية جديدة بعد حظر المحكمة للسجن مدى الحياة بدون إفراج مشروط للأطفال المدانين بجرائم غير جرائم القتل، ثم عدنا لتولي مائة حالة جديدة بعد قرار حظر الحياة الإلزامية دون إطلاق سراح مشروط للأحداث بالإضافة إلى العشرات من الحالات الموجودة بالفعل في جدول الأحداث لدينا، مما أدى إلى غمرنا بسرعة بتلك الحالات.

كان ينبغي أن يكون الحظر التام على الأحكام بالسجن مدى الحياة بدون الإفراج المشروط عن الأطفال المدانين بارتكاب جرائم غير جرائم القتل هو أسهل قرار للتنفيذ، إلا أن تطبيق قرار المحكمة العليا كان أكثر صعوبة مما كنت أتمنى. كنت أقضي المزيد والمزيد من الوقت في لويزيانا وفلوريدا وفرجينيا التي كانت تشكل معًا تقريبًا ٩٠٪ من قضايا الجرائم غير جرم القتل و مما أثار استغرابنا أن المحاكم في كثير من الأحيان كانت تفكر بطريقة أقل إدراكًا للاختلافات بين الأطفال والكبار، مما اضطرنا في كثير من الأوقات للتخفيف من الجور الأساسي في معاملة الأطفال مثل الكبار في المحكمة العليا التي اعترفت بذلك بالفعل.

في بعض الحالات، قضى العملاء في السجن عقودًا دون توفر الكثير من أنظمة الدعم، هذا إن وجدت و لمساعدتهم على إعادة الدخول والاندماج في المجتمع، قررت إنشاء برنامج إعادة دخول لمساعدة هؤلاء العملاء، حيث قمنا بتطوير برنامج EJI خصيصًا، للأشخاص الذين قضوا الكثير من السنوات في السجن منذ أن حُكم عليهم عندما كانوا أطفالًا، في هذا البرنامج كنا ملتزمين بتقديم الخدمات والسكن والتدريب الوظيفي والمهارات الحياتية والاستشارة وأي شيء آخر يحتاجه الخارج من السجن لكي يكون إنسانًا ناجحًا، كما أخبرنا القضاة ومجالس الإفراج المشروط أننا ملتزمون بتقديم المساعدة المطلوبة لعملائنا، خاصة أولئك الذين يقعون في سجون لويزيانا مدى الحياة دون إطلاق سراح مشروط، واجهت جرائم غير القتل العديد من التحديات، تعهدنا بتمثيل ستين من أصحاب القضايا المؤهلين للتخفيف في لويزيانا، لقد كان جميعهم تقريبًا في أنغولا، التي تعتبر مكانًا صعبًا للغاية للقيام به في هذا الوقت، خاصة في السبعينيات والثمانينيات عندما وصل الكثيرون لأول مرة، حيث ساد العنف أنغولا وطغى وتجبر فيها، لسنوات عديدة لدرجة أنه كان من المستحيل تقريبًا ألا يعاقب أي من السجناء - بعقوبات إضافية أوبزيادة الوقت المستغرق لعقوبتهم - بسبب النزاعات مع سجين آخر أو مع أحد الموظفين، كما كان يُطلب من السجناء القيام بأعمال يدوية في بيئات عمل صعبة للغاية، أو يواجهون الحبس الانفرادي أو إجراءات تأديبية أخرى، كما كان من المألوف أن يصاب السجناء بجروح خطيرة كأن يفقدوا أصابعهم أو أطرافهم، بعد العمل لساعات طويلة في ظروف قاسية وخطيرة. لقد كانت أنغولا لسنوات عبارة عن مزرعة للعبيد قبل نهاية الحرب المدنية التي أجبرت النزلاء على العمل في الحقول لقطف القطن، أما السجناء الذين رفضوا، فقد تلقوا ملاحظات دخلت ملفاتهم، كما واجهوا أشهرًا من الحبس الانفرادي. إن ظروف الحبس الرهيبة وإخبار السجناء باستمرار بأنهم سيموتون في السجن بغض النظر عن ماهية تصرفاتهم يعني أن معظم عملائنا لديهم قوائم طويلة من الضوابط، التي كان محامو الدفاع يستخدمونها كحجج ضد

الأحكام الجديدة الإيجابية، في جلسات الاستماع التي كنا نستعد لها.

قام العديد من الأحداث بلفت النظر، فقد طوروا تاريخًا مؤسسيًا بارزًا في عدد قليل جدًا من التخصصات، خاصة أولئك الذين توفر لهم الوقت أو لم يكن لديهم أمل في إطلاق سراحهم أو مراجعة تاريخهم المؤسسي، فأصبح منهم الأمناء والموجهين والدعاة ضد العنف بين السجناء، كما أصبح البعض الآخر، أمناء للمكتبات القانونية وصحفيين وبستانيين. تطورت أنغولا بمرور الوقت إلى أن أصبح لديهم بعض البرامج الممتازة للسجناء الذين وقفوا بعيدًا عن المشاكل و قد استفاد العديد من عملائنا بشكل كامل من هذه التطورات.

قررنا إعطاء الأولوية لجلسات الاستماع في لوزيانا للأحداث القدامى الذين حكم عليهم بالسجن مدى الحياة وعاشوا هناك لعقود. كان جوشوا كارتر وروبرت كاستون على رأس القضايا التي قررنا التقاضي بشأنها. في عام ١٩٦٣، عندما كان في السادسة عشرة من عمره اتهم جوشوا كارتر بالاغتصاب في نيو أورليانز وسرعان ما صدر بحقه حكم الإعدام. الطفل الأسود المدان الذي ينتظر الإعدام، لم يكن لديه سبب كاف ليأمل في تخفيف الحكم أو الإفراج في تلك الأيام، ومن أجل إكراهه على الاعتراف، قام ضباط الشرطة بضرب جوشوا بوحشية لدرجة أنه في عام ١٩٦٥ شعرت المحكمة العليا في لوزيانا بالحاجة إلى إلغاء إدانته، ولكن حكم على السيد كارتر بالسجن مدى الحياة دون إفراج مشروط وأرسل إلى أنغولا. بعد أن عانى لسنوات، وهناك أصبح سجينًا نموذجيًا وأمينًا ولكن في التسعينيات، تطور لديه مرض الجلوكوما ولم يحصل على الرعاية الطبية التي يحتاجها، وسرعان ما فقد بصره في كلتا العينين. حاولنا إقناع المدعي العام في نيو أورليانز أن السيد كارتر أعمى وفي الستينيات من عمره، و أنه يجب أن يفرج عنه بعد أن قضى ما يقرب من خمسين سنة في السجن.

كان روبرت كاستون في أنغولا منذ ٤٥ سنة، حيث فقد عدة أصابع في مصنع السجن وهو الآن معاق نتيجة العمل القسري في أنغولا. لقد سافرت ذهابًا وإيابًا بين المحاكم في أبرشية أورليانز، في قضيتي كارتر وكاستون. محكمة أبرشية أورليانز هي مبنى ضخم بهندسة معمارية مرعبة، حيث توجد العديد من قاعات المحاكم المحاذية لرواق ضخم بأرضيات رخامية كبيرة وأسقف عالية، إن المئات من الناس يحتشدون في الممرات المزدهمة بين قاعات المحكمة المختلفة كل يوم، ورغم اتساع المحاكم إلا أنه لا يتم تحديد مواعيد موثوقة لجلسات الاستماع في كثير من الأحيان، فكثيرا ما حددت مواعيد وأوقات لاستئناف الحكم في قضيتي كارتر وكاستون، لكن على ما يبدو أن هذا لا يعني شيء لأي شخص. كنت دائمًا ما أصل إلى المحكمة، لأجد مجموعة من القضايا وتجمع للعملاء مع المحامين في قاعة المحكمة المكتظة، حيث ينتظر الجميع أن يجدوا من يستمع إليهم في جلسات الاستماع. حاول القضاة إدارة الإجراءات باجتماعات مع هيئة المحكمة، بينما جلس عشرات الشباب - معظمهم من السود - مكبلو الأيدي في ملابس السجن البرتقالية أمام المحكمة، وفي جانب آخر يتشاور المحامون مع العملاء وأفراد الأسرة المنتشرين حول قاعة المحكمة الفوضوية.

لم نتمكن من الحصول على حكم جديد للسيد كارتر أو السيد كاستون، حتى بعد ثلاث رحلات إلى نيو أورلينز لإصدار الحكم، لقد حرصنا على الالتقاء بمحامي المقاطعة، وقدمنا أوراقًا إلى القاضي

واستشرنا مجموعة متنوعة من المسؤولين المحليين في محاولة للحصول على حكم دستوري جديد مقبول، حيث كنا نعتقد أنه يكفي تلك السنوات التي تقرب من الخمسين عامًا التي قضاها كل من السيد كارتر والسيد كاستون في السجن، لذلك كان يجب إطلاق سراحهما على الفور.

قبل أسبوعين من عيد الميلاد، عدت إلى المحكمة للمرة الرابعة في محاولة الفوز بالإفراج عن الرجلين، لقد وجدنا هذه المرة أن القضاة وقاعات المحاكمة مختلفة، لكننا شعرنا أنه إذا فزنا بالإفراج عن أحدهما، فقد يصبح من الأسهل الفوز بالإفراج عن الآخر، لقد كنا نعمل في مشروع قضاء الأحداث في لويديانا، ووافقت محاميتهم كارول كولينتسك على أن تكون مستشارتنا المحلية في جميع قضايا لويديانا. في هذه الجلسة الرابعة، كنت أنا وكارول مشغولان في محاولة معالجة الأوراق وحل القضايا اللانهائية التي ظهرت لإبقاء السيد كارتر والسيد كاستون في السجن.

كان للسيد كارتر عائلة كبيرة حافظت على علاقة وثيقة معه على الرغم من مرور كل هذه السنوات، لكن في أعقاب إعصار كاترينا، فر العديد من أفراد الأسرة من نيو أورليانز وأصبحوا يعيشون الآن على بعد مئات الأميال. ولكن عشرة أفراد من الأسرة أو نحو ذلك يظهرون بشكل دائم في كل جلسة، مع أن البعض يأتي من بعيد بعيد جدًا مثل كاليفورنيا. كانت والدته السيدة كارتر تبلغ من العمر ما يقرب من مائة عام و قد تعهدت للسيد كارتر لعقود أنها لن تموت حتى يخرج من السجن.

أخيرًا، أصبحنا قاب قوسين أو أدنى من النجاح، فقد توصلنا إلى حل الأمور حتى تتمكن المحكمة من النظر في اقتراحنا و استئنافنا المقدم باسم السيد كاستون حتى يتم إطلاق سراحه على الفور من السجن.

في العادة لا تحضر الدولة النزلاء من أنغولا إلى نيو أورلينز لحضور جلسات الاستماع ولكن بدلاً من ذلك تجعلهم يشاهدون الإجراءات على شريط فيديو في السجن، في ذلك اليوم بعد أن قدمت حججنا في قاعة محكمة صاخبة و محمومة نظر القاضي اقتراحنا، حيث تلا الحقائق حول تاريخ إدانة السيد كاستون، وعندها حدث ما لم يكن في الحسبان، فبينما كانت القاضي تتحدث عن عقود السيد كاستون التي ضاعت من عمره في السجن غرقت قاعة المحكمة، لأول مرة من زيارتي المتعددة إليها، في صمت مطبق، حيث توقف المحامون عن التشاور وانتبه المدعون في قضايا أخرى وتوقف أفراد الأسر عن ثرثرتهم، حتى السجناء المقيدون الذين ينتظرون قضاياهم توقفوا عن الكلام وكانوا يستمعون باهتمام. قامت القاضي بتفصيل السنوات الخمس والأربعين التي قضاها السيد كاستون في أنغولا فيما يتعلق بارتكابه جريمة غير جرائم القتل عندما كان في السادسة عشرة من عمره. وأشارت إلى أنه تم إرسال كاستون إلى أنغولا في الستينيات. أخيرًا أصدرت القاضي حكماً جديداً ينص على إطلاق سراح السيد كاستون من السجن على الفور.

نظرت إلى كارول وابتسمت ثم فعل الناس في قاعة المحكمة الصامتة شيئاً لم أراه من قبل؛ لقد انفجر الجميع بالتصفيق الحاد الذي زلزل قاعة المحكمة؛ محامو الدفاع والمدعون وأفراد الأسر ونواب العمدة، حتى السجناء صفقوا في أصفادهم. لقد كانت كارول تمسح الدموع من عينيها حتى القاضي، التي لاتسمح مع أي إزعاج في العادة، يبدو أنها تستسلم لتعائق اللحظة الدرامية، كان من

بين الحضور عدد من طلابي السابقين الذين يعملون الآن مع مكتب الدفاع العام في نيو أورليانز و قد أخذوا يهتفون من شدة الحماس. اضطررت للتحدث مع السيد كاستون عبر الهاتف وشرحت له ما حدث، لأنه لن يتمكن من رؤية كل شيء من خلال الفيديو. لقد كان في غاية السعادة، فهو أول شخص يُفرج عنه نتيجة لحظر المحكمة العليا لعقوبة السجن حتى الموت على الأحداث المحكومون بالسجن المؤبد.

ذهبنا إلى القاعة أخرى من قاعات المحكمة للترافع في قضية السيد كارتر وكان النجاح، ينتظرنا في هذه القاعة أيضًا، فقد فزنا بمحاكمة جديدة مما يعني أنه سيطلق سراح السيد كارتر هو الآخر على الفور، لقد كانت عائلة السيد كارتر مبهجة. فقامو بعناقنا ووعدونا أنا وموظفي EJI بوجبات الطعام المطبوخة في المنزل، ثم انشغلنا أنا وكارول بعمل الترتيبات اللازمة لإطلاق سراح السيد كاستون والسيد كارتر، والتي ستجري في ذلك المساء وقد كان البروتوكول في أنغولا هو إطلاق سراح السجناء في منتصف الليل ومنحهم أجرة الحافلة إلى نيو أورليانز أو المدينة التي يختارونها في لويزيانا، لكننا أرسلنا موظفينا إلى أنغولا، التي كانت على بعد عدة ساعات، لمقابلة الرجال عندما يطلق سراحهم، مما جنبهم رحلة الحافلة في منتصف الليل. بعد أن خارت قواي واستنفدت طاقتي تمامًا، تحولت في قاعات المحكمة بينما كنا ننتظر إرسال قطعة أخرى من الورق بالفاكس والموافقة عليها، لتمهيد الطريق لإطلاق سراح السيد كاستون والسيد كارتر، وهناك وجدت امرأة سوداء كبيرة في السن تجلس على الدرج الرخامي في مدخل قاعة المحكمة الضخمة و بدت متعبة وارتدت ما كنت أنا وأختي نسميه قبعة اجتماع الكنيسة.

كان لديها بشرة داكنة ناعمة، وقد تعرفت عليها كشخص يجلس في قاعة المحكمة عند استئناف السيد كارتر. حقيقة، ظننت أنني رأيته في كل مرة أتيت فيها إلى المحكمة في نيو أورليانز لذلك افترضت أنها كانت عل صلة أو مرتبطة بأحد العملاء، على الرغم من أن ذكرها لم يذكرني بأفراد العائلة الآخرين على الإطلاق، لا بد أنني كنت أصدق لأنها رأيتني أنظر إليها ولوحت لي، كي آتي إليها و قد ابتسمت عندما سرت إليها وقالت: «أنا متعبة ولا أستطيع النهوض، لذا عليك أن تتحني إلي وتكفي علي لأعانقك، كان لديها صوت ذو طقطقة جميلة.

ابتسمت لها بدوري و قلت: «حسنًا، نعم سيدتي. أنا أحب العناق، شكرًا لك. »

فلفت ذراعيها حول رقبتني.

وقالت: «اجلس، اجلس أريد أن أتحدث إليك». جلست بجانبها على الدرجات وسألتها: «لقد رأيته هنا عدة مرات، هل أنت من أقارب السيد كاستون أم السيد كارتر؟».

فقلت: «لا، لا، لا، لست مرتبطة بأحد هنا، ليس هذا على حد علمي، على أي حال». كان لديها ابتسامة لطيفة، ونظرت إلي بشدة.

و قالت: «أنا آتي هنا لمساعد الناس فقط، فهذا المكان مليء بالألم، لذلك يحتاج الناس هنا إلى الكثير من المساعدة».

قلت لها: «حسنًا، هذا لطيف منك حقًا».

قالت: «لا هذا ما يفترض بي فعله، لذلك أقوم به». نظرت بعيدًا قبل أن تغلق عينيها مرة أخرى، ثم تقول: «لقد قتل حفيدي البالغ من العمر ستة عشر عامًا قبل خمسة عشر عامًا، لقد أحببت هذا الصبي أكثر من الحياة نفسها».

لم أكن أتوقع هذا الرد فتيقظت على الفور. أمسكت المرأة بيدي وقالت:

«لقد حزنت وحزنت وحزنت، وسألت الرب لماذا ترك شخص آخر يأخذ طفلي من هكذا، لقد قتل من قبل بعض الصبية الآخرين، لقد أتيت إلى هذه القاعة للمرة الأولى لحضور محاكمتهم وجلست هناك وبكيت كل يوم لمدة أسبوعين تقريبًا. لكن لا شيء من هذا له أي معنى، ثم أدين هؤلاء الأولاد بقتل حفيدي، وأرسلهم القاضي إلى السجن المؤبد، كنت اعتقد أن هذا سيجعلني أشعر بتحسن لكنه جعلني أشعر بالسوء».

وتابعت: «جلست في قاعة المحكمة بعد الحكم عليهم، وبكيت وبكيت، حتى جاءت إليّ سيدة وحضنتني وسمحت لي أن أتكى عليها. سألتني إذا كان الأولاد الذين حكم عليهم أطفالي وقلت لها لا. أخبرتها أن الصبي الذي قتلوه هو طفلي، فترددت، أعتقد أنها جلست معي لمدة ساعتين تقريبًا ولأكثر من ساعة، لم تقل أي منا كلمة».

لقد شعرت بالارتياح في النهاية لوجود شخص ما، يمكنني الاعتماد عليه في تلك المحاكمة ولقد فعلت ذلك ولم أنسى تلك المرأة و لا أعرف من هي، لكنها صنعت فرقًا».

غمغمت: «أنا آسف جدا لحفيديك»، كان هذا كل ما استطعت قوله فتابعت: «حسنًا، أنت لا تتعافى تمامًا أبدًا، لكنك تستمر و تستمر، في البداية لم أكن أعرف ماذا أفعل بنفسي بعد تلك المحاكمات لكن بعد حوالي عام بدأت النزول هنا، لا اعرف لماذا حقًا. أعتقد أنني فقط شعرت أنه ربما يمكنني أن أكون شخصًا يمكن الاعتماد عليه».

لقد قامت بلف ذراعها مع ذراعي فابتسمت لها وقلت:

«هذا رائع حقًا».

قالت: «لقد كانت رائعة. ما أسمك مرة أخرى؟»

قلت: «إنه بريان».

قالت: «لقد كان رائعًا، يا بريان. عندما جئت لأول مرة، كنت أبحث عن الأشخاص الذين فقدوا شخصًا ما بسبب القتل أو بعض الجرائم العنيفة. ثم وصلت إلى النقطة التي أدركت فيها أن أكثر الناس حزنًا هم أولئك الذين كان أطفالهم أو آبائهم قيد المحاكمة، لذلك بدأت للتو في السماح لأي شخص يحتاجني بالالتكاء علي. كل هؤلاء الأطفال الصغار الذين أرسلوا إلى السجن المؤبد، كل هذا الحزن والعنف إن هؤلاء القضاة يرمون الناس وكأنهم قطط و ليسو بشر، إن الناس يطلقون النار على بعضهم البعض، ويؤذون بعضهم البعض وكأنهم لا يهتمون. لا أعلم، لكن هذا الألم كثير، لذلك

قررت أنه من المفترض أن أكون هنا، علي ألتقط بعض الحجارة التي يلقيها الناس على بعضهم البعض».

ضحكت عندما قالت ذلك و تذكرت ماحدث خلال جلسات مكملان المحلية حيث عقد الوزير اجتماع الكنيسة الإقليمية حول القضية و طلب مني الحضور وقد كان هناك عدد قليل من الأمريكيين الأفارقة، الذين كانوا يدعمون والتر بصوت خافت ليس لأنهم ظنوا أنه مذنب ولكن لأن لديه علاقة خارج نطاق الزواج ولم يكن نشطاً في الكنيسة. لقد كان معظم حديثي في هذا الاجتماع عن قضية والتر، لكنني أيضاً ذكرت الناس بما حصل عند إحضار امرأة متهمة بالزنا إلى المسيح، حيث قال لأولئك الذين اتهموها و أرادوا رجمها حتى الموت: «دع من ليس لديه خطيئة يلقي الحجر الأول». فراجع متهمو المرأة وغفر لها المسيح وحثها على ألا تخطئ مرة أخرى. لكن اليوم، استقامتنا وخوفنا وغضبنا دفعنا حتى المسيحيين منا إلى رشق أولئك الذين سقطوا بالحجارة، حتى عندما نعرف أننا يجب أن نغفر أو نظهر الرحمة، عندها أخبرت الجماعة أننا لا نستطيع ببساطة مشاهدة ذلك يحدث. أخبرتهم أنه يجب علينا أن نقبض على الحجارة.

عندما ضحكت على استعانة المسنة بالمثل، ضحكت أيضاً وقالت:

«سمعتك في قاعة المحكمة اليوم و لقد رأيتك هنا عدة مرات من قبل، لذا أنا أعلم أنك قابض على الحجر أيضاً».

ضحكت أكثر وقلت: «حسناً، أعتقد أنني أحاول أن أكون».

أمسكت بيدي وفركت كفي وقالت:

«حسناً، يؤلمني التقاط كل الحجارة التي يرميها الناس». واصلت تمسيد يدي، وأنا لا يمكنني التفكير في أي شيء لأقوله. شعرت بارتياح غير عادي مع هذه المرأة .

سيستغرق مني الأمر ما يقرب من خمس ساعات للعودة إلى مونتغمري بمجرد تسوية الأمور للسيد كاستون والسيد كارتر. كنت بحاجة إلى الاستمرار في التحرك، لكنني شعرت بروعة الجلوس هنا مع هذه المرأة التي تقوم بتدليك راحتي بطريقة جميلة للغاية و في نفس الوقت غريبة أيضاً و سألتها وأنا أحاول الابتسام:

«هل تحاولين أن تجعليني أبكي؟»

لكنها وضعت ذراعها حولي وابتسمت وقالت:

«لا، لقد قمت بعمل جيد اليوم. كنت سعيدة جداً عندما قال القاضي أن هذا الرجل ذاهب إلى المنزل لقد شعرت بقشعريرة، يا إلهي خمسون سنة في السجن، دون أن يتمكن من الرؤية حتى، كنت ممتنة عندما سمعت ذلك. ليس لديك شيء تبكي عليه، لكنني سأدعك تتكئ علي قليلاً لأنني أعرف بعض الأشياء عن الحجارة».

ضغطت علي قليلاً ثم قالت: «الآن ،حافظ على هذا و سينتهي بك الأمر بغناء بعض الأغاني

الحزينة، صدقني لا توجد طريقة لمعرفة ما نقوم به ولن نتعلم كيف نقدر أغنية الحزن الجيدة. لقد غنيت أغاني حزينة طوال حياتي، كان يجب ان تعلم أنه عندما تقبض على الحجارة، حتى الأغاني السعيدة يمكن أن تجعلك حزيناً « توقفت وصمتت، ثم سمعت ضحكتها قبل أن تستمر: «لكنك تستمر في الغناء. أغانيك ستجعلك قويا. حتى أنها قد تجعلك سعيداً».

حاصر الناس الممرات المزدحمة في المحكمة بينما جلسنا بصمت.

قلتُ أخيراً: «حسناً، أنت جيدة جداً في ما تفعلينه أشعر أنني أفضل بكثير».

صفعت ذراعي بشكل هزلي و قالت: «أوه، لا تحاول أن تسحرني أيها الشاب. فأنت تشعر أنك بخير قبل أن تراني، إنهم يذهبون إلى المنزل وأنت بخير و تتجول هنا. أفعل فقط ما تفعله، لا شيء آخر».

عندها استأذنت لنفسي أخيراً و قبلتها على الخد وأخبرتها أنني بحاجة للتوقيع على أوراق الإفراج عن السجناء و توقفت فقالت: «اه انتظر». حفرت حقيبتها حتى وجدت قطعة حلوى النعناع ملفوفة و قالت:

«خذ هذا».

لقد جعلتني هذه البادرة سعيد بطريقة لا أستطيع أن أصفها حقاً.

«حسناً شكراً لك». ابتسمت وانحنيت لأقبلها مرة أخرى على خدها .

فلوحت لي، مبتسمة وقالت: «هيا، هيا».

الخاتمة

توفي والتر في ١١ سبتمبر ٢٠١٣ ولم يستطع تشويشه المتزايد، بسبب الخرف المتقدم، التقليل من سحره ولطفه اللذين استمررا معه حتى النهاية.

كان يعيش مع شقيقته كاتي، ولكن في العامين الأخيرين من حياته توقف عن الاستمتاع بالهواء الطلق، كما فقد القدرة على التجول دون مساعدة، ذات صباح سقط و كسر وركه، شعر الأطباء أن إجراء العملية غير مجدٍ، لذلك أعادوه إلى المنزل مع القليل من الأمل في الشفاء، وقال لي الأخصائي الاجتماعي بالمستشفى إنهم سوف يرتبون أمور الرعاية المنزلية له من خلال رعاية العجزة، وعلى الرغم من أن هذا الوضع زرع الحزن في أعماقنا وكسر قلوبنا، لكنه أفضل بكثير مما كان يخشى عندما كان في وحدة تنفيذ الإعدام في ألاباما، كما أنه فقد الكثير من وزنه وأصبح أقل تجاوبًا مع الزوار بعد عودته إلى المنزل من المستشفى. وبعد ذلك بوقت قليل وفي هدوء الليل رحل والتر عن عالمنا، وترك هذا العالم الصاخب بصمت بعد كل ما عاناه فيه ومنه.

أتمنا مراسم جنازة والتر في الكنيسة، التي تحدثت فيها قبل أكثر من عشرين سنة إلى الجماعة حول القبض على الأحجار، كم كانت غريبة عودتي إلى هناك في ذلك السبت الممطر، لكن عدد الناس في هذا اليوم يفوق عدد الذين كانوا فيها في ذلك اليوم من عشرين سنة بأضعاف أضعافهم، فقد اكتظت الكنيسة بالعشرات من الناس غير العشرات الواقفين في الخارج، الذين كان أغلبهم من الفقراء السود الذين جمعتهم معاناة ليست مؤلمة ولكنها ملأت الفضاء بحزن يكفي جنازات أخرى، ومما زاد من مأساوية الأمر، ذلك الألم الذي لامعني له والعذاب الذي لم يكن له داع الذي سبقه. غالبًا ما شعرت بهذا الشعور عندما كنت أعمل على قضية والتر، أنه إذا ما جمعت معاناة جميع الأرواح المجهدة لكل الأشخاص المضطهدين في جميع الأماكن المهددة في مونرو في وعاء، فإن النتيجة ستكون شيئًا استثنائيًا، يعمل كشيء مذهل أو كوقود بديل قادر على إشعال أي إنجاز يختبئ تحت جليد المستحيل.

وضعت الأسرة شاشة تلفزيون كبيرة بالقرب من النعش تومض بالعشرات من صور والتر قبل الخدمة، التقطت جميع الصور تقريبًا في يوم الإفراج عنه من السجن، لقد وقفنا أنا والتر بجانب بعضنا البعض في العديد من الصور، وقد تقاجأت بمدى سعادتنا، ثم جلست في الكنيسة وشاهدت الصور مع عدم تصديقي لكيفية مرور الوقت و سؤال نفسي متى مرت كل هذه الأيام دون أن نشعر بها؟ كيف سرقت تلك الأيام من عمرنا دون أن ندري؟ عندما كان والتر في وحدة الإعدام، أخبرني ذات مرة عن مدى سوء حالته عند إعدام أحد الرجال في السجن وقال لي: «عندما يقومون بتشغيل الكرسي الكهربائي فإننا نشعر أن حرق هذا الجسد يحرق قلوبنا قبل جلودنا بشرر الكهرباء الذي يحرقه ونختنق من الدخان الذي يخرج من رأسه و للإحتجاج على ذلك كنا جميعًا ندق على القضبان، لنفزع أنفسنا أننا نفعل شيء فنشعر بتحسن ولكن في الحقيقة كان هذا يشعرنني بالغثيان و الأصعب أنني كنت أتخطب أكثر، فلم أستطع تحمل أي من هذا».

ثم سألني: «هل فكرت في الموت؟»

لم يكن عادي أن يطرح شخص مثل والتر هذا السؤال، ثم أكمل: «لم أفعل ذلك من قبل، ولكن الآن أفكر في ذلك طوال الوقت» يبدأ مضطرباً. «هنا، نوع مختلف من الحالات، إن الرجال في السجن يتحدثون عما سيفعلونه قبل إعدامهم، وكيف سيفعلون هذا الأمر. كنت أعتقد أنه من الجنون التحدث بهذه الطريقة، ولكن الآن على ما يبدو أنني بدأت في القيام بذلك أيضاً». لم أكن مرتاحاً للمحادثة و قلت له: «حسناً، يجب أن تفكر في الحياة، يا رجل - ما الذي ستفعله عندما تخرج من هنا».

قال: «أوه، أنا أفعل ذلك أيضاً، أفعل ذلك كثيراً، لكن من الصعب رؤية الناس ينزلون إلى تلك القاعة ليقتلوا. هنا تضع المحكمة مواعيد الموت لبعض السجناء في التوقيت غير الصحيح و من المفترض أن الله وحده هو من يحدد مواعيد موت الناس».

قبل بدء الطقوس، فكرت في كل الوقت الذي قضيته مع والتر بعد خروجه، ثم غنت الجوقة وألقى الواعظ خطبة مثيرة، حيث تحدث عن عما حصل مع والتر وكيف سرقة التعصب وأخذته الأكاذيب من عائلته في أوج حياته، ثم جاء دوري لألقي كلمة فقلت لجماعة والتر:

«لقد كان والتر أخاً لي، كم كان شجاعاً ليعهد بحياته لشخص كان صغيراً كما كنت في ذلك الوقت، إننا جميعاً ندين بشيء لوالتر لأنه لم يستسلم يوماً رغم كل ما فعلوه به من تهديد وترهيب واتهام وإدانة باطلة مع ذلك نجا من إذلال محاكمته والاتهامات الموجهة له، نجا من حكم الإدانة وحكم الإعدام والإدانة الخاطئة لدولة بأكملها. لكنه لم ينج بدون إصابة أو صدمة، إلا أنه خرج بكرامة».

أخبرت الناس كيف استطاع والتر التغلب على ما فعله به الخوف والجهل والتعصب وكم كان وقوفه في وجه الظلم قوياً، وكيف لشهادته أن تجعل البقية منا يعيشون بأمان وحماية، من إساءة استخدام السلطة والاتهامات الباطلة التي كادت أن تقتله. لقد اقترحت لأصدقائه وعائلته أن قوة والتر والمقاومة والمثابرة كانت، انتصاراً يستحق الاحتفال به كما أنه إنجاز يجب تذكره.

شعرت بالحاجة إلى أن أشرح للناس ما علمني والتر:

«جعلني والتر أفهم لماذا يتعين علينا إصلاح نظام العدالة الجنائية الذي لا يزال يعمي عينيه عن جرائم الأثرياء وهم مذنبون، ويبحث بالمجهر وراء الفقراء حتى لو كانوا أبرياء. نظام يرفض تقديم المساعدة القانونية للفقراء عندما يحتاجونها، فهذا النظام الذي يتعامل في الجرائم والحقوق والعقاب والبراءة على أساس من ارتكب الذنب وليس على أساس الذنب نفسه فالثري بريء حتى لو كان من أعتى المجرمين والفقير مجرم حتى لو كان بريء براءة الذنب من دم يوسف، يجب أن تتغير.

علمتني حالة والتر أن الخوف والغضب يشكلان تهديداً للعدالة؛ فبإمكانهما أن يصيبا مجتمعا أو دولة أو أمة، كما بإمكانهما جعل العدالة عمياء وبكماء وصماء ومتهورة وخطيرة، لقد جعلني والتر أفكر، كيف للسجن الجماعي أن يفسد المشهد الوطني، بآثار جشع العقاب المتهور والمفرط والمجتمعات المدمرة برغبتنا اليائسة في إدانة وتجاهل أكثر الفئات ضعفاً بيننا، كما أخبرتهم أن قضية والتر علمتني أن عقوبة الإعدام لا تتعلق بما إذا كان الناس يستحقون الموت بسبب الجرائم

التي يرتكبونها، بل السؤال الحقيقي لعقوبة الإعدام في هذا البلد هو، هل نستحق القتل؟

أخيراً والأهم من ذلك، أخبرت أولئك المجتمعين في الكنيسة أن والتر علمني أن الرحمة لا تعتبر رحمة إلا إذا كانت متأصلة في الأمل وتعطى بحرية. الرحمة تكون الأكثر تمكيناً وتحريراً وتأثيراً عندما توجه نحو المستحقين، أما الأشخاص الذين لم يكسبوها ولم يسعوا إليها هم المتلقون الأكثر تعاطفاً معنا. لقد غفر والتر بصدق للأشخاص الذين اتهموه تلك الاتهامات الظالمة والأشخاص الذين أدانوه وأولئك الذين حكموا عليه بأنه لا يستحق الرحمة. وفي النهاية كانت الرحمة تجاه الآخرين هي التي سمحت له باستعادة حياة تستحق الاحتفال، حياة أعادت اكتشاف الحب والحرية التي يريدها جميع البشر، حياة تغلبت على الموت والإدانة حتى حان الوقت الذي كتبه الله للموت.

لم أبق طويلاً بعد انتهاء الطقوس، فقد خرجت ونظرت إلى الطريق وفكرت في حقيقة عدم مقاضاة أي شخص بتهمة قتل روندا موريسون بعد إطلاق سراح والتر. فكرت في الكرب الذي يعيشه والديها.

جاء إلي الكثير من الأشخاص الذين يحتاجون المساعدة القانونية في شتى أنواع القضايا ولأنني لم أحضر بطاقات العمل، فقد كتبت رقم هاتفي لكل الأشخاص الذين احتاجوا للمساعدة وشجعتهم على الاتصال بي في مكنتي، في مقر المركز. لم يكن بأيدينا حيلة تمكننا من عمل الكثير للعديد من الناس الذين يحتاجون إلى المساعدة، لكن هذا جعل الرحلة إلى المنزل أقل حزناً، على أمل أننا ربما نستطيع.

الحاشية

في صباح يوم جمعة دافئ، خرجت من سجن برمنغهام مع رجل بريء حُكم عليه بالإعدام في ألاباما منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا، أي من قبل دخول والتر إلى السجن، حيث قضى أنتوني راي هينتون ثلاثة عقود في سجن هولمان في الحبس الانفرادي في زنزانة مقاسها ٥ × ٧ أسفل القاعة التي شهدت إعدام أكثر من خمسين شخصًا مُدانًا خلال فترة سجن السيد هينتون، في زمن الكرسي الكهربائي حيث كثيرًا ما اشتكى من اشتداد رائحة الجلد المحترق أثناء إعدام بعد منتصف الليل، لقد قدمنا نتائج الاختبار التي أكدت براءته في عام ٢٠٠٠، وعندها توصلت إلى المدعين العامين لإعادة اختبار الأدلة، لكنهم استمروا في الرفض لمدة خمسة عشر عامًا، وقد استمرت الدولة في محاولتها إعدام السيد هينتون حتى ربنا حكمًا في المحكمة العليا للولايات المتحدة عام ٢٠١٥ الذي تطلب من المدعين العامين إعادة النظر في الأدلة وقد أكدت الأدلة براءته وأصبح السيد هينتون الشخص رقم ١٥٢ الذي شهدت محاكم أمريكا براءته وقد أثبتت براءته بعد إدانته الخاطئة والحكم عليه بالإعدام.

في أعقاب قرار المحكمة العليا لعام ٢٠١٠ الذي يحظر السجن مدى الحياة بدون إطلاق سراح مشروط على الأطفال المدانين بجرائم غير جرائم القتل، استاء مئات الأطفال المحكوم عليهم بالموت في السجن و قد أطلق سراح العشرات منهم بالفعل. أكثر من اثني عشر من عملائنا في لويزيانا الذين حُكم عليهم كأحداث بالموت في السجن ينعمون الآن بدفء منازلهم، أما إيان مانويل وأنطونيو نونيز فقد أصبح هناك فرصة للإفراج عنهما. منح جو سوليفان الإفراج بتاريخ يونيو ٢٠١٤ والذي قام مسؤولو فلوريدا بتغييره قبل عشرين يومًا من عودته المقررة إلى المنزل، فقد أضاف مسؤولو الولاية خمس سنوات أخرى إلى عقوبة جو لأنهم زعموا أنهم أخطأوا في حساب وقته و مازلنا نواصل القتال من أجل إطلاق سراحه على الفور كما نتابع العفو عن ترينا غارنيت، التي تقضي عقوبة السجن مدى الحياة في ولاية بنسلفانيا، وهي ولاية لا تعترف بحقها في الإفراج على الرغم من حكم المحكمة العليا، لكنها لا تزال ذات روح قوية؛ ففي عام ٢٠١٤، ظهرت ترينا غارنيت في فيديو موسيقي قوي مسجل في سجن ولاية مونسى حيث غنت مع مجموعة من النساء الأخريات اللواتي يقضين أحكامًا بالسجن مدى الحياة. أغنية بعنوان «هذا ليس منزلي».

تشارلي ومارشا كولبي في المنزل وهما على ما يرام. هنري لم يعد في وحدة تنفيذ الإعدام في جورجيا.

ما زلت أقابل القابضين على الحجارة على طول الطريق وهم الذين يلهمونني ويجعلوني أؤمن بأننا نستطيع أن نفعل أفضل مما فعلناه للمتهمين والمدانين بيننا -وكذلك أولئك الذين يقعون ضحية للجريمة والعنف- كما يمكننا جميعًا القيام بعمل أفضل لبعضنا البعض. ويستمر العمل.

شكر وتقدير

أريد أن أشكر مئات المتهمين والمدانين والسجناء من الرجال والنساء والأطفال الذين عملت

معهم والذين علموني الكثير عن الأمل والعدالة والرحمة، كما أنني أقدر بشكل خاص وأشعر بالتواضع أمام كل الأشخاص الذين ذكروا في هذا الكتاب، سواء من الضحايا والناجين من العنف ومحترفي العدالة الجنائية، وأولئك الذين حُصروا بمساحات مؤلمة بشكل لا يمكن تصوره، ومع ذلك أظهرُوا شجاعة وشعورًا هائلًا بالنعمة.

جميع أسماء الأشخاص الذين ظهرُوا في هذه الصفحات حقيقية، باستثناء عدد قليل فقط ممن يحتاجون إلى حماية خصوصيتهم وأمنهم. أنا ممتن للغاية لكريس جاكسون، محرري الاستثنائي؛ لتوجيهه المدروس ومساعدته اللطيفة. أشعر بأنني محظوظ جدًا لأنني عملت مع محرر باعتباره ثاقبًا وسخيًا. كما أنني ممتن للغاية لسنيدي سبيغل وجولي جرو اللتين ألهمتاني بدعمهما والتعليقات الهائلة حقًا بطرق لم أتخيلها أبدًا، كما كان من دواعي سروري الكبير في هذا المشروع امتياز العمل والتعلم من جميع أصدقائي الجدد في جرو وسبيغل ورائدوم هاوس، الذين استمروا في تشجيعي لآخر لحظة، كما أود أيضًا أن أشكر شارون شتاينرمان في كلية الحقوق بجامعة نيويورك على مساعدتها البحثية الممتازة لهذا المشروع.

لم يكن لكل هذا العمل أن ينجز على أكمل وجه دون مساعدة الموظفين المتميزين في مبادرة العدالة المتساوية، حيث يساهم كل منهم بلا خوف في محاولة تحقيق العدالة كل يوم مع ما يكفي من الأمل والتواضع الذي يجعلني أعتقد أنه يمكننا القيام بما علينا القيام به.

أود أن أشكر بشكل خاص آرين أوريل ورائد ساسكيند على التعليقات والتحرير. بالإضافة إلى ذلك، أنا ممتن لإيفا أنسلي وإيفان بارزيتش للمساعدة البحثية.

أخيرًا، لا أملك ما يكفي من الكلمات للتعبير عن تقديري وامتناني لدوغ أبرامز، الوكيل غير العادي، الذي أقنعني بالمضي قدمًا في هذا المشروع، والذي بدون توجيهه وتشجيعه لي والصدقة الثمينة، لم يكن هذا الكتاب ليرى النور.

ملاحظات المؤلف

مع أكثر من مليوني شخص مسجون في الولايات المتحدة، يوجد ستة ملايين شخص إضافي تحت المراقبة أو الإفراج المشروط، ويقدر أن ثمانية وستين مليون أمريكي لديهم سجلات إجرامية.

أمامك فرص لا حصر لها للقيام بشيء ما بشأن سياسة العدالة الجنائية أو مساعدة المحبوسين أو المحبوسين سابقاً. إذا كان لديك اهتمام بالعمل مع برامج المتطوعين أو البرامج التي تخدم المسجونين، أو اهتمام بالمنظمات التي تقدم المساعدة على إعادة دخول المحبوسين سابقاً ودمجهم في المجتمع أو المنظمات حول الكرة الأرضية التي تسعى إلى إصلاح سياسة العدالة الجنائية، يرجى الاتصال بنا على مبادرة العدالة المتساوية في مونتغمري، ألاباما. يمكنك زيارة موقعنا الإلكتروني: contact_us@ejj.org أو مراسلتنا عبر البريد الإلكتروني: www.ejj.org.

الملاحظات

المقدمة

ولد واحد من كل خمسة عشر شخصاً . . . المتحدة، 1974-، «انتشار السجن في الولايات Thomas P. Bonczar 2001www.bjs.gov/index.cfm?ty=pbdetail&iid=836»، مكتب إحصاءات العدل (أغسطس 2003)، متاح على وصلنا إليه في 29 أبريل 2014.

واحد من كل ثلاثة أطفال ذكور أسود. . . Bonczar، «انتشار السجن» ؛ «تقرير مشروع الحكم إلى الأمم المتحدة لحقوق الإنسان لجنة بشأن التفاوت العنصري في العدالة الجنائية للولايات المتحدة النظام، «مشروع الحكم (أغسطس 2013)، متاح على:

http://sentencingproject.org/doc/publications/rd_ICCPR%20Race%20and%20Justice%20Shadow%20Report.pdf
وصلنا إليه في 29 أبريل 2014.

لا يوجد حد أدنى لسن بعض الدول. . . في ثلاث وعشرين دولة، لا يوجد حد أدنى للسن الذي يمكن محاكمة الأطفال فيه كبالغين في بعض الظروف على الأقل. هوارد ن. سنايدر وميليسا سيكموند، «الأحداث الجانحون والضحايا: التقرير الوطني لعام 2006»، المركز الوطني لقضاء الأحداث (مارس 0620) ، متاح على

www.ojjdp.gov/ojstatbb/nr2006/downloads/NR2006.pdf
تم الوصول إليه في 29 أبريل 2014.

هناك أكثر من نصف مليون شخص. . . «صحيفة وقائع: الاتجاهات في الولايات المتحدة تصحيحات، «مشروع الحكم (مايو 2012)، متاح على www.sentencingproject.org

project.org/doc/publications/inc_Trends_in_Corrections_Fact_sheet.pdf
وصلنا إليه في 29 أبريل 2014 ؛ مارك ماور وريان كينغ، «مستتق لمدة 25 سنة: The

الحرب على المخدرات وتأثيرها على المجتمع الأمريكي، «مشروع العقوبة (سبتمبر 2007)، 2، متاح على

www.sentencingproject.org/doc/publications/dp_25yearquagmire.pdf

وصلنا إليه في 29 أبريل 2014.

تحظر النساء الفقيرات. . . يحظر القانون الفيدرالي الولايات من تقديم مزايا SNAP، المعروفة سابقًا باسم طوابع الطعام، لأولئك الذين أدينوا بجناية تتعلق بالمخدرات، على الرغم من أن الدول قد تختار إلغاء أو تعديل هذا الحظر. حالياً

اثنان وثلاثون ولاية لديها نوع من الحظر بناء على إدانات المخدرات السابقة، بما في ذلك عشر ولايات لديها حظر دائم. يجوز للولايات أيضاً طرد الأفراد أو منعهم من تلقي مزايا فيدرالية تتعلق بالمساعدة السكنية، سواء من خلال برنامج القسم 8 أو التنسيب في الإسكان العام، بناءً على إدانات المخدرات. ماجي مكارتي، راندي أليسون أوسنبرغ، جين فولك، وديفيد هـ. كاربنتر، «اختبار المخدرات والقيود المتعلقة بالجرائم في SNAP، TANF، والمساعدة في الإسكان،» خدمة أبحاث الكونغرس (17 سبتمبر 2013)،

متاح على www.fas.org/sgp/crs/misc/R42394.pdf

وصلنا إليه في 29 أبريل 2014.

بعض الولايات تجرد الناس بشكل دائم. . . اثنتا عشرة ولاية تحرم بشكل دائم كل أو بعض الجناة، خمسة وثلاثون دولة تحظر الإفراج المشروط عن التصويت، وواحد وثلاثون من هم تحت المراقبة من التصويت. الحكم مشروع «قوانين حرمان الجنايات في الولايات المتحدة» (يونيو 2013)،

متاح على www.sentencingproject.org/doc/publications/fd_Felony%20in%20the%20US.pdf

الحرمان %20the %20in %20US.pdf، وصلنا إليه في 30 أبريل 2014.

نتيجة لذلك، في العديد من الولايات الجنوبية. . . في ألاباما وميسيسيبي وتينيسي، لا يستطيع أكثر من 10% من الأمريكيين الأفارقة التصويت. في فلوريدا وكنتاكي وفرجينيا، لا يمكن لأكثر من واحد من كل خمسة أمريكيين من أصل أفريقي التصويت.

كريستوفر أوغين، سارة شانون، وجيف مانزا، «تقديرات على مستوى الولاية

حرمان فيلون في الولايات المتحدة، 2010،» مشروع الحكم

(يوليو 2012)، متاح على

http://sentencingproject.org/doc/publications/fd_State_Level_Estimates_of_Felon_Disen_2010.pdf

وصلنا إليه في 30 أبريل 2014.

تم تبرئة عشرات الأبرياء. . . أفاد مركز معلومات عقوبة الإعدام أنه تم تبرئة 144 سجيناً ينتظرون تنفيذ حكم الإعدام

منذ عام 1973. «قائمة البراءة»، مركز معلومات عقوبة الإعدام، متوفر في

www.deathpenaltyinfo.org/innocence-list-those-freed-death-row

تم الوصول إليها 25 أبريل 2014.

إطلاق سراح المئات. . . وفقاً لمشروع Innocence،

كان هناك 316 تبرئة DNA بعد الإدانة في الولايات المتحدة.

قضى 18 من السجناء المبرئين بعض الوقت في انتظار تنفيذ حكم الإعدام. مشروع «براءة الحمض النووي على الصعيد الوطني»، مشروع Innocence، متاح على

www.innocenceproject.org / Content / DNA_Exonerations_Nationwide.php

وصلنا إليه في 25 أبريل 2014.

افتراضات الذنب والفقر والتحيز العنصري. . . جون لويس وبريان ستيفنسون، «حالة المساواة والعدالة في أمريكا: افتراض الذنب» واشنطن بوست (17 مايو 2013).

16- الإنفاق على السجون. . . في عام 2010، وهو آخر عام تتوفر فيه إحصاءات حاليًا، كانت تكلفة السجن في أمريكا حوالي 80 مليار دولار. المدعي العام إريك هولدر، خطاب نقابة المحامين الأمريكية (12 أغسطس 2013) ؛

Tracey Kyckelhahn and Tara Martin، Bureau of Justice Statistics، «Justice Justice Expenditure and
ty = pbdetail & iid = 3527» (July 2013)، available at [www.bjs.gov / index.cfm](http://www.bjs.gov/index.cfm?ty=pbdetail&iid=3527)
=4679

وصلنا إليه في 30 أبريل 2014. وبالمقارنة، كان هذا الرقم حوالي 6.9 مليار دولار في عام 1980. مكتب إحصاءات العدل، «العدل مقتطفات الإنفاق والتوظيف - 1980 و 1981 بيانات من السنوي مسوح المالية العامة والتوظيف» (مارس 1985)، متاح على

[www.bjs.gov / index.cfm ?ty = pbdetail & iid = 3527](http://www.bjs.gov/index.cfm?ty=pbdetail&iid=3527)

وصلنا إليه في 30 أبريل 2014.

الفصل الأول: ممثلو الطائر المحاكى

ثلاثة عشر مصنعًا من مصانع اللب والورق الستة عشر في الولاية. . . كونر بيلي، بيتر سينكلير، جون بليس، وكارني بيريز، «أسواق العمل المجزأة في صناعة اللب والورق في ألاباما»، علم الاجتماع الريفى 61، رقم 3 (1996): 475-96.

«النزعة الشريرة للجريمة». . .

(1882) Pace & Cox v. State، 69 Ala. 231، 233.

حظرت ولاية أيداهو الزواج بين الأعراق. . . مكتب التعداد الأمريكي، التعداد الرابع عشر للسكان (واشنطن العاصمة: مكتب الطباعة الحكومي، 1920)

لم يكن حتى عام 1967. . . عندما مرر المجلس التشريعي لولاية فرجينيا قانون النزاهة العنصرية في عام 1924، الذي سمح بالتعقيم القسري للنساء السوداوات لتكون معيبة أو خطيرة وتجريم الزواج بين شخص أسود وشخص أبيض، أخذ الناس في مقاطعة كارولين هذه التصريحات بجدية للغاية و بعد عقود، عندما وقع شاب أبيض ريتشارد لوفينغ، في الحب

مع امرأة سوداء تدعى ميلدريد جيتير، قرر الزوجان الشابان الزواج بعد أن علما أن ميلدريد حامل، ثم ذهبوا إلى واشنطن العاصمة، «للحصول على عقد قانوني»، مع العلم أنه لن يكون هذا ممكن في ولاية فرجينيا. حاولا البقاء بعيدا ولكن عندما شعرا بالحنين إلى الوطن عادا إلى مقاطعة كارولين بعد الزفاف ليكونا بالقرب من عائلتهما. خرجت منهن كلمة عن الزواج، وما هي إلا بضعة أسابيع حتى اقتحم المأمور وعدة نواب مسلحين منزلهما في منتصف الليل لاعتقال ريتشارد وميلدريد بتهمة الخطأ في التكون. وسُجنا وأُذلا و أُجبرا على الإقرار بالذنب وقيل لهما إن عليهما الشعور بالامتنان لتعليق أحكامهما بالسجن طالما وافقا على مغادرة المقاطعة وعدم العودة لمدة «خمسة وعشرين عامًا على الأقل»، ففرا من الدولة مرة أخرى ولكن هذه المرة قررت محاربة القانون في المحكمة مع دعوى قضائية بمساعدة الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية. في عام 1967، بعد سنوات من الهزائم في المحاكم الدنيا، ألغت المحكمة الأمريكية العليا التجاوز الخاطئ للقوانين، معلنا أنها غير دستورية.

«لا يجوز للهيئة التشريعية إصدار أي قانون». . . على الرغم من القيد لا يمكن فرضه بموجب القانون الاتحادي، استمر حظر الدولة على الزواج بين الأعراق ولاية ألاباما في القرن الحادي والعشرين. في عام 2000، حصل الإصلاحيين في النهاية على الأصوات لرفع القضية على مستوى الولاية، حيث أغلبية الناخبين اختاروا إلغاء الحظر، على الرغم من أن 41 % صوتوا لإبقائه، في استطلاع للرأي عام 2011 وجد الجمهوريون في ولاية ميسيسيبي أن 46 % يؤيدون الحظر القانوني على الزواج بين الأعراق، و 40 % يعارضون هذا الحظر، و 14 % لم يقرروا بعد.

قتل ما يقرب من اثني عشر شخصا. . . اسماء الناس تم إعدامهم كما يلي: 13 أكتوبر 1892: بوريل جونز، موسى جونز / جونسون، جيم باكارد، ومجهول واحد (شقيق جيم باكارد). جامعة توسكيجي،

تم الوصول إليه في 30 أبريل 2014 ؛ لورانس أ. غرينفيلد، «السجون وبريس

oners in the United States، «Bureau of Justice Statistics (April 1992)، available at
ty=pbdetail&iid=1392?www.bjs.gov/index.cfm

وجدت إحصاءات مكتب العدل. . . في عام 1978، كان السود أكثر عرضة للقتل بثماني مرات
من تعرض البيض للقتل على أيدي ضباط الشرطة. جودي إم براون وباتريك أ. لانجان، «الشرطة والقتل، 1976-1998: قتل مبرر
من قبل الشرطة، قتل ضباط الشرطة على يد المجرمين» مكتب إحصاءات العدل (مارس 2001)، متاح على
www.bjs.gov/index.cfm?ty=pbdetail&iid=829

تم الوصول إليه في 30 أبريل 2014.

بحلول نهاية القرن العشرين. . . وبحلول عام 1998، كان احتمال تعرض السود للقتل على أيدي الشرطة على الأرجح أكثر أربع
مرات مقارنة بالبيض. براون ولانجان، «الشرطة والقتل، 1976-1998».

ستسوء المشكلة. . . في الولايات التي لديها قوانين «قفوا على الأرض»، زاد معدل جرائم القتل «المبررة» للسود بأكثر من الضعف
بين 2005 و 2011، الفترة التي سن فيها معظم هذه القوانين. كما ارتفع معدل جرائم القتل هذه ضد البيض، ولكن بشكل طفيف فقط،
ومعدل القتل ضد البيض كان أقل بكثير من البداية. «أطلق النار أولاً: «قف على أرضك»

القوانين وتأثيرها على الجريمة العنيفة ونظام العدالة الجنائية، «بيان صحفي مشترك من الرابطة الحضرية الوطنية، رؤساء البلديات
ضد المدافع غير القانونية، و http://nul.iamempowered.com (متاح على (سبتمبر 2013 VoteVets.org

المحتوى / العمد ضد البنادر غير القانونية-الوطنية-الحضرية-الدوري-الناخبين-الإفراج عن-تقرير-عرض-موقف-الوصول إليها،
وصلنا إليه في 30 أبريل 2014.

الفصل الثالث: المحاكمات والمعانة

«سنحتفظ بكل الزنوج». . . ماكمليان ضد جونسون، القضية رقم

12. P. Exh. A-699-N، مذكرة المدعي في مواجهة المدعى عليه

اقتراح الحكم الموجز (1994).

«الساعة 8:40 مساءً شحنة كهرباء ثالثة». . . جلاس ضد لويزيانا، 471 الولايات المتحدة 1080

(1985)، رفض الشهادة. إلى 455 (J. Brennan 1984) (La 659 So.2d، مخالف).

في عام 1987، جميع الأربعين. . . روث فريدمان، «الإحصائيات والموت: الدور الواضح للانحياز العرقي في إدارة عقوبة
الإعدام» بيركلي جورنال من قانون وسياسة الأمريكيين من أصل أفريقي 4 (1999): 75. انظر أيضًا دانييل إل ماكجواير و

John Dittmer، Freedom Freedom: New Perspectives on the Civil Rights Movement (Lexington:
University of Kentucky، 2011).

في عام 1945، أيدت المحكمة العليا قانون ولاية تكساس. . . أكينز ضد تكساس، 325

الولايات المتحدة 398 (1945).

استخدمت 59 هيئة محلفين محلية المتطلبات القانونية. . . ديفيد كول، «الحكم والتمييز» في «لا عدالة متساوية: العرق والطبقة في
أمريكا»

نظام العدالة الجنائية (نيويورك: New Press، 1999)، 31-101.

في السبعينيات، حكمت المحكمة العليا. . . دورن ضد ميسوري، 439 الولايات المتحدة 357

(1979)؛ تايلور ضد لويزيانا، 419 الولايات المتحدة 522 (1975).

في منتصف 1960s، عقدت المحكمة. . . سوين ضد ألاباما، 380 الولايات المتحدة 202 (1965). ممارسة ضرب الجميع. . . «التمييز العنصري غير القانوني في اختيار هيئة المحلفين: إرث مستمر»، مبادرة العدالة المتساوية (2009)، متاحة على

[www.eji.org / files / EJI% 20Race% 20and% 20Jury% 20Report.pdf](http://www.eji.org/files/EJI%20Race%20and%20Jury%20Report.pdf)

وصلنا إليه في 30 أبريل 2014،

الفصل الرابع: الصليب المتين القديم

في 91 % من هذه الحالات. . . «عقوبة الإعدام في ألاباما: تجاوز القاضي» مبادرة العدالة المتساوية (2011)، 4، متاح على

http://ej.org/eji/files/Override_Report.pdf

تم الوصول إليه في 30 أبريل 2014.

ألاباما تنتخب جميع قضاتها. . . بيلي كورير، «الانتخابات القضائية الحزبية وتأثير تشويه الحملة النقدية، مركز التقدم الأمريكي (25 أكتوبر 2012)، متاح على

- القضائية - الانتخابات / الحزبية 42895 / 2012/10/25/ www.americanprogress.org/issues/civil-liberties/report / of-campaign-cash - والتشويه - النفوذ. /

تم الوصول في 8 يوليو 2013.

تجاوزات القاضي قوية بشكل لا يصدق. . . في نوفمبر 2013، كتبت قاضية المحكمة العليا الأمريكية سونيا سوتومايور نقدًا حادًا لألاباما

استمرار استخدام تجاوز قضائي لفرض أحكام الإعدام في معارضة من قرار المحكمة بعدم مراجعة القضية. انضم إليهم القاضي براير، القضاة وجدت عيوب دستورية خطيرة في كل من السياسة المحيطة بالقاضي

تجاوز وطريقة تقويض دور هيئة المحلفين. وودوارد ضد ألاباما (2013).

ليس من المستغرب أن يتجاوز القاضي. . . «عقوبة الإعدام في ألاباما، 5».

غريب كما الممارسة. . . هاريس ضد ألاباما، 513 الولايات المتحدة 504 (1995) ؛ سبازيانو ضد فلوريدا، 468 الولايات المتحدة 447 (1984).

يعاني السيد دانكنز من إعاقات ذهنية. . . انظر بينري ضد لينو ،

492 الولايات المتحدة 302 (1989).

بعد ذلك بثلاث عشرة سنة. . . اتكينز ضد فيرجينيا 304 536 US (2002)، موضحا ذلك توصلنا إلى إجماع وطني ضد إعدام المرضى النفسيين بعد أن تبنت الهيئات التشريعية للولاية قوانين جديدة تحد من الممارسة التالية بنري.

قتلوه. . .

Peter Applebome، «2 Electric Jolts in Alabama Execution» New York Times

(15 يوليو 1989)، متاح على

www.nytimes.com/1989/07/us/2-electric-jolts-in-alabama-executive.html

توصلنا في 30 أبريل 2014 ؛ نرى

أيضا «محاولتان للإعدام تقتلان دانكنز» جادسدن تايمز (14 يوليو 1989) ،
متاح على

id=02cfAAAAIIBAJ&sjid= 3NQEAAAAIIBAJ & pg = 3122/%http://news.google.com/newspapers
2C1675665

توصلنا إليه في 30 أبريل 2014.

قررت المحكمة منع المطالبات. . . روز ضد لوندي، 455 الولايات المتحدة 509 (1982).

رفضت المحكمة الطعن الدستوري. . . ستانفورد ضد كنتاكي، 492 الولايات المتحدة

361 (1989) ؛ بنري، 492 الولايات المتحدة في 305 ؛ قضية مكليسي ضد كيمب، 481 الولايات المتحدة 279 (1987)

8 «هيا نبدأ». . . بريان ستيفنسون، «The Nation»، «The Hanging Judges» (14 أكتوبر 1996)، 12.

«السيد ستيفنسون، أتصل لإعلامك»... ريتشاردسون ضد نيجين 492 الولايات المتحدة 934 (1989).

فكرت في الإعدام الفاشل . . . 2 Jolts in Applebome إعدام ألاباما».

الفصل الخامس: مجيء يوحنا

مقاطعة مونرو «مقاطعة جافة». . . مقاطعة مونرو الآن تقنيا تعتبر «رطبة». وافقت مدينة مونروفيل وفريسكو على قوانين تسمح
ببيع بعض المشروبات الكحولية.

الفصل السادس: محكوم عليه بالفشل

ألاباما لديها المزيد من الأحداث المحكوم عليهم بالإعدام. . . فيكتور ل. ستريب، عقوبة الإعدام للأحداث (بلومغتون: مطبعة جامعة
إنديانا، 1987).

بينما أيدت المحكمة العليا. . . ستانفورد ضد كنتاكي 492 الولايات المتحدة 361 (1989) ؛ طومسون ضد أوكلاهوما، 487
الولايات المتحدة 815 (1988) ؛ تم دمج ويلكنز ضد ميسوري مع قرار ستانفورد.

الفصل السادس: محكوم عليه بالفشل

ألاباما لديها المزيد من الأحداث المحكوم عليهم بالإعدام. . . فيكتور ل. ستريب، عقوبة الإعدام للأحداث (بلومغتون: مطبعة جامعة
إنديانا، 1987).

ينما أيدت المحكمة العليا. . . ستانفورد ضد كنتاكي 492 الولايات المتحدة 361 (1989) ؛ طومسون ضد أوكلاهوما، 487 الولايات
المتحدة 815 (1988) ؛ تم دمج ويلكنز ضد ميسوري مع قرار ستانفورد.

الفصل السابع: إنكار العدالة

وجدنا سجلات المحكمة تكشف. . . جيجليو ضد الولايات المتحدة، 405 الولايات المتحدة 150 (1972) ؛ موني ضد هولوهان،
294 الولايات المتحدة 103 (1935).

أذنت بعض الولايات للأسرة. . . بيغي م. توبولوفسكي، «مشاركة الضحايا في عملية العدالة الجنائية: خمسة عشر عاما بعد مهمة
الرئيس

Force on Victims of Crime «New England Journal on Criminal and Civil Confilement 25 (1999): 21،
available at http://heinonline.org/HOL/Page?handle=hein.journals/nejccc25&div=7&g_sent=1
& collection = journals

وصلنا إليه في 30 أبريل 2014.

سنت ست وثلاثين دولة القوانين. . .

.Booth v. Maryland، 482 US 496، 509n12 (1987)

وافقت المحكمة. . .

Booth v. Maryland، 482 US 496، 506n8

(«نحن منزعجون من ضمنا أن المدعى عليهم الذين كان ضحاياهم أصولا لمجتمعهم يستحقون العقاب أكثر من أولئك الضحايا ينظر إليها على أنها أقل جدارة»).

وقد انتقد قرار المحكمة على نطاق واسع. . . باين ضد تينيسي، الولايات المتحدة

800، 827 (1991) («يجوز للدولة أن تستنتج بشكل مشروع أن الأدلة حول الضحية وتأثير القتل على أسرة الضحية ذات صلة

قرار هيئة المحلفين حول ما إذا كان ينبغي فرض عقوبة الإعدام أم لا»).

وجدت الدول طرق لا تعد ولا تحصى. . . توبولوفسكي، «مشاركة الضحايا»، 95-48.

نفذت بعض الدول عمليات إعدام. . . مايكل لورانس جودوين، عين - حجة ضد السماح لعائلات ضحايا القتل

عرض عمليات الإعدام،

«Brandeis Journal of Family Law 36 (1997: 585)

متاح على

handle=hein.journals/branlaj36&div=38&g_sent = 1 & collection = 'http://heinonline.org/HOL/Page
journals

تم الوصول إليه في 30 أبريل 2014.

قانون ميغان، على سبيل المثال. . . سكوت ماتسون وروكسان ليب، «Megan's»

القانون: مراجعة للتشريعات الولائية والتشريعية، معهد ولاية واشنطن للسياسة العامة (أكتوبر 1997)، متاح على

www.wsipp.wa.gov/rptfiles/meganslaw.pdf

وصلنا إليه في 13 يونيو 2013.

التغطية الصحفية تبطرت الطبيعة الشخصية. . . كريس جرير وروبرت راينر ،

«الفوضى بواسطة: الإعلام والجريمة والعدالة الجنائية» في دليل أكسفورد

علم الجريمة، أد. مايك ماجواير وروندني مورغان وروبرت راينر (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، 2002)، 245-78.

الدراسة التي أجريت لهذه الحالة. . . Kemp، 481 ضد McCleskey الولايات المتحدة 279، 286 (1987)، نقلاً عن ديفيد سي بالدوس وآخرون، «مراجعة مقارنة لحكم الإعدام: دراسة تجريبية لتجربة جورجيا، «مجلة القانون الجنائي و علم الجريمة 74 (1983): 661.

في ألاباما، على الرغم من 65 بالمائة. . . نقابة المحامين الأمريكية، «تقييم الإنصاف والدقة في أنظمة عقوبة الإعدام في الولاية: وفاة ألاباما تقرير تقييم العقوبة» (يونيو 2006)، متاح على

www.americanbar.org / ألاباما / تقييم مشروع / تعليق / مهاجر / أبا / سد / محتوى / تقرير. /authcheckdam.pdf

وصلنا إليه في 14 يونيو 2013.

المدعى عليه الأسود وزوج الضحية البيضاء. . . 481 Kemp ضد McCleskey الولايات المتحدة

286-87، نقلا عن Baldus et al، «مراجعة مقارنة»؛ المحاسبة العامة الأمريكية المكتب، الحكم بعقوبة الإعدام: البحث يشير إلى نمط التفاوت العنصري،

1990، GAO / GGD-90-57 (في 82 في المائة من الدراسات، عثر على عرق الضحية للتأثير على احتمال اتهامه بجريمة الإعدام أو تلقيها عقوبة الإعدام أي أولئك الذين قتلوا البيض كانوا أكثر عرضة أن يحكم عليه بالإعدام من أولئك الذين قتلوا السود)).

الفصل الثامن: أحباب الله

المعدلات العالية بشكل غير عادي. . . يوجد في منطقة مدرسة تشيستر آبلاند غالبًا ما صنف العقدين الماضيين على أنهما الأسوأ في كومونولث بنسلفانيا. جيمس ت. هاريس الثالث، «النجاح وسط الأزمة في تشيستر» Philly.com

(16 فبراير 2012)، متاح على

http://articles.philly.com/2012-02-16/news_1_31067474/school-District -المنهج-الآباء-والأوصياء

وصلنا إليه في 30 أبريل 2014.

ما يقرب من 46% . . . في عام 2012، قدر مكتب الإحصاء ذلك 45.6 في المئة من سكان تشيستر تحت سن الثامنة عشرة يعيشون تحت مستوى الفقر الفيدرالي. مكتب الإحصاء الأمريكي، 2008-2012 مسح المجتمع الأمريكي، مدينة تشيستر، بنسلفانيا.

المدعى عليهم الذين يعتبرون غير أكفاء. . . 50 بنسلفانيا الموحدة النظام الأساسي § 7402.

قانون بنسلفانيا كان غير مرن. . . حتى عام 2012، إذا أدين أي شخص في جرائم القتل من الدرجة الأولى أو الثانية، تلقى تلقائيًا عقوبة السجن المؤبد دون إمكانية الإفراج المشروط. 18 بنسلفانيا النظام الأساسي الموحد § 1102 ؛ 61 قانون بنسلفانيا الموحد § 6137. السجن مدى الحياة بدون إفراج مشروط ممكن، على الرغم من أنه لم يعد إلزاميًا، للأحداث المدانين بجرائم القتل من الدرجة الأولى أو الثانية. 18 النظام الأساسي الموحد بنسلفانيا

§ 1102.1.

«هذه هي الحالة الأكثر حزنًا التي رأيتها على الإطلاق». . . ليليانا سيجورا، «Throwaway

الناس: المراهقون المرسلون للموت في السجن سيحصلون على فرصة ثانية»، «الأمه (مايو 28، 2021)

لجريمة مأساوية ارتكبت في أربعة عشر. . .

«Segura» «Throwaway People» ؛

الكومونولث ضد

.Garnett، 485 A.2d 821 (Pa. Super. Ct. 1984)

لم يكن الأمر كذلك حتى عام 2008 في معظم الدول. . . تبني المكتب الفيدرالي للسجون سياسة في عام 2008 تقيد تكبيل السجينات الحوامل. اتحادي مكتب السجون، «بيان البرنامج: رحلات مرافقة، رقم 5538.05» (أكتوبر 6، 2008)، متاح على

www.bop.gov/policy/progstat/5538_005.pdf

وصلنا إليه في 30 أبريل 2014.

يوجد حاليًا أربع وعشرون ولاية لديها قوانين أو سياسات تمنع أو تقيد تكبيل السجينات الحوامل أو السجينات أثناء الولادة. دانا سوسمان، «ملزمة بالظلم: تحدي استخدام الأغلال على النساء الحوامل السجينات»، مجلة كاردوزو للقانون والنوع 15 (2009): 477 ؛ «حالة

معايير الرعاية الصحية المتعلقة بالحمل والإجهاض للنساء في السجن، اتحاد الحريات المدنية الأمريكية، متاح على

- المعايير المتعلقة بالحمل والرعاية الصحية والإجهاض - النساء - خريطة السجن، تم الوصول إليه في 28 أبريل 2014.
طعن الحارس. . .

Garnett v. Kepner, 541 F. Supp. 241 (MD Pa. 1982).

وهي واحدة من حوالي خمسمائة شخص. . . باولا ريد وارد، «با. تحتفظ المحكمة العليا بشروط حياة الأحداث»، بيتسبرغ بوست-جازيت (30 أكتوبر،

(2013)؛ «حياة الأحداث بدون إفراج مشروط (JLWOP) في بنسلفانيا»، مركز قانون الأحداث، متاح على

<http://jlc.org/current-initiatives/promoting-fairness-courts/juvenile-life-without-parole/jlwop-pennsylvania>

دخلنا إليه في 26 أبريل 2014.

الهيئة الإصلاحية في السجن. . . ميج لافلين، «هل الانفصال معادل؟» تامبا باي تايمز (17 ديسمبر 2006).

حدثا مسجونين في سجون البالغين. . . عند سن قانون القضاء على السجون لعام 2003، وجد الكونغرس أن الأحداث في مرافق الكبار هم أكثر عرضة للاعتداء الجنسي بخمس مرات. 42 جامعة جنوب كاليفورنيا § 15601 (4).

عندما غرق في اليأس. . . لافلين، «هل الانفصال معادل؟»

بحلول عام 2010، حكمت فلوريدا. . . وحكمت فلوريدا على ما مجموعه سبعة وسبعين حدثاً بالسجن مدى الحياة دون إطلاق سراح مشروط لجرائم غير جرائم القتل.

موجز مقدم الالتماس، جراهام ضد فلوريدا، المحكمة العليا الأمريكية (2009)؛ باولو ج. أنينو، ديفيد دبليو. راسموسن، وتشيلسي ب. رايس، حياة الأحداث بدون إطلاق سراح مشروط

الجرائم غير المتعلقة بالقتل: فلوريدا مقارنة بالأمة (2009)، 2، الجدول A.

كان العديد منهم في الثالثة عشرة من العمر. . . حكم على طفلين في الثالثة عشرة من العمر في فلوريدا، بما في ذلك جو سوليفان، بالسجن مدى الحياة بدون الإفراج المشروط عن جرائم غير جرائم القتل. أنينو، راسموسن، ورايس، حياة الأحداث

بدون الإفراج المشروط عن جرائم غير جرائم القتل، الرسم البياني E (2009).

أصغرهم جميعاً. . . «قاسية وغير عادية: الحكم 13- و 14 سنة

أطفال يموتون في السجن، «مبادرة العدالة المتساوية (2008)، متاح على الموقع

http://ejl.org/ejl/files/Cruel%20Unusual%202008_0.pdf و

وصلنا إليه في 30 أبريل 2014.

كان لدى فلوريدا أكبر عدد من السكان. . . الولايات المتحدة هي الدولة الوحيدة في العالم التي تحكم على الأحداث بالموت في السجن بسبب جرائم غير جرائم القتل، وحكمت فلوريدا على هؤلاء المجرمين بالسجن مدى الحياة بدون إفراج مشروط

أي دولة أخرى. أنينو، راسموسن، ورايس، حياة الأحداث بدون إفراج مشروط عن الجرائم غير المميتة، الرسم البياني E.

«كان متحمساً لالتقاط صورته». . . بشأن

Nunez, 173 Cal.App. 709, 4, 720 (2009).

وضع يديه على بندقية. . . بشأن

.Nunez، 173 Cal.App. 709، 720-21 (2009)

أدين العديد من البالغين بالشروع في القتل. . . «الجرائم العنيفة»، إدارة السجون في فلوريدا، متاح على

www.dc.state.fl.us/pub/timeserv/section2.html السنوي

وصلنا إليه في 9 يناير 2014 ؛

Patrick A. Langan، «Felony Sentences in State Courts، 2004» Bureau of و Matthew R. Durose
Justice Statistics (July 2007)، available at www.bjs.gov/content/pub/pdf/fssc04.pdf

«حالة حكم المحكمة على الجناة المدانين 2004 - جداول إحصائية، «مكتب إحصاءات العدل (2007)، متاح على

www.bjs.gov/content/pub/html/scscf04/scscf04mt.cfm

وصلنا إليه في 10 يناير 2013.

على سبيل المثال، في السمعة. . . جيمس جودمان، قصص سكوتسبرو (نيويورك: بانثيون بوكس، 1994)، 8.

في غضون ساعات من الإعلان. . . ديفيد إ. بروك، «تنفيذ القتل المراهقين مرة أخرى: البالغ من العمر 14 عامًا الذي كان صغيرًا جدًا في الكرسي»، واشنطن بوست (15 سبتمبر 1985).

على الرغم من مناشدات NAACP. . . بروك، «تنفيذ القتل المراهقين مرة أخرى».

شاهدًا على الإعدام. . . بروك، «تنفيذ القتل المراهقين مرة أخرى».

في الآونة الأخيرة، إطلاق جهد. . . أفراد عائلة جورج ستيني يبحثون الآن عن محاكمة جديدة أو تبرئة لـ ستيني من خلال نظام المحاكم. عقدت جلسات الاستماع في محكمة ساوث كارولينا في يناير 2014. آلان بليندر، «عائلة صبي في كارولينا الجنوبية يقتل حتى يطلب تبرئة بعد 70 سنة»

نيويورك تايمز (22 يناير 2014) ؛ اليوت سي ماكلولين، «محاكمة جديدة مطلوبة لجورج ستيني، تم تنفيذها في 14»، CNN.com (23 يناير 2014).

تنبأ 159 من علماء الإجرام المؤثرين. . . باستخدام لغة «المفترس الفائق» بشكل شائع بالتزامن مع التنبؤات الرهيبة بحدوث زيادة كبيرة في جرائم الأحداث العنيفة أو على وشك الحدوث. انظر مكتب قضاء الأحداث ومنع الانحراف، وزارة العدل الأمريكية، «قضاء الأحداث: (أ) قرن التغيير» (1999)، 4-5، متوفر على

www.ncjrs.gov/pdffiles1/ojridp

178993. ماذا تفعل مع الخراف في ملابس، «Sacha Coupet» في 30 أبريل 2014. انظر، على سبيل المثال، ، وصلنا إليه pdf
مراجعة قانون جامعة بنسلفانيا 148 حول المخالفين من الشباب في تفكيك البناء لنظام قضاء الأحداث، «الذئب: دور البلاغة والواقع
Laura A. Bazelon (2000): 1303، 1307 ؛ ، «تفجير أسطورة المفترس: لماذا الطفولة هي مرحلة ما قبل المراهقة»

جائزة أفضل دفاع في محكمة الأحداث، «مراجعة قانون جامعة نيويورك 75 (2000): 159.

تم ترميز الكثير من الصور المخيفة عنصرًا ؛ انظر، على سبيل المثال،

John J. DiIulio، «My Black Crime Problem، and Ours» City Journal (Spring 1996)، available

في www.city-journal.org/html/6_2_my_black.html، وصلنا إليه في 30 أبريل 2014

(«270.000 مفترس شاب في الشوارع أكثر مما كان عليه في عام 1990، قادمون لنا في موجات على مدى العقدين المقبلين. . . ما يصل إلى نصف هؤلاء الأحداث يمكن أن يكون المفترسون من الذكور السود الشباب») ؛ وليام ج. بينيت، جون ج.

الأخلاقي - وكيفية كسب حرب أمريكا ضد الجريمة والمخدرات (نيويورك: عدد الجسد: الفقر John P. Walters و DiIulio Jr

27-28، (Simon and Schuster، 1996)

في بعض الأحيان تركز صراحة على الأسود. . . Weekly «Coming of the Super-Predators» John J. DiIulio Jr. Standard (27 نوفمبر 1995)، 23.

159- الذعر من الجريمة الوشيكة. . . 27، Body Count، Bennett، DiIulio، and Walters. أنظر أيضا مكتب قضاء الأحداث ومنع الانحراف، «قضاء الأحداث».

160- ازداد عدد الأحداث في أمريكا. . . انظر، على سبيل المثال، إليزابيث بيكر، «كمنظرة سابقة على الشباب، Superpredators، A19»، نيويورك تايمز (9 فبراير 2001)، Bush Aide Has Regrets.

في عام 2001، الجراح العام. . . الجراح العام الأمريكي، عنف الشباب: تقرير الجراح العام (2001)، الفصل 1، متاح على

[/www.ncbi.nlm.nih.gov](http://www.ncbi.nlm.nih.gov)

كتب / A12312 / # NBK44297، وصلنا إليه في 30 أبريل 2014 ؛ انظر أيضًا وزارة العدل الأمريكية، مكتب قضاء الأحداث ومنع الانحراف، «التحدي الأساطير» (2001)، 5، متاح على

30A أبريل / نيسان 2014 (»)، وصلنا إليه في [\[www.ncjrs.gov/pdffiles1/ojdp/178995.pdf\]](http://www.ncjrs.gov/pdffiles1/ojdp/178995.pdf) يؤدي تحليل اعتقالات جرائم قتل الأحداث أيضًا إلى

استنتاج مفاده أن المفترسين الأحداث هم أكثر أسطورة من الواقع (»).

قررنا نشر تقرير. . . «قاسية و استثنائية».

الفصل التاسع: أنا هنا

«أنا، يمكنني أن أنظر ببساطة».

McMillian v. Alabama، CC-87-682.60

شهادة رالف مايرز خلال جلسة استماع القاعدة 32، 16 أبريل 1992.

الفصل العاشر: التخفيف

في الستينيات والسبعينيات. . . في هذه العقود، شددت الإصلاحات التشريعية والقضائية الإجراءات التي بموجبها يخضع الأفراد للالتزام غير الطوعي. ستانلي إس هير، وستيفن أرونز، وريتشارد إي والاس جونيور، العقلية القانونية ورعاية الصحة ights (Lexington، MA: Lexington Books، 1983). في عام 1978، رفعت المحكمة العليا في الولايات المتحدة العبء على الولايات التي تسعى إلى جعل الأفراد ملتزمين بشكل غير إرادي بمستشفيات الصحة العقلية من مستوى «رجحان الأدلة» المنخفض إلى معيار «أدلة واضحة ومقنعة» أكثر صعوبة. أدينجتون ضد تكساس، 441 الولايات المتحدة 418 (1978).

اليوم، أكثر من 50% من السجن. . .

Doris J. James and Lauren E. Glaze «Mental Health Problems of Prison and Jail Inmates» Report Special، Bureau of Justice Statistics (September 2006)، available at <http://bjs.gov/content/pub/pdf/mhppji.pdf>

وصلنا إليه في 2 يوليو 2013. هذا الرقم ينقسم إلى 56% من سجناء الولاية، و 45% من السجناء الفيدراليين، و 64% من سجناء السجون المحلية. في المجموع، يمثل هذا ما يقدر بـ 1,264,300 نزيل. هذه الدراسة هي الدراسة الأكثر شمولاً المتاحة، ومع ذلك أجريت في عام 2005، لذلك ربما تغيرت الأرقام في السنوات الأخيرة. ومع ذلك، لا تزال المصادر الحالية (2012-2013) تستشهد بهذه الدراسة، لذلك أشعر بالراحة لاستنتاج أنها لا تزال المصدر الأكثر شمولاً وحداثة حول هذا الموضوع.

تقريباً واحد من كل خمسة سجون. . . تشمل فئة «المرض العقلي الخطير» الفصام، اضطراب الفصام، اضطراب الفصام العاطفي،

اضطراب ثنائي القطب، اضطراب ذهاني قصير، اضطراب وهمي، واضطرابات ذهانية غير محددة. ويتميز هذا عن فئة «المرض العقلي» الأكثر عمومية والتي تشمل مرضًا نفسيًا خطيرًا أيضًا

أشكال أخرى من المرض العقلي. دون إيسلينجر، ريتشارد لامب، وجيمس بافل، «المزيد من. فولر توري، آرون د. كينارد، E الدفاع عن العلاج (مايو بأمراض عقلية في السجون والسجون من المستشفيات: مسح للولايات،» مركز الأشخاص المصابين [www.treatmentadvocacycenter.org/storage](http://www.treatmentadvocacycenter.org/storage/documents/final_jails_v_hospitals_study.pdf) (2010)، متاح على /

documents / final_jails_v_hospitals_study.pdf، زرنا الموقع في 2 يوليو 2013.

في الواقع، هناك أكثر من ثلاثة. . . Torrey et al. «المزيد من المرضى العقليين»، 1.

بدأوا في الشجار مع بعضهم البعض. . . نوقش النزاع في مناشدات جورج اللاحقة. دانيال ضد الدولة، 459 (Ala. 2d 944 So. 2d 944 (Ala. 459، 1984)، Crim. App.

(1984)؛ دانيال ضد ثيجين، MD 742 (F. Supp. 1535 (1990). علاء.

أدين جورج. . . دانيال ضد الدولة، 459 (Ala. Crim. App. 1984) So. 2d 944 (Ala. 459، 1984).

فزنا في النهاية بحكم موات. . . دانيال ضد ثيجين، MD 742 (F. Supp. 1535 (1990). علاء.

أعلن يوم الذكرى الكونفدرالية عطلة رسمية. . . احتفل بيوم الذكرى الكونفدرالية لأول مرة في ألاباما في عام 1901. انظر تقويم العالم والموسوعة 1901 (نيويورك: Press Publishing Co.، 1901)، 29؛ «الكونفدرالية

يوم الذكرى، «موسوعة ألاباما، متاح على www.encyclopediaofalabama.org/face/Article.jsp?id=h-1663 وصلنا إليه في 28 أبريل 2014. تبقى العطلة في رمز الولاية اليوم. علاء، رمز § 1-3-8.

عندما عاد قدامى المحاربين السود. . . ذكر منهاج 1948 لحزب ديكسيكرات، جزئياً: «نحن ندعم الفصل بين الأعراق والسلامة العرقية لكل عرق. الحق الدستوري في اختيار المنتسبين؛ لقبول العمل الخاص دون تدخل حكومي، وكسب لقمة العيش

بأي طريقة قانونية. نحن نعارض القضاء على الفصل، وإلغاء التشريعات الخاطئة، ومراقبة العمالة الخاصة من قبل البيروقراطيين الاتحاديين دعا إليها برنامج الحقوق المدنية المسمى». «منهاج حقوق الدول الحزب الديمقراطي، 14 أغسطس 1948، «مشروع الرئاسة الأمريكية، متاح على www.presidency.ucsb.edu/ws/index.php?pid=25851#axzz1iGn93BZz، وصلنا إليه في 28 أبريل 2014.

في الواقع، كان ذلك في الخمسينيات. . . ألاباما وجورجيا وساوث كارولينا كلها بدأ في رفع علم المعركة الكونفدرالية في معارضة رمزية لبراون قرار. جيمس فورمان جونيور، «قيادة ديكسي للأسفل: إزالة الكونفدرالية

علم من كابيتولس جنوب الولاية،» 505 (1991) Yale Law Journal 101.

فزنا في النهاية بحكم موات. . . دانيال ضد ثيجين، MD 742 (F. Supp. 1535 (1990). علاء.

أعلن يوم الذكرى الكونفدرالية عطلة رسمية. . . انظر تقويم العالم والموسوعة 1901 (نيويورك: Press Publishing Co.، 1901)، 29؛ «الكونفدرالية

يوم الذكرى، «موسوعة ألاباما، متاح على www.encyclopediaofalabama.org/face/Article.jsp?id=h-1663، تم الوصول إليه في 28 أبريل 2014. تبقى العطلة في رمز الولاية اليوم. علاء، رمز § 1-3-8.

عندما عاد قدامى المحاربين السود. . . ذكر منهاج 1948 لحزب ديكسيكرات، جزئياً: «نحن ندعم الفصل بين الأعراق والسلامة لكل عرق. الحق الدستوري في اختيار المنتسبين؛ لقبول العمل الخاص دون تدخل حكومي، وكسب لقمة العيش

بأي طريقة قانونية. نحن نعارض القضاء على الفصل، وإلغاء التشريعات الخاطئة، ومراقبة العمالة الخاصة من قبل البيروقراطيين الاتحاديين

دعا عليها برنامج الحقوق المدنية المسمى «». منهاج حقوق الدول
الحزب الديمقراطي، 14 أغسطس 1948، «مشروع الرئاسة الأمريكية، متاح على
www.presidency.ucsb.edu/ws/index.php?pid=25851#axzz1iGn93BZz

وصلنا إليه في 28 أبريل 2014.

في الواقع، كان ذلك في الخمسينيات. . . ألاباما وجورجيا وساوث كارولينا كلها
بدأ في رفع علم المعركة الكونفدرالية في معارضة رمزية لبراون قرار. جيمس فورمان جونيور، «قيادة ديكسي للأسفل: إزالة
الكونفدرالية

علم من كابيتولس جنوب الولاية، «505: 101 (1991) Yale Law Journal.

الفصل الحادي عشر: ساحلق بعيداً

في حكم تاريخي، نيويورك تايمز ضد سوليفان. . . نيويورك تايمز كو ضد سوليفان، 376 الولايات المتحدة 254 (1964).
عندما أُلقي القبض عليه لأول مرة. . . أبرزت العديد من الصحف المحلية تهمة اللواط. ماري ليت، «مكميليان مسؤول عن اللواط»،
مجلة مونرو

(18 يونيو 1987)؛ «مايرز ملفات اللواط اتهامات ضد مكميليان»، «إيفرجرين

كورانت (18 يونيو 1987)؛ بوب فوربيش، «اتهامات بقتل ملفات اللواط ضد شريكه»، «بروتون ستاندرد (13-14 يونيو 1987).

«أولئك الذين يدخلون قاعة المحكمة». . . ديان شو، «حكم على مكميليان بالموت»، «مونرو جورنال (22 سبتمبر 1988).

على الرغم من كل الأدلة. . . في نفس اليوم نشرت مقالا عن جلسات الاستماع الجارية في قضية مكميليان، ذكر Mobile Press
Register القراء في مقال آخر أن والتر مكميلان قد اعتقل واتهم بقتل بيتمان. كوني باجيت، «روندا لم تكن فتاة فقط قتلت»، موبيل
تسجيل صحفي (5 يوليو 1992). كما ذكر مقال في مجلة مونرو حول إجراءات مكميلان ولائحة اتهامه في جريمة قتل بيتمان.

مارلين هاندلي، «شريط حول جريمة القتل في جلسة الاستماع لأول مرة»، «مونرو جورنال (23 أبريل 1992).

«قاتل مدان مطلوب في إيست بروتون». . . «القاتل المدان مطلوب في جريمة قتل طالب EB»، «بروتون ستاندرد (22 أغسطس
1988).

«كان مايرز وماكميلان جزءاً». . . كوني باجيت، «القتل الشنيع يترك الأسئلة»، Mobile Press Register (5 يوليو 1992).

«الكثير من هؤلاء الكتاب [من خارج المدينة]». . . افتتاحية، «60 دقيقة تأتي إلى المدينة»، «مونرو جورنال (25 يونيو 1992).

أضافت 212 ذا جورنال أن تشابمان عرض. . . مارلين هاندلي، «CBS تفحص قضية القتل»، مجلة مونرو (8 يوليو 1992).

اشتكى الكتاب المحليون. . . كوني باجيت، «Mobile Press Register مكميلان» عار، «: حساب تلفزيوني لإدانة DA (24
نوفمبر 1992).

اقتراح المدعي العام. . . اقتراح من دولة لعقد قضية في Abance، McMillian v. State، 616 So. 2d 933 (Ala. Crim. App. 1993)، مقدم في 3 فبراير، 1993.

لكن هافيل قال إن هذه. . . فانسلاف هافيل، «لا تأمل أبداً في مواجهة الأمل»، Esquire (أكتوبر 1993)، ص 68.

الفصل الثاني عشر: الأمهات

كوك، التي عملت في المدرسة الابتدائية. . . الدولة ضد كولبي، 2007م

7268919 (Ala. Cir. Ct. 2007) (رقم 538-2005)، 824.

كان انيستيك تاريخاً قبل الأوان. . . الدولة ضد كولبي، 2007، 1576.

قام أخصائي الأمراض بعد ذلك بإجراء تشريح للجنة. . . الدولة ضد كولبي، 2007 ،
1511-21.

لم تستنتج فقط. . . الدولة ضد كولبي، 2007، 1584.

في الواقع، معظم النساء على الصعيد الوطني. . . «ملخصات حالة للإناث الحالية السجينات المحكوم عليهن بالإعدام». مركز
معلومات عقوبة الإعدام، متاح على

/ www.deathpenaltyinfo.org

ملخصات الحالات - السجينات الحاليات - المحكوم عليهن بالإعدام، وصلنا إليها في 13 أغسطس 2013.

وشهدت أن استنتاجها. . . الدولة ضد كولبي، 2007، 1585.

شهد الدكتور ماكنالي أن السيدة كولبي. . . الدولة ضد كولبي، 2007، 1129، 1133.

استنتاج انيستيك كان. . . الدولة ضد كولبي، 2007، 1607.

دخل 232 من محققى الشرطة منزلها. . . الدولة ضد كولبي، 2007، 1210، 1271، 1367.

حافظت السيدة كولبي باستمرار. . . الدولة ضد كولبي، 2007، 1040، 1060.

رفضت السيدة كولبي عرض الدولة. . . سجل تكميلي في قضية ضد 155 Colbey.

دعت مجلة 232 تايم النيابة. . . جون كلاود، «كيف أصبحت قضية Casey Anthony Murder قضية محاكمة وسائل الإعلام
الاجتماعية للقرن،» تايم (16 يونيو 2011)

تجريم وفيات الرضع. . . هذه الظاهرة المتمثلة في اتهام النساء، ولا سيما النساء الفقيرات والنساء الملونات، اللواتي يلدن مولوداً ميتاً
أو الأطفال الذين يعيشون لفترة قصيرة فقط، تبدو الآن شائعة مراقب عرضي للأحداث الجارية. ميشيل أوبرمان، «التحكم في الحمل
وتجريم الإنان»، مجلة بيركلي للنوع والقانون والعدالة 7 (2013): 1 ؛ أدا كالهون، «تجريم الأمهات السيئات»، نيويورك تايمز
(25 أبريل 2012).

قادت هذه المعلومات الجديدة المدعي العام. . . ستيفاني تابلور، «تم تجاهل تهمة القتل في 2006 وفاة حديثي الولادة»، أخبار
توسكالوسا (9 أبريل 2009).

لقد ربحنا حريتها بعد التأسيس. . . كارلا كراودر، «1077 يوماً لاحقاً، التشابك القانوني ينتهي ؛ المرأة الحرة «برمنغهام نيوز (18
يوليو 2002).

في الوقت المناسب، المحكمة العليا في ألاباما. . . Ex parte Ankrom، 2013 WL 135748

(علاء 11 يناير 2013) ؛ Ex parte Hicks، رقم 1110620 (علاء 18 أبريل 2014).

وأشار بعض المحلفين أنهم وجدوا. . . سجل تكميلي، الدولة ضد 552، 519-20، 516-17، 2007، Colbey.

كشف العديد منهم عن فعل ذلك. . . سجل تكميلي، الدولة ضد 2007، Colbey،

649، 426-27.

235 اعترف محلف آخر بالثقة. . . سجل تكميلي، الدولة ضد كولبي،

2007، 674.

تقريباً 75 إلى 80 بالمائة. . . أنجيلا هاتاري وإيرل سميث، سجين

إعادة الدخول ورأس المال الاجتماعي: الطريق الطويل نحو إعادة الإدماج (Lanham، MD: Lexington، 2010).

الفصل الرابع عشر : قاسية واستثنائية

أجبر جو على القول في المحكمة. . .

محامي الدفاع: حسنًا. إذا لم تتمكن من تحديد هويتي، فربما لن أقتلك.

المدعى عليه: إذا لم تتمكن من تحديد هويتي، ربما لن أقتلك.

شاهد: يبدو - هناك نغمة في صوتك مثل هذا، فقط

قلت ذلك بصوت عال جدا لي في ذلك الوقت بطريقة محاربة.

المدعى: لا أريد أن أتجادل في ذلك. هل تستطيع أن تقول أن هذا هو

صوت الشخص؟

شاهد: هناك نغمة في ذلك الصوت تجعلني أعرف ذلك الشخص.

المدعى: إذن أنت تقول أن الشخص الذي تحدث إليك للتو هو الشخص الذي قال لك هذا ذلك اليوم؟

شاهد: يبدو وكأنه صوت.

المدعى: حسنًا.

شاهد: لقد مرت ستة شهور. إنه صعب، لكنه يبدو مشابهًا. ولكنها

قال بطريقة مختلفة: «انظر، النغمة» - قال لي محاربا بصوت عال.

Tr. أنا 88-86 (التأكيد مضاف)

على الرغم من أسباب عديدة محتملة الجدارة. . . انظر أندرس ضد كاليفورنيا، 386 الولايات المتحدة 738، 744 (1967). وأكدت
المذكرة أن المحامي لا يمكنه أن يرى أي قضايا تستحق النظر في الاستئناف.

«زيادة سريعة وكبيرة». . . موجز مقدم الالتماس، سوليفان ضد فلوريدا، المحكمة العليا الأمريكية (2009). تشارلز جيبير وبياتريز
لونا، «نضج المعالجة التحفيزية والتحكم المعرفي» علم الأدوية والكيمياء الحيوية والسلوك 93 (2009): 212 ؛ انظر أيضًا L. P. Spear،
«الدماغ المراهق والمظاهر السلوكية المتعلقة بالمرء»، علم الأعصاب والمراجعات السلوكية الحيوية 24

(2000): 417 («إن الاندماج هو في جوهره، فترة انتقالية وليست لحظة تحقيق»). ؛ أيضا 434 (مناقشة التغيرات الهرمونية
الجنسية في مرحلة المراهقة). Laurence Steinberg et al.، «الفروق العمرية في البحث عن الإحساس والانفعال كما هي
مفهرسة حسب السلوك والتقرير الذاتي»، علم النفس التطوري 44 (2008): 1764؛ لورنس شتاينبرغ، «تتمية المراهقين والأحداث
العدل»، المراجعة السنوية لعلم النفس العيادي 5 (2009): 459، 466.

جادلنا في المحكمة أنه بالنسبة لـ. . . انظر B. Luna، «نضج التحكم المعرفي ودماغ المراهق»، من الانتباه إلى الهدف الموجه

السلوك، أد. F. أبوويت ود. كوزميلي (نيويورك: سبرينغر، 2009)، 249، 252-56

(الوظائف المعرفية التي تكمن وراء صنع القرار لم يتم تطويرها في وقت مبكر

المراهقون: لا تصل سرعة المعالجة وتنشيط الاستجابة والذاكرة العاملة

النضج حتى حوالي الخامسة عشرة من العمر) ؛ إليزابيث كوفمان ولورانس شتاينبرغ، «(Im) نضج الحكم في مرحلة المراهقة:
لماذا المراهقين مايو كن أقل إدانة من البالغين، «العلوم السلوكية والقانون 18 (2000): 741، 756

(مكاسب كبيرة في النضج النفسي والاجتماعي تحدث بعد سن السادسة عشرة) ؛

ليون مان وآخرون، «اتخاذ قرارات المراهقين»، مجلة المراهقة 12

(1989): 265، 70-267 (في الثالثة عشرة من العمر يظهرون معرفة أقل، واحترام أقل للذات

كصناع قرار، ينتجون خيارات أقل للاختيار، وهم أقل ميلاً للتفكير

عواقب من سن الخامسة عشرة) ؛ جاري إريك نورمي، «كيف يفعل المراهقون

ترى مستقبلهم؟ استعراض لتطور التوجه المستقبلي

التخطيط، «مراجعة 12، 1: Developmental 11 (1991) (التخطيط على أساس توقعي

المعرفة وتعريف المشكلة واختيار الإستراتيجية المستخدمة بشكل متكرر من قبل

المراهقين الأكبر سناً من الشباب).

270 «منتجات البيئة» . . سوليفان ضد فلوريدا، ملخص الملتمس ،

قدم 16 يوليو 2009.

مذنبون أحداث سابقون أصبحوا فيما بعد . . نبذة عن الحدث السابق

الجنة تشارلز داتون، السناطور السابق آلان ك. سيمبسون، ر. دواين بيتس، لويس

رودريغيز، تيري كاي راي، ت. ج. بارسل، وإسماعيل بيه في دور أميسي كورباي في الدعم

من الملتسمين، جراهام ضد فلوريدا / سوليفان ضد فلوريدا، المحكمة العليا الأمريكية (2009).

الفصل الخامس عشر: الإنكسار

أفرج عن جيمس «بو» كوكران. . .

Cochran v. Herring، 43 F.3d 1404 (الدورة الحادية عشرة، 1995).

280 - ولكن بعد ذلك ببضع سنوات، كانت معدلات الإعدام. . . «حقائق حول عقوبة الإعدام». مركز معلومات عقوبة الإعدام (2 مايو 2013)، متاح على

www.deathpenaltyinfo.org / FactSheet.pdf

تم الدخول إليه في 31 أغسطس 2013.

بحلول عام 2010، عدد عمليات الإعدام السنوية. . . كان هناك 46 عملية إعدام في

2010 مقارنة بـ 98 في 1999. «عمليات الإعدام حسب السنة منذ 1976»، مركز معلومات عقوبة الإعدام، متاح على

www.deathpenaltyinfo.org/executions-year ،

وصلنا إليه في 29 أبريل 2014.

نيو جيرسي، نيويورك، إلينوي. . . قانون 2 مايو 2013، الفصل. 156، 2013 ميريلاند

القوانين ؛ قانون 25 أبريل 2012، حانة. القانون رقم 5-12 لعام 2012 بشأن قوانين ولاية كونيتيكت (Reg. Sess) ؛

إلينوي كومب. ستات. 5 / 1-119 (2011) ؛ قانون 18 مارس 2009، الفصل. 11، 2009 جديد

قوانين المكسيك ؛ قانون 17 ديسمبر 2007، الفصل. 204، 2007 قوانين نيو جيرسي.

حتى في ولاية تكساس، حيث ما يقرب من 40 % . . في عام 2010، حُكم على ثمانية أشخاص بالإعدام في تكساس، بعد الاتجاه الأخير في الولاية من ثمانية إلى أربعة عشر حكمًا بالإعدام سنويًا. في التسعينيات، مع ذلك، حكمت تكساس بشكل روتيني بين أربعة وعشرين وأربعين شخصًا حتى الموت كل عام. «أحكام الإعدام في الولايات المتحدة من عام 1977 من قبل الدولة والسنة، «معلومات عقوبة الإعدام

المركز، متاح على

www.deathpenaltyinfo.org/death-sentences-united-states-1977-2008

وصلنا إليه في 31 أغسطس 2013

1- معدل عقوبة الإعدام في ألاباما. . . «تستمر معدلات عقوبة الإعدام وتنفيذ الأحكام في ألاباما في الارتفاع في البلاد،» مبادرة العدالة المتساوية (3 فبراير 2011)، المتاحة على www.eji.org/node/503، وصلنا إليها في 31 أغسطس 2013.

حكمت المحكمة بالإجماع لصالحنا. . . نيلسون ضد كامبل 541 الولايات المتحدة 637 (2004).

كانت العديد من الدول تستخدم المخدرات. . . تاي ألبر، «تخدير الضمير العام: الحقنة المميّنة والقتل الرحيم للحيوان»، مجلة فوردهام أوران للقانون 35

(2008): 817.

عندما انتشر الخبر أن المخدرات. . . في أوائل عام 2011، هوسبير، وشركة المنتج الأمريكي الوحيد لعقار حقن الصوديوم القاتل ثيوبنتال، توقف إنتاج الدواء بسبب مخاوف من استخدامه في الحقن المميّنة. ناثان كوبيل،

«المخدرات توقف تنفيذ أحكام الإعدام في الهند»، وول ستريت جورنال (22 يناير / كانون الثاني،

2011). وبالمثل، توقفت شركة للسجون في الولايات التي تنفذ pentobarbital بيع عقار الإعدام الدنماركية عن Lundbeck Whalen الإعدام. جين عقوبة

و «Lundbeck» Nathan Koppel تسعى للحد من استخدام المخدرات في عمليات الإعدام»، الجدار ستريت جورنال (1 يوليو 2011).

مداهمة منشآت إصلاحية تابعة للدولة. . . كاثي لوهر، «جورجيا مايو

لديك قانون مكسور عن طريق استيراد المخدرات،» NPR (17 مارس 2011)، متاح على

www.npr.org/2011/03/17/134604308/dea-georgia-may-have-broken-law-by-importing-lethal-injection-drug، وصلنا إليه في 31 أغسطس 2013 ؛ ناثان كوبيل،

«دولتان تسلمان دواء إعدام إلى الولايات المتحدة»، وول ستريت جورنال (2 أبريل / نيسان، 2011)، متاح على

<http://online.wsj.com/article/SB10001424052748703806304.576236931802889492.htm>

وصلنا إليه في 31 أغسطس 2013.

المحكمة الأمريكية العليا، في قضية بيز ضد ريس. . . بيز ضد ريس، 553 الولايات المتحدة 35 (2008)

الفصل السادس عشر: القابضون على الأحجار أغنية الحزن

في 17 مايو 2010، كنت جالسًا. . . جراهام ضد فلوريدا، 560 الولايات المتحدة 48 (2010).

بعد ذلك بعامين، في يونيو 2012. . . 132 S. Ct. 2455، Miller v. Alabama (2012).

اختيرت هيئة المحلفين بشكل غير قانوني. . .

Shaw v. Dwyer، 555 F. Supp. 2d 1000 (د.مو 2008).

أعطيت إلزامية. . . Banyard v. State، 47 So. 3d 676 (ملكة جمال 2010).
وأكدت المحكمة على المحكمة الابتدائية. . . إيفانز ضد الدولة، 109 هكذا. d 10443
(ملكة جمال 2013).

أعتقد أن هناك أربع مؤسسات. . . اليكس كارب، «المشي مع

Wind: Alex Carp مقابلات Bryan Stevenson«Guernica، (17 مارس 2014)
متاح على www.guernicamag.com/interviews/walking-with-the-wind

وصلنا إليه 30 أبريل 2014.

كان علي العودة إلى محكمة الاستئناف. . .

People v Nunez، 195 Cal.App. 4 404

(2011).

ولكن لإكراه اعتراف منه. . .

State v. Carter، 181 So. 2d 763

(رقم 1965)

سيرة المترجمة

ناهد رطروط:

درّست لغة انجليزية و ترجمة في الجامعة السعودية الإلكترونية، خريجة ٢٠١٩، حباها الله من فضله موهبة جميلة في الكتابة، حيث كتبت في عدة مواقع الكترونية وحاليا تكتب في جريدة إلكترونية وتُنشر لها مقالات من خلالها إلى جانب الترجمة مجال دراستها.



Nahedratrout@gmail.com



@RatroutNahed